

المجلد السابع من كتاب أضواء البيان

تفسير سورة ص

{ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ *
كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَىٰ غَيْبَاتٍ * وَعَجِبُوا
أَن جَاءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ * أَجَعَلَ
الْإِلٰهَةَ إِلٰهًا وَّحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ * وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَن
أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا
بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِتِلَاقٌ * أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن
بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ * أَمْ عِنْدَهُمْ
خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ
مِّنَ الْأَحْرَابِ }

قوله تعالى: { وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } . قرأه الجمهور
بالسكون منهم القراء السبعة، والتحقيق أن ص من الحروف
المقطعة في أوائل السور كص في قوله تعالى { الْقَصْرِ } ، وقوله
تعالى: { هَيْحَرَ } .

وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل
السور في أول سورة هود، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.
وبذلك التحقيق المذكور، تعلم أن قراءة من قرأ حَرَ بكسر الدال
غير منونة، ومن قرأها بكسر الدال منونة، ومن قرأها بفتح الدال،
ومن قرأها بضمها غير منونة، كلها قراءات شاذة لا يعول عليها.
وكذلك تفاسير بعض العلماء المبنية على تلك القراءات، فإنها لا
يعول عليها أيضاً.

كما روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: إن صاد بكسر
الدال فعل أمر من صادى يصادي مصاداة إذا عارض، ومنه الصدى.
وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الصلبة الخالية من الأجسام،
أي عارض بعملك القرآن وقابله به، يعني امتثل أوامره واجتنب
نواهيه واعتقد عقائده واعتبر بأمثاله واتعظ بمواعظه.
وعن الحسن أيضاً: أن ص بمعنى حدث وهو قريب من الأول.
وقراءة ص بكسر الدال غير منونة: مروية عن أبي بن كعب،
والحسن وابن أبي إسحاق وأبي السمال وابن أبي عيلة ونصر بن
عاصم.

والأظهر في هذه القراءة الشاذة، أن كسر الدال سببه التخفيف
لالتقاء الساكنين وهو حرف هجاء لا فعل أمر من صادى.

وفي رواية عن ابن أبي إسحاق، أنه قرأ {ص} بكسر الدال مع التنوين على أنه مجرور بحرف قسم محذوف، وهو كما ترى، فسقوطه ظاهر.

وكذلك قراءة من قرأ {ص} بفتح الدال من غير تنوين، فهي قراءة شاذة والتفاسير المبنية إليها ساقطة.
كقول من قال: صاد محمد قلوب الناس واستمالهم حتى آمنوا به.
وقول من قال: هو منصوب على الإغراء.
أي الزموا صاد، أي هذه السورة، وقول من قال معناه اتل، وقول من قال: إنه منصوب بنزع الخافض، الذي هو حرف القسم المحذوف.

وأقرب الأقوال على هذه القراءات الشاذة، أن الدال فتحت تخفيفاً لالتقاء الساكنين، واختير فيها الفتح إبتاعاً للصاد، ولأن الفتح أخف الحركات، وهذه القراءة المذكورة قراءة عيسى بن عمر، وتروى عن محبوب عن أبي عمرو.
وكذلك قراءة من قرأ صاد بضم الدال من غير تنوين، على أنه علم للسورة، وأنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير هذه صاد وأنه منع من الصرف للعلمية والتأنيث لأن السورة مؤنثة لفظاً.
وهذه القراءة مروية عن الحسن البصري وابن السميعة وهارون الأعور.

ومن قرأ صاد بفتح الدال قرأ: ق، ون كذلك، وكذلك من قرأها {ص} بضم الدال فإنه قرأ {ق}؛ و {ص} بضم الفاء والنون. والحاصل أن جميع هذه القراءات، وجميع هذه التفاسير المبنية عليها، كلها ساقطة، لا معول عليها.
وإنما ذكرناها لأجل التنبيه على ذلك.

ولا شك أن التحقيق هو ما قدمنا من أن {ص} من الحروف المقطعة في أوائل السور، وأن القراءة التي لا يجوز العدول عنها هي قراءة الجمهور التي ذكرناها.

وقد قال بعض العلماء: إن ص مفتاح بعض أسماء الله تعالى كالصبور والصمد.

وقال بعضهم معناه: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن الله، إلى غير ذلك من الأقوال.

وقد ذكرنا أننا قدمنا الكلام على ذلك مستوفى في أول سورة هود. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَ لَقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ}، قد قدمنا أن أصل القرآن مصدر، زيد فيه الألف والنون. كما زيدتا في الطغيان، والرجحان، والكفران، والخسران، وأن هذا المصدر أريد به الوصف.

وأكثر أهل العلم، يقولون: إن هذا الوصف المعبر عنه بالمصدر هو اسم المفعول.

وعليه فالقرآن بمعنى المقروء من قول العرب: قرأت الشيء إذا أظهرته وأبرزته، ومنه قرأت الناقة السلا والجنين إذا أظهرته وأبرزته من بطنها، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته: تريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحين
ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

على إحدى الروايتين في البيت.

ومعنى القرآن على هذا المقروء الذي يظهره القارئ، ويبرزه من فيه، بعبارة الواضحة.

وقال بعض أهل العلم: إن الوصف المعبر عنه بالمصدر، هو اسم الفاعل.

وعليه فالقرآن بمعنى القارئ، وهو اسم فاعل قرأت، بمعنى جمعت.

ومنه قول العرب: قرأت الماء في الحوض أي جمعته فيه.

وعلى هذا فالقرآن بمعنى القارئ أي الجامع لأن الله جمع فيه جميع ما في الكتب المنزلة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {ذِي الذِّكْرِ} فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء.

أحدهما: أن الذكر بمعنى الشرف، والعرب تقول فلان مذكور يعنون له ذكر أي شرف.

ومنه قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} أي شرف لكم على أحد القولين.

الوجه الثاني: أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير، لأن القرآن العظيم فيه التذكير والمواعظ، وهذا قول الجمهور واختاره ابن جرير.

تنبيه

اعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين الشيء الذي أقسم الله عليه في قوله تعالى: {وَ لَقُرْآنٍ ذِي الذِّكْرِ}، فقال بعضهم: إن المقسم عليه مذكور، والذين قالوا إنه مذكور، اختلفوا في تعيينه وأقوالهم في ذلك كلها ظاهرة السقوط.

فمنهم من قال: إن المقسم عليه هو قوله تعالى {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ}.

ومنهم من قال هو قوله: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ تَقَادِرٍ}.

ومنهم من قال هو قوله تعالى: {إِنْ كَلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٍ} كقوله {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}. وقوله: {وَالسَّمَاءِ

وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

ومنهم من قال هو قوله: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ}، ومن قال هذا قال: إن الأصل لكم أهلكننا ولما طال الكلام، حذفت لام القسم، فقال: كم أهلكننا بدون لام.

قالوا: ونظير ذلك قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا} لما طال الكلام بين القسم والمقسم عليه، الذي هو قد أفلح من زكاه، حذفت منه لام القسم.

ومنهم من قال: إن المقسم عليه هو قوله: ص قالوا معنى ص صدق رسول الله والقرآن ذي الذكر. وعلى هذا فالمقسم عليه هو صدقه صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من قال المعنى: هذه ص أي السورة التي أعجزت العرب، {وَلِقُرَّانٍ ذِي الذِّكْرِ}، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يخفى سقوطها.

وقال بعض العلماء إن المقسم عليه محذوف، واختلفوا في تقديره، فقال الزمخشري في الكشاف، التقدير {وَلِقُرَّانٍ ذِي الذِّكْرِ}. إنه لمعجز، وقدره ابن عطية وغيره فقال: {وَلِقُرَّانٍ ذِي الذِّكْرِ} ما الأمر كما يقوله الكفار، إلى غير ذلك من الأقوال.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر صوابه بدليل استقراء القرآن: أن جواب القسم محذوف وأن تقديره

{وَلِقُرَّانٍ ذِي الذِّكْرِ} ما الأمر كما يقوله الكفار، وأن قولهم المقسم على نفيه شامل لثلاثة أشياء متلازمة.

الأول: منها أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل من الله حقاً وأن الأمر ليس كما يقال الكفار في قوله تعالى عنهم: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا}.

والثاني: أن الإله المعبود جل وعلا واحد وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: {أَجْعَلِ آلِهَةً إِلَهًا وَجِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}.

والثالث: أن الله جل وعلا يبعث من يموت، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} وقوله: {رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا} وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ}.

أما الدليل من القرآن على أن المقسم عليه محذوف فهو قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، لأن الإضراب بقوله بل، دليل وأصح على المقسم عليه المحذوف. أي ما الأمر كما يقوله الذين كفروا، بل الذين كفروا في عزة، أي في حمية وأنفة واستكبار عن الحق، وشقاق، أي مخالفة ومعاندة.

وأما دلالة استقراء القرآن على أن المنفي المحذوف شامل للأمر
الثلاثة المذكورة، فلدلالة آيات كثيرة: أما صحة رسالة الرسول
صلى الله عليه وسلم، وكون الإله المعبود واحداً لا شريك له فقد
أشار لهما هنا.

أما كون الرسول مرسلًا حقاً ففي قوله تعالى هنا: {وَعَجِبُوا أَنْ
جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كٰذٰبٌ} يعني أي لا
وجه للعجب المذكور. لأن يجيء المنذر الكائن منهم.
لا شك في أنه بإرسال من الله حقاً.
وقولهم {هٰذَا سِحْرٌ كٰذٰبٌ} إنما ذكره تعالى إنكاراً عليهم وتكذيباً
لهم. فعرف بذلك أن في ضمن المعنى والقرآن ذي الذكر إنك
مرسل حقاً ولو عجبوا من مجيئك منذراً لهم، وزعموا أنك ساحر
كذاب، أي فهم الذين عجبوا من الحق الذي لا شك فيه، وزعموا أن
خاتم الرسل، وأكرمهم على الله، ساحر كذاب.
وأما كون الإله المعبود واحداً لا شريك له، ففي قوله هنا: {أَجْعَلِ
لِلّٰهَةِ اِلٰهًا وَّحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ}، لأن الهمزة في قوله:
أجعل للإنكار المشتمل على معنى النفي، فهي تدل على نفي
سبب تعجبهم من قوله صلى الله عليه وسلم: إن الإله المعبود
واحد.

وهذان الأمران قد دلت آيات أخر من القرآن العظيم، على أن الله
أقسم على تكذيبهم فيها وإثباتها بالقسم صريحاً كقوله تعالى
مقسماً على أن الرسول مرسل حقاً ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مَكِّيًّا
وَلَقَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ فِي الْحَقِّ وَإِنَّمَا يُجِيبُ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ
كَذِبًا عَنكَ أَن تَقُولَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَسَىٰ أَن يَكُونَ لَكُمْ آيَةٌ إِن كُنْتُمْ
مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهي توضح معنى ص والقرآن ذي الذكر إنك
لمن المرسلين.

وقد جاء تأكيد صحة تلك الرسالة في آيات كثيرة كقوله تعالى
{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، وأما
كونه تعالى هو المعبود الحق لا شريك له، فقد أقسم تعالى عليه
في غير هذا الموضع، كقوله تعالى {وَأَلصَّفتِ صَفًّا * فَالزَّجْرَتِ
رَجْرًا * فَالتَّالِيَتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ} ونحو ذلك من الآيات
فدل ذلك على أن المعنى تضمن ما ذكر أي والقرآن ذي الذكر، إن
إلهكم لواحد كما أشار إليه بقوله {أَجْعَلِ لِلّٰهَةِ اِلٰهَةً}.
وأما كون البعث حقاً، فقد أقسم عليه إقساماً صحيحاً صريحاً، في
آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: {قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ}. وقوله
تعالى: {قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} أي الساعة. وقوله: {قُلْ إِيَّايَ
يَوْمَئِذٍ يَدْعُونَ}. وقوله: {قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ}.

وأقسم على اثنين من الثلاثة المذكورة وحذف المقسم عليه الذي
هو الاثنان المذكوران، وهي كون الرسول مرسلًا، والبعث حقاً،
وأشار إلى ذلك إشارة واضحة، وذلك في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مَكِّيًّا
وَلَقَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ فِي الْحَقِّ وَإِنَّمَا يُجِيبُ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ
كَذِبًا عَنكَ أَن تَقُولَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَسَىٰ أَن يَكُونَ لَكُمْ آيَةٌ إِن كُنْتُمْ
مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

لَمَجِيدٍ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * اءَدَا مِثْنًا وَكُنَّا تُرَابًا دَلِكْ رَجْعٌ بَعِيدٌ} فاتضح بذلك أن المعنى ق والقرآن المجيد، إن المنذر الكائن منكم الذي عجبت من مجيئه لكم منذراً رسول منذر لكم من الله حقاً، وإن البعث الذي أنكرتموه واستبعدتموه غاية الإنكار، والاستبعاد، في قوله تعالى عنكم {اٰءَدَا مِثْنًا وَكُنَّا تُرَابًا دَلِكْ رَجْعٌ بَعِيدٌ} أي ذلك الرجوع الذي هو البعث.

رجع بعيد في زعمكم واقع لا محالة وإنه حق لا شك فيه، كما أشار له في قوله تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ اَلْاَرْضَ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حٰفِيظٌ} إذ المعنى أن ما أكلته الأرض، من لحومهم، ومزقته من أجسامهم، وعظامهم، يعلمه جل وعلا، لا يخفى عليه منه شيء فهو قادر على رده كما كان.

وإحياء تلك الأجساد البالية، والشعور المتمزقة، والعظام النخرة كما قدمنا موضحاً بالآيات القرآنية، في سورة يس في الكلام على قوله تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ قٰٓئِمًا هُمْ مِّنَ اَلْاَجْدَاثِ اِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ} وكونه صلى الله عليه وسلم مرسل من الله حقاً، يستلزم استلزماً لا شك فيه، أن القرآن العظيم منزل من الله حقاً وأنه ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين. ولذلك أقسم تعالى، في مواضع كثيرة، على أن القرآن أيضاً منزل من الله كقوله تعالى في أول سورة الدخان {هٰٓحِرٌ * وَ اَلِكِتٰبِ اَلْمُبِيْنِ اِنَّا اَنْزَلْنٰهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبْرَكَةِ}، وقوله تعالى في أول سورة الزخرف {هٰٓحِرٌ * وَ اَلِكِتٰبِ اَلْمُبِيْنِ * اِنَّا جَعَلْنٰهُ قُرْءٰنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ * وَاِنَّهُٗ يَوْمَ اَلْحِسَابِ لَكِتٰبٌ لِّدٰنِيَّا لَعَلِيَّ حٰكِيْمٌ}. قوله تعالى: {بَلِ لِّذِيْنَ كَفَرُوْا فِيْ عِزَّةٍ وَشِقَاقِيْ}. قد قدمنا الكلام قريباً على الإضراب ببل في هذه الآية.

وقوله تعالى هنا في عزة أي حمية واستكبار عند قبول الحق، وقد بين جل وعلا في سورة البقرة أن من أسباب أخذ العزة المذكورة بالإثم للكفار أمرهم بتقوى الله، وبين أن تلك العزة التي هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق من أسباب دخولهم جهنم، وذلك في قوله عن بعض الكفار الذين يظهرون غير ما يبطنون {وَ اِذَا قِيْلَ لَهُٗ اَتٰقِ اِلٰهَ اٰحَدْتُهُ لِعِزَّةِ اِلٰثِمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِٔسَ اَلْمِهَادُّ}. والظاهر أن وجه إطلاق العزة على الحمية والاستكبار: أن من اتصف بذلك كأنه ينزل نفسه منزلة الغالب، القاهر، وإن كان الأمر ليس كذلك، لأن أصل العزة في لغة العرب الغلبة والقهر، ومنه قوله تعالى: {وَلِلّٰهِ اِلْعِزَّةُ وَلِرَسُوْلِهِ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ}، والعرب يقولون: من عز بز، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء: كان لم يكونوا حمى يحتشى إذ الناس إذ ذاك من عز بز

وقوله تعالى عن الخصم الذين تسوروا على داود: وعزني في الخطاب أي غلبني، وقهرني في الخصومة. والدليل من القرآن على أن العزة التي أثبتها الله للكفار في قوله: {بَلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ}. وقوله: {أَخَذْتُهُ لِعِزَّةِ بِالْإِيمِ}، ليست هي العزة التي يراد بها القهر والغلبة بالفعل، أن الله خص بهذه العزة المؤمنين دون الكافرين والمنافقين، وذلك في قوله تعالى: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى لِمَدِينَةٍ لَيُخْرِجَنَّ عَلَانًا مِنْهَا أَلَادًا وَلِلَّهِ لِعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}. ولذلك فسرها علماء التفسير، بأنها هي الحمية والاستكبار، عن قبول الحق.

والشقاق: هي المخالفة، والمعاندة كما قال تعالى: {وَأِنْ تَوَلَّوْا قَائِمًا هُمْ فِي شِقَاقٍ}. قال بعض العلماء: وأصله من الشق الذي هو الجانب، لأن المخالف المعاند، يكون في الشق أي في الجانب الذي ليس فيه من هو مخالف له ومعاند. وقال بعض أهل العلم: أصل الشقاق من المشقة لأن المخالف المعاند يجتهد في إيصال المشقة إلى من هو مخالف معاند. وقال بعضهم: أصل الشقاق من شق العصا وهو الخلاف والتفرق. قوله تعالى: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَتَادُوا وَوَلَاتَ حِينَ مَتَاصٍ}. كم هنا هي الخبرية، ومعناها الإخبار عن عدد كثير، وهي في محل نصب، على أنها مفعول به لأهلكنا وصيغة الجمع في أهلكنا للتعظيم، ومن في قوله: من قرن، مميزة لكم، والقرن يطلق على الأمة وعلى بعض من الزمن، أشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة، والمعنى أهلكنا كثيراً من الأمم السالفة من أجل الكفر، وتكذيب الرسل فعليكم أن تحذروا يا كفار مكة من تكذيب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الكفر بما جاء به لئلا نهلككم بسبب ذلك كما أهلكنا به القرون الكثيرة الماضية.

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل: الأولى: أنه أهلك كثيراً من القرون الماضية، يهدد كفار مكة بذلك. الثانية: أنهم نادوا أي عند معاينة أوائل الهلاك. الثالثة: أن ذلك الوقت الذي هو وقت معاينة العذاب ليس وقت نداء، أي فهو وقت لا ملجأ فيه، ولا مفر من الهلاك بعد معاينته. وقد ذكر جل وعلا هذه المسائل الثلاث المذكورة هنا موضحة في آيات كثيرة من كتابه.

أما المسألة الأولى وهي كونه أهلك كثيراً من الأمم، فقد ذكرها في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قُرُونٍ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ} وقوله تعالى: {فَكَأَيُّ مِّنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}.

وقوله تعالى: { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ لَدِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ } . والآيات بمثل ذلك كثيرة .
وقد ذكر جل وعلا في آيات كثيرة أن سبب إهلاك تلك الأمم الكفر بالله وتكذيب رسله كقوله في هذه الآية الأخيرة مبيناً سبب إهلاك تلك الأمم التي صرح بأنها (لا يعلمها إلا الله) { جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَأَوْا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } .

وقد قدمنا في الكلام على هذه الآية من سورة إبراهيم، أقوال أهل العلم في قوله تعالى: { فَرَأَوْا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ } وبيننا دلالة القرآن على بعضها، وكقوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَبْتَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّوْنَهَا عَدَابًا نَكَرَ أَقْدَاقَتْ وَيَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا } وقوله تعالى: { وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً } إلى قوله: { وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكَلَّا صَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَرَّأْنَا تَبِيرًا } وقوله تعالى: { إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ } . وقوله تعالى { كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدٌ } والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد بين تعالى أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل تهديد كفار مكة، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا على الكفر وتكذيبه صلى الله عليه وسلم .
ذكر تعالى ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: { أَقَلِمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا } لأن قوله تعالى: { وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا } تهديد عظيم بذلك .

وقوله تعالى: { جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مُّنْصُودٍ مُّسْوَمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ }
فقوله: وما هي من الظالمين ببعيد فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم، وفواحشهم المعروفة، وقد وبخ تعالى من لم يعتبر بهم، ولم يحذر أن ينزل به مثل ما نزل بهم، كقوله في قوم لوط: { وَإِنَّكُمْ لَيَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ بَلِّغُوا أَقْلًا تَعْقِلُونَ } وقوله تعالى: { وَلَقَدْ آتَوْا عَلَىٰ لُقْمَانَ الرُّسُلَ لَمَّا أَهْرَاقَ مَطَرًا السُّوءِ أَقْلَمَ يَكُونُوا يَرُوتَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَرُجُونَ نُشُورًا } .
وقوله فيهم: { وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } . وقوله فيهم: { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ } . وقوله فيهم وفي قوم شعيب { وَإِنَّهُمَا لَبِآمَامٍ مُّبِينٍ } والآيات بمثل ذلك كثيرة .
وأما المسألة الثانية: وهي نداؤهم إذا أحسوا بأوائل العذاب فقد ذكر تعالى في آيات من كتابه نوعين من أنواع ذلك النداء .

أحدهما: نداؤهم باعترافهم أنهم كانوا ظالمين، وذلك في قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْتُمْ مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَلِيمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرٍ بُدِّلَ مَقَامًا حَسْبُوا بِأَسْنًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ} إلى قوله {قَالُوا يُؤْتِلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} رَأَيْتَ تِلْكَ دَعَاؤُهُمْ حَتَّى جَعَلْتَهُمْ حَصِيدًا حَمِيدِينَ} وقوله تعالى: {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} قَانَ دَعَاؤُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}.

الثاني: من نوعي النداء المذكور نداؤهم بالإيمان بالله مستغيثين من ذلك العذاب الذي أحسوا أوائله، كقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} فَلَمَّا رَأَوْا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} وهذا النوع الأخير هو الأنسب والأليق بالمقام، لدلالة قوله: {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} عليه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} الذي هو المسألة الثالثة، معناه: ليس الحين الذي نادوا فيه، وهو وقت معاينة العذاب، حين مناص، أي ليس حين فرار ولا ملجأ من ذلك العذاب الذي عاينوه.

فقوله: ولات هي لا النافية زيدت بعدها تاء التانيث اللفظية كما زيدت في ثم، ف قيل فيها تمت، وفي رب، ف قيل فيها ربت. وأشهر أقوال النحويين فيها، أنها تعمل عمل ليس وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة، كالساعة والأوان، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب، وربما عكس، وهذا قول سيبويه وأشار إليه ابن مالك في الخلاصة بقوله: في النكرات أعملت كليس «لا» وقد تلى «لات» و«إن» ذا العملا وما لات في سوى حين عمل وحذف ذي الرفع فشا والعكس قل

والمناص مفعول من النوص، والعرب تقول: ناصه ينوصه إذا فاته وعجز عن إدراكه، ويطلق المناص على التأخر لأن من تأخر وما إلى ملجأ ينقذه مما كان يخافه فقد وجد المناص. والمناص والملجأ والمفر والموئل معناها واحد، والعرب تقول: استناص إذا طلب المناص، أي السلامة والمفر مما يخافه، ومنه قول حارثة بن بدر: غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جري المسحل

والأظهر أن إطلاق النوص على الفوت والتقدم، وإطلاقه على التأخر والروغان كلاهما راجع إلى شيء واحد. لأن المناص مصدر

ميمي معناه المنطبق على جزئياته، أن يكون صاحبه في كرب وضيق، فيعمل عملاً، يكون به خلاصه ونجاته من ذلك. فتارة يكون ذلك العمل بالجري والإسراع أمام من يريده بالسوء، وتارة يكون بالتأخر والروغان حتى ينجو من ذلك. والعرب تطلق النوص على التأخر. والبوص بالباء الموحدة التحتىة على التقدم، ومنه قول امرئ القيس: أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص

وأصوب الأقوال في لات أن التاء منفصلة عن حين وأنها تعمل عمل ليس خلافاً لمن قال: إنها تعمل عمل إن، ولمن قال: إن التاء متصلة بحين وأنه رآها في الإمام، وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه متصلة بها. وعلى قول الجمهور منهم القراء السبعة، أن التاء ليست موصولة بحين، فالوقف على لات بالتاء عند جميعهم، إلا الكسائي فإنه يقف عليها بالهاء.

أما قراءة كسر التاء وضمها فكلتاها شاذة لا تجوز القراءة بها، وكذلك قراءة كسر النون من حين، فهي شاذة لا تجوز، مع أن تخريج المعنى عليها مشكل.

وتعسف له الزمخشري وجهاً لا يخفى سقوطه، وردة عليه أبو حيان في البحر المحيط، واختار أبو حيان أن تخريج قراءة الكسر أن حين مجرورة بمن محذوفة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَتَادُوا} أصل النداء: رفع الصوت، والعرب تقول: فلان أئدى صوتاً من فلان، أي أرفع، ومنه قوله: فقلت ادعى وأدعو إن أئدا لصوت أن ينادي داعيان

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الأمم الماضية المهلكة ينادون عند معاناة العذاب، وأن ذلك الوقت ليس وقت نداء إذ لا ملجأ فيه ولا مفير ولا مناص. ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا قَلَّوْا آمَنَّا بِاللَّهِ وَوَحَّدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ قَلِمٌ بِكَ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا}. وقوله تعالى: {فَلَمَّا أَحْسَبُوا بَاسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يُؤْتِلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا رَآتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْتَهُمْ حَصِيداً خَمِدينَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين تعالى وقوع مثل ذلك في يوم القيامة في آيات من كتابه كقوله تعالى: {سُبْحِيْبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيْرٍ}. وقوله تعالى:

{قَادَا بَرِقَ لَبَصِيرٌ وَخَيْسَفٌ لِقَمَرٌ وَجُمَعَ الشَّمْسُ وَ لِقَمَرٌ يَقُولُ
لِلنَّاسِ يَوْمَئِذٍ آيَنَ لِمَقَرُّكَ لَا وَرَرَ} والوزر: الملجأ، ومنه قول
حسان بن ثابت رضي الله عنه:

والناس إلب علينا فيك ليس لنا إلا الرماح وأطراف القنا وزر

وكقوله تعالى: {بَلْ لَهُمْ مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا} والموئل
اسم مكان من وأل يئل إذا وجد ملجأ يعتصم به، ومنه قول الأعشى
ميمون بن قيس: وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني
ثم ما ئيل

أي ثم ما ينجو.

قوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ}. ذكر جل وعلا في
هذه الآية الكريمة أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول
منذر منهم، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة، من عجبهم
المذكور، ذكره في غير هذا الموضع وأنكره عليهم وأوضح تعالى
سببه ورده عليهم في آياتٍ أخرى، فقال في عجبهم المذكور ﴿

وَلَقُرْءَانَ لَمَجِيدٍ بَلَّ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.
وقال تعالى في إنكاره عليهم في أول سورة يونس {لَر تِلْكَ آيَاتُ
الَّذِينَ لَكُتِبَ لَهُمُ الْحِكْمَ إِذَا كُنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا أُنَّ أُوحِيَآ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَن أَنْذِرِ
النَّاسَ} وذكر مثل عجبهم المذكور في سورة الأعراف عن قوم
نوح وقوم هود، فقال عن نوح مخاطباً لقومه {أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ
ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.
وقال عن هود مخاطباً لَعَاد: {أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَ ذِكْرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلُقَاءً مِن بَعْدِ قَوْمِ
نُوحٍ}، وبين أن سبب عجبهم من كون المنذر منهم أنه بشر مثلهم
زاعمين أن الله لا يرسل إليهم أحداً من جنسهم. وأنه لو أراد أن
يرسل إليهم أحداً لأرسل إليهم ملكاً لأنه ليس بشراً مثلهم وأنه لا
يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق.

والآيات في ذلك كثيرة كقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذِ
جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُل لَّو كَانَ فِي
الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا
رَّسُولًا} وقوله تعالى: {أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ}
وقوله تعالى: {وَقَالَ لِمَالًا مِّن قَوْمِهِ لِيُذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ
مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ لَئِن أُطِغْتُمْ بَشَرًا مِّثْلِكُمْ إِنَّكُمْ
إِذَا لَخَسِرُونَ}. وقوله تعالى: {وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ
الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}. وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ

تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا إِذَا أَبَشَّرُوا بِأَنْبِيَاءِ يَهْدُونَنَا}. وقوله تعالى:
{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انزَلْنَا لَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَقَالَ أَبَشِّرْهُنَّ بِمَا بَشَّرْنَاكَ إِذْ أَتَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ قَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي السَّبِيلِ أَإِذَا أَتَيْنَا بِهَذَا الْكِتَابِ أَكْفَرْنَا فَأَنزَلْنَا لَهُمْ ثَمْرًا تَلَوْنَهُ حَمَلًا جَمَلًا مِمَّا كَفَرُوا} وقوله
تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَمَكَّنَّا لَكُمُ الْمَلَائِكَةَ لَتَأْتِيَنَّكُمْ السَّمَاوَاتُ بِالْحَبِّ وَأَكْبُتَ الْعُرُوقَ} وقوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ
صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
تَعْبُوهَا إِلَّا أَلَّةَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَأَبَاطَ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ} وقوله تعالى: {فَقَالَ لَمَلَأُوا لِي ذِيئِيلَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا
هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى} وقوله تعالى: {وَقَالُوا
يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ مَا تَأْتِيَنَا بِالْحَقِّ إِلَّا نَذِيرٌ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ} وقوله تعالى: {لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْنَا آيَاتٌ مِنَ سَمَوَاتِكَ لَخُلِينَاكَ مِنَ الْغَايِبِ وَلَا تُنذِرُنَا بِنُحُورِنَا وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ} وقوله
تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا لِمَلَكَةٍ أَوْ
نَزَّلَ رَبُّنَا لَقَدْ سُبُحَانَكَ يَا أَعْيُنَ النَّاسِ أَلَّا يَنظُرُوا} وقوله تعالى: {وَقَالَ
مُوسَى: {قُلُوبَنَا غَلِيظَةٌ وَعَاوَنُوا عَلَيْنَا أَنْ نُحَمِّدَكَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ نَكْفُرَكَ} وقوله تعالى عن فرعون مع
مُفْتَرِينَ}.

وقد رد الله تعالى على الكفار عجبهم من إرسال الرسل من
البشر في آيات من كتابه.

كقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ لُمُسَلِينَ إِلَّا إِيَّاهُمْ لِيَأْكُلُوا
الطَّعَامَ وَيَمْسُوهَا فِي الْأَسْوَاقِ} وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا
مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} وقوله تعالى: {وَمَا
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْئَلْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}
وقوله تعالى: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي بالرسالة والوحي ولو كان
بشرًا مثلكم إلي غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَأَنْطَلِقَ لِمَالًا
مِنْهُمْ أَنْ هُتِبُوا وَأَضْبَرُوا عَلَىٰ الْهَيْكَلِ}. قد قدمنا الكلام عليه في
سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ
الْهَيْكَلِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا}. قوله تعالى: {أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ
بَيْنِنَا}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن كفار مكة، أنكروا أن
الله خص نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه
وحده، ولم ينزله على أحد آخر منهم، وما دلت عليه هذه الآية
الكريمة، جاء في آيات أخر، مع الرد على الكفار في إنكارهم

خصوصه صلى الله عليه وسلم بالوحي، كقوله تعالى عنهم: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ} يعنون بالقريتين مكة والطائف، وبالرجلين من القريتين الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود في الطائف زاعمين أنهما أحق بالنبوة منه.

وقد رد جل وعلا ذلك عليهم في قوله تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} لأن الهمزة في قوله: أنهم يقسمون، للإنكار المشتمل على معنى النفي، وكقوله تعالى: {قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}. {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} لأن الهمزة في قوله: أنهم يقسمون، للإنكار المشتمل على معنى النفي، وكقوله تعالى: {قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}.

وقد رد الله تعالى ذلك عليهم في قوله: {إِلَّا اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} وأشار إلى رد ذلك عليهم في آية حر هذه في قوله: {بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابًا مِّنْ عِنْدِهِمْ حَزَائِنٌ رَّحْمَةَ رَبِّكَ لِعَزِيمٍ لَّوْهَابًا لَهُمْ مَّا كَانَتْ أَلْسِنُوتٌ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا}. لأنه لا يجعل الرسالة حيث يشاء، ويخص بها من يشاء، إلا من عنده خزائن الرحمة. وله ملك السموات والأرض.

وقوله تعالى: {أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِن بَيْنِنَا} قد بين في موضع آخر أن ثمود قالوا مثله لنبى الله صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالى عنهم: {أَأَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ} وقد رد الله تعالى عليهم ذلك في قوله: {سَيَعْلَمُونَ عَذَابًا مِّنْ كَذَابِ الْأَشْرِ}. قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ مَلَكٌ أَلْسِنُوتٌ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا}. قد قدمنا بعض الكلام عليه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: {وَحَفِظْتَهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ}.

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأُوْتَانِ * وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ الْأَخْرَابِ * إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُلُ فَحَقَّ عِقَابٌ * وَمَا يَنْظُرُ هُلُولَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ * طَهِرْ عَلَيْنَا مَا يَقُولُونَ وَ لُكْرُ عِبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَنِينِ وَالْإِنْبِرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ لِحِكْمَةٍ وَفَضَّلْنَا لِحِطَابِ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوًا لِحِصْمٍ إِذْ تَسَوَّرُوا لِمِحْرَابِ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ وَحُكْمٌ بَيْنِنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَهُدًى إِلَى سَوَاءٍ الصِّرَاطِ * إِنْ هَذَا إِلَّا حَيُّ لِهٖ تَسْعُ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً وَلى نَعْجَةً وَجِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي لِحِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسْؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا

هُم وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَعَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَإِلْفًا وَحُسْنَ مَآبٍ * يَدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَحُكِّم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ {

قوله تعالى: {كَذَّبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَارِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ}. وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: {أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آَمَنْتُمْ بِهِ} وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}. وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}.

وقد قدمنا أن القط، النصيب من الشيء، أي عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به.

وأن أصل القط كتاب الجائزة لأن الملك يكتب فيه النصيب الذي يعطيه لذلك الإنسان، وجمعه قطوط، ومنه قول الأعشى: ولا الملك النعمان حين لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقوله: ويأفق أي يفضل بعضهم على بعض في العطاء المكتوب في القطوط. قوله تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا لِجِبَالٍ مَعَهُ} إلى قوله {أَوَابٌ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له، في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطِّيرَ}. قوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَعَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ}. قد قدمنا الكلام على مثل هذه الآية، من الآيات القرآنية التي يفهم منها صدور بعض الشيء، من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وبيننا كلام أهل الأصول في ذلك في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: {وَوَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}.

واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء

منه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح منه شيء. قوله تعالى: {يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَحَكْمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ}، قد بينا الحكم الذي دل عليه، في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَحَكْمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} قد أمر نبيه داود فيه، بالحكم بين الناس بالحق ونهاه فيه عن اتباع الهوى، وأن اتباع الهوى، علة للضلال عن سبيل الله، لأن الفاء في قوله فيضلك عن سبيل الله تدل على العلية.

وقد تقرر في الأصول، في مسلك الإيماء والتنبيه، أن الفاء من حروف التعليل كقوله: سهى فسجد، وسرق فقطعت يده، أو لعله السهو في الأول، ولعله السرقة في الثاني، وأتبع ذلك بالتهديد لمن أتبع الهوى، فأهله ربنا عن سبيل الله، في قوله تعالى بعده عليه: {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

ومعلوم أن نبي الله داود، لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى، فيضله عن سبيل الله، ولكن الله تعالى، يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم، ليشرع لأممهم.

ولذلك أمر نبينا صلى الله عليه وسلم، بمثل ما أمر به داود، ونهاه أيضاً عن مثل ذلك، في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَإِنْ حَكَمْتَ وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}. وقوله تعالى: {وَإِنْ حَكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلْنَا إِلَهُهُ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ وَحُذِرْهُمْ أَنْ يُفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ} وكقوله تعالى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَفَقِينَ} وقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا} وقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ}.

وقد قدمنا الكلام على هذا، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا}.

وبينا أن من أصرح الأدلة القرآنية الدالة على أن النبي يخاطب بخطاب، والمراد بذلك الخطاب غيره يقيناً قوله تعالى: {وَقَصَىٰ رَبُّكَ آلَا تَعْبُؤُوا إِلَّا إِلَهَ وَ لَوْلَدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا}، ومن المعلوم أن أباه صلى الله عليه وسلم توفي قبل ولادته، وأن أمه ماتت وهو صغير، ومع ذلك فإن الله يخاطبه بقوله تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ

لِكَبَّرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا} ومعلوم أنه لا يبلغ عنده الكبر أحدهما، ولا كلاهما لأنهما قد ماتا قبل ذلك بزمان.
فتبين أن أمره تعالى لنبيه ونهيه له في قوله {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَحُفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}: إنما يراد به التشريع على لسانه لأمته، ولا يراد به هو نفسه صلى الله عليه وسلم، وقد قدمنا هناك أن من أمثال العرب: إياك أعني واسمعي يا جارة، وذكرنا في ذلك رجز سهل بن مالك الفزاري الذي خاطب به امرأة، وهو يقصد أخرى وهي أخت حارثة بن لأم الطائي وهو قوله:
يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعني واسمعي يا جاره

وذكرنا هناك الرجز الذي أجابته به المرأة، وقول بعض أهل العلم إن الخطاب في قوله: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ لِكَبَّرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا}، هو الخطاب بصيغة المفرد، الذي يراد به عموم كل من يصح خطابه. كقول طرفة بن العبد في معلقته:
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أي ستبدي لك ويأتيك أيها الإنسان الذي يصح خطابك، وعلي هذا فلا دليل في الآية، غير صحيح، وفي سياق الآيات قرينة قرآنية واضحة دالة على أن المخاطب بذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم وعليه. فالاستدلال بالآية، استدلال قرآني صحيح، والقرينة القرآنية المذكورة، هي أنه تعالى قال في تلك الأوامر والنواهي التي خاطب بها رسوله صلى الله عليه وسلم، التي أولها {وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَا بَيَّعْنَا عِنْدَكَ لِكَبَّرَ}. ما هو صريح، في أن المخاطب بذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم، لا عموم كل من يصح منه الخطاب، وذلك في قوله تعالى: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا}. قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى:

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} وفي آخر سورة قد أفصح المؤمنون. في الكلام على قوله: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا}. قوله تعالى: {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}. الإشارة في قوله ذلك راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي، ذلك أي خلقنا السماوات والأرض باطلاً هو ظن الذين كفروا بنا، والنفي في قوله ما خلقنا، منصب

على الحال لا على عاملها الذي هو خلقنا، لأن المنفي بأداة النفي التي هي ما: ليس خلقه للسموات والأرض، بل هو ثابت، وإنما المنفي بها، هو كونه باطلاً، فهي حال شبه العمدة وليست فضلة صريحة، لأن النفي منصب عليها هي خاصة، والكلام لا يصح دونها. والكلام في هذا معلوم في محله، ونفي كون خلقه تعالى للسموات والأرض باطلاً نزه عنه نفسه ونزّهه عنه عباده الصالحون، لأنه لا يليق بكماله وجلاله تعالى.

أما تنزيهه نفسه عنه ففي قوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}.

ثم نزهه نفسه، عن كونه خلقهم عبثاً، بقوله تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ لَمَلِكٍ لِحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} أي تعالى وتقدس وتنزهه عن كونه خلقهم عبثاً.

وأما تنزيه عباده الصالحين له عن ذلك، ففي قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلِفِ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ لِيَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فقوله تعالى عنهم سبحانه أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت السموات والأرض باطلاً. فقولهم سبحانه تنزيه له، كما نزهه نفسه عن ذلك بقوله تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ لَمَلِكٍ لِحَقِّ}، وقوله تعالى في هذه الآية: {قَوْلٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} يدل على أن من ظن بالله ما لا يليق به جل وعلا، فله النار.

وقد بين تعالى في موضع آخر أن من ظن بالله ما لا يليق به أرادته وجعله من الخاسرين، وجعل النار مثواه. وذلك في قوله تعالى: {وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ تَوَدَّلِكُمْ ظَنُّكُمْ لِيُذِي ظَنَنْتُمْ يَرْبُكُمْ أَرَدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}. وقولنا في أول هذا المبحث الإشارة في قوله ذلك

راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لِقُرْءَانٌ يَّهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، وبيننا هناك أن الفعل نوعان، أحدهما الفعل الحقيقي، والثاني الفعل الصناعي، أما الفعل الحقيقي، فهو الحدث المتجدد المعروف عند النحويين بالمصدر. وأما الفعل الصناعي، فهو المعروف في صناعة علم النحو بالفعل الماضي، والفعل المضارع، وفعل الأمر على القول بأنه مستقل عن المضارع.

ومعلوم أن الفعل الصناعي ينحل عند النحويين، عن مصدر وزمن، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن

وعند جماعات من البلاغيين، أنه ينحل عن مصدر، وزمن ونسبة، وهو الأقرب، كما حرره بعض علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية، وبذلك تعلم أنه لا خلاف بينهم في أن المصدر، والزمن كامنان في الفعل الصناعي فيصح رجوع الإشارة والضمير إلى كل من المصدر والزمن الكامين في الفعل الصناعي.

فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن في الفعل، قوله هنا {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فإن المصدر الذي هو الخلق، كامن في الفعل الصناعي، الذي هو الفعل الماضي في قوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ} أي خلق السماوات المذكور الكامن في مفهوم خلقنا ظن الذين كفروا.

ومثال رجوع الإشارة إلى الزمن الكامن في مفهوم الفعل الصناعي، قوله تعالى: {وَوُفِّحَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ لُوعِيدِ} أي ذلك الزمن الكامن في الفعل هو يوم الوعيد.

ومثال رجوع الضمير للمصدر الكامن في مفهوم الفعل قوله تعالى: {عُدُّلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} فقوله: هو، أي العدل الكامن في مفهوم عدلوا، كما تقدم إيضاحه.

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ * وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَاشِيَةِ الصَّفِيَّتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ يَا أَيُّهَا أَحِبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِأَحْجَابٍ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْتَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ عِندِ إِيَّاكَ أَنْتَ لَوْهَابٌ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ * وَءَاخِرِينَ مُفَرِّجِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا وَمَنْ لَّا مِثْرَ لَهُ أَوْ كُفِّرَتْ عَنْهُ رَحْمَةُ رَبِّهِ إِنَّهُ لَءَنِيبٌ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ * وَ لُكُرُ عِبَادَتَا أَيُّوبَ إِذْ تَادَىٰ رَبُّهُ أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * رُكُضَ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَاسُكَ بَارِدٌ وَبَيْرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا وَ طَرِبَ بِهِ وَلَا تَحْنُتُ إِنَّا وَجَدْتَهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * وَ لُكُرُ عِبَادَتَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ * وَ لُكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَ لَيْسَعَ وَ دَا الْكِفْلَ وَ كُلَّ مِّنَ الْآخِيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَّآبٍ * جَنَّتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْبَابُ * مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ

وَشَرَابٌ * وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَةٌ آلَطَّرَفِ أْتْرَابُ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمٍ
لِحِسَابٍ {

قوله تعالى: { أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }. أم في قوله:
أم نجعل الذين، وقوله، أم نجعل المتقين، كلتاهما، منقطة وأم
المنقطة، فيها لعلماء العربية ثلاثة مذاهب:

الأول: أنها بمعنى همزة استفهام الإنكار.

الثاني: أنها بمعنى بل الإضرابية.

والثالث: أنها تشمل معنى الإنكار والإضراب معاً، وهو الذي اختاره
بعض المحققين.

وعليه فالإضراب بها هنا انتقالي لا إبطالي ووجه الإنكار بها عليهم
واضح، لأن من ظن بالله الحكيم الخبير، أنه يساوي بين الصالح
المصلح، والمفسد الفاجر، فقد ظن ظناً قبيحاً جديراً بالإنكار.
وقد بين جل وعلا هذا المعنى، في غير هذا الموضع، وذم حكم من
يحكم به، وذلك في قوله تعالى الجاثية: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ جُنَّحُوا
أَلْسِنَتَهُمُ أَن تَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً
مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ }.

قوله تعالى: { كَتَبُ أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ }. قوله تعالى: كتاب خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب، وقد
ذكر جل وعلا، في هذه الآية الكريمة، أنه أنزل هذا الكتاب، معظماً
نفسه جل وعلا، بصيغة الجمع، وأنه كتاب مبارك وأن من حكم
إنزاله، أن يتدبر الناس آياته، أي يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر
فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى، وأن يتذكر أولوا الألباب،
أي يتعظ أصحاب العقول السليمة، من شوائب الاختلال.

وكل ما ذكره في هذه الآية الكريمة جاء واضحاً في آيات أخرى.
أما كونه جل وعلا، هو الذي أنزل هذا القرآن، فقد ذكره في آيات
كثيرة كقوله تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } وقوله تعالى: { إِنَّا
أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } وقوله تعالى: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }،
والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون هذا الكتاب مباركاً، فقد ذكره في آيات من كتابه كقوله
تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِمَا فِي يَدَيْهِ }. وقوله
تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ
تُرْحَمُونَ }. والمبارك كثير البركات، من خير الدنيا والآخرة.

ونرجو الله القريب المجيب، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك،
أن يجعلنا مباركين أينما كنا، وأن يبارك لنا وعلينا، وأن يشملنا
ببركاته العظيمة في الدنيا والآخرة، وأن يعم جميع إخواننا

المسلمين، الذين يأتمرون بأوامره بالبركات والخيرات، في الدنيا والآخرة، إنه قريب مجيب.

وأما كون تدبر آياته، من حكم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتحضيض على تدبره، وتوبيخ من لم يتدبره، كقوله تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ لِقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا} وقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ لِقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ مُتَلَفًا كَثِيرًا} وقوله تعالى: {أَقْلَمَ يَدَبَّرُوا لِقَوْلِ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأُولِينَ}.

وأما كون تذكر أولي الألباب، من حكم إنزاله، فقد ذكره في غير هذا الموضوع، مقترنا ببعض الحكم الأخرى، التي لم تذكر في آية حَرَّ هذه كقوله تعالى في سورة إبراهيم {هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُهُمْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} فقد بين في هذه الآية الكريمة، أن تذكر أولي الألباب، من حكم إنزاله مبينا منها حكمتين أخريين، من حكم إنزاله، وهما إنذار الناس به، وتحقيق معنى لا إله إلا الله، وكون إنذار الناس وتذكر أولي الألباب، من حكم إنزاله، ذكره في قوله تعالى: {إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَكَلِمَةٌ سَاهِيَةٌ أُنزِلَتْ إِذْ كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ بِأَلْسِنَتِكُمْ مَا يَدْعُونَ بِهِ بَعْدَ آلِهَتِكُمْ إِنَّهُمْ لَمِنَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْيَوْمَآءَ مَا نُنزِّلُ الْكُرْآنَ لَكُن هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهُ لِيُنذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَذَّكَّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُعْمَلُونَ} قوله لتندر، متعلقة بقوله: أنزل، والذكرى اسم مصدر بمعنى التذكير، والمؤمنون في الآية لا يخفى أنهم هم أولوا الألباب.

وذكر حكمة الإنذار في آيات كثيرة كقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} وقوله تعالى: {وَإِذْ نُنزِّلُ الْفُرْقَانَ لِيَكُونَ لِقَوْمٍ أُولِي الْأَلْبَابِ} وقوله تعالى: {يُنزِّلُ الْكُرْآنَ لِيَذَّكَّرَ بِهِ قَوْمًا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَذَّكَّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُعْمَلُونَ} وقوله تعالى: {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا}.

وذكر في آيات أخر، أن من حكم إنزاله، الإنذار والتبشير معاً، كقوله تعالى: {فَاتِّمِمْنَا بِسَرَّتِهِ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لِّدَاءٍ} وقوله تعالى: {لِيَحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}.

وبين جل وعلا أن من حكم إنزاله أن يبين صلى الله عليه وسلم للناس ما أنزل إليهم ولأجل أن يتفكروا، وذلك قوله تعالى: {وَإِنزِيلْنَا إِلَيْكَ أَلْذِكْرَ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} وقد قدمنا مراراً كون لعل من حروف التعليل، وذكر حكمة التبیین المذكورة مع حكمة الهدى والرحمة، في قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

وبين أن من حكم إنزاله، تثبيت المؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين في قوله تعالى: {قُلْ تَزَلُّ رُوحُ لِقُدْسٍ مِّن رَّبِّكَ بِ لِحَقِّ لِيُتَبَّتَ لِيَذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ}.

وبين أن من حكم إنزاله، إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أن يحكم بين الناس بما أراه الله، وذلك في قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ لِكِتَابٍ بِ لِحَقِّ لِيَتَّخِمْ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}. والظاهر أن معنى قوله: {بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} أي بما علمك من العلوم في هذا القرآن العظيم، بدليل قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا لِيَمِينٍ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا}. وقوله تعالى: {تَخُنُّ نَقْصُ عَلِيكَ أَحْسَنَ لِقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا لِقُرْءَانٍ وَإِنْ كُنْتَ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ لِّغْفِيلِينَ}.

وبين جل وعلا أن من حكم إنزاله إخراج الناس من الظلمات إلى النور وذلك في قوله تعالى: {لَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ}.

وبين أن من حكم إنزاله التذكرة لمن يخشى في قوله تعالى: {طَهَّمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِقُرْءَانَ لِيَتَّقِيَ لَتَذَكَّرَهُ لَمَن يَخْشَى} أي ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى.

وهذا القصر على التذكرة إضافي، وكذلك القصر في قوله تعالى الذي ذكرناه قبل هذا {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِكِتَابٍ إِلَّا لِيُتَبَيَّنَ لَهُمْ لِيَذَى حُتْلَفُوا فِيهِ}، بدليل الحكم الأخرى التي ذكرناها.

وبين أن من حكم إنزاله قرآناً عربياً وتصريف الله فيه من أنواع الوعيد أن يتقي الناس الله، أو يحدث لهم هذا الكتاب ذكراً، أي موعظة وتذكيراً، يهديهم إلى الحق، وذلك في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِّنَ لِّوَعِيدٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا} والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ}. ذكر في هذه الآية الكريمة، أنه وهب سليمان لداود، وقد بين في سورة النمل أن الموهوب ورث الموهوب له، وذلك في قوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ}.

وقد بينا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى عن زكريا {قَهَبَ لِي مِّن لَّدُنكَ وَبِأَيِّرْتِنِي وَبِأَيِّرْتِنِي} أنها وراثته علم ودين لا وراثته مال. قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً}. قد قدمنا الكلام على هذه الآية، وعلى ما يذكره المفسرون فيها، من الروايات التي لا يخفى سقوطها، وأنها لا تليق بمنصب النبوة، في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِي شَيْءٌ إِنِّي قَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}. وما روي عنه من السلف من جملة تلك الروايات، أن الشيطان

أخذ خاتم سليمان، وجلس على كرسيه وطرده سليمان إلي آخره
يوضح بطلانه، قوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا
مَنْ لَبَّكَ مِنْ لُغَاوِينِ} واعتراف الشيطان بذلك في قوله: {إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمْ لِمُخْلَصِينَ}. قوله

تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ}. قد
قدمنا الكلام عليه موضحاً بالآيات القرآنية في سورة الأنبياء في
الكلام على قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ}.
وفسرنا هناك قوله هنا حيث أصاب وذكرنا هناك أوجه الجمع، بين
قوله هنا: {رُحَاءً}، وقوله هناك: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً} ووجه
الجمع أيضاً بين عموم الجهات المفهوم من قوله هنا {حَيْثُ
أَصَابَ} أي حيث أراد وبين خصوص الأرض المباركة المذكورة
هناك في قوله {تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}. قوله
تعالى: {وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات
القرآنية في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: {وَمِنَ
الشَّيْطَانِ مَنْ يَعُودُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
حَافِظِينَ}. قوله تعالى: {وَ لُكُرَ عَبْدَتَا أَيُّوبَ إِذِ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي
مَسَّنَى الشَّيْطَانُ يَنْصُبُ وَعَذَابٍ} إلى قوله {لأُولَى الْأَلْبَابِ}. قد
قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع التعرض لإزالة ما فيه من
الإشكال في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذِ
نَادَى رَبَّهُ} إلى قوله: {وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِينَ}. قوله تعالى: {وَ لُكُرَ
عِبَادَتَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ}. أمر الله جل وعلا، نبيه صلى الله عليه
وسلم في هذه الآية الكريمة، أن يذكر عبده إبراهيم ولم يقيد ذلك
الذكر بكونه في الكتاب، مع أنه قيده بذلك في سورة مريم، في
قوله تعالى: {وَ لُكُرَ فِي كِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}. قوله
تعالى: {وَ لُكُرَ إِسْمَاعِيلَ وَ لَيْسَعَ}. أطلق هنا أيضاً الأمر بذكر
إسماعيل وقيده في سورة مريم بكونه في الكتاب في قوله
تعالى: {وَ لُكُرَ فِي كِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ لَوْعِدٍ}، وفي
ذلك إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم مأمور أيضاً بذكر جميع
المذكورين في الكتاب. ولذلك جاء ذكرهم كلهم في القرآن
العظيم كما لا يخفى. قوله تعالى: {وَ عِنْدَهُمْ قَصِيْرُ الطَّرْفِ
أَثْرَابٌ}. قد قدمنا الكلام عليه، في سورة الصافات في الكلام
على قوله تعالى: {وَ عِنْدَهُمْ قَصِيْرُ الطَّرْفِ عِيْنٌ}.

{إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَارٍ * هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِغِينَ لَشَرَّ مَأَبٍ *
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ لِمَهَادٍ * هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَعَسَاقٍ *
وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ
صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدِمْتُمُوهُ لَنَا فَيَنْسِفُ
لِقَرَارٍ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ *}

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَخَذَتْهُمُ
 سَخْرِيًّا أَمْ رَأَعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ *
 قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ لَوْ جِدُّ لِقَهَّارٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَزِيزٌ لِّعَفَّارٌ * قُلْ هُوَ تَبَا عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ
 مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِمَلَائِكَةٍ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ
 يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَهِ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا تَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ
 بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ
 سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ لِمَلَأِكَةٍ كُلُّهُمْ أٰجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ سَتَكَبَرَ
 وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ إِن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ
 بِيَدِي أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعٰلِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن
 نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ وَخُرْجُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَٰجِمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ
 لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ
 فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ لَوْ قُبِ لِمَعْلُومٍ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
 لَا أَعُوبُهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ وَلِحَقِّ
 وَ لِحَقِّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ
 مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعٰلَمِينَ * وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاهُ بَعْدَ جِينِ {

قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن تَعَادٍ } . ما تضمنته هذه الآية
 الكريمة من أن نعيم الجنة، لا نفاذ له، أي لا انقطاع له ولا زوال،
 ذكره جل وعلا في آيات أخر كقوله تعالى فيه: { عَطَاءٌ غَيْرُ
 مَجْدُوذٍ } . وقوله تعالى: { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ } . قوله
 تعالى: { إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } . قد قدمنا ما يوضحه، من
 الآيات القرآنية في مواضع متعددة، من هذا الكتاب المبارك، ذكرنا
 بعضها في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: { إِذْ تَبَرَّأَ
 الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِن لِّذِينَ اتَّبَعُوا } ، وذكرنا بعضه في سورة الأعراف،
 في الكلام على قوله تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا لَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا } وغير
 ذلك من المواضع. قوله تعالى: { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن
 نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } .

قد تقدم إيضاحه، مع بعض المباحث في سورة البقرة، في الكلام
 على قوله تعالى: { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَ سَتَكَبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ } .
 قوله تعالى: { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } .
 قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة هود، وذكرنا الأحكام
 المتعلقة بالآيات، في الكلام على قوله تعالى عن نبيه نوح { وَيَقُومِ
 لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِن أُجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ } . قوله تعالى:
 { وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاهُ بَعْدَ جِينِ } . ألحين المذكور هنا، قال بعض العلماء:
 المراد به بعد الموت، ويدل له ما قدمنا في سورة الحجر، في
 الكلام على قوله تعالى: { وَ عُبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ لِیَقِیْنِ } .

وقال بعض العلماء: الحين المذكور هنا، هو يوم القيامة ولا منافاة بين القولين، لأن الإنسان بعد الموت تتبين له حقائق الهدى والضلال.

واللام في لتعلمن موطئه للقسم، وقد أكد في هذه الآية الكريمة أنهم سيعلمون نبا القرآن أي صدقه، وصحة جميع ما فيه بعد حين بالقسم، ونون التوكيد.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بأنهم سيعلمون نباه بعد حين، قد أشار إليه تعالى، في سورة الأنعام، في قوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لَّكُلِّ نَبِيٍّ مِّنْ قَوْمٍ مُّسْتَفْزَعٍ مَّا تَكْتُمُونَ}. {

قال غير واحد من العلماء: لكل نبي مستقر، أي لكل خبر حقيقة ووقوع، فإن كان حقاً تبين صدقه ولو بعد حين، وإن كان كذباً تبين كذبه، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين.

تم بحمد الله تفسير سورة ص

تفسير سورة الزمر

{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَغَبْرِ اللَّهِ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ * أَلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَ لِذِي يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْمًا إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصِمُ بِهِمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ لَوْجِدُ لَقَهَّارٌ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوَجَ يَخْلَقُكُمْ فِي بُطُونِ آمَهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظَلَمَاتٍ ثَلَاثَ دَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تَصْرُفُونَ} {

قوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}. قد دل استقراء القرآن العظيم، على أن الله جل وعلا، إذا ذكر تنزيله لكتابه، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى، المتضمنة صفاته العليا. ففي أول هذه السورة الكريمة، لما ذكر تنزيله كتابه، بين أن مبدأ تنزيله كائن منه جل وعلا، وذكر اسمه الله، واسمه العزيز،

والحكيم، وذكر مثل ذلك في أول سورة الجاثية، في قوله تعالى: {حَمْدُ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ}، وفي أول سورة الأحقاف في قوله

تعالى: { حَمَّ تَنْزِيلُ لِكِتَابٍ مِّنَ اللَّهِ لِعَزِيرٍ لِّحَكِيمٍ مَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ }.

وقد تكرر كثيراً في القرآن، ذكره بعض أسمائه وصفاته، بعد ذكر
تنزيل القرآن العظيم، كقوله في أول سورة { حَمَّ تَنْزِيلُ لِكِتَابٍ
مِّنَ اللَّهِ لِعَزِيرٍ لِّعَلِيمٍ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي
الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي لِمَصِيرُ } وقوله تعالى في أول فصلت
{ تَنْزِيلُ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } وقوله تعالى في أول هود { لَر
كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } وقوله في
فصلت { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ لِبُطُلٍ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } وقوله تعالى في صدر يس { تَنْزِيلٌ
لِّعَزِيرٍ الرَّحِيمِ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ } وقوله تعالى: { وَإِنَّهُ
لَتَنْزِيلُ رَبِّ لَعَلِّمِينَ تَزَلَّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } وقوله تعالى: { تَنْزِيلٌ
مِّنْ رَبِّ لَعَلِّمِينَ تَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ }.

ولا يخفى أن ذكره جل وعلا هذه الأسماء الحسنى العظيمة، بعد
ذكره تنزيل هذا القرآن العظيم، يدل بإيضاح، على عظمة القرآن
العظيم، وجلالة شأنه وأهميته نزوله، والعلم عند الله تعالى. قوله
تعالى: { وَعَبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ إِلَّا لِلَّهِ لِحَالِصٌ } أمر
الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم. في هذه الآية الكريمة، أن
يعبده في حال كونه، مخلصاً له الدين، أي مخلصاً له في عبادته،
من جميع أنواع الشرك صغيرها وكبيرها، كما هو واضح من لفظ
الآية.

والإخلاص، أفراد المعبود بالقصد، في كل ما أمر بالتقرب به إليه،
وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الإخلاص في العبادة لله
وحده، لا بد منه، جاء في آيات متعددة، وقد بين جل وعلا، أنه ما
أمر بعبادة، إلا عبادة يخلص له العابد فيها.

أما غير المخلص فكل ما أتى به من ذلك، جاء به من تلقاء نفسه، لا
بأمر به، قال تعالى: { وَمَا أَمْوًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ }، وقال جل وعلا { قُلْ لِمَ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ
الدِّينَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مُسْلِمِينَ } إلى قوله تعالى: { قُلِ اللَّهُ
أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ عُبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُونِهِ }.

وقد قدمنا الكلام على العمل الصالح، وأنه لا بد فيه من الإخلاص،
في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: { وَوَيْسَرَ
لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ } وفي غير ذلك من المواضع.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { إِلَّا لِلَّهِ لِحَالِصٌ } أي
التوحيد الصافي من شوائب الشرك، أي هو المستحق لذلك وحده،
وهو الذي أمر به.

وقول من قال من العلماء: إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلا الله موافق لما ذكرناه. والعلم عند الله تعالى.

ثم لما ذكر جل وعلا إخلاص العبادة له وحده، بين شبهة الكفار التي احتجوا بها، للإشراك به تعالى، في قوله تعالى هنا: {وَلِيَذِينَ آخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}. فبين أنهم يزعمون أنهم ما عبدوا الأصنام، إلا لأجل أن تقربهم من الله زلفى، والزلفى القرابة.

فقوله: زلفى، ما ناب عن المطلق من قوله ليقربونا، أي ليقربونا إليه قرابة تنفعنا بشفاعتهم في زعمهم. ولذا كانوا يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

وقد قدمنا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: {وَآتُوا إِلَيْهِ لَوْ سِيلَةً} أن هذا النوع من ادعاء الشفعاء، واتخاذ المعبودات من دون الله وسائط من أصول كفر الكفار.

وقد صرح تعالى بذلك في سورة يونس في قوله جل وعلا {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَأَقْبَلُوا هَوَاهُ سَفَهًا مُغْمِغًا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَتَّبِعُونَ آلِهَةً بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

فصرح تعالى بأن هذا النوع، من ادعاء الشفعاء شرك بالله، ونزه نفسه الكريمة عنه، بقوله جل وعلا {سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} وأشار إلى ذلك في آية الزمر هذه، لأنه جل وعلا لما قال عنهم: {مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} أتبع ذلك بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}.

وقوله: كفار، صيغة مبالغة، فدل ذلك على أن الذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى جامعون بذلك، بين الكذب والمبالغة في الكفر بقولهم ذلك، وسيأتي إن شاء الله لهذا زيادة إيضاح في سورة الناس. قوله تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ لَوْ جِدُّ لَقَهَّارٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة، بكثرة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ لِبَنَاتٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ}. قوله تعالى: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه خلق بني آدم من نفس واحدة هي أبوهم آدم، ثم جعل من تلك النفس، زوجها يعني حواء. أي وبث جميع بني آدم منهما، وأوضح هذا في مواضع آخر من كتابي، كقوله تعالى في أول سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

وَنِسَاءً} وقوله في الأعراف: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَوَحَدَةٍ
وَجَعَلَ مِنْهَا رُوحَهَا لِيَسُكِنَ إِلَيْهَا}، وتأنيت الوصف، بقوله واحدة، مع
أن الموصوف به مذكر، وهو آدم نظراً إلى تأنيت لفظ النفس، وإن
كان المراد بها مذكراً، ونظير ذلك من كلام العرب قوله: أبوك
خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال
قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَدَابِغًا فَجَعَلَ
مِنْهَا زُجُجًا فَرَزَقْنَاكُم مِّنْهُ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ
عِنْدَ عَيْنَيْ رَبِّكَ فَاصْبِرْ}. قد قدمنا
إيضاح هذه الأزواج الثمانية بنص القرآن العظيم، في سورة آل
عمران في الكلام على قوله تعالى {وَ لَخَيْلٍ مُّسَوَّمَةٍ وَأَلْمَمَةٍ
وَأَلْحَافٍ}. قوله تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن
بَعْدِ خَلْقٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في
الكلام على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن مَّن لَّبِثْتُمْ
قَلِيلًا خَلَقْتُمْ مِّن تُرَابٍ} وبيننا هناك المراد بالظلمات الثلاث
المذكورة هنا.

{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْصِدْ لِعِبَادِهِ لُكْفُرٍ وَإِن
تَشْكُرُوا يَرْصِدْ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذَا
مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَبَسَىٰ مَا
كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ
بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ * أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ ءَأَنَاءَ لَيْلٍ
سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * قُلْ يَعْبادِ
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * قُلْ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ إِنِّي أَخَذْتُ مِنَ اللَّهِ مَخْلَصًا لَهُ الدِّينَ * وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *
قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * وَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ قُلْ إِن
لِّخَاسِرِينَ لِيَذِرَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ
الَّذِي يَخْشَوْنَ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبادِ وَقُلُوبُهُمْ * وَالَّذِينَ جُنَّبُوا الصُّلُوعَ
أَنْ يَعْبادُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَيَشْرِي عِبَادٌ * الَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ * أَفَمَن حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَقَانَتْ
تُنْقِذُ مَن فِي النَّارِ * لَكِن لِّذِي نَبِيٍّ اتَّقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ عَرَفٌ مِّن قَوْفِهَا
* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَدَابِغًا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ
حُطًّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ * أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ

لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ
أُولَئِكَ فِي صُلْبٍ مُّبِينٍ * اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثِ كِتَابٍ مُّتَشَبِهًا
مَّتَّانِي تَفْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودٌ لِّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ * أَفَمَن يَتَّبِعِي بَوَّجِهِ سُبُو لِعَذَابٍ يَوْمَ لِقِيَمَةِ
وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ دُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَاتَّهُمْ لِعَذَابٍ مِّن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * قَادَاقَهُمُ اللَّهُ لَخِرَى فِي
لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ صَرَبْنَا
لِلنَّاسِ فِي هَذَا لِقِذَعَيْنِ مِّن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانَا
عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِّحَمْدِ
لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ مَيْتٌ وَانَّهُمْ مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ
لِقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ * فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ
وَكَذَبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ الْبَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَتَّوَى لِّلْكَافِرِينَ * وَ لِيذِي
جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ
رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا
وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ }

قوله تعالى: { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ }. قد بين جل وعلا،
في هذه الآية الكريمة، أنه غني عن خلقه الغني المطلق، وأنه لا
يضره كفرهم به، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله
تعالى { وَقَالَ مُوبِقٌ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ
اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } وقوله تعالى: { فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَ سَتَّعْنِي اللَّهُ
وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ }، وقوله تعالى: { قَالُوا لِيَجْزِ اللَّهُ وَلَدًا يَسُبَّحْتَهُ هُوَ
لَغَنِيٌّ }. وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ لِفَقْرَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
هُوَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } وقوله تعالى: { تَفْسِيهِ وَاللَّهُ لَغَنِيٌّ وَأَنْتُمْ }، وقد
أوضحنا هذا بالآيات في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.
قوله تعالى: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ }.
قد قدمنا إيضاحه مع إزالة الإشكال، والجواب عن الأسئلة الواردة،
على تلك الآيات في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله
تعالى: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ
رَسُولًا }، وأوضحنا ذلك، مع إزالة الإشكال في بعض الآيات، في
سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: { لِيُحْمَلُوا أَوْزَارَهُمْ
كَامِلَةً يَوْمَ لِقِيَمَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ }. قوله
تعالى: { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً
مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ }. قد قدمنا الآيات الموضحة

له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَنِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا}. قوله تعالى: {قُلْ
تَمَتَّعُ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}. قد قدمنا الآيات
الموضحة له مع الإشارة إلى بحث أصوله في سورة الحجر في
الكلام على قوله تعالى {ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَبِلَهُمْ أَلْمَلُ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}. قوله تعالى: {وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ}. الظاهر أن
معنى الآية، أن الإنسان إذا كان في محل لا يتمكن فيه من إقامة
دينه على الوجه المطلوب، فعليه أن يهاجر منه، في مناكب أرض
الله الواسعة، حتى يجد محلاً تمكنه فيه إقامة دينه.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى:
{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ لِمَلَائِكَةِ طَلَبُوا أَنفُسَهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا
كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً
فَتَهَجَرُوا فِيهَا}. وقوله تعالى: {يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي
وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ وَعِبُدُونِ}، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء في قوله:
{فَأِيَّايَ وَعِبُدُونِ} على قوله: {إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ} دليل واضح
على ذلك. قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له، من أوجه في سورة يونس، في
الكلام على قوله تعالى {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ}. قوله تعالى: {لَهُمْ مَن قَوْقِهِمْ ظُلٌّ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ
ظُلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، في
سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ}، وذكرنا طرفاً

من ذلك، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى:
{وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}. قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا
الطَّلُوعَ أَن يُعْبُدُونَهَا وَآتَاؤُا إِلَى اللَّهِ}. ما تضمنته هذه الآية
الكريمة، من تحقيق معنى لا إله إلا الله، قد قدمنا إيضاحه بالآيات
القرآنية، في سورة الفاتحة، في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّا كَ
تَعْبُدُ}. قوله تعالى: {لَّذِينَ يَسْمَعُونَ لِقَوْلَ قَائِلِينَ أَحْسَنَهُ}.
أظهر الأقوال في الآية الكريمة، أن المراد بالقول، ما جاء به النبي

صلى الله عليه وسلم، من وحي الكتاب والسنة، ومن إطلاق
القول على القرآن قوله تعالى: {أَقْلَمَ يَدَبَرُوا لِقَوْلِ}. وقوله
تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ مَّا هُوَ لَهْزَلٍ}. وقوله تعالى في هذه الآية
الكريمة: {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} أي يقدمون الأحسن، الذي هو أشد
حسناً، على الأحسن الذي هو دونه في الحسن، ويقدمون الأحسن
مطلقاً على الحسن. ويدل لهذا آيات من كتاب الله.

أما الدليل على أن القول الأحسن المتبع. ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحي، فهو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: { وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن ما في التوراة { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا }.

وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن، فقد دلت عليه آيات من كتابه.

واعلم أولاً أنه لا شك في أن الواجب أحسن من المندوب، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن، فإذا سمعوا مثلاً قوله تعالى: { وَ فَعَلُوا لِحَيْرٍ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } قدموا فعل الخير الواجب، على فعل الخير المندوب، وقدموا هذا الأخير، على مطلق الحسن الذي هو الجائز، ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذي هو الواجب والمندوب، لا على مطلق الحسن، كما قال تعالى: { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ لَدِي كَانُوا يَعْمَلُونَ } كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِئَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }، وبيننا هناك دلالة الآيات على أن المباح حسن، كما قال صاحب المراقبي: ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

ومن أمثلة الترغيب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن قوله تعالى: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } فالأمر في قوله: { فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } للجواز، والله لا يأمر إلا بحسن. فدل ذلك على أن الانتقام حسن، ولكن الله بين أن العفو والصبر، خير منه وأحسن في قوله: { وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، كقوله تعالى في إباحة الانتقام، { وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ }، مع أنه بين أن الصبر والغفران خير منه، في قوله بعده: { وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَى إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }، وكقوله في جواز الانتقام { لَا يُحِبُّ اللَّهُ لِجَهَنَّمَ بَأْسًا لِّسُوِّ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ } مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه، وأنه من صفاته جل وعلا مع كمال قدرته وذلك في قوله بعده: { إِنْ يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَن سُوِّ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا }، وكقوله جل وعلا مثنياً على من تصدق، فأبدي صدقته { إِنْ بُدِّدُوا لَصَدَقَاتٍ فَنِعَمًا هِيَ } ثم بين أن إخفاءها وإيتاءها الفقراء، خير من إبدائها الذي مدحه بالفعل الجامد، الذي هو لإنشاء المدح

الذي هو نعم، في قوله {إِنْ تُبْدُوا لِّلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا لِفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}.

وكقوله في نصف الصداق اللازم، للزوجة بالطلاق، قبل الدخول، فنصف ما فرضتم، ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن، لأن الله شرعه في كتابه في قوله {فَنِصْفُ مَا قَرَضْتُمْ} مع أنه رغب كل واحد منهما، أن يعفو للآخر عن نصفه، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك في قوله بعده {وَإِنْ تَعُوْا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسَوُا لِفَضْلِ بَيْنِكُمْ}.

وقد قال تعالى: {وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} ثم أرشد إلى الأحسن بقوله {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} وقال تعالى: {وَ لَجُرُوحٍ قِصَاصٌ} ثم أرشد إلى الأحسن، في قوله: {فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ}.

واعلم أن في هذه الآية الكريمة أقوالاً غير الذي اخترنا. منها ما روي عن ابن عباس، في معنى {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} قال «هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبيح، فلا يتحدث به».

وقيل يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن. وقيل: إن المراد بأحسن القول لا إله إلا الله، وبعض من يقول بهذا يقول: إن الآية نزلت فيمن كان يؤمن بالله قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم، كزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، إلخ غير ذلك من الأقوال. قوله تعالى: {أَقَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَقَانَتْ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}. أظهر القولين في الآية الكريمة، أنهما جملتان مستقلتان، فقوله أقمن حق عليه كلمة العذاب جملة مستقلة، لكن فيها حذفاً، وحذف ما دل المقام عليه واضح، لا إشكال فيه.

والتقدير: أقمن حق عليه كلمة العذاب، تخلصه أنت منه، والاستفهام مضمن معنى النفي، أي لا تخلص أنت يا نبي الله أحداً سبق في علم الله أنه يعذبه من ذلك العذاب، وهذا المحذوف دل عليه قوله بعده {أَقَانَتْ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}.

وقد قدمنا مراراً قولي المفسرين في أداة الاستفهام المقترنة بأداة عطف كالفاء والواو وتم كقوله:

هنا: {أَقَمَنْ حَقَّ} وقوله: {أَقَانَتْ تُنْقِذُ}.

أما القول بأن الكلام جملة واحدة شرطية، كما قال الزمخشري: أصل الكلام: أقمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه جملة شرطية، دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب، تقديره: أنت مالك أمرهم، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه،

والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة، فإنه لا يظهر كل الظهور.

وأعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة يس في الكلام على قوله تعالى: {لَقَدْ حَقَّ لِقَوْلٍ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ}، وبيننا دلالة الآيات على المراد بكلمة العذاب. قوله تعالى: {لَكِنَّ الَّذِينَ لَقَّوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرْفٌ مِّنْ قَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وعد أهل الجنة بالغرف المبنية، ذكره جل وعلا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة سبأ {إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ}. وقوله تعالى في سورة التوبة: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ}. وقوله تعالى في سورة الصف: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ لِقَاؤُكُمْ الْعَظِيمِ}، لأن المساكن الطيبة المذكورة في التوبة والصف صادقة بالغرف المذكورة في الزمر وسبأ، وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: {أُولَٰئِكَ يُجْرَوْنَ لِعُرْفَةٍ بِمَا صَبَرُوا}. قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ}. الينابيع: جمع ينبوع، وهو الماء الكثير. وقوله: فسلكه أي أدخله، كما قدمنا إيضاحه بشواهد العربية، والآيات القرآنية في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: {قُلْنَا حَمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من سورة الزمر، قد أوضحناه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}. قوله تعالى: {ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}. قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في سورة الروم في الكلام على قوله تعالى: {وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَّوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافُ السِّيَتِكُمْ وَالْوُنُكُمُ} وأحلنا عليه في سورة فاطر، في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا}.

قوله تعالى: {ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَىٰ الْأَلْبَابِ}. قوله ثم يهيج: أي ثم بعد نضارة ذلك الزرع وخصرته ييبس، ويتم جفافه ويثور من منابته فتراه أيها الناظر مصفراً يابساً، قد زالت خضرته ونضارته. ثم يجعله حطاماً أي فتاتاً، متكسراً، هشيماً، تذروه الرياح، إن في ذلك المذكور من حالات ذلك الزرع، المختلف الألوان، لذكري أي عبرة وموعظة

وتذكيراً لأولي الألباب، أي لأصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، فقد ذكر جل وعلا مصير هذا الزرع على سبيل الموعظة والتذكير، وبين في موضع آخر، أن ما وعظ به خلقه هنا من حالات هذا الزرع شبيهه أيضاً بالدنيا. فوعظ به في موضع وشبهه به حالة الدنيا في موضع آخر، وذلك في قوله تعالى في سورة الحديد { أَعْلَمُوا أَنَّمَا آخِرُ حَيَاتِهِمْ لَمَسٌ لَهُمُ الْيَوْمَ الَّذِي لَعِبُوا وَلَهُمْ وَزِينَتُهُمْ وَقَارُهُمْ فِي يَوْمٍ ذُلٌّ وَمُؤَلُّومٌ وَمَا كَانُوا يَنْشُرُونَ } وفي سورة الروم أن من أسباب إصفراره المذكور إرسال الريح عليه، وذلك في قوله: { وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } قوله تعالى: { أَقَمْنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ } قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ } قوله تعالى: { وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ } وفي غير ذلك من الموضع. قوله تعالى: { قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا } وقوله في هذه الآية الكريمة: قرآنًا انتصب علي الحال وهي حال مؤكدة، والحال في الحقيقة هو عريباً، وقرآنًا توطئة له وقيل انتصب على المدح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: عريباً، أي لأنه بلسان عربي كما قال تعالى: { لِسَانٌ لِّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } وقال تعالى في أول سورة يوسف { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } وقال في أول الزخرف { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } وقال في طه { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا } وقال تعالى في فصلت: { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ } وقال تعالى في الشعراء { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ لَعَلَّمِينَ تَنْزَلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ لِسَانًا عَرَبِيًّا مُّبِينًا } وقال تعالى في سورة شوري { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا } وقال تعالى في الرعد { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ابْتِغَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَعْلَمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَدِيٍّ وَلَا وَاقٍ } إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه الآيات القرآنية تدل على شرف اللغة العربية وعظمتها، دلالة لا ينكرها إلا مكابر. قوله تعالى: { وَ لِي ذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ } أوضح جل

وعلا، أن الذي في هذه الآية بمعنى الذين، بدليل قوله بعده
{أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ}.

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الذي تأتي بمعنى الذين، في
القرآن وفي كلام العرب، فمن أمثلة ذلك في القرآن، قوله تعالى
في آية الزمر هذه: {وَلِذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ}. وقوله تعالى في سورة
البقرة {مَتْلُهُمْ كَمَتَلِ لِيذِي سِتْوَقَد تَّارًا} أي الذين استوقدوا بدليل
قوله بعده: {ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ}
وقوله فيها أيضاً {كَذَلِكَ يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءً لِلنَّاسِ} أي كالذين
ينفقون بدليل قوله بعده {لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا}.
وقوله تعالى في التوبة {وَحُصِّنْكُمْ كَذَلِكَ خَاصُّوا} على القول بأن
الذي موصولة لا مصدرية، ونظيره من كلام العرب قول أشهب بن
رميلة:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عديل بن الفرخ العجلي: فبت أساقي القوم إخوتي الذي
غوايتهم غيٌّ ورشدهم رشد

وقول الراجز: يا رب عبس لا تبارك في أحد في قائم منها ولا
فيمن قعد

إلا الذي قاموا بأطراف المسد قوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ
رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في
سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى {جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُوتَهَا
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ}. قوله تعالى:
{وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ لِيذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}. قد قدمنا الآيات
الموضحة له، في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله
تعالى: {قَبَشْرُ عِبَادٍ لِيذِينَ يَسْتَمِعُونَ لِقَوْلِ قَبَشْرٍ أَحْسَنَهُ} وفي
سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ
بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلْ أَقْرَابُكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ
بِضْرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ صُرَّتِهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ
رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ * قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا
عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ

وَيَجَلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِيمٌ * إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ
فَمَنْ هَدَيْنا فَلْيَتَّبِعْهُ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ * اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ يَمُتْ فِي
مَتَابِهَا فِيمَسِكُ لَيْتِي قِصِي عَلَيْهِا لَيَمُوتَ وَيُرْسِلُ الْأَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ
اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبَهُمْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلِ لِلَّهِ
الْشَّفَعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * وَإِذَا
ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شُكِّرَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ
لِذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ
مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا
لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا تَمَّ إِذَا حَوْلَتْهُ
نِعْمَةٌ مَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ
سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ * قُلِ بَعِيْدِي لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
رَحِيْمَةٍ * اللَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *
وَإِنِوْا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مَنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسِرْتِي
عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ
لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَكُلُوْا مِنْ لِحْسِينٍ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نِكَآئِي
فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ * وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَىٰ
الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوْهُهُمْ مَسْوُودَةٌ أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَارِجِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الْهُوْءُ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيْلٌ *
لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الْحٰسِرُونَ * قُلِ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُوا أَعْبُدُ أَهْلِ الْجَهْلُونَ * وَلَقَدْ
أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَ عٰبِدُ وَكُنْ مِنَ الشَّكِرِينَ * وَمَا
قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ

فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
 اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ
 بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
 بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا
 يَفْعَلُونَ {

قوله تعالى: {الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة
 له في سورة الأنفال، في الكلام على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
 حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} وعلى قراءة الجمهور
 بكاف عبده، بفتح العين وسكون الباء، بإفراد العبد، والمراد به،
 النبي صلى الله عليه وسلم. كقوله: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ} وقوله
 تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ}.

وأما على قراءة حمزة والكسائي عباده بكسر العين وفتح الباء
 بعدها ألف على أنه جمع عبد، فالظاهر أنه يشمل عباده الصالحين
 من الأنبياء وأتباعهم. قوله تعالى: {وَيَخَوُّوْكَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}.
 ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار عبدة الأوثان،
 يخوفون النبي صلى الله عليه وسلم، بالأوثان التي يعبدونها من
 دون الله، لأنهم يقولون له: إنها ستضره وتخبله، وهذه عادة عبدة
 الأوثان لعنهم الله، يخوفون الرسل بالأوثان ويزعمون أنها
 ستضرهم وتصل إليهم بالسوء.

ومعلوم أن أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه، لا يخافون غير
 الله ولا سيما الأوثان، التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع،
 ولذا قال تعالى عن نبيه إبراهيم لما خوفوه بها {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا
 أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
 سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ}.

وقال عن نبيه هود وما ذكره له قومه من ذلك {إِنْ تَقُولُ إِلَّا
 عُتْرَاكُ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ أَرَأَيْتُ إِذْ أَسْهَدُ اللَّهَ وَ شَهِدُوا أَبِي بَرَاءً
 مِمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى
 اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

وقال تعالى في هذه السورة الكريمة، مخاطباً نبينا صلى الله عليه
 وسلم، بعد أن ذكر تخويفهم له بأصنامهم {وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ إِنْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ
 هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}.

ومعلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر
 والإشراك بالله.

وقد بين جل وعلا في موضع آخر، أن الشيطان يخوف المؤمنين أيضاً، الذين هم أتباع الرسل من أتباعه وأوليائه من الكفار، كما قال تعالى: { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }.

والأظهر أن قوله { يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } حذف فيه المفعول الأول، أي يخوفكم أوليائه، بدليل قوله بعده: { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا }. قوله تعالى: { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ }. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن

المعبودات

من دونه، لا تقدر أن تكشف ضراً أراد الله به أحداً، أو تمسك رحمة أراد بها أحداً، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: { لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُعْنِي عَنكَ شَيْئاً } وقوله تعالى: { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُوهُمْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يُضُرُّوكُمْ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ }. وقوله تعالى: { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } وقوله تعالى { وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِقُصْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ }، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. قوله تعالى: { وَإِذَا دُكِرَ لِلَّهِ وَحْدَهُ شَلَّمَارَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا دُكِرَ لِلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى { إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ } كذا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. قوله تعالى: { وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الذين ظلموا وهم الكفار، ولو كان لهم في الآخرة ما في الأرض جميعاً ومثله معه، لهدوا أنفسهم به من سوء العذاب الذي عاينوه يوم القيامة، وبين هذا المعنى في مواضع آخر وصرح فيها بأنه لا فداء ألبتة يوم القيامة كقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا فِي الْأَرْضِ دَهْبًا وَلَوْ قُنُودِي بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ }. وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } وقوله تعالى { قُلْ لِيَوْمِ لَا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا وَأَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ لِمُصِيرٍ }. وقوله تعالى: { وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ

حَمِيمٍ وَعَدَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}. فقوله {وَأَنْ تَعْدِلَ كُلُّ عَدْلٍ} أي وإن تفتد كل فداء، وقوله تعالى {وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}. وقوله {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}، والعدل الفداء وقوله تعالى {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِمَهَادٌ}. وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى {فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا فِي الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ فُتِدَى بِهِ}. قوله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا}. قوله وبدا لهم أي ظهر لهم سيئات ما كسبوا، أي جزاء سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، فالظاهر أنه أطلق السيئات هنا مراداً بها جزاؤها. ونظيره من القرآن قوله تعالى {وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا}. ونظير ذلك أيضاً إطلاق العقاب، على جزاء العقاب، في قوله تعالى {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنهم يبدوا لهم يوم القيامة، حقيقة ما كانوا يعملونه في الدنيا جاء موضحاً في آيات أخرى كقوله تعالى {هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ} وقوله تعالى {يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} وقوله تعالى {عَلِمَتْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}. وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ مَا لِهَذَا لِكِتَابٍ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا}. وقوله تعالى {وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا} فَرَأَى كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ لِيَوْمٍ عَلَيْكَ حَسِيبًا} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا تَمَّ إِذَا حَوَّلَتْهُ نِعْمَةٌ مِمَّا قَالَ إِنَّمَا أُوْتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا تَمَّ لِحَنِهِ}. قوله تعالى: {وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة في قوله تعالى {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ لِقَوْلٍ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} وقدما طرفاً منه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. قوله تعالى: {أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَدَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له من جهات في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ تَسُؤُهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ يُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}. قوله تعالى: {وَيَوْمَ لَقِيَمَةُ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ}. قد قدمنا الكلام عليه وعلى ما يماثله من

الآيات في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى {يَوْمَ
يَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}. قوله تعالى: {الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِلْمُتَكَبِّرِينَ}.

تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية، مع بيان جملة من آثار الكبر السيئة،
في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى {قَالَ وَهَبْ مِنْهَا
فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}. قوله
تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ
لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}. قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام
على قوله تعالى {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.
وقد ذكرنا في سورة المائدة الآية المتضمنة للقيد الذي لم يذكر
في هذه الآيات على قوله تعالى {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ
عَمَلُهُ}. قوله تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}.
قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله
تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ}.
قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ}. قد قدمنا إيضاحه، بالآيات القرآنية،
في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى {وَوُضِعَ الْكِتَابُ
فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} وفي سورة بني إسرائيل في
الكلام على قوله تعالى {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مِنْشُورًا}. قوله تعالى: {وَوَجِيءٌ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَقِيَّتُ كُلِّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ}. اختلف العلماء
في المراد بالشهداء في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: هم
الحفظة من الملائكة الذين كانوا يحصون أعمالهم في الدنيا،
واستدل من قال هذا بقوله تعالى {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ
وَشَهِيدٌ}.

وقال بعض العلماء: الشهداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم،
يشهدون على الأمم، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}. وقيل:
الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وأظهر الأقوال في الآية
عندي، أن الشهداء هم الرسل من البشر، الذين أرسلوا إلى الأمم،
لأنه لا يقضي بين الأمة حتى يأتي رسولها، كما صرح تعالى بذلك
في سورة يونس في قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ
رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} فصرح جل وعلا
بأنه يسأل الرسل عما أجابتهم به أممهم، كما قال تعالى: {يَوْمَ
يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ؟} وقال تعالى {فَلْتَسألنَّ
لِذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلِنَسألنَّ لِمُرْسَلِينَ} وقد يشير إلى ذلك قوله
تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ

شَهِيداً} لأن كونه صلى الله عليه وسلم هو الشهيد على هؤلاء الذين هم أمته، يدل على أن الشهيد على كل أمة هو رسولها. وقد بين تعالى أن الشهيد على كل أمة من أنفس الأمة، فدل على أنه ليس من الملائكة، وذلك في قوله تعالى {وَيَوْمَ تَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ} والرسول من أنفس الأمم كما قال تعالى في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ}. وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ}.

والمسوغ للإيجاز بحذف الفاعل في قوله تعالى: {وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ} هو أنه من المعلوم الذي لا نزاع فيه، أنه لا يقدر على المجيء بهم إلا الله وحده جل وعلا.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير الكسائي وهشام عن ابن عامر، وجيء بكسر الجيم كسرة خالصة.

وقراه الكسائي وهشام عن ابن عامر بإشمام الكسرة الضم. وإنما كان الإشمام هنا جائزاً، والكسر جائزاً، لأنه لا يحصل في الآية البتة، لبس بين المبني للفاعل، والمبني للمفعول، إذ من المعلوم أن قوله هنا: وجيء مبني للمفعول ولا يحتمل البناء للفاعل بوجه، وما كان كذلك جاز فيه الكسر الخالص وإشمام الكسرة الضم كما أشار له في الخلاصة بقوله: واكسر أو أشمم فا ثلاثي أعل عيناً وضم حاء كبوع فاحتمل

أما إذا أسند ذلك الفعل إلى ضمير الرفع المتصل، فإن ذلك قد يؤدي إلى اللبس، فيشتبه المبني للمفعول، بالمبني للفاعل، فيجب حينئذ اجتناب الشكل الذي يوجب اللبس، والإتيان بما يزيل اللبس من شكل أو إشمام كما أشار له في الخلاصة بقوله: وإن بشكل خيف لبس يجتنب

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر، وقد أنشده صاحب اللسان: وإني على المولى وإن قل نفعه دفوع إذا ما صمت غير صبور

فقوله صمت أصله صيمت بالبناء للمفعول فيجب الإشمام أو الضم لأن الكسر الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل كبعث وسرت. وقول جرير يرثي المرار بن عبد الرحمن بن أبي بكر: وأقول من جزع وقد فتنا به ودموع عيني في الرداء غزار للدافين أبا المكارم والندا لله ما ضمنت بك الأحجار

أصله فوتنا بالبناء للمفعول فيجب الكسر أو الإشمام لأن الضم الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل، كقلنا وقمنا.

{ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا
 وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ
 وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
 عَلَىٰ الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَىٰ
 لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ تَقَوَّأُوا رَبَّهُمْ إِلَىٰ لَّجَنَةٍ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا
 جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ
 وَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا
 الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنْ لَّجَنَةٍ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى
 لِمَلَائِكَةٍ خَائِفِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ
 بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ لِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

قوله تعالى: { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا }. الزمر
 الأفواج المتفرقة، واحده زمرة، وقد عبر تعالى عنها هنا بالزمر،
 وعبر عنها في الملك بالأفواج في قوله تعالى: { كَلِمًا أَلْقَىٰ فِيهَا
 فَوْجٌ }؛ وعبر عنها في الأعراف بالأمم في قوله تعالى: { قَالَ
 ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِّنْ لَّجِنٍ وَالْإِنسُ فِي النَّارِ
 كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا لَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ
 أَخْرَاهُمْ لَأَوْلَاهُمْ }.

وقال في فصلت { وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ مِن أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
 مِّنَ لَّجِنٍ وَالْإِنسُ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } وقال تعالى: { هَٰذَا فَوْجٌ
 مُُّفْتَحٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ }.
 ومن إطلاق الزمر على ما ذكرنا قوله: وتري الناس إلى منزله
 زمراً تتنابه بعد زمر

وقول الراجز: إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزالت زمراً بعد
 زمر

قوله تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا }. لم يبين جل وعلا
 هنا عدد أبوابها المذكورة، ولكنه بين ذلك، في سورة الحجر في
 قوله { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ
 جُزْءٌ مَّفْسُومٌ }.

وقوله تعالى { وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن
 عامر: (فُتِحَتْ) يالتاء. قوله تعالى: { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ
 رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
 قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ }. قد قدمنا
 الآيات الموضحة له، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله
 تعالى: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا }. قوله تعالى: { وَقَالَ
 لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ وَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ }. قد قدمنا
 الآيات الموضحة له، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى:

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهِمْ لِمَلَائِكَتِهِمْ يَتُوفُونَ عَلَيْهِمْ لِيُخْلُوا الْجَنَّةَ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . قوله تعالى: { وَقَالُوا لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا
وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ لِحْنَةِ حَيْثُ نَشَاءُ } . ذكر جل وعلا
في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة إذا دخلوها وعابنوا ما فيها من
النعيم، حمدوا ربهم وأثنوا عليه، ونوهوا بصدق وعده لهم، وذكر
هذا المعنى في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: { وَتَرَعْنَا مَا
فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ } لِأَنَّهُمْ وَقَالُوا لِحَمْدِ اللَّهِ
الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ
رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُوءُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } .
وقوله تعالى: { وَتَلَوَّ الْأَصْحَابُ لِحْنَةِ الْجَنَّةِ الْأَنْبِيَاءُ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا
وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا } .

وقوله تعالى: { جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا
الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ } لِأَنَّهُمْ أَحَلَّتْ دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا
يَمَسُّنَا فِيهَا تَصَبُّ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } .

تم بحمد الله تفسير سورة الزمر

J P

{ نَزِيلٌ لِكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ لِعَزِيزٍ لَعَلِّمْ * غَافِرٍ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِيهِ الْمَصِيرُ * مَا
يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ
* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ
بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا لِيَلْطَلِ لِيُدْخِلَهُمْ فِي لَهْقٍ فَأَخَذْتَهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ
أَصْحَابُ النَّارِ * الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ
رَحْمَةً وَعِلْمًا وَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ
* رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ
وَأَرْوَاحِهِمْ وَذَرَيْتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ
تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ لِقَاؤُ الْعَظِيمِ * إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَتَادَوْنَ لَمَفَتٌ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَفَاتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى
الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ }

قوله تعالى: { غَافِرٍ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي
الطُّوْلِ } . جمع جل وعلا في هذه الآية الكريمة، بين الترغيب
والترهيب والوعد والوعيد، لأن مطامع العقلاء محصورة في

أمريين، هما جلب النفع ودفع الضر، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: {تَبَىٰٓءَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ لَعَذَابٌ أَلِيمٌ} وقوله تعالى: {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}. وقوله تعالى في آخر الأنعام: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعٌ لِّعِقَابٍ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}. وقوله في الأعراف: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ لِّعِقَابٍ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة. قوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِىءَآيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه لا يجادل في آيات الله، أي لا يخاصم فيها محاولاً ردها، وإبطال ما جاء فيها، إلا الكفار.

وقد بين تعالى في غير هذا الموضوع الغرض الحامل لهم على الجدل فيها مع بعض صفاتهم، وذلك في قوله {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبَطِّلَ لِيُذْهِبُوا بِهِ لِحَقِّ وَاتَّخُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُرُوعًا} وأوضح ذلك الغرض، في هذه السورة الكريمة، في قوله {وَجَادِلُوا لِيُبَطِّلَ لِيُذْهِبُوا بِهِ لِحَقِّ}.

وقد قدمنا في سورة الحج أن الذين يجادلون في الله منهم، أتباع يتبعون رؤساءهم المضلين، من شياطين الإنس والجن، وهم المذكورون في قوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَبِعُوا كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآتَهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ}.

وإن منهم قادة هم رؤسائهم المتبوعون وهم المذكورون في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئَتَيْنِ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}.

وبين تعالى في موضع آخر أن من أنواع جدال الكفار، جدالهم للمؤمنين الذين استجابوا لله وأمنوا به وبرسوله، ليردوهم إلى الكفر بعد الإيمان، وبين بطلان حجة هؤلاء، وتوعدهم بغضبه عليهم، وعذابه الشديد وذلك في قوله تعالى: {وَ لِلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا سَلَّجِبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}. قوله تعالى: {فَلَا يَعْزُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى بِلَادٍ}.

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة، ليشرع لأمته عن أن يغره قلب الذين كفروا في بلاد الله، بالتجارات والأرباح، والعافية وسعة الرزق، كما كانت قريش تفيض عليها الأموال من أرباح التجارات، وغيرها من رحلة الشتاء والصيف المذكورة في قوله تعالى: {إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ

وَالصَّيْفِ { أي إلى اليمن والشام وهم مع ذلك كفرة فجرة، يكذبون نبي الله ويعادونه.

والمعنى: لا تغتر بإنعام الله عليهم تقلبهم في بلاده، في إنعام وعافية فإن الله جل وعلا يستدرجهم بذلك الإنعام، فيمتعهم به قليلاً، ثم يهلكهم فيجعل مصيرهم إلى النار.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات من كتابه كقوله تعالى: { لَا يَعْرَتَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي لَيْلِدِمَتَعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ لِمَهَادُ }. وقوله تعالى: { وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ } وقوله تعالى: { قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتَّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ لِمَصِيرٍ } وقوله تعالى { قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَيَّ اللَّهُ لَكَذِبٌ لَا يَفْلِحُونَ مَتَعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } إلى غير ذلك من الآيات.

والفاء في قوله: فلا يغرك، سببية أي لا يمكن تقلبهم في بلاد الله. متنعمين بالأموال والأرزاق، سبباً لاغترارك بهم، فتظن بهم ظناً حسناً لأن ذلك التنعم، تنعم استدراج، وهو زائل عن قريب، وهم صائرون إلى الهلاك والعذاب الدائم. قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ }. قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر (كلمات) بصيغة الجمع المؤنث السالم وقرأه الباقون (كلمة ربك) بالإفراد.

وقد أوضحنا معنى الكلمة والكلمات فيما يماثل هذه الآية في سورة س، في الكلام على قوله تعالى. { لَقَدْ حَقَّ لِقَوْلٍ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهَمْ لَا يُؤْمِنُونَ }. قوله تعالى: { رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ لِيْئِنِ وَعَدَّوْهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ }. لم يبين هنا الآية المتضمنة لوعدهم بالجنات، هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

ولكنه جل وعلا أوضح وعده إياهم بذلك في سورة الرعد في قوله تعالى: { وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ }.

{ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي نَدْعُوكَ بِهَا وَإِنَّا لَنَدْعُوكَ بِالْحَسَنَةِ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ } * دَلِكُمْ بِأَيْهِ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَقَرْنِهِ وَإِنْ يَشْرِكْ بِهِ تَأْمِينًا وَتَحْقِيقًا * وَهُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * وَدَاعُوا اللَّهَ مَخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ

يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ *
يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنْ لِمَلِكٍ لِيَوْمَ
لِلَّهِ لِيُجِدَ لِقَهَّارٍ * لِيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ لِيَوْمَ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ لِحِسَابٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى
الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ
خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ لِعِقَابِ *
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَانَ
وَقَسَبُوا بِقَالِهِمْ كَذَابٍ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا
قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ
رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ *
وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ {

قوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا فِئْتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا فِئْتَيْنِ}. التحقيق
الذي لا ينبغي العدول عنه، أن المراد بالإماتتين في هذه الآية
الكريمة، الإمامة الأولى، التي هي كونهم في بطون أمهاتهم نطفاً
وعلقاً، ومضغاً. قبل نفخ الروح فيهم، فهل قبل نفخ الروح فيهم لا
حياة لهم، فأطلق عليهم بذلك الاعتبار اسم الموت.
والإمامة الثانية هي إماتتهم وصيرورتهم إلى قبورهم عند انقضاء
أجالهم في دار الدنيا.

وأن المراد بالإحياءتين، الإحياءة الأولى في دار الدنيا، والإحياءة
الثانية، التي هي البعث من القبور إلى الحساب، والجزاء والخلود
الأبدي، الذي لا موت فيه، إما في الجنة وإما في النار.
والدليل من القرآن على أن هذا القول في الآية هو التحقيق، أن
الله صرح به واضحاً في قوله جل وعلا {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ
أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} وبذلك تعلم
أن ما سواه من الأقوال الآية لا معول عليه.

والأظهر عندي أن المسوغ الذي سوغ إطلاق اسم الموت على
العلقة، والمضغة مثلاً، في بطون الأمهات، أن عين ذلك الشيء،
الذي هو نفس العلقة والمضغة، له أطوار كما قال تعالى: {وَقَدْ
خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا} {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ
خَلْقٍ}، ولما كان ذلك الشيء، تكون فيه الحياة في بعض تلك

الأطوار، وفي بعضها لا حياة له، صح إطلاق الموت والحياة عليه من حيث إنه شيء واحد، ترتفع عنه الحياة تارة وتكون فيه أخرى، وقد ذكر له الزمخشري مسوغاً غير هذا، فانظره إن شئت. قوله تعالى: { وَ عَتَرْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ } . قد بين جل وعلا في غير هذا الموضع، أن الاعتراف بالذنب في ذلك الوقت لا ينفع، كما قال تعالى: { وَ عَتَرُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُخِّقُوا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ } وقال تعالى { رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا وَ رَاجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ } إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: فهل إلى خروج من سبيل، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى { يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ لِيَذِبَن نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ لِيذِي كُنَّا نَعْمَلُ } . قوله تعالى: { ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا } . قد تقدم الكلام عليه في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى { إِنِّي كَذَلِك تَفَعَّلْتُ بِالْمُجْرِمِينَ } . قوله تعالى: { وَلِحُكْمِ اللَّهِ الْعَلِيِّ لِكَبِيرٍ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: { وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } . قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه جل وعلا هو الذي يري خلقه آياته، أي الكونية القدرية ليجعلها علامات لهم على ربوبيته، واستحقاقه العبادة وحده ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر كما قال تعالى: { وَمِن آيَاتِهِ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } . ومنها السماوات والأرضون، وما فيهما والنجوم، والرياح والسحاب، والبحار والأنهار، والعيون والجبال والأشجار وأثار قوم هلكوا، كما قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } إلى قوله { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } . وقال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ } . وقال تعالى: { إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ } وَمَا يَبْتِغُونَ مِنَ الْحَقِّ مِنَ اللَّهِ وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَّا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لَئِن لَّمْ يَظْهَرُوا عَلَيْنَا لِنَعْلَمَنَّهُمْ لَوَّى جُنُودَهُمْ بِأَنَّ هُمْ يُكْفِرُونَ } .

وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن هذه، من أنه هو الذي يري خلقه آياته، بينه وزاده إيضاحاً في غير هذا الموضع، فبين أنه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن

ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق، كما قال تعالى:
{سُئِرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَوَأَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
لِحَقِّ}.

والآفاق جمع أفق وهو الناحية، والله جل وعلا قد بين من غرائب
صنعه، وعجائبه، في نواحي سماواته وأرضه، ما يتبين به لكل عاقل
أنه هو الرب المعبود وحده. كما أشرنا إليه، من الشمس والقمر
والنجوم والأشجار والجبال، والدواب والبحار، إلى غير ذلك.
وبين أيضاً أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئاً منها
تسخيره لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها، وينتفعوا بألبانها،
وزبدها وسمنها، وأقطها ويلبسوا من جلودها، وأصوافها وأوبارها
وأشعارها، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجُلُودِ مَا يَلْبَسُونَ وَأَمَّا الْجِبَالُ فَوَعِيدٌ
مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَذُرِّيَّةٌ مِنْهَا يَخْشَوْنَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعَاصِينَ} صُذُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ لُفْلُكٍ تَحْمَلُونَ تَوْبِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيُّ ءَايَاتِ اللَّهِ
تُنْكِرُونَ}.

وبين في بعض المواضع، أن من آياته التي يريها بعض خلقه،
معجزات رسله، لأن المعجزات آيات، أي دلالات، وعلامات على
صدق الرسل، كما قال تعالى في فرعون {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا
فَكَذَّبَ وَابْتَدَىٰ} وبين في موضع آخر، أن من آياته التي يريها خلقه،
عقوبته المكذبين رسله، كما قال تعالى في قصة إهلاكه قوم لوط
{وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

وقال في عقوبته فرعون وقومه بالطوفان والجراد والقمل الخ:
{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطُوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ
مَّفَصَّلَاتٍ}. قوله تعالى: {وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}. أطلق
جل وعلا في هذه الآية الكريمة، الرزق وأراد المطر، لأن المطر
سبب الرزق، وإطلاق المسبب وإرادة سببه لشدة الملازمة بينهما،
أسلوب عربي معروف، وكذلك عكسه الذي هو إطلاق السبب
وإرادة المسبب كقوله: أكنت دماً إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى
القرط طيبة النشر

فأطلق الدم وأراد الدية، لأنه سببها.

وقد أوضحنا في رسالتنا المسماة: منع جواز المجاز، في المنزل
للتعب والإعجاز، أن أمثال هذا أساليب عربية، نطقت بها العرب
في لغتها، ونزل بها القرآن، وأن ما يقوله علماء البلاغة من أن في
الآية ما يسمونه المجاز المرسل الذي يعدون من علاقاته السببية
والمسببية، لا داعي إليه، ولا دليل عليه، يجب الرجوع إليه.
وإطلاق الرزق في آية المؤمن هذه على المطر جاء مثله، في غير
هذا الموضع كقوله تعالى في أول سورة الجاثية {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

مِنَ السَّمَاءِ مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} فأوضح بقوله {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أن مراده بالرزق المطر، لأن المطر هو الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها.

وقد أوضح جل وعلا، أنه إنما سمي المطر رزقاً، لأن المطر سبب الرزق، في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالى في سورة البقرة {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ}، والباء في قوله فأخرج به سببية كما ترى.

وكقوله تعالى في سورة إبراهيم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ}، وقوله تعالى في سورة و: {وَتَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَآبَيْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ لِحَصِيدِ النَّخْلِ بِسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ}.

وبين في آيات أخر أن الرزق المذكور، شامل لما يأكله الناس، وما تأكله الأنعام، لأن ما تأكله الأنعام، يحصل بسببه للناس الانتفاع بلحومها، وجلودها وألبانها، وأصوافها وأوبارها، وأشعارها، كما تقدم كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} وقوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}.

فقوله: فيه تسيمون، أي تتركون أنعامكم سائمة فيه تأكل منه من غير أن تتكلفوا لها مؤونة العلف كما تقدم إيضاحه بشواهد العربية، في سورة النحل وكقوله تعالى {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَرَجَعُوا إِلَى الْأَرْضِ رِزْقًا لَّكُمْ} وقوله تعالى: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَجِبَالًا آرْسَهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَآتِعْمِكُمْ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الناس ما يتذكر منهم، أي ما يتعظ بهذه الآيات المشار إليها في قوله: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ} أي من رزقه الله الإنابة إليه.

والإنابة: الرجوع عن الكفر والمعاصي، إلى الإيمان والطاعة. وهؤلاء المنيبون، المتذكرون، المتعظون، هم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، المذكورين في قوله تعالى في أول سورة آل عمران {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} وفي قوله تعالى في سورة إبراهيم {وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلْيَذَكَّرِ أُولُو الْأَلْبَابِ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دلت آية المؤمن هذه، وما في معناها من الآيات، على أن غير أولي الألباب المتذكرين المذكورين أنفاً، لا يتذكر ولا يتعظ بالآيات، بل يعرض عنها أشد الإعراض.

وقد جاء هذا المعنى موضحاً، في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}. وقوله تعالى: {وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ} وقوله {وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ}.

وقوله تعالى: {قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} وقوله {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّن آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} في الأنعام، هو إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}. قد

قدمنا الكلام على نحوه من الآيات في أول سورة الزمر، في الكلام على قوله {وَاعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} الذي

لخالص. قوله تعالى: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى {يُنزِّلُ لِمَلَأِكَةٍ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ}. وقوله تعالى في آية المؤمن هذه {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ} جاء مثله في آيات كثيرة، كقوله في بروزهم ذلك اليوم {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ لَوْاحِدٍ الْقَهَّارِ} وقوله تعالى {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا}.

وكقوله في كونهم لا يخفى على الله منهم شيء ذلك اليوم {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}. وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ}. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد بينها في

أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى {أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ}، وذكرنا طرفاً من ذلك، في أول سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى {عَلِمَ لَغَيْبٍ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}. قوله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ يُلقَوْنَ لَدَىٰ لِحَاجِرِ كَظِيمِينَ}. الإنذار، والإعلام

المقترن بتهديد خاصة، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً. وقد أوضحنا معنى الإنذار وأنواعه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْذَارٌ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكُمْ حَرْجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ}.

والظاهر أن قوله هنا {يَوْمَ الْأَرْزَاقِ} هو المفعول الثاني للإنذار لا ظرف له لأن الإنذار والتخويف من يوم القيامة، واقع في دار الدنيا.

والآزفة القيامة. أي أُنذِرهم يوم القيامة، بمعنى خوفهم إياه
وهدهم بما فيه من الأهوال العظام ليستعدوا لذلك في الدنيا
بالإيمان والطاعة.

وإنما عبر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها أي قربها، والعرب تقول:
أزف الترحل بكسر الزاي، يأزف بفتحها، أزفا بفتحيتين، على
القياس، وأزوفا فهو أزف، على غير قياس، في المصدر الأخير،
والوصف بمعنى قرب وقته وحن وقوعه، ومنه قول نابغة ذبيان:
أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

ويروى أفد الترحل، ومعناهما واحد.
والمعنى { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ } أي يوم القيامة القريب مجيؤها
ووقوعها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من اقتراب قيام الساعة، جاء
موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى { أَزَقَتِ الْأَزْفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ
اللَّهِ كَاشِفَةٌ } وقوله تعالى { فُتِّرَتِ السَّاعَةُ } وقوله تعالى
{ فُتِّرَبَ لِلنَّاسِ حِسْبُهُمْ } وقوله تعالى في الأحزاب: { وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا } وقوله تعالى في الشورى { وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ }.

وقد قدمنا هذا في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى
{ أَتَى أَمْرٌ لِلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ
كَظْمِينَ } الظاهر فيه، أن إذ، بدل من يوم، وعليه فهو من قبيل
المفعول به، لا المفعول فيه، كما بينا آنفاً.
والقلوب: جمع قلب وهو معروف.

ولدى: ظرف بمعنى عند.

والحناجر: جمع حنجرة وهي معروفة.

ومعنى كون القلوب لدى الحناجر، في ذلك الوقت فيه لعلماء
التفسير وجهان معروفان.

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، من أن قلوبهم يومئذ، ترتفع من
أماكنها في الصدور، حتى تلتصق بالحلوق، فتكون لدى الحناجر، فلا
هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في
الصدور فيتنفسوا. وهذا القول هو ظاهر القرآن.

والوجه الثاني: هو أن المراد بكون القلوب، لدى الحناجر، بيان
شدة الهول، وفضاعة الأمر، وعليه فالآية كقوله تعالى: { وَإِذْ رَأَعَتِ
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ
الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا } وهو زلزال خوف وفزع لا زلزال
حركة الأرض.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {كَظِيمِينَ} معناه مكروبين
ممتلئين خوفاً وغماً وحزناً.

والكظم: تردد الخوف والغيط والحزن في القلب حتى يمتلىء
منه، ويضيق به.

والعرب تقول: كظمت السقاء إذا ملأته ماء، وشددته عليه.
وقول بعضهم كاظمين، أي ساكتين، لا ينافي ما ذكرنا، لأن الخوف
والغم الذي ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام، فلا يقدرُونَ عليه، ومن
إطلاق الكظم على السكوت قول العجاج: وربّ أسراب حجيح
كظم عن اللغا ورمث التكلم

ويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال: كاظمين أي لا يتكلمون
إلا من أذن له الله، وقال الصواب، كما قال تعالى: {لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا
مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}.

وقوله: {كَظِيمِينَ} حال من أصحاب القلوب على المعنى.
والتقدير إذ القلوب لدى الحناجر أي إذ قلوبهم لدى حناجرهم في
حال كونهم كاظمين، أي ممتلئين خوفاً وغماً وحزناً، ولا يبعد أن
يكون حالاً من نفس القلوب، لأنها وصفت بالكظم الذي هو صفة
أصحابها.

ونظير ذلك في القرآن: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} فإنه أطلق في هذه الآية الكريمة،
على الكواكب والشمس والقمر صفة العقلاء في قوله تعالى:
{رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}، والمسوغ لذلك وصفه الكواكب والشمس
والقمر بصفة العقلاء التي هي السجود.

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى {إِن تَشَاءُ نُنزِّلُ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً
فَضَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} وقوله تعالى: {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}.
قوله تعالى: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ}. قد قدمنا
الكلام عليه في سورة البقرة وسورة الأعراف، وأحلنا عليه مراراً.
قوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}. قد قدمنا
الكلام على ما يماثله من الآيات في أول سورة هود، وفي غيرها
وأحلنا عليه أيضاً مراراً. قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقَسْرُونَ فَقَالُوا سَحِرٌ
كَذَّابٌ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه
موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بآياته وحججه الواضحة
كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه، وزعموا
أنه ساحر.

وأوضح هذا المعنى، في آيات كثيرة كقوله تعالى عن فرعون
وقومه: {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا}، وقوله تعالى

عن فرعون { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ لِيَذِي عَلَمِكُمْ } السَّحَرُ. وقوله تعالى: { قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي نَبِيٌّ لِّقَوْمِي } والآيات بمثل ذلك كثيرة. وقد بينها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: { وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ }. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، عاذ بربه، أي اعتصم به، وتمنع من كل متكبر، أي متصف بالكبر، لا يؤمن بيوم الحساب، أي لا يصدق بالبعث والجزاء.

وسبب عياد موسى بربه المذكور، أن فرعون قال لقومه: { دَرَوْا أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ } وَأَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ }.

فعياد موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون، لأن فرعون لا شك أنه متكبر، لا يؤمن بيوم الحساب فهو داخل في الكلام دخولاً أولياً، وهو المقصود بالكلام.

وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن هذه، من عياد موسى بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون، وعتاة قومه، ذكر نحوه في سورة الدخان في قوله تعالى عن موسى مخاطباً فرعون وقومه: { وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ }.

{ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صِدْقًا يُضَيِّبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَقَوْمِ لَكُمْ لِمُلْكِ لَيَوْمَ ظَهَرِيَّةٍ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ * مِثْلَ يَوْمِ أُوحٍ وَعَادٍ وَنَمُودٍ وَآدَمَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَهِيَ تُضَلِّلُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانَ أَتَاهُمْ كَبْرًا مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ إِنِّي لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَىٰ آلِهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَقَوْمِ إِنِّي لَأَظُنُّكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * }

يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ لِحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ *
 مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن دَكْرٍ أَوْ
 أَشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ *
 وَيَقُومُ مَا إِلَىٰ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونِي
 لِأَكْفَرُ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ
 الْعَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
 الْأَخِرَةِ وَأَنْ مَّرِيتَ إِلَى اللَّهِ وَإِن لِّمُسِيرِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ *
 فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
 بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَخَاقٍ بَالٍ فِرْعَوْنَ سَوْءِ
 الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 أَدْخِلْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ }

قوله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ}.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتُم إيمانه، أي يخفي عنهم أنه مؤمن، أنكر على فرعون وقومه إرادتهم قتل نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، حين قال فرعون {دَرُودٍ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ}. مع أنه لا ذنب له، يستحق به القتل، إلا أنه يقول: ربي الله.

وقد بين في آيات أخر أن من عادة المشركين قتل المسلمين، والتنكيل بهم، وإخراجهم من ديارهم من غير ذنب، إلا أنهم يؤمنون بالله ويقولون: ربنا الله، كقوله تعالى في أصحاب الأخدود، الذين حرقوا المؤمنين {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا فُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودًا وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} وقوله تعالى {إِذْ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ لَقَدِيرٌ لِّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ}. وقوله تعالى: عن الذين كانوا سحرة لفرعون، وصاروا من خيار المؤمنين، لما هددهم فرعون قائلاً: {لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} أنهم أجابوه، بما ذكره الله عنهم، في قوله: {قُلْ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا نَنفَعُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا} إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية من جماعة فرعون كما هو ظاهر قوله تعالى: «من آل فرعون». فدعوى أنه إسرائيلي، وأن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا. وأن من آل فرعون متعلق ببيكتم، أي وقال رجل مؤمن يكتُم إيمانه من آل فرعون أي يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خلاف التحقيق كما لا يخفى.

وقيل: إن هذا الرجل المؤمن هو الذي قال لموسى { إِنَّ لِمَلَأَ
يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ وَخَرُجْ } وقيل غيره.
واختلف العلماء في اسمه اختلافاً كثيراً فقيل: اسمه حبيب، وقيل
اسمه شمعان، وقيل اسمه حزقيل، وقيل غير ذلك ولا دليل على
شيء من ذلك.

والظاهر في إعراب المصدر المنسب من أن وصلتها في قوله
تعالى، في هذه الآية الكريمة، أن يقول ربي الله، أنه مفعول من
أجله.

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه في تفسير هذه الآية
الكريمة: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا
الأوزاعي قال حدثني يحيى بن أبي كثير قال حدثني محمد بن
إبراهيم التيمي حدثني عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو
بن العاص أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله
عليه وسلم قال: «بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي
بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً
فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله قد جاءكم بالبينات
من ربكم». قوله تعالى: { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ }. الظاهر أن أرى في هذه الآية الكريمة
علمية، عرفانية، تتعدى لمفعول واحد، كما أشار له في الخلاصة
بقوله: لعلم عرفان وظنّ تهمة تعدية لواحد ملتزمة

وعليه فالمعنى: قال فرعون ما أعلمكم وأعرفكم، من حقيقة
موسى وأنه ينبغي أن يقتل، خوف أن يبدل دينكم، ويظهر الفساد
في أرضكم، إلا ما أرى أي أعلم وأعرف أنه الحق والصواب فما
أخفى عنكم خلاف ما أظهره لكم، وما أهدىكم بهذا إلا سبيل
الرشاد، أي طريق السداد والصواب.
وهذان الأمران اللذان ذكر تعالى عن فرعون أنه قالهما في هذه
الآية الكريمة، قد بين في آيات أخر أن فرعون كاذب في كل واحد
منهما.

أما الأول منهما وهو قوله: { مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ } فقد بين تعالى
كذبه فيه في آيات من كتابه وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات
التي جاءه بها موسى حق، وأنها ما أنزلها إلا الله، وأنه جدها هو
ومن استيقنها معه من قومه ليستخفوا بها عقول الجهلة منهم
كقوله تعالى في سورة النمل { وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ نُورٍ فِي تَسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَسَقَيْنَهَا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتِنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا
وَ سَتَّيْقَنَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَ لَطُرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
لِمُفْسِدِينَ } .

فقوله تعالى: في هذه الآية { وَجَحَدُوا بِهَا وَ سَتَّيْقَنَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا
وَ عُلُوًّا } دليل واضح على أن فرعون كاذب في قوله: { مَا أَرِيكُمْ إِلَّا
مَا أَرَى } .

وكقوله تعالى في سورة بني إسرائيل: { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ
هُؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرِعُونَ
مُتَبَوِّرًا } يقول نبي الله موسى لفرعون { لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ
هُؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ } مؤكداً إخباره بأن فرعون
عالم بذلك بالقسم، وقد دل أيضاً على أنه كاذب في قوله: ما
أريكم إلا ما أرى.

وكان غرض فرعون بهذا الكذب، التديس والتمويه ليظن جهلة
قومه، أن معه الحق، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله:
{ وَ سَتَّخَفَّ قَوْمَهُ قَاطِعًا عَوَّهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ } .
وأما الأمر الثاني وهو قوله: { وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } فقد
بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه كقوله تعالى: { قَالَتَبَا أَمْرٌ
فِرْعَوْنٌ وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنٌ بِرَشِيدٍ } . وقوله تعالى: { وَأَصَلَ فِرْعَوْنُ
قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } .

وقال بعض العلماء في قوله: { مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى } أي ما أشير
عليكم إلا بما أرى لنفسي، من قتل موسى. والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: { مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا } . هذه الآية
الكريمة، وأمثالها من الآيات الدالة عن أن السيئات لا تضاعف، ولا
تجزى إلا بمثلها بينها وبين الآيات الأخرى الدالة على أن السيئات
ربما ضوعفت في بعض الأحوال، كقوله تعالى في نبينا صلى الله
عليه وسلم { إِذَا لَادَفْتِكَ ضِعْفَ لِحَيَوَةٍ وَضِعْفَ لِمَمَاتٍ } وقوله
تعالى في نساءه رضي الله عنهن { يُنْسَاءَ اللَّيِّئِ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ
بِقَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا لِعَذَابٍ ضِعْفَيْنِ } أشكال معروف.
وقد قدمنا الجواب عنه موضحاً في سورة النمل، في الكلام على
قوله تعالى: { وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ
تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . قوله تعالى: { وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ
ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ قَاوَلِيكَ يَدْخُلُونَ لِحَنَّةٍ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ } . قد أوضحنا معنى هذه الآية الكريمة، وبيننا العمل الصالح
بالآيات القرآنية، وأوضحنا الآيات المبينة لمفهوم المخالفة، في
قوله: { وَهُوَ مُؤْمِنٌ } في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك،
في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً}. وفي أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كَثُرَ فِيهِ أَبَدًا}. قوله تعالى: {وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونِي لَأُكْفِرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}. الظاهر أن جملة قوله تدعونني لأكفر بالله، بدل من قوله: وتدعونني إلى النار، لأن الدعوة إلى الكفر بالله والإشراك به دعوة إلى النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفر والإشراك بالله مستوجب لدخول النار، بينه تعالى في آياته كثيرة من كتابه كقوله: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ}، وقد قدمنا ما فيه كفاية من ذلك، في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ}. قوله تعالى: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصُّ أَمْرًا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوْقَهُ اللَّهُ سَبِّحَاتِ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِالْأَلْفِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ}. التحقيق الذي لا شك فيه، أن هذا الكلام، من كلام مؤمن آل فرعون الذي ذكر الله عنه، وليس لموسى فيه دخل.

وقوله {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ}، يعني أنهم يوم القيامة، يعلمون صحة ما كان يقول لهم، ويذكرون نصيحته، فيندمون حيث لا ينفع الندم، والآيات الدالة على مثل هذا من أن الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به في الدنيا كثيرة، كقوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ أَحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ تَبَاءُ مُسْتَقَرًّا وَسُوْفَ تَعْلَمُونَ} وقوله تعالى: {وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاءُ بَعْدَ حِينٍ} وقوله تعالى: {كَلَّا سَيَعْلَمُوْنَ} وقوله تعالى: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} وقوله تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ لِيَوْمٍ حَدِيدٍ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَأَفَؤُصُّ أَمْرًا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوْقَهُ اللَّهُ سَبِّحَاتِ مَا مَكُرُوا} دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله، وتفويض الأمور إليه، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، كقولهم سها فسجد، أي سجد لعله سهوه، وسرق فقطعت يده، أي لعله سرقته، كما قدمناه مراراً.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون التوكل على الله سبباً للحفظ، والوقاية من سوء، جاء مبيناً في آيات أخر، كقوله تعالى {وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}. وقوله تعالى: {لَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ لَقَالُوا بِنِعْمَةِ مَنِ اللَّهُ وَقَضَىٰ لَمْ
يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ.

وقد ذكرنا الآيات الدالة على ذلك بكثرة، في أول سورة بني
إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى {أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكِيلًا}.

والظاهر أن ما في قوله {سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَرُوا} مصدرية، أي فواقه
الله سيئات مكرهم، أي أضرار مكرهم وشدائده، والمكر: الكيد.
فقد دلت هذه الآية الكريمة، على أن فرعون وقومه أرادوا أن
يمكروا بهذا المؤمن الكريم وأن الله وقاه، أي حفظه ونجاه، من
أضرار مكرهم وشدائده بسبب توكله على الله، وتفويضه أمره
إليه.

وبعض العلماء يقول: نجاه الله منهم مع موسى وقومه وبعضهم
يقول: صعد جبلاً فأعجزهم الله عنه ونجاه منهم، وكل هذا لا دليل
عليه، وغاية ما دل عليه القرآن أن الله وقاه سيئات مكرهم، أي
حفظه ونجاه منها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ
الْعَذَابِ} معناه أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن، وقاه الله
مكرهم، ورد العاقبة السيئة عليهم، فرد سوء مكرهم إليهم، فكان
المؤمن المذكور ناجياً، في الدنيا والآخرة وكان فرعون وقومه
هالكين، في الدنيا والآخرة والبرزخ.
فقال في هلاكهم في الدنيا: {وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ}، وأمثالها من
الآيات.

وقال في مصيرهم في البرزخ {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا
وَعَشِيًّا}.

وقال في عذابهم في الآخرة: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلْ آلَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من حيق المكر السييء، بالماكر
أوضحه تعالى في قوله {وَلَا يَحِيقُ لِمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ}.
والعرب تقول حاق به المكروه يحيق به حيقاً وحيوقاً، إذا نزل به
وأحاط به، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة.

يقال حاق به السوء والمكروه، ولا يقال حاق به الخير، فمادة
الحيق من الأجوف الذي هو يائي العين، والوصف منه حائق على
القياس، ومنه قول الشاعر: فأوطأ جُرد الخيل عقر ديارهم وحاق
بهم من يأس ضبة حائق

وقد قدمنا أن وزن السيئة بالميزان الصرفي، فيعلة من السوء
فأدغمت ياء الفيعة الزائدة في الواو، التي هي عين الكلمة، بعد

إبدال الواو ياء على القاعدة التصريفية المشار إليها، في الخلاصة بقوله:

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عربيا
فياء الواو فليين مدغما وشد معطي غير ما قد رسما
{وَإِذْ يَتَخَاوُونَ فِي النَّارِ قِيْلُ الصَّعْقَاءُ لِلَّذِينَ لَسْتُمْ كُنْتُمْ
لَكُمْ تَبَعًا قَهْلُ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عِنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ لَّذِينَ
لَسْتُمْ كُنْتُمْ إِنْ كُلِّ فِيهَا إِنْ أَللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ لَّذِينَ فِي
النَّارِ لِحَزْبِهِ جَهَنَّمَ لَأُعْوَا رَيْبَكُمْ يَخْفَوْا عِنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالَ
أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا وَ لَأُعْوَا وَمَا دُعَاءُ
لِكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنْهَا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ لَّذِينَ ءَامَنُوا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ لِأَشْهَادٍ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ
وَلَهُمْ لِلْعَذَابِ وَلَهُمْ نَوْءُ الدَّارِ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرثْنَا
بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدَى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ * وَ طَبِيرٌ إِنْ وَعَدَ
إِلَهُ حَقٌّ وَ سَتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَيَسْبِغُ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ * إِنْ
لَّذِينَ يَجِدُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بَغْيًا يُغْفِرُ لَهُمْ إِنْ هُمْ إِذْ يَصُدُّوهُمْ
إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ وَ سَتَعْدُ بِاللَّهِ أَنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ
السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ لَبْصِيرٌ وَ لَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَلَا أَلْمُزِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنْ السَّاعَةَ لَأْتِيَهُ لَا
رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِ
أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنْ لَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دُخْرِينَ * اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنْ اللَّهُ لِيذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ *
ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُؤْفَكُونَ *
كَذَلِكَ يُؤْفِكُ لَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ
لَكُمْ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسِنَ صُورَكُمْ
وَ رَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
* هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَ لُعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِحَمْدِ اللَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ لَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأَمُرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * هُوَ
لِيذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا
ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشْدَكُكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ
وَلِيَبْلُغُوا أَجْلًا مُّسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ لِيذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا
فَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * أَلَمْ تَرَ إِلَى لَّذِينَ يَجِدُونَ
فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ * لَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ
رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذْ أَلْعَلُّوا فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ
يُسْحَبُونَ * فِي لِحَمِيمٍ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا

كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا بَل لِمَ تَكُنْ تَدْعُوا
 مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
 خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى لِمُتَكَبِّرِينَ * وَظَهَرَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا
 فَمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ لِيذَى تَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْتُكَ قَالَيْنَا يُرْجَعُونَ {

قوله تعالى:

{ وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ قِيْلُ لِلصُّعْقَاءِ الَّذِينَ لَسْتُمْ كُنْتُمْ
 لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا تَصِيْبًا مِّنَ النَّارِ قَالِ الَّذِينَ لَسْتُمْ كُنْتُمْ
 إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ { قوله تعالى { يَتَحَاوُونَ
 فِي النَّارِ } أصله يتفاعلون من الحجة أي يختصمون، ويحتج
 بعضهم على بعض، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في
 آيات من كتاب الله، كقوله تعالى { إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ {
 وقوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ
 بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ لِّقَوْلِ لَقَوْلٍ يَقُولُ الَّذِينَ سُبِّحُوا لِلَّذِينَ سُبِّحُوا
 لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالِ الَّذِينَ سُبِّحُوا لِلَّذِينَ لَسْتُمْ كُنْتُمْ
 صَادِقَاتُكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَل كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ قَالِ الَّذِينَ
 سُبِّحُوا لِلَّذِينَ سُبِّحُوا بَل مَكْرٌ لَّيْلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ
 نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَتَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا { وقوله تعالى: { كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ
 آخِثَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأَوْلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
 أَضَلُّونَا فَأْتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا
 تَعْلَمُونَ قَالَتْ أَوْلَهُمْ لَأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا
 الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ { وقوله تعالى، { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ
 الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا { وقوله تعالى:
 { وَتَبَرَّأُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْقَاءُ لِلَّذِينَ لَسْتُمْ كُنْتُمْ تَبَعًا
 فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ
 لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ وَقَالَ
 الشَّيْطَانُ لِمَا فَضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ لِحَقِّكُمْ وَوَعَدْتُمْ
 فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ
 لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ لَمْ أَنفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ { والآيات بمثل هذا
 كثيرة، وقد قدمنا الكلام عليها في مواضع متعددة من هذا الكتاب
 المبارك. قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا
 رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ { ذكر جل وعلا في هذه الآية
 الكريمة، أن أهل النار طلبوا من خزنة جهنم أن يدعو لهم الله أن
 يخفف عنهم من شدة عذاب النار.

وقد بين في سورة الزخرف أنهم نادوا مالكا خاصة، من خزنة أهل النار، ليقضي الله عليهم، أي ليميتهم فيستريحوا بالموت من عذاب النار.

وقد أوضح جل وعلا في آيات من كتابه، أنهم لا يحابون في واحد من الأمرين. فلا يخفف عنهم العذاب، الذي سألوا تخفيفه، في سورة المؤمن هذه.

ولا يحصل لهم الموت الذي سألوه في سورة الزخرف، فيقال تعالى في عدم تخفيف العذاب عنهم في هذه الآية. {قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} وقال تعالى {وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ} وقال تعالى: {قَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا}: وقال تعالى: {لَا يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}: وقال تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} وقال تعالى: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} وقال تعالى {لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ لِعَذَابٍ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}. وقال تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}.

وقال تعالى في عدم موتهم في النار: {لَا يُفَصِّلُ عَلَيْهِمْ قَيْمُوتًا}. وقال تعالى: {وَيَأْتِيهِ لَمُوتٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}. وقال تعالى: {كَلِمًا تَصِحُّ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}. وقال تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا لِيُفَاقِلْ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}. وقال تعالى: {وَيَتَجَنَّبُهَا لِشَقِّ لِذِي يَصَلَى النَّارَ لِكَبَرِهِمْ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}

ولما قالوا {لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} أجابهم بقوله: {قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ} قوله تعالى: {قَلْبًا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}. قد قدمنا الكلام عليه مع الآيات التي بمعناه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا}. قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ لِيُذِينَ ءَأَمَنُوا فِي حَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ } لَأَشْهَدُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: {وَكَايِنَ مَنْ نَبِيٌّ قَاتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ}، وذكرنا طرفاً من ذلك في الإصافات، في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا لِمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمْ لِمَنْصُورُونَ} وستأتي له زيادة إيضاح إن شاء الله في سورة المجادلة. قوله تعالى: {وَلَقَدْ ءَأْتَيْنَا مُوسَى لِهَدْيٍ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لِكِتَابِهِدَى وَذَكَرَى لِأُولَى } لَأَلْبَابِ}. اللام في قوله: {وَلَقَدْ ءَأْتَيْنَا مُوسَى لِهَدْيٍ} موطئة للقسم وصيغة الجمع في آتينا وأورثنا للتعظيم.

والمراد بالهدى ما تضمنه التوراة من الهدى في العقائد والأعمال:
وأورثنا بني إسرائيل الكتاب وهو التوراة، وقوله: هدى وذكرى
لأولي الألباب مفعول من أجله أي لأجل الهدى والتذكير.
وقال بعضهم: هدى حال، وورود المصدر المنكر حالاً معروفاً، كما
أشار له في الخلاصة بقوله: ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته
زيد طلع

وقال القرطبي: هدى بدل من الكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، وما
تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الله أنزل التوراة على موسى
وأنزل فيها الهدى لبني إسرائيل جاء موضحاً في آيات من كتاب
الله، كقوله تعالى: {وَأَتَيْنَا مُوسَى لِكِتَابٍ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي
إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا}. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى لِكِتَابٍ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي
إِسْرَائِيلَ}. وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ
بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} وقوله
تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى لِكِتَابٍ مِّن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا لِقُرُونِ
الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} وقوله تعالى:
{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى لِكِتَابٍ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}. وقوله تعالى:
{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} الآية.
إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا
كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ}. قد قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف، في
الكلام على قوله تعالى: {قَالَ وَ هَيْطُ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
فِيهَا}، وذكرنا هناك بعض النتائج السيئة الناشئة عن الكبر. قوله
تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}. قد
قدمنا أن هذه الآية من البراهين الدالة على البعث، وأوضحنا كل
البراهين الدالة على البعث بالآيات القرآنية بكثرة في سورة
البقرة، وسورة النحل، وأجلنا على مواضع ذلك مراراً. قوله تعالى:
{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَسْرِئُوا}. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة، وما يستوي
الأعمى والبصير، قد قدمنا الكلام عليه في سورة هود، في الكلام
على قوله تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالبَصِيرِ
وَالسَّمِيعِ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَسْرِئُوا} قد قدمنا إيضاح معناه بالآيات القرآنية،
في سورة حر في الكلام على قوله تعالى: {أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفَجَارِ}. قوله تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}.
قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُوا أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دُخْرِينَ}. قال بعض العلماء { ادْعُوا أَسْتَجِبْ لَكُمْ}: اعبدونني أثبكم من عبادتكم، ويدل لهذا قوله بعده: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دُخْرِينَ}.

وقال بعض العلماء: { ادْعُوا أَسْتَجِبْ لَكُمْ} أي اسألوني أعطكم. ولا منافاة بين القولين، لأن دعاء الله من أنواع عبادته. وقد أوضحنا هذا المعنى، وبيننا وجه الجمع بين قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} مع قوله تعالى: {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ} فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: {اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلٍ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ}. قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات

القرآنية، في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لَّبِثٍ فَاِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ}، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {فَاِنَّمَا قَصَصُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. وبيننا أوجه القراءة في قوله: فيكون هناك. قوله تعالى: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ}. لم يبين هنا جل وعلا عدد أبواب جهنم، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر، في قوله تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ}.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقِصْصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ فَصِطْرٌ لِّحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ * اللَّهُ الَّذِي

جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ لِقَابِكُمْ تُحْمَلُونَ *
وَبُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَرُّوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْيَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا
جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ رَأَيْتُم مُّسْتَهْزِئِينَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَلَّوْا بِآلِهِمْ وَخَدَّهُ
وَكَفَرْنَا بِمَا كَانُوا يُكْفَرُونَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا
بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ {
قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ تَقْضُصْ عَلَيْكَ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من
أن الله تبارك وتعالى قص على نبيه صلى الله عليه وسلم، أنباء
بعض الرسل، أي كنوح وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب،
وموسى، وأنه لم يقصص عليه أنباء رسل آخرين، بينه في غير
هذا الموضوع، كقوله في سورة النساء: {وَرِيسَالًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ
عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ تَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا}، وأشار إلى ذلك في سورة إبراهيم في قوله: {الْم يَأْتِكُمْ
نَبَأٌ لَّيِّنٌ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْم نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ لَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ رُسُلَهُمْ رُسُلَهُمْ رُسُلَهُمْ رُسُلَهُمْ
قوله تعالى: {وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ آلِ رَسٍّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ
كَثِيرًا} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
فُضِي بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ}. قوله هنا: فإذا جاء أمر الله
أي قامت القيامة، كما قدمنا إيضاحه في قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ
اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} أي فإذا قامت القيامة، قضى بين الناس
بالحق الذي لا يخالطه حيف ولا جور، كما قال تعالى: {وَأَشْرَقَتِ
الْأَرْضُ نُورَ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ}.

وقال تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّقِينَ مِنْ حَوْلِ عَرْشٍ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ}.

والحق المذكور في هذه الآيات: هو المراد بالقسط المذكور في
سورة يونس في قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ
فُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه إذا قامت القيامة يخسر
المبطلون، أوضحه جل وعلا في سورة الجاثية في قوله تعالى:
{وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدِ يَخْسِرُ
الْمُبْطِلُونَ}.

والمبطل هو: من مات مصراً على الباطل.

وخسران المبطلين المذكور هنا، قد قدمنا بيانه في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}. قوله تعالى: {اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى لِفُلِكٍ تُحْمَلُونَ}. قد قدمنا أن لفظة جعل، تأتي في اللغة العربية لأربعة معان، ثلاثة منها في القرآن. الأول: إتيان جعل بمعنى اعتقد، ومنه قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِمَلَيْكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا} أي اعتقدوهم إناثاً، ومعلوم أن هذه تنصب المبتدأ والخبر. الثاني: جعل بمعنى صير، كقوله: {حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِدِينَ} وهذه تنصب المبتدأ والخبر أيضاً. الثالث: جعل بمعنى خلق، كقوله تعالى: {لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} أي خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور. والظاهر، أن منه قوله هنا: {اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ} أي خلق لكم الأنعام، ويؤيد ذلك قوله تعالى: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ}، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا}. الرابع: وهو الذي ليس في القرآن جعل بمعنى شرع، ومنه قوله: وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني ثوبي فانهض نهض الشارب السكر

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، من الامتنان بهذه النعم الكثيرة، التي أنعم عليهم بها، بسبب خلقه لهم الأنعام وهي الذكور والإناث، من الإبل والبقر والضأن والمعز، كما قدمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله: والأنعام والحرث بينه أيضاً في مواضع أخر، كقوله تعالى: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ}. والدفء ما يتدفؤون به في الثياب المصنوعة من جلود الأنعام وأوبارها وأشعارها وأصوافها. وقوله تعالى: {جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقْمَاتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعَا إِلَىٰ حِينٍ}. وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ}. {وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشْرَبٌ}، وقوله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ}. وقوله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا

مَنْفَعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَىٰ لِقَالِكُمْ تُحْمَلُونَ}. وقوله تعالى: {وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ مِّمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ أَرْجُحَ مِنَ الصَّانِ لَيْسَ وَمِنَ لَمَعَزِ نَتْنٍ} - إلى قوله: - {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا} وقوله تعالى: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينًا أَرْجُحَ}. وقوله تعالى: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}. وقوله تعالى: {وَإِذْ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ لِقَالِكُمْ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}، إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}. قد ذكرنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، وبيننا مواضعها في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}. قوله تعالى: {قَلَمَ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: {أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامَتُمْ بِهِ ءَأَنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}، وفي سورة حر في الكلام على قوله تعالى {فَتَادَا وَوَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ}.

تم بحمد الله تفسير سورة غافر

تفسير سورة فصلت

{ح} * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتِهٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ وَ عَمَلْنَا إِنَّا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ وَ لَسْتَقِفُوا إِلَيْهِ وَ سَلْتَعْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * قُلْ أَتُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ قَوْقَهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ يَتَوَّأَنَّ لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ سَوَّيْنَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَعِقَةً مِّثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَتَمُودَ

* إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً قَالُوا بَمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ * فَأَمَّا عَادُ وَ سُلَيْمِيُّوَا فِي الْأَرْضِ بَعِيرٌ لِحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ {

قوله تعالى: {حم تنزيلٌ من الرّحمن الرّحيم}. قد قدمنا الكلام عليه وعلى نظائره من الآيات، في أول سورة الزمر. قوله تعالى: {كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ}. كتاب خبر مبتدأ محذوف، أي هذا كتاب، والكتاب، فعال بمعنى مفعول، أي مكتوب.

وإنما قيل له كتاب، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}. ومكتوب أيضاً في صحف عند الملائكة كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذِكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُفَى صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّزْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ}.

وقال تعالى في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، لما تضمنته الصحف المكتوب فيها القرآن: {رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قَيِّمَةٌ}.

وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة: {فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}. التفصيل ضد الإجمال، أي فصل الله آيات هذا القرآن، أي بينها وأوضح فيها ما يحتاج إليه الخلق، من أمور دينهم ودنياهم. والمسوغ لحذف الفاعل في قوله تعالى: {فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} هو العلم بأن تفصيل آيات هذا القرآن، لا يكون إلا من الله وحده. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب، جاء موضحاً في آيات أخر، مبيناً فيها أن الله فصله على علم منه وأن الذي فصله حكيم خبير، وأنه فصله ليهدي به الناس ويرحمهم، وأن تفصيله شامل لكل شيء، وأنه لا شك أنه منزل من الله كقوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} وقوله تعالى: {كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّي حَكِيمٌ خَبِيرٌ}. وقوله تعالى {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ لِكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وقوله تعالى {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} وقوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَىٰ حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} والآيات بمثل ذلك كثيرة. قوله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} وتذكيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون}. قوله: قرأنا عربياً قد تكلمنا عليه وعلى الآيات التي

بمعناه في القرآن في سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: {فُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، أي فصلت آياته، في حال كونه قرآناً عربياً لقوم يعلمون.

وإنما خصهم بذلك، لأنهم هم المنتفعون بتفصيله، كما خصهم بتفصيل الآيات في سورة يونس في قوله تعالى: {مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، وفي سورة الأنعام في قوله تعالى {قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَهَا لِيُذْأَنَسَّاكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَجِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا وجه تخصيص المنتفعين بالأمر المشترك دون غيرهم في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى {إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} وبيننا هناك أن تخصيصهم بالإنذار دون غيرهم، في آية فاطر هذه، وفي قوله تعالى في سورة {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ} وقوله في النازعات: {إِنَّمَا آيَاتُ مُنذِرٍ مِّنْ يَخْشَاهَا} وقوله في الأنعام {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ}. مع أن أصل الإنذار عام شامل للمذكورين وغيرهم كما يدل عليه قوله تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}.

وإنما خص المذكورين بالإنذار، لأنهم هم المنتفعون به، لأن من لم ينتفع بالإنذار، ومن لم يندر أصلاً سواء في عدم الانتفاع، كما قال الله تعالى {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}. وقوله تعالى، في هذه الآية الكريمة {بَشِيرًا وَنَذِيرًا} حال بعد حال. وقد قدمنا الكلام عليه وبعض شواهد العربية، في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى {لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ}. وبسطنا الكلام عليه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى {كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بقر في الكلام على قوله تعالى {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} وفي سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى {وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} أي لا يسمعون سماع قبول وانتفاع.

وقد أوضحنا ذلك بالآيات القرآنية في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ لِمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ أَلْصَّمَّ الدُّعَاءَ}. قوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}. ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار صرحوا للنبي صلى الله عليه وسلم، بأنهم لا يستجيبون له ولا يؤمنون به، ولا يقبلون منه ما جاءهم به فقالوا له قلوبنا التي نعقل بها، ونفهم في أكنة، أي أغطية.

والأكنة، جمع كنان، وهو الغطاء والغلاف الذي يغطي الشيء ويمنعه من الوصول إليه.

ويعنون أن تلك الأغطية، مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه صلى الله عليه وسلم، وقالوا إن في آذانهم التي يسمعون بها وقراً أي: ثقلاً وهو الصمم. وأن ذلك الصمم مانع لهم من أن يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً، ومما يقول، كما قال تعالى عنهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ لَعُوا فِيهِ}. وأن من بينهم وبينه حجاباً، مانعاً لهم من الاتصال والاتفاق، لأن ذلك الحجاب يحجب كلا منهما عن الآخر، ويحول بينهم وبين رؤية ما يبديه صلى الله عليه وسلم من الحق.

والله جل وعلا، ذكر عنهم هذا الكلام في معرض الذم، مع أنه تعالى صرح بأنه جعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وجعل بينهم وبين رسوله حجاباً، عند قراءته القرآن، قال تعالى في سورة بني إسرائيل: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}. وقال تعالى في الأنعام {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وقال تعالى في الكهف: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا}.

وهذا الإشكال الذي أشرنا إليه في هذه الآيات قوي، ووجه كونه مشكلاً ظاهراً، لأنه تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب في هذه الآية الكريمة من فصلت، وبين في الآيات الأخرى أن ما ذمهم على ادعائه واقع بهم فعلاً، وأنه تعالى هو الذي جعله فيهم.

فيقال: فكيف يذمون على قول شيء، هو حق في نفس الأمر، والتحقيق في الجواب عن هذا الإشكال، هو ما ذكرناه مراراً، من أن الله إنما جعل على قلوبهم الأكنة، وطبع عليها وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدى، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر، وتكذيب الرسل طائعين مختارين، فجزاهم

الله على ذلك الذنب الأعظم، طمس البصيرة، والعمى عن الهدى،
جزاء وفاقاً.

فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها الله عليهم، مجازة
لكفرهم الأول.

ومن جزاء السيئة، تمادي صاحبها في الضلال، ولله الحكمة البالغة
في ذلك.

والآيات المصرحة بمعنى هذا كثيرة في القرآن، كقوله تعالى:
{ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ }.

فقول اليهود في هذه الآية { قُلُوبُنَا غُلْفٌ } كقول كفار مكة:

{ قُلُوبُنَا } { فِي أَكِنَّةٍ } لأن الغلف، جمع أغلف وهو الذي عليه غلاف،
والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر.
وقد رد الله على اليهود دعواهم ببل التي هي للإضراب الإبطالي،
في قوله { بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ }.

فالباء في قوله: بكفرهم سببية، وهي دالة على أن سبب الطبع
على قلوبهم هو كفرهم، والأكنة والوقر والطبع كلها من باب واحد.
وكقوله تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ }، والفاء في قوله: فطبع سببية أي ثم كفروا،
فطبع على قلوبهم بسبب ذلك الكفر.

وقد قدمنا مراراً أنه تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل،
ومن المعلوم أن العلة الشرعية سبب شرعي.

وكذلك الفاء في قوله: { فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } فهي سببية أيضاً، أي
فطبع على قلوبهم، فهم بسبب ذلك الطبع لا يفقهون أي لا يفهمون
من براهين الله وحججه شيئاً.

وذلك مما يبين أن الطبع والأكنة يؤول معناهما إلى شيء واحد،
وهو ما ينشأ عن كل منهما من عدم الفهم.

لأنه قال في الطبع { فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ }.

وقال في الأكنة: { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ } أي كراهة
أن يفقهوه، أو لأجل ألا يفقهوه، كما قدمنا إيضاحه.

وكقوله تعالى: { فَلَمَّا زَاغَ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } فبين أن زيغهم
الأول، كان سبباً لإزاغة الله قلوبهم، وتلك الإزاغة قد تكون بالأكنة
والطبع والختم على القلوب.

وكقوله تعالى: { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } وقوله
تعالى: { وَتَقَلَّبُ أَعْيُنُهُمْ وَأَبْصَرُوا كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ }.
وقوله تعالى: { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى
رِجْسِهِمْ }.

وأيضاً هذا الجواب: أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم
{ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ

حِجَابٌ} يقصدون بذلك إخباره صلى الله عليه وسلم بأنهم لا يؤمنون به بوجه، ولا يتبعونه بحال، ولا يقرون بالحق الذي هو كون كفرهم هذا هو الجريمة، والذنب الذي كان سبباً في الأكنة، والوقر والحجاب.

فدعواهم كاذبة، لأن الله جعل لهم قلوباً يفهمون بها، وآذاناً يسمعون بها، خلافاً لما زعموا، ولكنه، سبب لهم الأكنة، والوقر والحجاب، بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا المعنى أوضحه رده تعالى على اليهود في قوله عنهم: {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}.

وقد حاول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة، الجواب على الإشكال المذكور فقال: فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار فقال في معرض الذم، وذكر أيضاً ما يقرب منه في معرض الذم، فقال: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معنى التقدير والإثبات في سورة الأنعام، فقال: {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آدَانِهِمْ وَقْرًا} فكيف الجمع بينهما؟ قلنا: إنه لم يقل ها هنا إنهم كذبوا في ذلك، إنما الذي ذمهم عليه، أنهم قالوا إذا إنا كنا كذلك، لم يجر تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا، وهذا الثاني باطل.

أما الأول: فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه. اهـ منه. والأظهر: هو ما ذكرنا.

قال صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: {وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}.

فإن قلت: هل لزيادة: من في قوله: ومن بيننا وبينك حجاب فائدة؟ قلت: نعم.

لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين.

وأما بزيادة «مِنْ» فالمعنى: أن حجاباً ابتداءً منا وابتداءً منك. فالمسافة المتوسطة لجهتنا، وجهتك مستوعبة بالحجاب، لا فراغ فيها. انتهى منه.

واستحسن كلامه هذا الفخر الرازي وتعقبه ابن المنير على الزمخشري، فأوضح سقوطه والحق معه في تعقبه عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}،

وقد قدمنا تفسيره وإيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا}. قوله تعالى:

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ } . أمر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يقول للناس: { إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ } .

والقصر في قوله: { إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ } إضافي أي لا أقول لكم إني ملك، وإنما أنا رجل من البشر.

وقوله: { مِّثْلُكُمْ } في الصفات البشرية، ولكن الله فضلني بما أوحى إلي من توحيده.

كما قال تعالى عن الرسل في سورة إبراهيم: { قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } أي كان من علينا بالوحي والرسالة.

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ذكره في آخر سورة الكهف في قوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا } .

وقد أوضحنا وجه حصر ما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم، في مضمون لا إله إلا الله، في قوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفُضْوَانٌ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ } .

وبينا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك إنكار المشركين كون الرسل من البشر، وأنهم ينبغي أن يكونوا من الملائكة، وما رد الله عليهم به ذلك من الآيات القرآنية، أوضحنا ذلك في سورة حر، في الكلام على قوله تعالى: { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ } وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا } إلى قوله: { لَنَزَّلْنَا عَلَيَّهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا } . قوله تعالى: { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ لَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } . قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة،

على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة، بأنهم مشركون، وأنهم كافرون بالآخرة، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة، وعدم إيتائهم الزكاة، سواء قلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي.

ورجح بعضهم القول الأخير لأن سورة فصلت هذه، من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين، كما قدمناه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: { وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } .

وعلى كل حال، فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام.

أعني امثال أوامره واجتناب نواهيه، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من كونهم مخاطبين بذلك وأنهم يعذبون على الكفر، وبعذبون على المعاصي، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى عنهم مقررأً له: { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لِمَ نَكُ مِنْ لِمُصَلِّينَ لَمْ نَكُ نَطْعِمُ لِمَسْكِينِنَا نَحُوضُ مَعَ لِحَائِضِنَا نَكْذِبُ يَوْمَ لَدِينِنَا أَتْنَا لِيَقِينُ }.

فصرح تعالى عنهم، مقررأً له أن من الأسباب التي سلكتهم في سقر، أي أدخلتهم النار، عدم الصلاة، وعدم إطعام المسكين، وعدم ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين. ونظير ذلك قوله تعالى: { خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ لَجَّيْمَ صَلُّوهُنَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ } ثم بين سبب ذلك فقال: { إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ لِمَسْكِينِنَا لَهُ لِيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِيَابِينَ } إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { إِنَّ لِدِينِ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }. الأجر جزء العمل، وجزاء عمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، هو نعيم الجنة وذلك الجزاء غير ممنون، أي غير مقطوع، فالممنون اسم مفعول منه بمعنى قطعه، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته: لمعفر فهدي تنازع شلوة عبس كواسب ما يمن طعامها

فقوله: ما يمن طعامها أي ما يقطع، وقول ذي الأصبع: إني لعمرك ما بابي بذي غلق على الصديق ولا خيري بممنون

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن أجرهم غير ممنون، نص الله تعالى عليه في آيات آخر من كتابه، كقوله تعالى في آخر سورة الانشقاق { إِلَّا لِدِينِ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }. وقوله تعالى في سورة التين { إِلَّا لِدِينِ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } وقوله تعالى في سورة هود { وَإِنَّمَا لِدِينِ سَعِدُوا فِي لِحْتِهِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرُ مَجْذُودٍ }. فقوله: غير مجذود أي غير مقطوع، وبه تعلم أن غير مجذود وغير ممنون، معناهما واحد.

وقوله تعالى في حر { إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ تَقَادِرٍ } أي ماله ممن انتهاء ولا انقطاع. وقوله في النحل { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ }.

وهذا الذي ذكرنا هو الذي عليه الجمهور خلافاً لمن قال: إن معنى غير ممنون، غير ممنون عليهم به.

وعليه، فالمن في الآية من جنسي المن المذكور، في قوله تعالى: { لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ }.

ومن قال: إن معنى غير ممنون، غير منقوص، محتجاً بأن العرب تطلق الممنون على المنقوص، قالوا: ومنه قول زهير: فضل الجياد على الخيل البطاء فلا يعطي بذلك ممنوناً ولا ترقاً

فقوله ممنوناً أي منقوصاً.

وهذا وإن صح لغة، فالأظهر أنه ليس معنى الآية.

بل معناها: هو ما قدمنا. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى:

{ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ } . الظاهر أن معنى قوله هنا في أربعة أيام: أي في تتمة أربعة أيام.

وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط، لأنه تعالى قال: { قُلْ أَءَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } ثم قال في أربعة أيام، أي في تتمة أربعة أيام.

ثم قال: { فَخَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ } فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة، فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما، ستة أيام.

وهذا التفسير الذي ذكرنا في الآية لا يصح غيره بحال، لأن الله

تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات

والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله في الفرقان: { لِيذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ سَوَّوْا عَلَى

عَرْشِ الرَّحْمَنِ قَاسًا لَهُ بِهِ حَبِيرًا } . وقوله تعالى في السجدة

{ اللَّهُ لِيذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

سَوَّوْا عَلَى عَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ } .

وقوله تعالى في و. { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي

سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ } وقوله تعالى في الأعراف { إِنَّ

رَبَّكُمْ لِلَّهِ لِيذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ سَوَّوْا

عَلَى عَرْشِهِ } . إلى غير ذلك من الآيات.

فلو لم يفسر قوله تعالى { فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ } بأن معناه في تتمة

أربعة أيام، لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما

بينهما في ثمانية أيام، لأن قوله تعالى: { فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ } إذا فسر

بأنها أربعة كاملة ثم جمعت مع اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض

المذكورين في قوله { قُلْ أَءَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي

يَوْمَيْنِ } ، واليومين اللذين خلقت فيهما السماوات المذكورين في

قوله تعالى: { فَخَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ } لكان المجموع

ثمانية أيام.

وذلك لم يقل به أحد من المسلمين.
والنصوص القرآنية مصرحة بأنها ستة أيام، فعلم بذلك صحة التفسير الذي ذكرنا وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّن فَوْقِهَا} قد قدمنا الكلام على أمثاله من الآيات، في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ}، وقوله تعالى: {وَبَارَكَ فِيهَا} أي أكثر فيها البركات، والبركة الخير، وقوله تعالى {وَوَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَتَهَا}.
التقدير والخلق في لغة العرب معناهما واحد.
والأقوات جمع قوت، والمراد بالأقوات أرزاق أهل الأرض ومعايشهم وما يصلحهم.

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب: إن آية فصلت هذه، أعني قوله تعالى: {وَوَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَتَهَا} يفهم منها الجمع بين الآيات الدالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كقوله هنا {قُلْ أَءِنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} ثم رتب على ذلك بتم، قوله {ثُمَّ سُبَّتْ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} إلى قوله {فَقَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} مع بعض الآيات الدالة على أن السماء خلقت قبل الأرض، كقوله تعالى في النزعات: {أَأَنْتُمْ أَنْشَدْتُمْ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا} إلى قوله: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}.

فقلنا في كتابنا المذكور ما نصه: قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ سَبَّتْ إِلَى السَّمَاءِ}، هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء، بدليل لفظة التي هي للترتيب والانفصال.

وكذلك آية حم السجدة، تدل أيضاً على خلق الأرض قبل السماء، لأنه قال فيها: {قُلْ أَءِنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} إلى أن قال {ثُمَّ سُبَّتْ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}.
مع أن آية النزعات تدل على أن دحا الأرض بعد خلق السماء، لأنه قال فيها {أَأَنْتُمْ أَنْشَدْتُمْ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا}، ثم قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}.

اعلم أولاً أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن الجمع بين آية السجدة وآية النزعات، فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك.

فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحواها بجالها وأشجارها ونحو ذلك، بعد خلق السماء.

ويدل لهذا أنه قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} ولم يقل خلقها ثم فسر دحوه إياها بقوله: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه. مفهوم من ظاهر القرآن العظيم إلا أنه يرد عليه إشكال من آية البقرة هذه.

وأيضاً أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بما فيها بعد خلق السماء.

وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء لأنه قال فيها {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ سَبَّأَهُ إِلَى السَّمَاءِ}.

وقد مكثت زمناً طويلاً أفكر في حل هذا الإشكال حتى هداني الله إليه ذات يوم ففهمته من القرآن العظيم.

وأيضاً: أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين، كل منهما تدل عليه آية من القرآن.

الأول: أن المراد بخلق ما في الأرض جميعاً قبل خلق السماء: الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل، الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقاً. ومنه قول زهير: ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير، أنه تعالى نص على ذلك في سورة فصلت. حيث قال: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} ثم قال: {ثُمَّ سَبَّأَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}.

الوجه الثاني: أنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل، ما فيها كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلاً.

والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق

على الفرع، وإن لم يكن موجوداً بالفعل، قوله تعالى: {وَلَقَدْ

خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ {فَقَوْلُهُ {خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ

صَوَّرْنَاكُمْ} أي بخلقنا وتصويرنا لأبيكم أي الذي هو أصلكم.

وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} أي مع ذلك، فلفظة بعد، بمعنى مع.

ونظيره قوله تعالى: {عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٌ} وعليه فلا إشكال في الآية.

ويستأنس لهذا القول بالقراءة الشاذة وبها قرأ مجاهد، والأرض مع لك دحاه.

وجمع بعضهم بأوجه ضعيفة. لأنها مبينة على أن خلق السماء قبل الأرض وهو خلاف التحقيق.

منها أن ثم: بمعنى الواو.

ومنها: أنها للترتيب الذكري كقوله تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا }. قوله تعالى: { وَرَبَّنَا اَلْسَّمَآءَ اَلَّذِيْنَ بِمَصِيْحٍ وَحِفْظًا }. المصاييح: النجوم.

وما تضمنته هذه الآية من تزيين السماء الدنيا بالنجوم، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اَلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَحِفْظًا } قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: { وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ }. قوله تعالى: { قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبَّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة حر، في الكلام على قوله تعالى: { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ }.

{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ اَلْآخِرَةِ فِي اَلْحَيَاةِ اَلدُّنْيَا وَلِعَذَابِ اَلْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتُهُمْ وَقَبَّلْهُمْ لَعْمَىٰ عَلَىٰ لِهْدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ لِعَذَابِ لَهُونٍ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَتَجِيئًا لِّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * وَيَوْمَ يُخْشِرُ أَعدَاءُ اَللَّهِ إِلَى اَلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لَجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اَللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اَللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ اَلْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصِيرُوا قَالِ اَلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ اَلْمُعْتَبِينَ * وَقَبِّضْنَا لَهُمْ قُرْطَانًا فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ اَلْقَوْلُ فِي أَمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَاَلْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ لِّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا اَلْقُرْآنِ وَاعْتَصِمُوا بِهِ لِعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا يَبِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكُمْ جَزَاءُ أَعدَاءِ اَللَّهِ اَلَّذِينَ هُمْ فِيهَا فِي اَلْجِلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اَلَّذِينَ أَصَلْنَا مِنْ دُونِ اَللَّهِ اَلَّذِينَ نَجْعَلُهُمُ تَحْتِ أَفْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ اَلْأَسْفَلِينَ } قوله تعالى: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا } وفي أيامٍ نَحِسَاتٍ.

الصرصر: وزنه بالميزان الصرقي فعفل، وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان.

أحدهما: أن الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب، التي يسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا فالصرصر من الصرة، التي هي الصيحة المزعجة.

ومنه قوله تعالى { فَأَقْبَلَتِ مَرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ } أي في صيحة، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم، أي صوتهما.
 الوجه الثاني: أن الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: { كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ } أي فيها برد شديد محرق، ومنه قول حاتم الطائي: أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا واقد ريح صرّ عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فانت حرّ

فقوله: ريح صر، أي باردة شديدة البرد.
 والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة. جامعة بين الأمرين، فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد. وما ذكره جل وعلا من إهلاكه عاداً بهذه الريح الصرصر، في تلك الأيام النحسات، أي المشؤومات النكدات، لأن النحس ضد السعد، وهو الشؤم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله.

وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها، كقوله تعالى: { وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَیّیةً أیام حُسُومًا فَتَرَى لِقَوْمِ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِیةٍ فَهَلْ تَبْرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ } وقوله تعالى: { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَةَ تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ } : وقوله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ } وقوله تعالى: { هُوَ مَا سَتَعَجَلْتُمْ بِهِ رِيحٍ فِيهَا عَدَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا } .

وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عاد في قوله تعالى: { فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ } .
 وقرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وأبو عمر، نحسات، بسكون الحاء، وعليه فالنحس، وصف أو مصدر، نزل منزلة الوصف.
 وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، نحسات بكسر الحاء ووجه ظاهر.

قد قدمنا أن معنى النحسات: المشؤومات النكدات.
 وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج الطستبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل: { فِي يَوْمِ نَحْسٍ } . قال: النحس، البلاء والشدة، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول: سواء عليه أي يوم أتته أساعة نحس تتقي أم بأسعد

وتفسير النحس بالبلاء والشدة تفسير بالمعنى، لأن الشؤم بلاء وشدة. ومقابلة زهير النحس بالأسعد في بيته يوضح ذلك، وهو معلوم.

ويزعم بعض أهل العلم، أنها من آخر شوال، وأن أولها يوم الأربعاء وأخرها يوم الأربعاء، ولا دليل على شيء من ذلك. وما يذكره بعض أهل العلم من أن يوم النحس المستمر، هو يوم الأربعاء الأخير من الشهر، أو يوم الأربعاء مطلقاً، حتى إن بعض المنتسبين لطلب العلم وكثيراً من العوام صاروا يتشاءمون بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر، حتى إنهم لا يقدمون على السفر، والتزويج ونحو ذلك فيه، ظانين أنه يوم نحس وشؤم، وأن نحسه مستمر على جميع الخلق في جميع الزمن، لا أصل له ولا معول عليه، ولا يلتفت إليه، من عنده علم، لأن نحس ذلك اليوم مستمر على عاد فقط الذين أهلكهم الله فيه، فاتصل لهم عذاب البرزخ والآخرة، بعذاب الدنيا، فصار ذلك الشؤم مستمراً عليهم استمراراً لا انقطاع له.

أما غير عاد فليس مؤاخذاً بذنب عاد، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. وقد أردنا هنا أن نذكر بعض الروايات التي اغتر بها، من ظن استمرار نحس ذلك اليوم، لنبين أنها لا معول عليها. قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن أبي حاتم عن زر بن حبيش {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} «قال: يوم الأربعاء». وأخرج ابن المنذر وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال لي جبريل أقض باليمين مع الشاهد. وقال: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر». وأخرج ابن مردويه عن علي قال: «نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم باليمين مع الشاهد والحجامة ويوم الأربعاء يوم نحس مستمر».

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يوم نحس يوم الأربعاء». وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأيام، وسئل عن يوم الأربعاء قال: يوم نحس، قالوا كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: أغرق فيه الله فرعون وقومه، وأهلك عاداً وثموداً».

وأخرج وكيع في الغرر وابن مردويه والخطيب بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر».

فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه لأن أغلبها ضعيف وما صح معناه منها،

فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكتهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم.
 فالحاصل أن النحس والشؤم إنما منشأه وسببه الكفر والمعاصي.
 أما من كان متقياً لله مطيعاً له، في يوم الأربعاء المذكور فلا نحس، ولا شؤم فيه عليه. فمن أراد أن يعرف النحس والشؤم والنكد، والبلاء والشقاء على الحقيقة، فليتحقق أن ذلك كله في معصية الله وعدم امتثال أمره، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا لِعَمَىٰ عَلَىٰ هُدًى} قوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَهَدَيْنَاهُمْ} المراد بالهدى فيه هدى الدلالة والبيان، والإرشاد، لا هدى التوفيق والاصطفاء.
 والدليل على ذلك قوله تعالى بعده {وَاسْتَحَبُّوا لِعَمَىٰ عَلَىٰ هُدًى}، لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى.
 وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَاسْتَحَبُّوا لِعَمَىٰ عَلَىٰ هُدًى} أي اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروه عليه، وتعوضوه منه.

وهذا المعنى الذي ذكرنا بوضحه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا لِكُفْرٍ عَلَىٰ الْإِيمَانِ} فقوله في آية التوبة هذه: {إِنِ اسْتَحَبُّوا لِكُفْرٍ عَلَىٰ الْإِيمَانِ} موافق في المعنى لقوله هنا: فاستحبوا العمى على الهدى.
 ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى: {لَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ لِحَيَاةٍ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}.
 فلفظة استحب في القرآن كثيراً ما تتعدى بعلى، لأنها في معنى اختار وأثر.

وقد قدمنا في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى} أن العمى الكفر، وأن المراد بالأعمى في آيات عديدة الكافر. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الهدى يأتي في القرآن بمعناه العام، الذي هو البيان، والدلالة، والإرشاد، لا ينافي أن الهدى قد يطلق في القرآن في بعض المواضع، على الهدى الخاص الذي هو التوفيق، والاصطفاء، كقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَدَاهُمْ قُتِلَتْ}.

فمن إطلاق القرآن الهدى على معناه العام قوله هنا: {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} أي بينا لهم طريق الحق وأمرناهم بسلوكها، وطرق الشر ونهيناهم عن سلوكها على لسان نبينا صالح، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام {وَاسْتَحَبُّوا لِعَمَىٰ عَلَىٰ هُدًى} أي اختاروا الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحق لهم.

ومن إطلاقه على معناه العام قوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ} بدليل قوله بعده {إِمَامًا شَاكِرًا وَإِمَامًا كَفُورًا}، لأنه لو كان هدى توفيق لما قال: {وَإِمَامًا كَفُورًا}.

ومن إطلاقه على معناه الخاص قوله تعالى: {فَيَهْدَاهُمْ سَبِيلًا} وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُتَدُوا رَادَّهُمْ هُدًى}، وقوله: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ لِمُهْتَدٍ}.

وبمعرفة هذين الإطلاقين تتيسر إزالة إشكال قرآني: وهو أنه تعالى: أثبت الهدى لنبينا صلى الله عليه وسلم في آية، وهي قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَنَهْدٍ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ونفاه عنه في آية أخرى وهي قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}، فيعلم مما ذكرنا: أن الهدى المثبت له صلى الله عليه وسلم، هو الهدى العام الذي هو البيان، والدلالة والإرشاد، وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم فيمن لمحجة البيضاء، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها هالك.

والهدى المنفي عنه في آية: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق، لأن ذلك بيد الله وحده، وليس بيده صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ}، وقوله تعالى: {إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وكذلك قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ}، لا منافاة فيه بين عموم الناس في هذه الآية، وخصوص المتقين في قوله تعالى: {ذَلِكَ لِكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} لأن الهدى العام للناس هو الهدى العام، والهدى الخاص بالمتقين، هو الهدى الخاص كما لا يخفى.

وقد بينا هذا في غير هذا الموضوع، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لُعَدَابٍ لُهُونٍ}، الفاء في قوله: فأخذتهم سببية، أي فاستحبوا العمى على الهدى، وبسبب ذلك، أخذتهم صاعقة العذاب الهون.

واعلم أن الله جل وعلا عبر عن الهلاك الذي به ثمود، بعبارات مختلفة، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لُعَدَابٍ لُهُونٍ} وقوله: {فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}.

وعبر عنه أيضاً كالصاعقة في سورة الذاريات في قوله تعالى: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمْ لَصَاعِقَةً وَهُمْ يَنْظُرُونَ}.

وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه، كقوله تعالى في سورة هود، في إهلاكه ثمود: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ كَانُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ} وقوله تعالى في الحجر: {وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ} وقوله تعالى في القمر: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُّخْتَضِرٍ}. وقوله تعالى في العنكبوت {وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ} يعني به ثمودًا المذكورين في قوله قبله: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ}.

وعبر عنه بالرجفة، في سورة الإعراف في قوله تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَاحُ اتِنَّا بِمَا تَعِدْتَنَا إِن كُنتَ مِن لَّمْرِ سَلِيئًا فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}.

وعبر عنه بالتدمير في سورة النمل، في قوله تعالى: {فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَّرْتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}.
وعبر عنه بالطاغية في الحاقة في قوله تعالى: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}.

وعبر عنه بالدمدمة في الشمس في قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَذَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا}.

وعبر عنه بالعذاب، في سورة الشعراء، في قوله تعالى: {فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمًا فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً}.

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، والصيحة الصوت المزعج المهلك، والصاعقة تطلق أيضاً على الصوت المزعج المهلك، وعلى النار المحرقة، وعليهما معاً، ولشدة عظم الصيحة وهو لها من فوقهم، رجفت بهم الأرض من تحتهم، أي تحركت حركة قوية، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميراً واضح. وقيل لها طاغية، لأنها واقعة مجاوزة للحد في القوة وشدة الإهلاك، والطغيان في لغة العرب: مجاوزة الحد.

ومنه قوله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَا لَمَاءُ} أي جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة.

واعلم أن التحقيق، أن المراد بالطاغية في قوله تعالى: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} أنها الصيحة التي أهلكتهم الله بها، كما يوضحه قوله بعده: {وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}.

خلافاً لمن زعم أن الطاغية، مصدر كالعاقبة، والعاقبة، وأن المعنى أنهم أهلكوا بطغيانهم، أي بكفرهم، وتكذيبهم نبيهم، كقوله: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا}.

وخلافاً لمن زعم أن الطاغية هي أشقاها، الذي انبعث فعقر الناقة، وأنهم أهلكوا بسبب فعله وهو عقره الناقة، وكل هذا خلاف التحقيق.

والصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا، والسياق يدل عليه واختاره غير واحد.

وأما قوله تعالى: {فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ} فإنه لا يخالف ما ذكرنا، لأن معنى دمدم عليهم ربهم بذنبهم، أي أطلق عليهم العذاب وألبسهم إياه، بسبب ذنبهم.

قال الزمخشري في معنى دمدم: وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة، إذا ألبسها الشحم.

وأما إطلاق العذاب عليه في سورة الشعراء فواضح، فاتضح رجوع معنى الآيات المذكورة إلى شيء واحد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {صَعِقَهُ لُعَذَابِ لُهُونٍ} من النعت بالمصدر،

لأن الهون مصدر بمعنى الهوان، والنعت بالمصدر أسلوب عربي معروف، أشار إليه في الخلاصة بقوله: ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا

وهو موجه بأحد أمرين:

أحدهما: أن يكون على حذف مضاف. أي العذاب ذي الهون.

والثاني: أنه على سبيل المبالغة، فكأن العذاب لشدة اتصافه بالهوان اللاحق بمن وقع عليه، صار كأنه نفس الهوان، كما هو معروف في محله.

وقوله تعالى: {يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} كالتوكيد في المعنى لقوله {فَوَسَّخْنَا لِعَمَلِهِمْ عَلَيَّ الْهَدْيَ} لأن كلا منهما سبب لأخذ الصاعقة إياهم، فالفاء في قوله: فأخذتهم سببية، والباء في قوله بما كانوا سببية، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه أهلك ثمود بالصاعقة، ونجى من ذلك إهلاك الذين آمنوا وكانوا يتقون الله، والمراد بهم صالح ومن آمن معه من قومه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء مبيناً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة هود {فَلَمَّا جَاءَ أُمَّرْنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ لَقَوِيٌّ لِعَزِيزٍ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ}، وقوله تعالى في النمل: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عُبِّدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ} إلى قوله تعالى في ثمود {فَتَلَّكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً يَمَّا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا

وَكَاثُوا يَتَّقُونَ { أَي وَهُمْ صَالِحٌ وَمِنْ آمَنَ مَعَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ }. قَرَأَ هَذَا الْحَرْفَ عَامَةً الْقِرَاءَةَ غَيْرَ نَافِعٍ (يُحْشَرُ) بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الشَّيْنِ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ (أَعْدَاءُ اللَّهِ) بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ نَائِبُ الْفَاعِلِ.

وَقَرَأَهُ نَافِعٌ وَحَمْزَةٌ، مِنَ السَّبْعَةِ (نُحْشِرُ أَعْدَاءَ اللَّهِ) بِالنُّونِ الْمَفْتُوحَةِ الدَّالَةَ عَلَى الْعِظَمَةِ، وَضَمِّ الشَّيْنِ مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ، (أَعْدَاءُ اللَّهِ) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ، أَي وَادَّكَرَ { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ } أَي يَجْمَعُونَ إِلَى النَّارِ.

وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ، مِنْ أَنَّ لِلَّهِ أَعْدَاءً، وَأَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ. جَاءَ مَذْكُورًا فِي آيَاتٍ أُخْرَى. فَبَيْنَ فِي بَعْضِهَا أَنَّ لَهُ أَعْدَاءً وَأَنَّ أَعْدَاءَهُ هُمُ أَعْدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّ جَزَاءَهُمُ النَّارُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { وَبَيْنَ رِجَالِهِ الَّذِينَ هَبُوتَ بِهِمْ عَادُوًّا لِلَّهِ وَعَدُوًّا لَكُمْ } وَقَوْلُهُ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ } وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { فَلْيَلْقِهِ لِيَمُ بِاللِّبَاطِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهُ } وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ لَقُوا فِيهَا دَارَ الْخُلْدِ }. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ { فَهُمْ يُوزَعُونَ } أَي يَرُدُّ أَوْلَهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ،

وَيَلْحَقُ آخِرَهُمْ بِأَوْلِهِمْ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ يَدْفَعُونَ فِي النَّارِ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: وَزَعَتِ الْجَيْشَ، إِذَا حَبَسَتْ أَوْلَهُ عَلَى آخِرِهِ حَتَّى يَجْتَمِعَ.

وَأَصْلُ الْوَزْعِ الْكُفُّ، تَقُولُ الْعَرَبُ وَزَعَهُ، يَزَعُهُ وَزَعًا، فَهُوَ وَازِعٌ لَهُ، إِذَا كَفَهُ عَنِ الْأَمْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُ نَابِغَةَ ذَبْيَانَ: عَلَى حِينِ عَاتَبْتَ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا فَقَلْتِ أَلْمَا أَصْحَ وَالشَّيْبَ وَازِعَ

وَقَوْلِ الْآخَرِ: وَلَنْ يَزَعَ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهُوَى مِنْ النَّاسِ إِلَّا وَافِرَ الْعَقْلَ كَامِلَهُ

وَبِمَا ذَكَرْنَا تَعَلَّمَ أَنَّ أَصْلَ مَعْنَى يُوزَعُونَ. أَي يَكْفُ أَوْلَهُمْ عَنِ التَّقَدُّمِ وَآخِرَهُمْ عَنِ التَّأَخُّرِ حَتَّى يَجْتَمِعُوا جَمِيعًا. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَسَاقُونَ سَوْقًا عَنِيفًا، يَجْمَعُ بِهِ أَوْلَهُمْ مَعَ آخِرِهِمْ.

وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسَاقُونَ إِلَى النَّارِ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ عَطَاشًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَتَسْؤِقُ لِمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا }، وَلَعَلَّ الْوَزْعَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ يَكُونُ فِي الزَّمْرَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ زَمْرِ أَهْلِ النَّارِ، لِأَنَّهُمْ يَسَاقُونَ إِلَى النَّارِ زَمْرًا زَمْرًا كَمَا قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمَوْضُوحَةَ لَهُ

في سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا } . قوله تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: { لِيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ } ، وفي سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: { وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا } .

وبينا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى: { وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا } مع قوله { ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } . قوله تعالى: { وَلَكِنْ طَبَقْنَا أَنْ لِلَّهِ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ تُوَدِّكُمْ طَنُوكُمْ لِذِي طَنُوتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ } . قد قدمنا الكلام عليه في سورة جر في الكلام على قوله تعالى: { ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } . قوله تعالى: { وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِّنَ الْمُعْتَبِينَ } . قد بينا معناه مع شواهد العربية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { ثُمَّ لَا يُؤَدِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } . قوله تعالى: { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ قَرَّبُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } . لعلماء التفسير في تفسير قوله: { وَقَيَّضْنَا } عبارات يرجع بعضها، في المعنى إلى بعض.

كقول بعضهم: { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ } أي جنائهم بهم: وأتحناهم لهم.

وكقوله بعضهم: { وَقَيَّضْنَا } أي هيأنا.

وقول بعضهم: { وَقَيَّضْنَا } أي سلطنا.

وقول بعضهم: أي بعثنا ووكلنا.

وقول بعضهم: { وَقَيَّضْنَا } أي سببنا.

وقول بعضهم: قدرنا ونحو ذلك من العبارات، فإن جميع تلك العبارات راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله تبارك وتعالى هيأ للكافرين قرناء من الشياطين يضلونهم عن الهدى ويزينون لهم الكفر والمعاصي وقدرهم عليهم.

والقرناء: جمع قرين وهم قرناؤهم من الشياطين على التحقيق. وقوله { قَرَّبُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } أي من أمر الدنيا حتى أثره على الآخرة: { وَمَا خَلْفَهُمْ } أي من أمر الآخرة، فدعاهم إلى التكذيب به، وإنكار البعث.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، أنه تعالى قيس للكفار قرناء من الشياطين، يضلونهم عن الهدى، بينه في مواضع آخر من كتابه. وزاد في بعضها سبب تقييضهم لهم، وأنهم مع إضلالهم لهم، يظنون أنهم مهتدون، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم، وأنه يذمه ذلك اليوم كما قال

تعالى: { وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ تَحْتَىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدٌ لِمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى لِقْرَيْنِ } .
 فترتيبه قوله: نقيض له شيطاناً، على قوله ومن يعش عن ذكر الرحمن، ترتيب الجزاء على الشرط يدل على أن سبب تقييضه له، هو غفلة عن ذكر الرحمن.

ونظير ذلك قوله تعالى: { مِنْ شَرِّ لُوسُواسٍ أُخْتَأَسِ } لأن اللوسواس هو كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس هو كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس، من قولهم: خنس بالفتح يخنس بالضم إذا تأخر.

فهو وسواس عند الغفلة عن ذكر الرحمن، خناس عند ذكر الرحمن، كما دلت عليه آية الزخرف المذكورة، ودل عليه قوله تعالى: { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } لأن الذين يتولونه، والذين هم به مشركون، غافلون عن ذكر الرحمن، وبسبب ذلك قيضه الله لهم فأضلهم.

ومن الآيات الدالة على تقييض الشياطين للكفار ليضلوهم، قوله تعالى { أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوَّزَّهُمْ أَرَا }، وقد أوضحنا الآيات الدالة على ذلك في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: { أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ } . وبيننا هناك أقوال أهل العلم في معنى { تَوَّزَّهُمْ أَرَا } .

وبينا أيضاً هناك أن من الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ لِحَنٍّ قَدْ سَبَّكْتَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ } أي استكثرت من إضلال الإنس في دار الدنيا، وقوله: { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي آعَىٰ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } .

ومنها أيضاً قوله تعالى: { أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يٰٓأَدَمُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } إلى قوله: { وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا } إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دل قوله في آية الزخرف: { فَيَنْسَى لِقْرَيْنِ } على أن قرناء الشياطين المذكورين في آية فصلت، وآية الزخرف وغيرهما، جديرين بالذم الشديد، وقد صرح تعالى بذلك في سورة النساء في قوله: { وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا } لأن قوله: { قَسَاءَ قَرِينًا } بمعنى { قَيْسَ لِقْرَيْنِ }، لأن كلا من ساء وبئس فعل جامد لإنشاء الذم كما ذكره في الخلاصة بقوله: واجعل كبئس ساء واجعل فعلا من ذي ثلاثة كنعم مسجلا

واعلم أن الله تعالى بين أن الكفار الذي أضلهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى، فهم يحسبون أشد الضلال، أحسن الهدى، كما قال تعالى عنهم: {وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ} وقال تعالى: {إِنَّهُمْ لَخَدُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ}.

وبين تعالى أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد هم أخسر الناس أعمالاً في قوله تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا لَّذِينَ صَلَّ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}.

وقوله تعالى في سورة الزخرف: {وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ} من قولهم عشا بالفتح عن الشيء، يعشو بالضم إذا ضعف بصره عن إدراكه، لأن الكافر أعمى القلب.

فبصيرته تضعف عن الاستنارة بذكر الرحمن، وبسبب ذلك يقيض الله له قرناء الشياطين.

قوله تعالى: {وَحَقَّ عَلَيْهِمْ لِقَوْلُ} قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة عس في الكلام على قوله تعالى: {لَقَدْ حَقَّ لِقَوْلُ عَلِي أَكْثَرِهِمْ}. قوله تعالى: {وَقَالَ لَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا لِقُرْآنٍ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ سَمِعُوا}.

{إِنَّ لَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا يَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْبِشِرُوا بِلَجْنَتِي لِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي لِحَسَنُهُ وَلَا لِسَيِّئُهُ لُفَعٌ بِلِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا لَذِي بَيْتِكَ وَبَيْتِهِ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا لَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَرْعٌ فَ سَلِّعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمِنْ آيَاتِهِ لَيْلُ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَ سَلِّجُدُوا لِلَّهِ لَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِن سَلِّتَكْبَرُوا فَ لَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا لِمَاءً فَهَتَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ لَ لَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ لِمَوْتِي إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ لَّذِينَ يَلْحَمُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ مِّنْ يَّزِيءِ أَمِنَا يَوْمَ لِقِيَمَةِ عَمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ لَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ لِبَطْلٍ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْتُهُ

فِرْعَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ
 لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ
 عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُبَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
 الْكِتَابَ فِي حُتَيْفٍ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
 لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا
 وَمَا يَرْثُكَ بِظُلْمٍ لِلْعَبِيدِ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرٍ
 مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُبَادِيهِمْ آيَاتُ
 سُورِكَائِي قَالُوا ءَأَدَّتْكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهيدٍ * وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ * لَا يُسْأَلُ أَلَمَسُنُ مِنْ
 دُعَاءِ لَحِيرٍ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَسُ قَنُوطًا * وَلَئِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا
 مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ
 رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا
 عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ
 أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ
 إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ
 بَعِيدٍ * سَتُرَبِّهُمْ ءَايَاتِي فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
 لِحَقِّ اللَّهِ أُولَمْ يَكْفُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ
 مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ {

قوله تعالى: { إِنْ لِّلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ
 تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
 تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَحْنُ لَا مَنَّ عَفْورٍ رَّحِيمٍ } . ما
 تضمنته هذه الآية الكريمة مما أعده الله في الآخرة للذين قالوا
 ربنا الله ثم استقاموا، ذكره الله تعالى في الجملة، في قوله في
 الأحقاف { إِنْ لِّلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ } لأن انتفاء الخوف والحزن والوعد الصادق، بالخلود في
 الجنة المذكور في آية الأحقاف هذه، يستلزم جميع ما ذكر في هذه
 الآية الكريمة، من سورة فصلت. قوله تعالى: { لَقَعَ بِلْتِي هَيَّ
 أَحْسَنُ فَإِذَا لِذِي بَيْتِكَ وَبَيْتِهِ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا
 لَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَمَا يَنْزِعُكَ مِنَ
 الشَّيْطَانِ تَرَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } . قد أوضحنا مع
 الآيات التي بمعناها في آخر سورة الأعراف في الكلام على قوله
 تعالى { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ } إلى قوله { إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .
 قوله تعالى: { وَمِنْ ءَايَاتِهِ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ } . وقد قدمنا الآيات
 الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى:
 { وَجَعَلْنَا لَيْلٌ وَالنَّهَارَ ءَايَاتِينَ } ، وفي غير ذلك من المواضع. قوله

تعالى: { لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ }. قد قدمنا الكلام عليه في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: { أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }. قوله تعالى: { فَإِنْ سَأَلْتَهُمْ لَظَنِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ }. قوله تعالى { فَإِنْ سَأَلْتَهُمْ لَظَنِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ } أي فإن تكبر الكفار عن توحيد الله، والسجود له وحده، وإخلاص العبادة له، فالذين عند ربك وهم الملائكة، يسبحون له بالليل، أي يعبدونه وينزهونه دائماً ليلاً ونهاراً وهم لا يسأمون، أي لا يملون من عبادة ربهم، لاستلذاذهم لها وحلاوتها عندهم، مع خوفهم منه جل وعلا كما قال تعالى: { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ }. وقد دلت هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على أمرين أحدهما: أن الله جل وعلا إن كفر به بعض خلقه، فإن بعضاً آخر من خلقه يؤمنون به، ويطيعونه كما ينبغي، ويلزمون طاعته دائماً بالليل والنهار.

والثاني منهما: أن الملائكة يسبحون الله ويطيعونه دائماً لا يفترون عن ذلك.

وهذان الأمران اللذان دلت عليهما هذه الآية الكريمة، قد جاء كل منهما موضعاً في غير هذا الموضوع.

أما الأول منهما: فقد ذكره جل وعلا في قوله: { فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرْنَ بِهَا }.
وأما الثاني منهما: فقد أوضحه تعالى في آيات من كتابه كقوله

تعالى في الأنبياء: { وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } وقوله تعالى في آخر الأعراف { إِنَّ لَظَنِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ } أي لا يملون.

والسامة الملل ومنه قول زهير: سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً، لا أبا لك، يسأم

قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ هُنَّ رَتِّتٌ وَرَبَّتٌ }. هذه الآية الكريمة قد أوضحنا الكلام عليها،

مع ما في معناها من الآيات، وبيننا أن تلك الآيات فيها البرهان القاطع على البعث بعد الموت، وذكرنا معها الآيات التي يكثر الاستدلال بها في القرآن، على البعث بعد الموت، وهي أربعة براهين قرآنية.

ذكرنا ذلك في سورة البقرة وفي سورة النحل وغيرهما وأحللنا عليه مراراً. قوله تعالى: { أَقْمَنُ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِ

ءَامِنًا يَوْمَ لِقِيَمَةِ}. قد قدمنا الكلام عليه، مع ما يماثله من الآيات، في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى {قُلْ أَدْرِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةٌ لِّخُلْدٍ}. قوله تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {وَوُتِّرَلْ مِّنْ لِّفْرَاءٍ مَّا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}. قوله تعالى: {مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} وفي سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}. قوله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ}. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من كونه ليس بظلام للعبيد، ذكره في مواضع أخرى كقوله تعالى في سورة آل عمران {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ لِّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا}. وقوله في الأنفال {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ كَذَابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنٍ}. وقوله في الحج: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ وَمَنْ أَلْتَّاسٍ مِّنْ يَّعْبُدُ اللَّهَ}.

وقوله في سورة و: {مَا يُبَدَّلُ لِقَوْلٍ لَّدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ}. وفي هذه الآيات سؤال معروف، وهو أن لفظة ظلام فيها صيغة مبالغة.

ومعلوم أن نفي المبالغة، لا يستلزم نفي الفعل من أصله. فقولك مثلاً: زيد ليس بقاتل للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال. ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة، في الآيات المذكورة هو نفي الظلم من أصله.

والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه:
الأول: أن نفي صيغة المبالغة في الآيات المذكورة، قد بينت آيات كثيرة، أن المراد به نفي الظلم من أصله.
ونفي صيغة المبالغة، إذا دلت أدلة منفصلة على أن يراد به نفي أصل الفعل، فلا إشكال لقيام الدليل على المراد.
والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا}. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ}. وقوله تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}. وقوله تعالى: {وَتَصَعُّ لِمَوْزِينٍ لِّقِسْطٍ لِّيَوْمٍ لِّقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا}. إلى غير ذلك من

الآيات كما قدمنا إيضاحه في سورة الكهف والأنبياء. الوجه الثاني:
أن الله جل وعلا نفى ظلمه للعبيد، والعبيد في غاية الكثرة.
والظلم المنفي عنهم تستلزم كثرتهم كثرته، فناسب ذلك الإتيان
بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفي التابعة لكثرة العبيد،
المنفي عنهم الظلم، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلاً، كان
مجموع ذلك الظلم في غاية الكثرة، كما ترى.
وبذلك تعلم اتجاه التعبير بصيغة المبالغة، وأن المراد بذلك نفى
أصل الظلم، عن كل عبد من أولئك العبيد، الذين هم في غاية
الكثرة، سبحانه وتعالى عن أن يظلم أحداً شيئاً، كما بينته الآيات
القرآنية المذكورة.

وفي الحديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» الحديث.
الوجه الثالث: أن المسوغ لصيغة المبالغة، أن عذابه تعالى بالغ من
العظم والشدة، أنه لولا استحقاق المعذبين لذلك العذاب بكفرهم،
ومعاصيهم لكان معذبهم به ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه، سبحانه
وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا الوجه والذي قبله أشار لهما الزمخشري في سورة الأنفال.
الوجه الرابع: ما ذكره بعض علماء العربية وبعض المفسرين، من
أن المراد بالنفي في قوله {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ} نفي نسبة
الظلم إليه، لأن صيغة فعال تستعمل مراداً بها النسبة فتغني عن
ياء النسب كما أشار له في الخلاصة بقوله:
ومع فاعل وفعَّال فعل في نَسَبَ أغنى عَنِ اليَا فقيلُ

ومعنى البيت المذكور، أن الصيغ الثلاثة المذكورة فيه التي هي
فاعلٍ كظالم وفعَّال كظالم، وفعل كفرح، كل منها قد تستعمل
مراداً بها النسبة، فيستغنى بها عن ياء النسب، ومثاله في فاعل
قول الخطيئة في هجوه الزبرقان بن بدر التميمي:
دع المكارم لا ترحل لبغيتهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالمراد بقوله الطاعم الكاسي النسبة، أي ذو طعام وكسوة،
وقول الآخر وهو من شواهد سيبويه:
وغررتني وزعمت أنك لابن في الصيف تامر

أي ذو لبن وذو تمر، وقول نابغة ذبيان:
كليني لهم يا أميمة ناصب ليل أقاسيه بطيء الكواكبي

فقوله: ناصب أي ذو نصب، ومثاله في فعال قول امرئ القيس:
وليس بذى رمح فيطعنني به وليس بذى سيف وليس بنبال

فقوله: وليس بنبال أي ليس بذي نبل، وبدل عليه قوله قبله:
 وليس بذي رمح وليس بذي سيف.
 وقال الأشموني بعد الاستشهاد بالبيت المذكور: قال المصنف
 يعني ابن مالك: وعلى هذا حمل المحققون قوله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ
 بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ} أي بذي ظلم اهـ.
 وما عزاه لابن مالك جزم به غير واحد من النحويين والمفسرين،
 ومثاله في فعل قول الراجز وهو من شواهد سيبويه:
 ليس بليلى ولكني نهر لا أدلج الليل ولكن أبتكر

فقوله نهر بمعنى نهاري، وقد قدمنا إيضاحه معنى الظلم بشواهد
 العربية، في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، والعلم عند
 الله تعالى. قوله تعالى: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ}. تقدم الكلام
 على نحوه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {قُلْ
 إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} وفي الأنعام عند قوله
 تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}.
 قوله تعالى: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهَا}. قد قدمنا
 الكلام عليه في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: {اللَّهُ
 يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ}. قوله تعالى:
 {وَطَنُّوْا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ}. الظن هنا بمعنى اليقين، لأن الكفار
 يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، وشاهدوا الحقائق، علموا في ذلك
 الوقت أنهم ليس لهم من محيص، أي ليس لهم مفر ولا ملجأ.
 والظاهر أن المحيص مصدر ميمي، من حاص يحيص بمعنى حاد
 وعدل وهرب.

وما ذكرنا من أن الظن في هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين
 والعلم، هو التحقيق إن شاء الله، لأن يوم القيامة تنكشف فيه
 الحقائق، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم في ذلك شك، كما
 قال تعالى عنهم، إنهم يقولون يوم القيامة {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
 فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}. وقال تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ
 وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا}. وقال تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
 لِيَوْمٍ حَدِيدٍ}. وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ
 أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا} وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا
 في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: {بَلِ لَأُرْكِبُنَّ فِي الْآخِرَةِ}.

ومعلوم أن الظن يطلق في لغة العرب، التي نزل بها القرآن على
 معنيين:

أحدهما: الشك كقوله {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، وقوله تعالى عن الكفار: {إِنْ تَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُصْتَفِينَ}. والثاني: هو إطلاق الظن مراداً به العلم واليقين، ومنه قوله تعالى هنا: {وَوَظَنُوا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ} أي أيقنوا، أنهم ليس لهم يوم القيامة محيص، أي لا مفر ولا مهرب لهم من عذاب ربهم، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا} أي أيقنوا ذلك وعلموه، وقوله تعالى: {لَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَّفُوا رَبَّهُمْ وَانْتَهَمُوا إِلَيْهِ رُجُوعًا} وقوله تعالى: {قَالَ لَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَّفُوا لِلَّهِ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ عَلَبْتُمْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذَنُ اللَّهُ} وقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا فَرُوتُ كَتَبْتُهُ لِي وَظَنَنْتُ أَنِّي مَلِكٌ حَسَابِيَّةٌ}، فالظن في الآيات المذكورة كلها بمعنى اليقين.

ونظير ذلك من كلام العرب قول دريد بن الصمة: فقلت لهم ظنوا بالفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

وقول عميرة بن طارق: بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيباً مرجماً

والظن في البيتين المذكورين بمعنى اليقين، والفعل القلبي في الآية المذكورة التي هي قوله: {وَوَظَنُوا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ} معلق عن العمل في المفعولين بسبب النفي بلفظة ما في قوله: {مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ} كما أشار له في الخلاصة بقوله: * والتزم التعليق قبل نفي «ما» * قوله تعالى: {وَلَيْنِ أَدْفُنْتَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَآءٍ مَّسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْبَى}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا}. قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وبعض الأحاديث الصحيحة، الموافقة لها في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَوَّجَّانًا لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ}. قوله تعالى: {سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}. قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ}. المرية: الشك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من شك الكفار في البعث والجزاء،
قد قدمنا الآيات الموضحة له، ولما يترتب عليه من الخلود في
النار، في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا
بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}.

تم بحمد الله تفسير سورة فصلت

تفسير سورة الشورى

{حَرْ تَسْقُ * كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ لِعَزِيزٍ
لِحَكِيمٍ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ *
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقهنَّ وَوَلَمَّا كُنَّ تُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهنَّ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَلَّهُهُوَ لِعَفُورٍ الرَّحِيمِ *
وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ لُقَيْمٍ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ
فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ لَوْلِيُّهُ وَهُوَ يُحْيِي لِمَوْتِي وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ * وَمَا خَلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }

قوله تعالى: {حَرْ تَسْقُ كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
اللَّهُ لِعَزِيزٍ لِحَكِيمٍ}. قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في
أول سورة هود.

وقول الزمخشري في تفسير هذه الآية {كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ} أي
مثل ذلك الوحي، أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل من
قبلك الله.

يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني، قد أوحى الله إليك
مثله، في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلي رسله، على
معنى أن الله تعالى كرر هذه المعاني، في القرآن وفي جميع
الكتب السماوية، لما فيها من التنبيه البليغ، واللفظ العظيم،
لعباده من الأولين والآخرين. اهـ منه.

وظاهر كلامه، أن التشبيه في قوله: كذلك يوحى بالنسبة إلى
الموحى باسم المفعول.

والأظهر أن التشبيه في المعنى المصدري الذي هو الإيحاء.
وقوله في هذه الآية الكريمة {وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ} لم يصرح هنا
بشيء من أسماء الذين في قبله الذين أوحى إليهم، كما أوحى
إليه، ولكنه قد بين أسماء جماعة منهم في سورة النساء، وبين

فيها أن بعضهم لم يقصص خبرهم عليه، وأنه أوحى إليهم وأرسلهم لقطع حجج الخلق، في دار الدنيا وذلك في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

وقوله تعالى: {اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ذكر جل وعلا فيه الثناء على نفسه، باسمه العزيز واسمه الحكيم بعد ذكره إنزاله وحيه على أنبيائه، كما قال في آية النساء المذكورة {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} بعد ذكره إحياءه إلى رسوله.

وقد قدمنا في أول سورة الزمر أن استقراء القرآن. قد دل على أن الله جل وعلا إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك بعض أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وذكرنا كثيراً من أمثلة ذلك. وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير (يوحى) بكسر الحاء بالبناء للفاعل، وعلى قراءة الجمهور هذه فقوله: الله العزيز الحكيم فاعل يوحى.

وقراه ابن كثير (يُوحَى إِلَيْكَ) بفتح الحاء بالبناء للمفعول، وعلى هذه القراءة، فقوله: الله العزيز الحكيم، فاعل فعل محذوف تقديره يوحى كما قدمنا أيضاً في سورة النور في الكلام على قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ}.

وقد قدمنا معاني الوحي مع الشواهد العربية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}. وصف نفسه جل وعلا في هذه الآية الكريمة، بالعلو والعظمة، وهما من الصفات الجامعة كما قدمناه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ سُبُّوا عَلَى عَرْشِ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وصفه تعالى نفسه بهاتين الصفتين الجامعتين المتضمنتين لكل كمال وجلال، جاء مثله في آيات أخر كقوله تعالى: {وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا}. وقوله تعالى {عَلِيمٌ لَغَيْبٍ وَالشَّهَادَةِ لِكَبِيرٍ لِمُتَعَالٍ} وقوله تعالى {وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}. إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنَ قُوقِهِنَّ وَ لِمَلَائِكَةٍ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ}. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع والكسائي (تكاد) بالتاء الفوقية، لأن السماوات مؤنثة وقرأه

نافع والكسائي (يكاد) بالياء التحتية لأن تأنيث السماوات غير حقيقي.

وقراه عامة السبعة غير أبي عمرو، وشعبة عن عاصم (يَقَطَّرْنَ) بتاء مثناة فوقية مفتوحة بعد الياء وفتح الطاء المشددة مضارع. تفتطر أي تشقق.

وقراه أبو عمرو وشعبة عن عاصم (ينفطرن) بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء، المخففة مضارع انفطرت كقوله: {إِذَا لِسَمَاءُ أَنْقَطَرَتْ} أي انشقت.

وقوله: تكاد مضارع كاد، التي هي فعل مقاربة، ومعلوم أنها تعمل في المبتدأ والخبر معنى كونها فعل مقاربة، أنها تدل على قرب اتصاف المبتدأ والخبر.

وإذاً، فمعنى الآية أن السماوات قاربت أن تتصف بالتفتطر على القراءة الأولى، والانفطار على القراءة الثانية. واعلم أن سبب مقاربة السماوات للتفتطر، في هذه الآية الكريمة، فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له قرآن.

الوجه الأول: أن المعنى تكاد السماوات يتفتطرن خوفاً من الله، وهيبة وإجلالاً، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله {وَهُوَ لِعَلِيٍّ الْعَظِيمِ} لأن علوه وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفتطر.

وعلى هذا الوجه فقوله بعده: {وَ لِمَلَائِكَةٍ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} مناسسته لما قبله واضحة.

لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال، خوفاً منه وهيبة وإجلالاً، كما قال تعالى {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ لِمَلَائِكَةٍ مِنْ خِيفَتِهِ} وقال تعالى {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ لِمَلَائِكَةٍ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَيَخْفَوْنَ رَبَّهُمْ مَنْ قَوَّيْتَهُمْ وَبَعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}.

فهم لشدة خوفهم من الله، وإجلالهم له بسبحون بحمد ربهم، ويخافون على أهل الأرض، ولذا يستغفرون لهم خوفاً عليهم من سيخط الله، وعقابه، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَاتَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} إلى قوله: {وَاشْفَقْنَ مِنْهَا} لأن الإشفاق الخوف.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} يعني لخصوص الذين آمنوا منهم وتابوا إلى الله واتبعوا سبيله، كما أوضحه تعالى بقوله: {لِذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا}.

فقوله: {لِلَّذِينَ ءَامَنُوا} يوضح المراد من قوله: {لِمَن فِي الْأَرْضِ}.

وبزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى عنهم إنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين {وَأَعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكفار.

الوجه الثاني: أن المعنى {تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ} من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض جل وعلا، من كونه اتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وهذا الوجه جاء موضحاً في سورة مريم، في قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا} كما قدمنا إيضاحه.

وغاية ما في هذا الوجه أن آية شورى هذه فيها إجمال في سبب تفتت السماوات، وقد جاء ذلك موضحاً في آية مريم المذكورة، وكلا الوجهين حق.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {يَتَّقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِهِنَّ} فيه للعلماء أوجه.

قيل: يتفتت، أي السماوات من فوقهن أي الأرضين، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى.

وقال بعضهم: من فوقهن أي كل سماء تتفتت فوق التي تليها. وقال الزمخشري في الكشاف: فإن قلت لم قال: {مِنْ قَوْقِهِنَّ} قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السماوات، وهي العرش والكرسي، وصفوف الملائكة، المرتجة بالتسييح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: {يَتَّقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِهِنَّ} أي بتدبير الانفطار من جهتهن الفوقانية.

أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذي تحت السماوات، فكان القياس أن يقال: يتفتت من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة. ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في وجهة الفوق. كأنه قيل: يكذب يتفتت من الجهة التي فوقهن، دع الجهة التي تحتهن. ونظيره في المبالغة قوله عز وجل {يُصَبُّ مِنْ قَوْقِ رُءُوسِهِمْ لَحْمِيمٌ مُضْهِرٌ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ} فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة أ.هـ. محل الغرض منه.

وهذا إنما يتمشى على القول بأن سبب التفتت المذكور هو افتراؤهم على الله في قولهم {اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا}.

وقد قدمنا آنفاً أنه دلت عليه آية مريم المذكورة وعليه فمناسبة قوله: { وَ لَمَلَأَكَّةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه، فإن الملائكة بخلافهم فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته.

ويوضح ذلك قوله تعالى: { فَإِن سَأَلْتَهُمْ لَئِن لَّمْ يَكْفُرْ لَهَا كَلِمَتٌ مِّن لَّدُنِّي يَسُبُّوا رَبَّكَ إِن يَتَذَكَّرْ لَهُمْ فَسَبُّوا رَبَّكَ إِن يَتَذَكَّرْ لَهُمْ فَسَبُّوا رَبَّكَ إِن يَتَذَكَّرْ لَهُمْ فَسَبُّوا رَبَّكَ } وقوله تعالى: { فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ } كما قدمنا إيضاحه في آخر سورة فصلت. قوله تعالى: { أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }. أكد جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه هو الغفور الرحيم، وبين فيها أنه هو وحده المختص بذلك. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما اختصاصه هو جل وعلا بغفران الذنوب، فقد ذكره في قوله تعالى: { وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ }، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا الله، وفي الحديث «رب إنني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت» الحديث. وفي حديث سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني» الحديث. وفيه «وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ووجه دلالة هذه الآية على أن الله وحده هو الذي يغفر الذنوب، هو أن ضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: { أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } يدل على ذلك كما هو معلوم في محله، وأما الأمر الثاني، هو توكيده تعالى أنه هو الغفور الرحيم فإنه أكد ذلك هنا بحرف الاستفتاح الذي هو أَلَا، وحرف التوكيد الذي هو إِنَّ. وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }. وقوله تعالى: { وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ }. وقوله تعالى: { إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ } وقوله في الكفار: { قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ }. وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة { أَقَلًا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ } والآيات بمثل ذلك كثيرة. فرجو الله جل وعلا الكريم الرؤوف الغفور الرحيم، أن يغفر لنا جميع ذنوبنا ويتجاوز عن جميع سيئاتنا ويدخلنا جنته على ما كان منا، ويغفر لإخواننا المسلمين. إنه غفور رحيم. قوله تعالى: { وَ لِّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ }.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة، { اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } أي أشركوا معه شركاء يعبدونهم من دونه، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: { وَ لِّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى

اللَّهُ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ هُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَخَدَوَاتُ الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُّهْتَدُونَ} وقوله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} أي يخوفكم أوليائه. وقوله تعالى: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}.

وقد وبخهم تعالى على اتخاذهم الشيطان وذريته أولياء من دونه تعالى في قوله: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

وقد أمر جل وعلا باتباع هذا القرآن العظيم، ناهياً عن اتباع الأولياء المتخذين من دونه تعالى، في أول سورة الأعراف في قوله تعالى {لِيُعْلَمَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}.

وقد علمت من الآيات المذكورة أن أولياء الكفار الذين اتخذوهم وعبدوهم من دون الله نوعان: الأول منهما: الشياطين، ومعنى عبادتهم للشيطان طاعتهم له فيما يزين لهم، من الكفر والمعاصي، فشرکهم به شرك طاعة، والآيات الدالة على عبادتهم للشياطين بالمعنى المذكور كثيرة كقوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}. وقوله تعالى عن إبراهيم {الشَّيْطَانُ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ}. وقوله تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِيثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} أي وما يعبدون إلا شيطاناً مريداً. وقوله تعالى {قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ لِجِنَّ كَثَرْتَهُمْ بِهِم مُّؤْمِنُونَ} وقوله تعالى {إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} وقوله تعالى {وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِىَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

والنوع الثاني: هو الأوثان، كما بين ذلك تعالى بقوله: {مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {اللَّهُ خَفِيضٌ عَلَيْهِمْ}. أي رقيب عليهم حافظ عليهم كل ما يعملونه من الكفر والمعاصي، وفي أوله اتخاذهم الأولياء، يعبدونهم من دون الله. وفي الآية تهديد عظيم لكل مشرك. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}. أي لست يا محمد، بموكل عليهم تهدي من شئت هدايته منهم، بل إنما أنت نذير فحسب، وقد بلغت ونصحت.

والوكيل عليهم هو الذي يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُمُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} وقال تعالى: {وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ سَلَّطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ لَهْدَىٰ فَلَا تُكُونُ مِنْ لَجَاهِلِينَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة. وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق في قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}، وما جرى مجراه من الآيات ليس منسوخاً بآية السيف والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: {لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}، وفي الزمر في الكلام على قوله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا}. خص الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة إنذاره، صلى الله عليه وسلم بأم القرى ومن حولها، والمراد بأم القرى مكة حرسها الله.

ولكنه أوضح في آيات أخر أن إنذاره عام لجميع الثقلين كقوله تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولٌ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ}، كما أوضحنا ذلك مراراً في هذا الكتاب المبارك.

وقد ذكرنا الجواب عن تخصيص أم القرى ومن حولها هنا وفي سورة الأنعام في قوله تعالى: {وَلَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا} و {لَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ}، في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، فقلنا فيه: والجواب من وجهين. الأول: أن المراد بقوله: {وَمَنْ حَوْلَهَا} شامل لجميع الأرض، كما رواه ابن جرير وغيره، عن ابن عباس.

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا تسليماً جديلاً، أن قوله {وَمَنْ حَوْلَهَا} لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة حرسها الله، كجزيرة العرب مثلاً، فإن الآيات الأخر، نصت على العموم كقوله {لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} وذكر بعض أفراد العام بحكم العام، لا يخصه عند عامة العلماء، ولم يخالف فيه إلا أبو ثور.

وقد قدمنا ذلك واضحاً بأدلته في سورة المائدة، فالآية على هذا القول كقوله {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} فإنه لا يدل على عدم

إنذار غيرهم، كما هو واضح. والعلم عند الله تعالى اه منه. قوله تعالى: {وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ}.

تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أن من حكم إيحائه تعالى، إلى نبينا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العربي، إنذار يوم الجمع، فقوله تعالى: {وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ} معطوف على قوله: {لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ} أي لا بد أن تنذر أم القرى وأن تنذر يوم الجمع فحذف في الأول، أحد المفعولين وحذف في الثاني أحدهما، فكان ما أثبت في كل منهما، دليلاً على ما حذف في الثاني، ففي الأول حذف المفعول الثاني، والتقدير «لتنذر أم القرى» أي أهل مكة ومن حولها، عذاباً شديداً إن لم يؤمنوا، وفي الثاني حذف المفعول الأول، أي وتنذر الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة أي تخوفهم مما فيه من الأهوال، والأوجال ليستعدوا لذلك في دار الدنيا.

والثاني: أن يوم الجمع المذكور لا ريب فيه، أي لا شك في وقوعه، وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، جاءا موضحين في آيات أخر.

أما تخوفه الناس يوم القيامة، فقد ذكر في مواضع من كتاب الله كقوله تعالى: {وَوَيْتُفُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}. وقوله تعالى {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْقَةِ}. وقوله تعالى: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ لَوْلَدَنَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْقَطِرًا بِهِ}: وقوله تعالى: {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ لَعَالِمِينَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما الثاني منهما: وهو كون يوم القيامة لا ريب فيه فقد جاء في مواضع أخر كقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} وقوله {فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} وقوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا}. وقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتُمَّ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ}. إلى غير ذلك من الآيات.

وإنما سمي يوم القيامة يوم الجمع، لأن الله يجمع فيه جميع الخلائق. والآيات الموضحة لهذا المعنى، كثيرة كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} وقوله تعالى: {هَذَا يَوْمٌ لِّفَضْلِ جَمْعَتِكُمْ وَالْأَوَّلِينَ}. وقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}. وقوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِينِ} وقوله تعالى {ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} وقوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} وقوله تعالى: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}.

وقد بين تعالى شمول ذلك لإلجمع لجميع الدواب والطيير في قوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمَثَلِكُمْ مَا قَرَّرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآيات الدالة على الجمع المذكورة كثيرة. قوله تعالى: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله خلق الخلق، وجعل منهم فريقاً سعداء، وهم أهل الجنة، وفريقاً أشقياء وهم أصحاب السعير، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} وقوله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} أي ولذلك الاختلاف، إلى مؤمن وكافر وشقي وسعيد، خلقهم على الصحيح، ونصوص الوحي الدالة على ذلك كثيرة جداً. وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وجه الجمع بين قوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} على التفسير المذكور، وبين قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، وسنذكر ذلك إن شاء الله في سورة الذاريات.

وقد قدمنا معنى السعير بشواهد العربية في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ}، والجنة في لغة العرب البستان.

ومنه قول زهير بن أبي سلمى: كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقي جنة سحقا

فقوله: جنة سحقا، يعني بستاناً طويل النخل، وفي اصطلاح الشرع هي دار الكرامة التي أعد الله لأولياؤه يوم القيامة. والفريق: الطائفة من الناس، ويجوز تعدده إلى أكثر من اثنين، ومنه قول نصيب: فقال فريق القوم لا، وفريقهم نعم وفريق قال ويحك ما ندري

والمسوغ للابتداء بالنكرة في قوله: فريق في الجنة، أنه في معرض التفصيل.

ونظيره من كلام العرب قول امرئ القيس: فلما دنوت تسديتها

فتوب نسيت وثوب أجر
قوله تعالى: {وَمَا خُلِّفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللَّهِ}. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى الله وحده، لا إلى غيره، جاء موضحاً في آيات كثيرة.

فالإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته قال في حكمه {وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}، وفي قراءة ابن عامر من السبعة {وَلَا تُشْرِكُوا فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} بصيغة النهي.

وقال في الإشراك به في عبادته: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء الله.

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه، كفر بواح لانزاع فيه.

وقد دل القرآن في آيات كثيرة، على أنه لا حكم لغير الله، وأن اتباع تشريع غيره كفر به، فمن الآيات الدالة على أن الحكم لله وحده قوله تعالى {إِن لِّحُكْمِكُمْ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ إِلَّا تَعْبُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، وقوله تعالى: {إِن لِّحُكْمِكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}. وقوله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، وقوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}، وقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، وقوله تعالى {لَهُ لِحْمَدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة. وقد قدمنا إيضاحها في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}.

وأما الآيات الدالة على أن اتباع تشريع غير الله المذكور كفر فهي كثيرة جداً، كقوله تعالى: {إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}، وقوله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}، وقوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا آدَمُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، كما تقدم إيضاحه في الكهف.

مسألة

اعلم أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة، صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، التي سنوضحها الآن إن شاء الله، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع. سبحانه الله وتعالى عن ذلك.

فإن كانت تنطبق عليهم ولن تكون، فليتبع تشريعهم. وإن ظهر يقيناً أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك، فليقف بهم عند حدهم، ولا يجاوزه بهم إلى مقام الربوبية. سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته، أو حكمه أو ملكه. فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله هنا: {وَمَا خُلِقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}، ثم قال مبيناً صفات من له الحكم {دَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَرْوَاجًا وَمِمَّنْ أَلْأَنعَمَ أَرْوَاجًا يَدْرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
 السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
 يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {.

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية، من يستحق
 أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور، ويتوكل عليه، وأنه
 فاطر السماوات والأرض أي خالقهما ومخترعهما، على غير مثال
 سابق، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجًا، وخلق لهم أزواج الأنعام
 الثمانية المذكورة في قوله تعالى: { تَمَنِّيَةَ أَرْوَاحٍ مِّنَ الْأَنْعَامِ
 تُنْتِنُ }، وأنه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } وأنا { لَهُ
 مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، وأنه { هُوَ الَّذِي * يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
 يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } أي يضيقه على من يشاء { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }.
 فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع
 ويحلل ويحرم، ولا تقبلوا تشريعاً من كافر خسيس حقير جاهل.
 ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى { فَإِن تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ
 فَارْجُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ
 خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا }، فقولته فيها: { فَارْجُوهُ إِلَى اللَّهِ } كقوله في
 هذه { فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ }.

وقد عجب نبيه صلى الله عليه وسلم بعد قوله: { فَارْجُوهُ إِلَى اللَّهِ }
 من الذين يدعون الإيمان مع أنهم يريدون المحاكمة، إلى من لم
 يتصف بصفات من له الحكم، المعبر عنه في الآية بالطاغوت، وكل
 تحاكم إلي غير شرع الله فهو تحاكم إلى الطاغوت، وذلك في قوله
 تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا
 أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ
 يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا }.

فالكفر بالطاغوت، الذي صرح الله بأنه أمرهم به في هذه الآية،
 شرط في الإيمان كما بينه تعالى في قوله: { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ
 وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى }.
 فيفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت لم يتمسك بالعروة الوثقى،
 ومن لم يتمسك بها فهو مترد مع الهالكين.

ومني الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { لَهُ عَيْبٌ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي
 حُكْمِهِ أَحَدًا }.

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له
 غيب السماوات والأرض؟ وأن يباليغ في سمعه وبصره لإحاطة
 سمعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات؟
 وأنه ليس لأحد دونه من ولي؟

سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؟
ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ}.

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه
الإله الواحد؟ وأن كل شيء هالك إلا وجهه؟ وأن الخلائق يرجعون
إليه؟

تبارك ربنا وتعظيم وتقديس أن يوصف أحسن خلقه بصفاته.
ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: {ذَلِكُمْ يَأْتِيهِ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ
وَحَدَّهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}.

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين النظم الشيطانية، من يستحق
أن يوصف في أعظم كتاب سماوي، بأنه العلي الكبير؟
سبحانك ربنا وتعاليت عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك.
ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أَرَأَيْتُمْ إِنْ
جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ لَيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيكُمْ بِنُورٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ أَرْعَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ
سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِنُورٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ
أَوْ لَيْلٍ تُبْصِرُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

فهل في مشرعي القوانين الوضعية، من يستحق أن يوصف بأن له
الحمد في الأولى والآخرة، وأنه هو الذي يصرف الليل والنهار مبيناً
بذلك كمال قدرته، وعظمة إنعامه على خلقه.
سبحان خالق السماوات والأرض، جل وعلا أن يكون له شريك في
حكمه أو عبادته، أو ملكه.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: {إِنْ لِحُكْمِ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ أَلَّا
تَعْبُؤُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

فهل في أولئك من يستحق أن يوصف بأنه هو الإله المعبود وحده،
وأن عبادته وحده هي الدين القيم؟
سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
ومنها قوله تعالى: {إِنْ لِحُكْمِ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
لِمُتَوَكِّلُونَ}.

فهل فيهم من يستحق أن يتوكل عليه، وتفوض الأمور إليه؟
ومنها قوله تعالى: {وَإِنْ حُكْمُ رَبِّكَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ وَخُذْهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَعَلَّمْنَا مِمَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضَ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنْ

الْبَاسِ لَقَسِفُونَ * أَفْحُكْمَ لَجَهْلِيَّةٍ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}.

فهل في أولئك المشرعين من يستحق أن يوصف بأن حكمه بما
أنزل الله وأنه مخالف لاتباع الهوى؟ وأن من تولى عنه أصابه الله
ببعض ذنوبه؟ لأن الذنوب لا يؤاخذ بجميعها إلا في الآخرة؟ وأنه لا
حكم أحسن من حكمه لقوم يوقنون؟
سبحان ربنا وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.
ومنها قوله تعالى: {إِنَّ لِحُكْمِ اللَّهِ يَفْصَلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ
الْفَاصِلِينَ}.

فهل فيهم من يستحق أن يوصف بأنه يقص الحق، وأنه خير
الفاصلين؟

ومنها قوله تعالى: {أَفَعَيِّرَ اللَّهُ أَتْبَغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ
الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ لِكِتَابٍ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتِرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}.

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي
أنزل هذا الكتاب مفصلاً، الذي يشهد أهل الكتاب أنه منزل من ربك
بالحق، وبأنه تمت كلماته صدقاً وعدلاً أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً
في الأحكام، وأنه لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم؟

سبحان ربنا ما أعظمه وما أجل شئانه.
ومنها قوله تعالى: {قُلْ إِرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمُ
مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَأَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}.

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي
ينزل الرزق للخلائق، وأنه لا يمكن أن يكون تحليل ولا تحريم إلا
بإذنه؟ لأن من الضروري أن من خلق الرزق وأنزله هو الذي له
التصرف فيه بالتحليل والتحريم؟

سبحانه جل وعلا أن يكون له شريك في التحليل والتحريم.
ومنها قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكٰفِرُونَ}.

فهل فيهم من يستحق الوصف بذلك؟

سبحان ربنا وتعالى عن ذلك.
ومنها قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمْ لِكَذِبٍ هَذَا
حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ لِكَذِبٍ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ لِكَذِبٍ لَّا يُفْلِحُونَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

فقد أوضحت الآية أن المشرعين غير ما شرعه الله إنما تصف
ألسنتهم الكذب، لأجل أن يفتروه على الله، وأنهم لا يفلحون وأنهم
يتمتعون قليلاً ثم يعذبون العذاب الأليم، وذلك واضح في بعد
صفاتهم من صفات من له أن يحلل ويحرم.

ومنها قوله تعالى: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ لَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ}.

فقوله: {هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ} صيغة تعجيز، فهم عاجزون عن بيان مستند التحريم. وذلك واضح في أن غير الله لا يتصف بصفات التحليل ولا التحريم. ولما كان التشريع وجميع الأحكام، شرعية كانت أو كونية قدرية، من خصائص الربوبية. كما دلت عليه الآيات المذكورة كان كل من اتبع تشريعاً غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع ربا، وأشركه مع الله.

والآيات الدالة على هذا كثيرة، وقد قدمناها مراراً وسنعيد منها ما فيه كفاية، فمن ذلك وهو من أوضحه وأصرحه، أنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقعت مناظرة بين حزب الرحمن، وحزب الشيطان، في حكم من أحكام التحريم والتحليل وحزب الرحمن يتبعون تشريع الرحمن، في وحيه في تحريمه، وحزب الشيطان يتبعون وحي الشيطان في تحليله.

وقد حكم الله بينهما وأفتى فيما تنازعا فيه فتوى سماوية قرآنية تتلى في سورة الأنعام.

وذلك أن الشيطان لما أوحى إلى أوليائه فقال لهم في وحيه: سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فأجابوهم أن الله هو الذي قتلها.

فقالوا: الميتة إذاً ذبيحة الله، وما ذبحه الله كيف تقولون إنه حرام؟ مع أنكم تقولون إنما ذبحتموه بأيديكم حلال، فأنتم إذا أحسن من الله وأحل ذبيحة.

فأنزل الله بإجماع من يعتد به من أهل العلم قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ سَمُّ اللَّهِ عَلَيْهِ} يعني الميتة أي وإن زعم الكفار أن الله ذكأها بيده الكريمة بسكين من ذهب: {وَأَنَّهُ لَفِسْقٌ} والضمير عائد إلى الأكل المفهوم من قوله: {وَلَا تَأْكُلُوا} وقوله: {لَفِسْقٌ} أي خروج عن طاعة الله، واتباع لتشريع الشيطان: {وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُواكُمْ}. أي بقولهم: ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذا أحسن من الله، وأحل تذكية، ثم بين الفتوى السماوية من رب العالمين، في الحكم بين الفريقين في قوله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} فهي فتوى سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله. وهذه الآية الكريمة مثل بها بعض علماء العربية لحذف اللام الموطئة للقسم، والدليل على اللام الموطئة المحذوفة عدم اقتران جملة إنكم لمشركون بالفاء، لأنه لو كان شرطاً لم يسبقه

قسم لقيط: فإنكم لمشركون على حد قوله في الخلاصة: واقرن
بفا حتما جواباً لو جعل شرطاً لأن أو غيرها لم يجعل

وهو مذهب سيبويه، وهو الصحيح، وحذف الفاء في مثل ذلك من
ضرورة الشعر.
وما زعمه بعضهم من أنه يجوز مطلقاً، وأن ذلك دلت عليه آيتان
من كتاب الله.

إحدهما قوله تعالى: { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } .
والثانية قوله تعالى: { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ }
بحذف الفاء في قراءة نافع وابن عامر من السبعة خلاف التحقيق.
بل المسوغ لحذف الفاء في آية: { إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } تقدير القسم
المحذوف قبل الشرط المدلول عليه بحذف الفاء على حد قوله
في الخلاصة: واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أحرث
فهو ملتزم

وعليه: فجملة إنكم لمشركون جواب القسم المقدر، وجواب
الشرط محذوف فلا دليل في الآية لحذف الفاء المذكور.
والمسوغ له في آية { بِمَا كَسَبَتْ * أَيْدِيكُمْ } أن ما في قراءة نافع
وابن عامر موصولة كما جزم به غير واحد من المحققين، أي
والذي أصابكم من مصيبة كائن وواقع بسبب ما كسبت أيديكم.
وأما على قراءة الجمهور: فما موصولة أيضاً، ودخول الفاء في خبر
الموصول جائز كما أن عدمه جائز فكلتا القراءتين جارية على أمر
جائز.

ومثال دخول الفاء في خبر الموصول قوله تعالى: { لِّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ بِالْإِيلِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُخَزَّنُونَ } وهو كثير في القرآن وقال بعضهم: إن ما
في قراءة الجمهور شرطية، وعليه فاقتران الجزاء بالفاء واجب أما
على قراءة نافع وابن عامر، فهي موصولة ليس إلا كما هو التحقيق
إن شاء الله.

وكون ما شرطية على قراءة وموصولة على قراءة لا إشكال فيه.
لما قدمنا من أن القراءتين في الآية الواحدة كالآيتين.
ومن الآيات الدالة على نحو ما دلت عليه آية الأنعام المذكورة قوله
تعالى: { إِنَّمَا سُلِّطْنَا عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ }، فصرح بتوليهم للشيطان أي باتباع ما يزين لهم من
الكفر والمعاصي مخالفاً لما جاءت به الرسل، ثم صرح بأن ذلك
إشراك به في قوله تعالى: { وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } وصرح أن

الطاعة في ذلك الذي يشرعه الشيطان لهم ويزينه عبادة للشيطان.

ومعلوم أن من عبد الشيطان فقد أشرك بالرحمن قال تعالى: {الْمَ أَعْهَدُ إِلَيْكُمْ يَتَىٰ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ عُبِدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا}، ويدخل فيهم متبعوا نظام الشيطان دخولا أولياء {أَقَلَمَ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}.

ثم بين المصير الأخير لمن كان يعبد الشيطان في دار الدنيا، في قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ طَلَوْهَا لِيَوْمَ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ لِيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} وقال تعالى: عن نبيه إبراهيم {يَا بَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} فقله: لا تعبد الشيطان: أي باتباع ما يشرعه من الكفر والمعاصي، مخالفاً لما شرعه الله.

وقال تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِيثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} فقله: {وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا} يعني ما يعبدون إلا شيطاناً مردياً.

وقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا لِيَاكُم كَانُوا يَعْبُدُونَ وَقَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ لِحِجِّ أَكْثَرِهِمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}.

فقله تعالى: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ لِحِجِّ} أي يتبعون الشياطين ويطيعونهم فيما يشرعون ويزينون لهم، من الكفر والمعاصي على أصح التفسيرين.

والشيطان عالم بأن طاعتهم له المذكورة إشراك به كما صرح بذلك وتبرأ منهم في الآخرة، كما نص الله عليه في سورة إبراهيم في قوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ لِحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} إلى قوله: {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} فقد اعترف بأنهم كانوا مشركين به من قبل أي في دار الدنيا، ولم يكفر بشركهم ذلك إلا يوم القيامة.

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى الذي بيننا في الحديث لما سألته عدي بن حاتم رضي الله عنه عن قوله: {أَتَخَوُّوا أَخْبَرَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا} كيف اتخذوهم أرباباً؟ وأجابه صلى الله عليه وسلم «أنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرّموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم، وبذلك الاتباع اتخذوهم أرباباً».

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الكفار إذا أحلوا شيئاً، يعلمون أن الله حرمه وحرّموا شيئاً يعلمون أن الله أحله، فإنهم يزدادون كفراً جديداً بذلك، مع كفرهم الأول، وذلك في قوله تعالى: {إِنَّمَا

لِلسَّيْرِ زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ { إِلَى قَوْلِهِ: } وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ {.

وعلى كل حال فلا شك أن كل من أطاع غير الله، في تشريع مخالف لما شرعه الله، فقد أشرك به مع الله كما يدل لذلك قوله: { وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ } فسامهم شركاء لما أطاعوهم في قتل الأولاد. وقوله تعالى: { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } فقد سمى تعالى الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، ومما يزيد ذلك إيضاحاً، أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة، من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا، إني كفرت بما أشركتمون من قبل، أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شيء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله تعالى عنه: { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ وَاسْتَجَبْتُمْ لِي }، وهو واضح كما ترى.

{ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِيمٌ * نَسَخَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ بِالْعِلْمِ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا لِكِتَابٍ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ * فَلِذَلِكَ وَادُّعٍ وَ سَلِّقُمْ كَمَا أَمَرْتُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَيَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَالِكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ لَمَصِيرٌ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا سَلَّجِبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَصَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * اللَّهُ أَلْوَىٰ لِمَن يَتَّبِعُهُ مِنَ الْغَايِبِينَ وَأَنزَلَ لِكِتَابٍ بِالْحَقِّ وَ لِمِيزَانٍ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لِحَقُّ آلَاءِ إِنْ لَدِينِ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ لَّفُضِّلَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي

رَوْضَاتٍ لَّجَنَّتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ *
 ذَلِكَ لِذِي يَنْشُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ
 لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ * أَمْ يَقُولُونَ قُتِرْنَا عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ لِبَطْلٍ وَيُحِقُّ لِحَقِّ
 يَكَلِّمْتَهُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ
 وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَإِلَّا كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ
 شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنَزِّلُ
 بِقَدَرٍ مَّا يَنْبَأُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ لَعْنَتٍ مِنْ
 بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ لَولِيُّ لِحَمِيدٍ * وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا
 يَشَاءُ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا
 عَنْ كَثِيرٍ

قوله تعالى:

{ قَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ
 الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ } . قوله تعالى: { قَاطِرُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ } تقدم تفسيره في أول سورة فاطر.
 وقوله { جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } .

أي خلق لكم أزواجا من أنفسكم كما قدمنا الكلام عليه في سورة
 النحل في الكلام على قوله تعالى: { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنِينَ وَحَقَدَةً } وبيننا أن المراد
 بالازواج الإناث كما يوضحه قوله تعالى: { وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ
 مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً } .
 وقوله تعالى: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّرَّاجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِذَا

تُمْتِنِي } وقوله: { فَجَعَلَ مِنْهُ الذَّرَّاجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى } وقوله تعالى:
 { وَ لَيْلٍ إِذَا يَعْشَوُ اللَّهَارَ إِذَا تَجَلَّىوَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى } . وقوله
 في آدم: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
 وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } . وقوله تعالى فيه أيضا: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
 نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } . وقوله تعالى فيه
 أيضا: { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } .

وقوله تعالى: { وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا } هي الثمانية المذكورة في
 قوله تعالى: { تَمِينَةَ أَرْوَجٍ مِنَ الصَّانِ الثَّمِينِ } . وفي قوله: { خَلَقَكُمْ
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ
 أَرْوَجٍ } وهي ذكور الضأن والمعز والإبل والبقر وإناثها، كما قدمنا
 أيضا في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى:
 { وَالْأَنْعَامِ وَ لِحَرْثٍ } .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {يَذَرُوكُمْ فِيهِ} الظاهر أن ضمير الخطاب في قوله {يَذَرُوكُمْ} شامل للآدميين والأنعام، وتغليب الآدميين على الأنعام في ضمير المخاطبين في قوله: يذروكم واضح لا إشكال فيه.

والتحقيق إن شاء الله أن الضمير في قوله: «فيه» راجع إلى ما ذكر من الذكور والإناث، من بني آدم والأنعام في قوله تعالى: {جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} سواء قلنا إن المعنى: أنه جعل للآدميين إناثاً من أنفسهم أي من جنسهم، وجعل للأنعام أيضاً إناثاً كذلك، أو قلنا إن المراد بالأزواج الذكور والإناث منهما معاً.

وإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية الكريمة يذروكم أي يخلقكم ويبتكم وينشركم فيه، أي فيما ذكر من الذكور والإناث، أي في ضمنه، عن طريق التناسل كما هو معروف. ويوضح ذلك في قوله تعالى: {تَقْوُوا رَبَّكُمْ لِيَذَرَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا} فقولته تعالى: {وَبَتَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} يوضح معنى قوله: {يَذَرُوكُمْ فِيهِ}.

فإن قيل: ما وجه إفراد الضمير المجرور في قوله يذروكم فيه، مع أنه على ما ذكرتم، عائد إلى الذكور والإناث من الآدميين والأنعام؟ فالجواب: أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، رجوع الضمير أو الإشارة بصيغة الإفراد إلى مثنى أو مجموع باعتبار ما ذكر مثلاً.

ومثاله في الضمير: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ}، فالضمير في قوله: به مفرد مع أنه راجع إلى السمع والأبصار والقلوب. فقوله: {يَأْتِيكُمْ بِهِ} أي بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم، ومن هذا المعنى قول رؤبة بن العجاج: فيها خطوط من سواد وبلق كأن في الجلد توليع البهق

فقوله: كأنه أي ما ذكر من خطوط من سواد وبلق. ومثاله في الإشارة {لَا قَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ} أي بين ذلك المذكور، من فارض وبكر، وقول عبد الله بن الزبير السهمي: إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

أي كلا ذلك المذكور من الخير والشر. وقول من قال، إن الضمير في قوله فيه راجع إلى الرحم، وقول من قال راجع إلى البطن، ومن قال راجع إلى الجعل المفهوم من

جعل وقول من قال: راجع إلى التدبير، ونحو ذلك من الأقوال
خلاف الصواب.

والتحقيق إن شاء الله هو ما ذكرنا والعلم عند الله تعالى. قوله
تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}. وقد قدمنا الكلام
عليه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ سَوَّيْ
عَلَى الْعَرْشِ}. قوله تعالى: {لَهُ مَقَلِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}. مقاليد السموات والأرض هي
مفاتيحهما.

وهو جمع لا واحد له من لفظه، فمفردتها إقليد، وجمعها مقاليد على
غير قياس.

والإقليد المفتاح. وقيل: واحدها مقليد، وهو قول غير معروف في
اللغة.

وكونه جل وعلا {لَهُ مَقَلِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي مفاتيحهما
كناية عن كونه جل وعلا هو وحده المالك لخزائن السموات
والأرض لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها.
وقد ذكر جل وعلا مثل هذا في سورة الزمر في قوله تعالى: {اللَّهُ
خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ}.

وما دلت عليه آية الشورى هذه وآية الزمر المذكورتان من أنه جل
وعلا هو مالك خزائن السموات والأرض، جاء موضحاً في آيات
آخر كقوله تعالى: {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ
الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} وقوله تعالى: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}.

وبين في مواضع آخر أن خزائن رحمته لا يمكن أن تكون لغيره،
كقوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ يُعْزِزُ لَوْهَابٍ}
وقوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ لِمُسْتَضْرَبِينَ} وقوله
تعالى {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ حَشِيَّةَ
الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا}.

وقوله في هذه الآية الكريمة {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} جاء
معناه موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ}. وقوله تعالى {قُلْ إِنَّ رَبِّي
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}
وقوله تعالى {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا}. وقوله تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي
الرِّزْقِ}. وقوله تعالى: {نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا}. وقوله تعالى {إِن يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا قَالَ اللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا}.
وقوله تعالى {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ

قَلْنِيقُ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ}. وقوله تعالى: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ} أي ضيق عليه رزقه لقلته. وكذلك قوله {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} في الآيات المذكورة.

أي يبسط الرزق لمن يشاء بسطه له ويقدر، أي يضيق الرزق على من يشاء تضيقه عليه كما أوضحناه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى {قَطْرًا أَنْ لَنْ تُقَدِرَ عَلَيْهِ}. وقد بين جل وعلا في بعض الآيات حكمة تضيقه للرزق على من ضيقه عليه.

وذكر أن من حكم ذلك أن بسط الرزق للإنسيان، قد يحمله على البغي والطغيان كقوله تعالى {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَثُوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزِلُ يَقْدِرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}، وقوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ لِلنَّاسِ لِيَطْغَنَآ رِءَاؤَهُ سُبُغْنَى}. قوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَآلِ هَارُونَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ}. قوله تعالى: {وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}. الضمير في قوله: فيه، راجع إلى الدين في قوله: أن أقيموا الدين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الافتراق في الدين، جاء مبيناً في غير هذا الموضع، وقد بين تعالى أنه وصى خلقه بذلك، فمن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}. وقوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا وَابْتِغَوْهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} وقد بين تعالى في بعض المواضع أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي، وعددهم على ذلك كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شَبِيحًا لِّسَنِّ مِنْهُمْ فِي شَرِّهِ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، لأن قوله {لَسَنَّا مِنْهُمْ فِي شَرِّهِ} إلى قوله {يَفْعَلُونَ} فيه تهديد عظيم لهم.

وقوله تعالى في سورة {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَقُونَ أَفْئِدَةً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ حَتَّىٰ حِينٍ}. فقوله {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي إن هذه شريعتكم شريعة واحدة ودينكم دين واحد وريكم واحد فلا تتفرقوا في الدين.

وقوله جل وعلا: {فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا} دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك.

وقوله تعالى: {قَدَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ} فيه تهديد لهم ووعد عظيم على ذلك. ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء:

{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ وَاعْبُدُونِي وَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهَةٍ لِرِجْعُونَ} فقولته تعالى: {كُلُّ إِلَهَةٍ لِرِجْعُونَ} فيه أيضاً تهديد لهم ووعد على ذلك وقد أوضحنا تفسير هذه الآيات في آخر سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}.

وقد جاء في الحديث المشهور «افتراق اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتراق النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأن الناجية منها واحدة، وهي التي كانت على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه». قوله تعالى: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}. بين جل وعلا أنه كبر على المشركين أي شق عليهم وعظم ما يدعوهم إليه صلى الله عليه وسلم من عبادة الله تعالى وحده، وطاعته بامثال أمره واجتناب نهيه، ولعظم ذلك ومشقته عليهم، كانوا يكرهون ما أنزل الله ويجتهدون في عدم سماعه لشدة كراهتهم له، بل يكادون يبطلشون بمن يتلو عليهم آيات ربهم لشدة بغضهم وكراهتهم لها.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة في كتاب الله، وفيها بيان أن ذلك هو عادة الكافرين مع جميع الرسل من عهد نوح إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد بين تعالى مشقة ذلك على قوم ونوح وكبره عليهم في مواضع من كتابه كقوله تعالى: {وَإِلَّاهِهِمْ تَبَا نُوْحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ}. وقوله تعالى عن نوح {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا}.
سَلْتِكْبَارًا}.

فقوله تعالى {جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ} يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لما يدعوهم إليه نوح، فهو واضح في أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان به.

وقد بين الله تعالى مثل ذلك في الكفار الذين كذبوا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم في آيات من كتابه كقوله تعالى {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُنْكَرٍ يَكْفُرُونَ يَسْطُوبُونَ لِذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا} فقولته تعالى: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُنْكَرٍ} الآية. يدل دلالة واضحة، على شدة بغضهم وكراهيتهم لسماع تلك الآيات.

وكقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَاعْمُوا بِهِ}. وقوله تعالى في الزخرف. {لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}، وقوله تعالى في قد أفلح المؤمنون {أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} وقوله تعالى في القتال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ}، وقوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلُهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ فَحَدِيثُ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيُؤْتِيهِمْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ سَمِعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} وقوله تعالى {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَرَأَى مَسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، وقوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي غُفْلَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ}. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

واعلم أن هؤلاء الذين يكرهون ما أنزل الله، يجب على كل مسلم أن يحذر كل الحذر من أن يطيعهم في بعض أمرهم، لأن ذلك يستلزم نتائج سيئة متناهية في السوء، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْآنٍ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ رَأَوْهُمُ اتَّخَذُوا آلَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَلْسِنَةُ الشَّيْطَانِ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ لِمَلَائِكَةٍ يَصْرُبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَ هُمُذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اسْحَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ} فعلى كل مسلم أن يحذر ثم يحذر ثم يحذر كل الحذر، من أن يقول للذين كفروا، الذين يكرهون ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، لأن ذلك يسبب له ما ذكره الله في الآيات المذكورة، ويكفيه زجراً وردعاً عن ذلك قوله ربه تعالى {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ لِمَلَائِكَةٍ يَصْرُبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَ هُمُذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اسْحَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ}. قوله تعالى: {اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ}. الاجتباء في اللغة العربية معناه الاختيار والاصطفاء.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبي من خلقه من يشاء اجتباءه.

وقد بين في مواضع آخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا رُكِعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَفِعَلُوا الْخَيْرَ} إلى قوله: {هُوَ جُنَّتِكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}. وقوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا لِكِتَابِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عِبَادِنَا}.

وبين في موضع آخر أن منهم آدم وهو قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهُ فِتْنَةً لِّأَبْنَائِهِ إِسْمَاعِيلَ إِذْ قَرَّبَهُمْ قَوْلَهُ يَا بَنِيَّ إِنِّيَجِدْتُ لَكُمْ لِلْحَقِّ وَهَدَى}. وذكر أن منهم إبراهيم في قوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} إلى قوله {شَاكِرًا لِأَنعَمِهِ جُنَّتَهُ}. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين.

وقوله تعالى: { وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } أي من سبق في علمه أنه ينيب إلى الله أي يرجع إلى ما يرضيه، من الإيمان والطاعة، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الرعد { قُلْ إِنْ أَلَلَّ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُتَابُ }. قوله تعالى: { وَقُلْ ءَأَمَنْتُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ }. تقدمت الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى { وَمَا أُوتِيَ السُّبُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَأُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ } . قوله تعالى: { اللَّهُ لَعَلَّ أَنْزَلَ لِكِتَابٍ بِالْحَقِّ وَ لِمِيزَانٍ } . بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي أنزل الكتاب في حال كونه متلبساً بالحق الذي هو ضد الباطل، وقوله: { لِكِتَابٍ } اسم جنس مراد به جميع الكتب السماوية.

وقد أوضحنا في سورة الحج أن المفرد الذي هو اسم الجنس يطلق مراداً به الجمع، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك مع الشواهد العربية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَ لِمِيزَانٍ } يعني أن الله جل وعلا هو الذي أنزل الميزان، والمراد به العدل والإنصاف. وقال بعض أهل العلم: الميزان في الآية: هو آلة الوزن المعروفة. ومما يؤيد ذلك أن الميزان مفعال، والمفعال قياسي في اسم الآلة.

وعلى التفسير الأول وهو أن الميزان العدل والإنصاف، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه، لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان أوضحه في غير هذا الموضع بقوله تعالى في سورة الحديد { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ لِمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }. فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله بالكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل والإنصاف. وكقوله تعالى في سورة الرحمن { وَالسِّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِمِيزَانًا لَّا تَطَعُوا فِي لِمِيزَانٍ وَأَقِيمُوا لُوزَنًا بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا لِمِيزَانَ } .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي والله تعالى أعلم: أن الميزان في سورة الشورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف، كما قاله غير واحد من المفسرين. وأن الميزان في سورة الرحمن هو الميزان المعروف أعني آلة الوزن التي يوزن بها بعض المبيعات.

ومما يدل على ذلك أنه في سورة الشورى وسورة الحديد غير
 بإنزال الميزان لا بوضعه، وقال في سورة الشورى {اللَّهُ الَّذِي
 أَنْزَلَ لِكِتَابٍ بِالْحَقِّ وَ لِمِيزَانٍ}.
 وقال في الحديد: {وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ لِكِتَابَ وَ لِمِيزَانٍ}.
 وأما في سورة الرحمن فقد عبر بالوضع لا الإنزال، قال {وَالسَّمَاءَ
 رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِمِيزَانٍ} ثم أتبع ذلك بما يدل على أن المراد به آلة
 الوزن المعروفة، وذلك في قوله: {وَأَقِيمُوا لُوزَنَ بِالْقِسْطِ وَلَا
 تُخْسِرُوا لِمِيزَانَ}، لأن الميزان الذي نهوا عن إفساره هو أخو
 المكيال، كما قال تعالى {أَوْفُوا لِكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
 الْمُخْسِرِينَ}، وقال تعالى {وَالْقِسْطَ لِمُسْتَقِيمٍ}، وقال تعالى {وَالنَّاسَ
 أَشْيَاءَهُمْ} وقال تعالى {وَإِذَا كَالُوا فَكُلُوا وَلَا يَأْكُلُوا كَالًا نَدِيمًا}، وقال تعالى
 {وَالنَّاسَ يَسْتَوْفُونَ} * وَإِذَا كَالُوا فَكُلُوا وَلَا يَأْكُلُوا كَالًا نَدِيمًا * لَذِينَ إِذَا كَالُوا عَلَى
 عَن نَّبِيهِ شَعِب: {وَلَا تَنْقُصُوا لِمِكْيَالٍ وَ لِمِيزَانَ}. وقال تعالى
 عنه أيضاً {قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا لِكَيْلَ وَ لِمِيزَانَ}.
 وقال تعالى في سورة الأنعام: {وَأَوْفُوا لِكَيْلَ وَ لِمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
 لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} وقال تعالى في سورة بني إسرائيل
 {وَأَوْفُوا لِكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ لِمُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ خَيْرٌ
 وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}.

فإن قيل: قد اخترتم أن المراد بالميزان في سورة الشورى
 وسورة الحديد، هو العدل والإنصاف، وأن المراد بالميزان في
 سورة الرحمن هو آلة الوزن المعروفة، وذكرتم نظائر ذلك من
 الآيات القرآنية، وعلى هذا الذي اخترتم يشكل الفرق بين الكتاب
 والميزان، لأن الكتب السماوية كلها عدل وإنصاف.
 فالجواب من وجهين:

الأول منهما هو ما قدمنا مراراً من أن الشيء الواحد إذا عبر عنه
 بصفتين مختلفتين جاز عطفه على نفسه تنزيلاً للتغاير بين
 الصفات منزلة التغاير في الذوات، ومن أمثلة ذلك في القرآن
 قوله تعالى {سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أَلْعَلَى} * لِيذِي خَلْقٍ فَسَوَّى * وَ لِيذِي
 قَدْرٍ فَهَدَى * وَ لِيذِي أَرْحَ لِمَزَعَى} فالموصوف واحد والصفات
 مختلفة، وقد ساغ العطف لتغاير الصفات. ونظير ذلك من كلام
 العرب قول الشاعر: إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية
 في المزدحم

وأما الوجه الثاني:
 فهو ما أشار إليه العلامة ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين،
 من المغايرة في الجملة بين الكتاب والميزان.

وإيضاح ذلك: أن المراد بالكتاب هو العدل والإنصاف المصرح به في الكتب السماوية.

وأما الميزان: فيصدق بالعدل والإنصاف الذي لم يصرح به في الكتب السماوية، ولكنه معلوم مما صرح به فيها. فالتأفيف في قوله تعالى {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ}، من الكتاب لأنه مصرح به في الكتاب، ومنع ضرب الوالدين مثلاً المدلول عليه بالنهي على التأفيف من الميزان، أي من العدل والإنصاف الذي أنزله الله مع رسله.

وقبول شهادة العدلين في الرجعة والطلاق المنصوص في قوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا دَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ} من الكتاب الذي أنزله الله، لأنه مصرح به فيه.

وقبول شهادة أربعة عدول في ذلك من الميزان الذي أنزله الله مع رسله.

وتحريم أكل مال اليتيم المذكور في قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ تَارًا} من الكتاب. وتحريم إغراق مال اليتيم وإحراقه، المعروف من ذلك من الميزان، الذي أنزله الله مع رسله.

وجلد القاذف الذكر للمحصنة الأنثى ثمانين جلدة ورد شهادته، والحكم بفسقه المنصوص في قوله تعالى {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ لِمُحْصَنَاتٍ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَجُلِدُوهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً} إلى قوله {إِلَّا لَّذِينَ تَابُوا} الآية من الكتاب الذي أنزله الله.

وعقوبة القاذف الذكر لذكر مثله، والأنثى القاذفة للذكر أو لأنثى بمثل تلك العقوبة المنصوصة في القرآن من الميزان المذكور. وحلية المرأة التي كانت مبتوتة، بسبب نكاح زوج ثان وطلاقه لها بعد الدخول المنصوص في قوله تعالى {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا} أي فإن طلقها الزوج الثاني، بعد الدخول وذوق العسيلة فلا جناح عليهما أي لا جناح على المرأة التي كانت مبتوتة والزوج الذي كانت حراماً عليه، أن يتراجعا بعد نكاح الثاني وطلاقه لها، من الكتاب الذي أنزل الله.

وأما إن مات الزوج الثاني بعد أن دخل بها وكان موته قبل أن يطلقها، فحليتها للأول الذي كانت حراماً عليه، من الميزان الذي أنزله الله مع رسله.

وقد أشرنا إلى كلام ابن القيم المذكور، وأكثرنا من الأمثلة لذلك في سورة الأنبياء في كلامنا الطويل على قوله تعالى {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي بَيْتِ الْحَرْثِ}. قوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {أَتَىٰ أَمْرٌ لِلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}.

وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا } وفي سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَقَةِ }. قوله تعالى: { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ }. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل: الأولى: أن الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة، يستعجلون بها أي يطلبون تعجيلها عليهم، لشدة إنكارهم لها. والثانية: أن المؤمنين مشفقون منها، أي خائفون منها. والثالثة: أنهم يعلمون أنها الحق، أي أن قيامها ووقوعها حق لا شك فيه.

وكل هذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما استعجالهم لها فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ لِحْسَنِهَا } وَقَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمَثَلُ } وفي غير ذلك من المواضع. وأما المسألة الثانية: التي هي إشفاق المؤمنين وخوفهم من الساعة، فقد ذكره في مواضع آخر كقوله تعالى { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ } وقوله تعالى { يَخْفُونَ يَوْمًا تَتَّقَلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ } وقوله تعالى { يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَارِ وَيَخْفُونَ يَوْمًا كَانَ سُرُهُمْ مَسْتَطِيرًا }. وأما المسألة الثالثة: وهي علمهم أن الساعة حق، فقد دلت عليه الآيات المصرحة بأنها لا ريب فيها، لأنها تتضمن نفي الريب فيها من المؤمنين.

والريب: الشك كقوله تعالى عن الراسخين في العلم: { رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ }. وقوله تعالى { أَلَلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ }؛ وقوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ }. وقوله تعالى: { وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ }. وقوله تعالى { ذَلِكَ يَأْتِيكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى { بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { يُمَارُونَ }، مضارع ماري، يماري، مرء ومماراة، إذا خاصم وجادل.

ومنه قوله تعالى { فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا }.

وقوله { لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ } أي بعيد عن الحق والصواب.

وقد قدمنا معاني الضلال في القرآن واللغة العربية، مع الشواهد في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى { قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ } وفي مواضع آخر من هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: { قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي } { قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا }. أن جميع الرسل عليهم الصلوات والسلام، لا يأخذون أجراً على التبليغ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وجه الجمع بين تلك الآيات، وأية شوري هذه فقلنا فيه: اعلم أولاً أن في قوله تعالى { إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي } أربعة أقوال:

الأول: ورواه الشعبي وغيره عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم كما نقله عنهم ابن جرير وغيره، أن معنى الآية { قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي } أي إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني إذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم، وكان صلى الله عليه وسلم له في كل بطن من قريش رحم، فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ لأنه مبذول لكل أحد، لأن كل أحد يوده أهل قرابته وينتصرون له من أذى الناس. وقد فعل له ذلك أبو طالب ولم يكن أجراً على التبليغ لأنه لم يؤمن.

وإذا كان لا يسأل أجراً إلا هذا الذي ليس بأجر تحقق أنه لا يسأل أجراً كقول النابغة: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم. وهذا القول هو الصحيح في الآية، واختاره ابن جرير، وعليه فلا إشكال. الثاني: أن معنى الآية { إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي } أي لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعلي بن الحسين، وعليه فلا إشكال أيضاً. لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم، وأحري قرابة النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: { وَ لِمُؤْمِنُونَ وَ لِمُؤْمِنَاتٍ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } وفي الحديث «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وقال صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن

أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» والأحاديث في مثل هذا كثيرة جداً.
وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين، تبين أنه غير عوض عن التبليغ.

وقال بعض العلماء: الاستثناء منقطع على كلا القولين، وعليه فلا إشكال.

فمعناه على القول الأول {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} لكن أذكركم قرابتي فيكم.

وعلى الثاني: لكن أذكركم الله في قرابتي فاحفظوني فيهم.
القول الثالث: وبه قال الحسن إلا المودة في القربى أي إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح، وعليه فلا إشكال.

لأن التقرب إلى الله ليس أجراً على التبليغ.
القول الرابع: إلا المودة في القربى، أي إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم، ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد الله بن قاسم، وعليه أيضاً فلا إشكال.

لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجراً على التبليغ، فقد علمت الصحيح في تفسير الآية وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال.

وأما القول بأن قوله تعالى: {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي} منسوخ بقوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} فهو ضعيف، والعلم عند الله تعالى. انتهى منه.
وقد علمت مما ذكرنا فيه أن القول الأول هو الصحيح في معنى الآية.

مع أن كثيراً من الناس يظنون أن القول الثاني هو معنى الآية، فيحسبون أن معنى {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي} إلا أن تودوني في أهل قرابتي.

وممن ظن ذلك محمد السَّجَّاد حيث قال لقاتله يوم الجمل: أذكرك بحج يعني سورة الشورى هذه، ومراده أنه من أهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلزم حفظه فيهم، لأن الله تعالى قال في هذه {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي} فهو يريد المعنى المذكور، يظنه هو المراد بالآية، ولذا قال قاتله في ذلك: يُدَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ فَهَلْ لَا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

وقد ذكرنا هذا البيت والأبيات التي قبله في أول سورة هود، وذكرنا أن البخاري ذكر البيت المذكور في سورة المؤمن، وذكرنا الخلاف في قائل الأبيات الذي قتل محمداً السجَّاد بن طلحة بن عبید الله

يوم الجمل، هل هو شريح بن أبي أوفى العبسي كما قال البخاري،
أو الأشتر النخعي، أو عصام بن مقشعر، أو مدلج بن كعب
السعدي، أو كعب بن مدلج.

وممن ظن أن معنى الآية هو ما ظنه محمد السجاد المذكور
الكميت في قوله في أهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم:
وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها مناتقي ومعرب

والتحقيق إن شاء الله أن معنى الآية هو القول الأول {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ
فِي لِقَابِي} أي إلا أن تودوني في قرابتي فيكم وتحفظوني فيها،
فتكفوا عني إذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما هو شأن أهل
القرابات. قوله تعالى: {وَمَنْ يَفْتَرِ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا}.
الافتراء معنا الاكتساب، أي من يعمل حسنة من الحسنات،
ويكتسبها نزد له فيها حسناً، أي نضاعفها له.

فمضاعفة الحسنات هي الزيادة في حسناتها، وهذا المعنى توضحه
آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى {وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً نُّضَاعِفْهَا
وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} وقوله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِلِحَسَنَةٍ فَلَهُ
عَشْرُ أَمْثَالِهَا} وقوله تعالى: {مَنْ دَا لِيذِي يُفْرِضْ لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا
فِيضَاعِفْهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} وقوله تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ
تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} فكونه خيراً وأعظم أجراً
زيادة في حسنه، كما لا يخفى إلى غير ذلك من الآيات: قوله
تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن
عباده، ويعفو عن السيئات، وقد جاء ذلك موضعاً في مواضع أخر
كقوله تعالى: {الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ
الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ هُوَ اللَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ} وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ}. وقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْفِرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} إلى غير
ذلك من الآيات.

وقد قدمنا معنى التوبة وأركانها وإزالة ما في أركانها من الإشكال،
في سورة النور في الكلام على قوله تعالى {وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهُ لِمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. قوله تعالى: {وَلَكِنْ يُتْرَلُ
بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه ينزل ما
يشاء تنزيله من الأرزاق وغيرها بقدر، أي بمقدار معلوم عنده جل
وعلا، وهو جل وعلا أعلم بالحكمة والمصلحة في مقدار كل ما
ينزله. وقد أوضح هذا في غير هذا الموضوع، كقوله تعالى: {وَإِنْ مِّنْ

شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ { وقوله تعالى:
 { وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ } إلى غير ذلك من الآيات.
 { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
 تَصِيرَ * وَمِنْ آيَاتِهِ لَجَوَارِ فِي لَبْحُرٍ كَالْعَلَمِ * إِنْ يَشَاءُ يُسَكِّنِ
 الرِّيحَ فَيَظِلُّنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ
 شَكُورٍ * أَوْ يُوقِفُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ الَّذِينَ
 يُخَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّجِيصٍ * فَمَا أَوْتَيْتُمُ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ
 لِحَيَاتِهِمُ الْأَلْبَابَ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
 يَتَوَكَّلُونَ * وَ لِلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَنْمِ وَالْفَوْجِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا
 هُمْ يَعْفِرُونَ * وَ لِلَّذِينَ سَلْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ
 شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَ لِلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ لَبِئْسَ هُمْ
 يَنْصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى
 اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا
 عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ
 إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ
 بَعْدَهُ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا عَذَابَ يَفْقَهُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مَنْ
 سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْإِذْلِ يَنْظُرُونَ مِنْ
 طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ لِحَاسِرِينَ لِلَّذِينَ خَسِبُوا
 أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ *
 وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ
 فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ * سُبْحَانَهُ لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ
 مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا
 فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا لَبْلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَدْفَنَّا
 الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً قَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبَّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ
 الْإِنْسَانَ كَفُورٌ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبُ
 لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورِ * أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتًا
 وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ
 اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا
 يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ
 تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ
 مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا
 فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ }

قوله تعالى:

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في
 سورة النور في الكلام على قوله تعالى: { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَاهُمْ النَّارُ } . قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ

لِجَوَارِ فِي لُبْحَرِ كَأَلْعَلْمِ}. قوله: ومن آياته أي من علاماته الدالة على قدرته واستحقاقه للعبادة وحده، الجواري وهي السفن واحدها جارية، ومنه قوله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَا لَمَاءُ حَمَلَتِكُمْ فِي لِبْحَارِيَةٍ} يعني سفينة نوح، وسميت جارية لأنها تجري في البحر. وقوله {كَأَلْعَلْمِ} أي كالجبال، شبه السفن بالجبال لعظمتها. وعن مجاهد أن الأعلام القصور، وعن الخليل: أن كل مرتفع تسميه العرب علماً، وجمع العلم أعلام.

وهذا الذي ذكره الخليل معروف في اللغة، ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخرًا: وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جريان السفن في البحر، من آياته تعالى الدالة على كمال قدرته، جاء موضحاً في غير هذا الموضوع، كقوله تعالى {وَأَيُّ لُحْمٍ أُنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي لُفْلُكٍ لَمَسْخُونِوَحَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ إِن شَاءَ يُعْرِفُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ إِنَّا رَجَمَهُ مَتًّا وَهَمَّاعاً إِلَى حِينٍ} {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَضْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخُلُقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ لُفْلُكِ لِيَتَى تَجْرَى فِي لُبْحَرٍ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} إلى قوله: {لَا يَتَى لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. وقوله تعالى في سورة النحل: {وَتَرَى لُفْلُكًا مَّوَخِرٍ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ}. وقوله في فاطر: {وَتَرَى لُفْلُكًا فِيهِ مَّوَخِرٍ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ}. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو «الجواري» بياء ساكنة بعد الراء في الوصل فقط، دون الوقف وقرأه ابن كثير بالياء المذكور في الوصل والوقف معاً، وقرأه الباقون الجوار بحذف الياء في الوصل والوقف معاً. قوله تعالى: {وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ لُفُوحِشٍ}. قرأ هذا الحرف الحمزة والكسائي (كبير الإثم)، بكسر الياء بعدها ياء ساكنة وراء على صيغة الإفراد. وقرأه الباقون بفتح الياء بعدها ألف فهزمة مكسورة قبل الراء على صيغة الجمع.

وقوله {وَ الَّذِينَ}: في محل جر عطفاً على قوله: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أي وخير وأبقى أيضاً للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. والفواحش جمع فاحشة. والتحقيق إن شاء الله أن الفواحش من جملة الكبائر.

والأظهر أنها من أشنعها، لأن الفاحشة في اللغة: وهي الخصلة المتناهية في القبح، وكل متشدد في شيء مبالغ فيه فهو فاحش فيه.

ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته:
أرى الموت يعتام الكرام وبصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

فقوله: الفاحش أي المبالغ في البخل المتناهي فيه. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من وعده تعالى الصادق للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش بما عنده لهم من الثواب الذي هو خير وأبقى، جاء موضعاً في غير هذا الموضوع، فبين تعالى في سورة النساء أن من ذلك تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم، وإدخالهم المدخل الكريم وهو الجنة في قوله تعالى {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}، وبين في سورة النجم أنهم باجتنابهم كبائر الإثم والفواحش، يصدق عليهم اسم المحسنين ووعدهم على ذلك بالحسن. والأظهر أنها الجنة، ويدل له حديث «الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم» في تفسير قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} كما قدمناه.

وآية النجم المذكورة هي قوله تعالى {وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ} ثم بين المراد بالذين أحسنوا في قوله {لَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ لِّمَغْفِرَةٍ}. وأظهر الأقوال في قوله: إلا اللمم، أن المراد باللمم صغائر الذنوب، ومن أوضح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ}. فدللت على أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر، وخير ما يفسر به القرآن، القرآن. ويدل لهذا حديث ابن عباس الثابت في الصحيح: قال ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يُصدِّق ذلك أو يكذبه».

وعلى هذا القول فالاستثناء في قوله إلا اللمم منقطع، لأن اللمم الذي هو الصغائر على هذا القول لا يدخل في الكبائر والفواحش، وقد قدمنا تحقيق المقام في الاستثناء المنقطع. في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا}. وقالت جماعة من أهل العلم: الاستثناء متصل فالواو وعليه، فمعنى إلا اللمم: إلا أن يلم بفاحشة مرة ثم يجتنبها ولا يعود لها بعد ذلك.

واستدلوا لذلك بقول الراجز: إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

وروى هذا البيت ابن جرير والترمذي وغيرهما مرفوعاً. وفي صحته مرفوعاً نظراً.

وقال بعض العلماء. المراد باللمم ما سلف منهم من الكفر والمعاصي، قبل الدخول في الإسلام ولا يخفى بعده. وأظهر الأقوال هو ما قدمنا لدلالة آية النساء المذكورة عليه، وحديث ابن عباس المتفق عليه.

واعلم أن كبائر الإثم ليست محدودة في عدد معين، وقد جاء تعيين بعضها كالسبع الموبقات أي المهكات لعظمها، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة «أنها الإشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد جاءت روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في تعيين بعض الكبائر «كعقوق الوالدين واستحلال حرمة بيت الله الحرام والرجوع إلى البادية بعد الهجرة وشرب الخمر واليمين الغموس والسرقة ومنع فضل الماء ومنع فضل الكلاً وشهادة الزور». وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح عن ابن مسعود «أن أكبر الكبائر الإشراك بالله الذي خلق الخلق ثم قتل الرجل ولده خشية أن يطعم معه، ثم زناه بحليلة جاره». وفي بعضها أيضاً «أن من الكبائر تسبب الرجل في سبب والديه»، وفي بعضها أيضاً «أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفراً» وذلك يدل على أنهما من الكبائر.

وفي بعض الروايات «أن من كبائر الوقوع في عرض المسلم، والسبتين بالسبة».

وفي بعض الروايات «أن منها جمع الصلاتين من غير عذر».

وفي بعضها «أن منها اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله» ويدل عليهما قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ}. وقوله {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

وفي بعضها «أن منها سوء الظن بالله» ويدل له قوله تعالى {وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَشَكِّكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَالظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}.

وفي بعضها «أن منها الإضرار في الوصية».

وفي بعضها أن منها الغلول، ويدل له قوله تعالى: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}. وقد معنا معنى الغلول في سورة الأنفال، وذكرنا حكم الغال.

وفي بعضها «أن من أهل الكبائر الذين يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً». ويدل له قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ولم نذكر أسانيد هذه الروايات ونصوص متونها خوف الإطالة، وأسانيد بعضها لا تخلو من نظر لكنها لا يكاد يخلو شيء منها عن بعض الشواهد الصحيحة، من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن أهل العلم اختلفوا في حد الكبيرة. فقال بعضهم: هي كل ذنب استوجب حداً من حدود الله. وقال بعضهم: هي كل ذنب جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب.

واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هي كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين.

وعن ابن عباس: أن الكبائر أقرب إلى السبعين منها إلى السبع. وعنه أيضاً أنها أقرب إلى سبعمئة منها إلى سبع.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق أنها لا تنحصر في سبع، وأن ما دل عليه من الأحاديث على أنها سبع لا يقتضى انحصارها في ذلك العدد، لأنه إنما دل على نفي غير السبع بالمفهوم، وهو مفهوم لقب، والحق عدم اعتباره.

ولو قلنا إنه مفهوم عدد لكان غير معتبر أيضاً، لأن زيادة الكبائر على السبع مدلول عليها بالمنطوق.

وقد جاء منها في الصحيح عدد أكثر من سبع، والمنطوق مقدم على المفهوم، مع أن مفهوم العدد ليس من أقوى المفاهيم. والأظهر عندي في ضابط الكبيرة أنها كل ذنب اقترن بما يدل على أنه أعظم من مطلق المعصية سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، أو كان وجوب الحد فيه، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده.

مع أن بعض أهل العلم قال: إن كل ذنب كبيرة. وقوله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ}. وقوله: {إِلَّا اللَّصَّاتُ} يدل على عدم المساواة، وأن بعض المعاصي كبائر. وبعضها صغائر، والمعروف عند أهل العلم: أنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}. وفي

سورة الزمر في الكلام علي قوله تعالى: { قَبَشْرُ عِبَادٍ لِّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ لِقَوْلٍ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } . قوله تعالى: { وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ
بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ } . قد قدمنا الآيات
الموضحة له في الكلام على آية النحل وآية الزمر المذكورتين آنفاً.
قوله تعالى: { وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا لِعَذَابٍ } . قد قدمنا الآيات
الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام علي قوله تعالى { فَهَلْ
لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } .
قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا } . قد قدمنا
الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله
تعالى: { يُنَزِّلُ لِمَلَائِكَ بِرُوحٍ مِّنْ أَمْرِهِ عَلٰى مَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ } . قوله تعالى: { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا لِإِيمَانٍ وَلَكِن
جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا } . قوله تعالى في هذه
الآية الكريمة: { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا لِإِيمَانٍ } . يبين الله
جل وعلا فيه منتهى على هذا النبي الكريم، بأنه علمه هذا القرآن
العظيم ولم يكن يعلمه قبل ذلك، وعلمه تفاصيل دين الإسلام ولم
يكن يعلمها قبل ذلك.

فقوله: ما كنت تدري ما الكتاب: أي ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب
الذي هو القرآن العظيم، حتى علمته، وما كنت تدري ما الإيمان
الذي هو تفاصيل هذا الدين الإسلامي، حتى علمته.
ومعلوم أن الحق الذي لا شك فيه الذي هو مذهب أهل السنة
والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد.
وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة، منها: حديث وفد عبد
القيس المشهور، ومنها حديث: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً»
الحديث، فسمى فيه قيام رمضان إيماناً، وحديث «الإيمان بضع
وسبعون شعبة»، وفي بعض رواياته «بضع وستون شعبة أعلاها
شهادة ألا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».
والأحاديث بمثل ذلك كثيرة ويكفي في ذلك ما أورده البيهقي في
شعب الإيمان فهو صلوات الله وسلامه عليه ما كان يعرف تفاصيل
الصلوات المكتوبة وأوقاتها ولا صوم رمضان، وما يجوز فيه وما لا
يجوز ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة ولا ما تجب فيه ولا قدر
النصاب وقدر الواجب فيه ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك، وهذا هو
المراد بقوله تعالى: { وَلَا لِإِيمَانٍ } .
وما ذكره هنا من أنه لم يكن يعلم هذه الأمور حتى علمه إياها بأن
أوحى إليه هذا النور العظيم الذي هو كتاب الله، جاء في غير هذا
الموضع كقوله تعالى: { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ } . وقوله جل وعلا { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

لَقِصَصٍ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا لِقُرْآنٍ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ
لُغْفَلِينَ}.

فقوله في آية يوسف هذه: {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ لُغْفَلِينَ} كقوله هنا {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا لِإِيمَانٍ} وقوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} على أصح التفسيرات كما قدمناه في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: {قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا وَاَتَا مِنْ الصَّالِينَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ}، الضمير في قوله: جعلناه راجع إلى القرآن العظيم المذكور في قوله: {رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا} وقوله: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ} أي ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نوراً نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا.

وسمي القرآن نوراً، لأنه يضيء الحق ويزيل ظلمات الجهل والشك والشرك.

وما ذكره هنا من أن هذا القرآن نور، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا}.

وقوله تعالى {وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ} وقوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَبُخِّرْهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وقوله تعالى: {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا}.

وما دلت عليه هذه الآيات الكريمة من كون هذا القرآن نوراً يدل على أنه هو الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، ويتميز عن الباطل ويميز به بين الهدى والضلال والحسن والقيح. فيجب على كل مسلم أن يستضيء بنوره، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه ويمثل أوامره ويجتنب ما نهى عنه ويعتبر بقصصه وأمثاله.

والسنة كلها داخلة في العمل به، لقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}. قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. الصراط المستقيم، قد بينه تعالى في قوله: {هُدًى لِّلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ * صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}.

وقوله في هذه الآية الكريمة {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي}، قد بينا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ}، وبيننا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} مع قوله {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}.

والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح، والمستقيم. الذي لا اعوجاج فيه، ومنه قول جرير: أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم
 قوله تعالى: {أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الأمور كلها تصير إلى الله، أي ترجع إليه وحده لا إلى غيره. جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا} وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} إلى غير ذلك من الآيات.
 تم بحمد الله تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الزخرف

{حَرْ * وَ لِكَيْتَبَ لُمُيِّن * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *
 وَإِنَّهُ فِي أُمَّ لِكَيْتَبَ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا بَأْسِهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَهُنَّ لِعَزِيْرٍ لَعَلِيْمٌ * لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَ لِيذِي تَرَلَى مِنْ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ * وَ لِيذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَلْفِكَ وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ * لَتَسْتَبْشِرُوا عَلِيَّ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا سَلْتُوْنِي عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ لِيذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ }
 قوله تعالى: {حَوْ لِكَيْتَبَ لُمُيِّنًا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا}. قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود.

وقوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا} قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: {لَتَكُونَ مِنْ لَمُنْذِرِيْبَيْلِسَانَ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: {قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ}. قوله تعالى: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ}. الضمير في قوله منهم عائد إلى القوم المسرفين، المخاطبين بقوله: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ}، وفيه ما يسميه علماء البلاغة بالالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

وقوله { أَشَدَّ مِنْهُمْ } مفعول به لأهلكنا، وأصله نعت لمحذوف،
والتقدير: فأهلكنا قوماً أشد منهم بطشاً، على حد قوله في
الخلاصة: وما من المنعوت والنعت عُقِلَ يجوز حذفه وفي النعت
يَقِلُ

وقوله بطشاً: تمييز محول من الفاعل على حد قوله في الخلاصة:
والفاعل المعنى انصبين بأفعلاً مفصلاً كانت أعلا منزلاً

والبطش: أصله الأخذ بعنف وشدة.
والمعنى: فأهلكنا قوماً أشد بطشاً من كفار مكة الذين كذبوا نبينا
بسبب تكذيبهم رسلهم فليحذر الكفار الذين كذبوك أن نهلكهم
بسبب ذلك كما أهلكنا الذين كانوا أشد منهم بطشاً، أي أكثر منهم
عُدداً وُعُدداً وجلداً.

فعلى الأضعف الأقل أن يتعظ بإهلاك الأقوى الأكثر.
وقوله في هذه الآية الكريمة: { وَمَصَى مَثَلُ الْأُولِينَ } أي صفتهم
التي هي إهلاكهم المستأصل، بسبب تكذيبهم الرسل.
وقوله من قال: { مَثَلُ الْأُولِينَ } أي عقوبتهم وسنتهم راجع في
المعنى إلى ذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمداً
صلى الله عليه وسلم، بأن الله أهلك من هم أقوى منهم، ليحذروا
أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله
تعالى: { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا } . وقوله تعالى: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَلِمًا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
الْأَرْضِ } . وقوله تعالى: { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ
مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ
مِدْرَارًا } إلى قوله { فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ } . وقوله تعالى: { وَكَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ
كَانَ تَكْوِينُ } . وقوله تعالى: { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَلِمًا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا
قَدِيرًا } .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَمَصَى مَثَلُ الْأُولِينَ } ما
تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمداً
صلى الله عليه وسلم، بصفته إهلاكهم وسنته فيهم التي هي
العقوبة وعذاب الاستئصال، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله

تعالى: { فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمُ إِلَّا نُفُورًا سُنُّكِبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ لِمَكْرِ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } وقوله تعالى: { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَلَّوْا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَّهُ وَكَفَرُوا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمَّا يَكُنِ الْيَوْمَ الْآخِرُ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } وقوله تعالى: { وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولِينَ } . وقوله تعالى: { فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ } .

وقد قدمنا بعض الآيات الدالة على هذا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: { مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ } . وقوله تعالى: { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ لِعَزِيْرٍ لَّعَلِيْمٌ } .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ هَٰذَا لِقُرْءَانٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ } . وقوله تعالى: { لِذِي جَعَلْ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } . قرأ هذا الحرف، عاصم وحمزة والكسائي { مَهْدًا } بفتح الميم وسكون الهاء وقرأه باقي السبعة { مَهْدًا } بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف ومعناها واحد وهو الفراش. وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه جعل الأرض لبني آدم مهذاً أي فراشاً وأنه جعل لهم فيها سبلاً أي طرقاً ليمشوا فيها ويسلكوها، فيصلوا بها من قطر إلى قطر. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، من كونه تعالى جعل الأرض فراشاً لبني آدم وجعل لهم فيها الطرق، لينفذوا من قطر إلى قطر، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا } ، وكقوله تعالى: { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } .

وذكر كون الأرض فراشاً لبني آدم في آيات كثيرة كقوله تعالى: { وَالْأَرْضَ قَرَشْنًا فَغَنَمَ لِمَهْدُونَ } وقوله تعالى: { لِذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ } . وقوله تعالى: { وَاللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً } .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا

وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}. قوله تعالى: {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على خروج الناس من قبورهم أحياء بعد الموت، في قوله تعالى: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} جاء موضحاً في آيات كثيرة قد قدمناها في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ} مع بقية براهين البعث في القرآن. وأوضحنا ذلك أيضاً في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}، وفي غير ذلك من المواضع، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك.

وقد قدمنا في سورة الفرقان معنى الإنشاء والنشور وما في ذلك من اللغات مع الشواهد العربية.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {بِقَدَرٍ}.
قال بعض العلماء: أي بقدر سابق وقضاء.

وقال بعض العلماء: أي بمقدار يكون به إصلاح البشر فلم يكثر الماء جداً فيكون طوفاناً فيهلكهم، ولم يجعله قليلاً دون قدر الكفاية، بل نزله بقدر الكفاية من غير مضرة، كما قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}.

وقال تعالى: {وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} إلى قوله {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَزِينِينَ}. قوله تعالى: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}. الأزواج الأصناف، والزوج تطلقه العرب على الصنف.

وقد بين تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل أصناف النبات وبنى آدم وما لا يعلمه إلا الله.

قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}.

وقال تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى} وقال تعالى: {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ هُمَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ} أي من كل صنف حسن من أصناف النبات.

وقال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ}. ومن إطلاق الأزواج على الأصناف في القرآن قوله تعالى: {وَوَاءَ آخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}. وقوله تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ}.

وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى {حُشِرُوا لِدِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجُهُمْ}. قوله تعالى: {وَجَعَلَ

لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِيَسْتَظُّوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى {اللَّهُ لِيَذِيَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ لِيَتَرَكَبُوا مِنْهَا}. وضمير المفرد المذكور الغائب في قوله: {لِيَسْتَظُّوا عَلَى ظُهُورِهِ}، وقوله: {إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} راجع إلى لفظ ما في قوله: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}. قوله تعالى: {وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}. يعني جل وعلا أنه جعل لبني آدم ما يركبونه من الفلك التي هي السفن، ومن الأنعام ليستووا أي يرتفعوا معتدلين على ظهوره ثم يذكروا في قلوبهم نعمة ربهم عليهم بتلك المركوبات ثم يقولوا بالسنتهم مع تفهم معنى ما يقولون {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}. وقوله: «سبحان» قد قدمنا في أول سورة بني إسرائيل معناه، بإيضاح وأنه يدل على تنزيه الله جل وعلا أكمل التنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله والإشارة في قوله {هَذَا} راجعة إلى لفظ {مَا} من قوله: {مَا تَرْكَبُونَ} وجمع الظهور نظراً إلى معنى {مَا}، لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله صلتها ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها. وقوله: {لِيَذِيَ سَخَّرَ لَنَا هَذَا} أي الذي ذلل لنا هذا الذي هو ما نركبه من الأنعام والسفن لأن الأنعام لو لم يذلها الله لهم لما قدروا عليها ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذللهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك. وقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} أي مطيقين. والعرب تقول: أقرن الرجل للأمر وأقرنه إذا كان مطيقاً له كفوّاً للقيام به من قولهم: أقرنت الدابة للدابة، بمعنى أنك إذا قرنتهما في جبل قدرت على مقاومتها، ولم تكن أضعف منها، فتجرها لأن الضعيف إذا لز في القرن أي الحبل، مع القوي جره ولم يقدر على مقاومته، كما قال جرير: وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب وقد أنشده قطرب لهذا المعنى: لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنينا

وقول ابن هرمة: وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصدياد عدو الهجر

وقول الآخر: ركبتم صعبتى أشراً وحيفاً ولستم للصعاب بمقرنين

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن ما ذكر من السفن والأنعام لو لم يذله الله لهم لما أقرنوا له ولما أطاقوه جاء مبيناً في آيات آخر. قال تعالى في ركوب الفلك: {وَأَيُّ لُحْمٍ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ لِمَسْحُونٍ} خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}. وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَجْرَىٰ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِهِ}. وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَجْرَىٰ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ}. وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخُلُوفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلِّ الَّتِي تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ}. وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ}. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقال تعالى في تسخير الأنعام: {وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} وقال تعالى: {فَادَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطَعُوا لِقِنَعٍ وَ لِمُعْتَرٍّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} قَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَتْلُو الْتَقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} إلى غير ذلك من الآيات.

{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ مُّبِينٍ * أَمْ لِحَدِّ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ رُلْتَيْنِ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مِنْ بِنَاتٍ فِي لِحْلِيَةٍ وَهُوَ فِي لِحْصَامٍ غَيْرٍ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا لِمَلَائِكَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}

قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}. قال بعض العلماء {جُزْءًا} أي عدلاً ونظيراً، يعني الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله.

وقال بعض العلماء: {جُزْءًا} أي ولداً.

وقال بعض العلماء: {جُزْءًا} يعني البنات.

وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: أن الجزء النصيب، واستشهد على ذلك بآية الأنعام. أعني قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا}.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر أن قول ابن كثير هذا رحمه الله غير صواب في الآية.

لأن المجعول لله في آية الأنعام، هو النصيب مما ذرأ من الحرث والأنعام، والمجعول له في آية الزخرف هذه، جزء من عباده لا مما ذرأ من الحرث والأنعام.

وبين الأمرين فرق واضح كما ترى. وأن قول قتادة ومن وافقه: إن المراد بالجزء العدل والنظير الذي هو الشريك غير صواب أيضاً.

لأن إطلاق الجزء على النظير ليس بمعروف في كلام العرب. أما كون المراد بالجزاء في الآية الولد، وكون المراد بالولد خصوص الإناث، فهذا هو التحقيق في الآية.

وإطلاق الجزء على الولد يوجه بأمرين: أحدهما: ما ذكره بعض علماء العربية من أن العرب تطلق الجزء مراداً به البنات، ويقولون: أجزاء المرأة إذا ولدت البنات، وامرأة مجزئة أي تلد البنات، قالوا ومنه قول الشاعر: إن أجزاء حرة يوماً فلا عجب قد تجزىء الحرة المذكر أحياناً

وقول الآخر: زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبياتها زجل

وأنكر الزمخشري هذه اللغة قائلاً إنها كذب وافتراء على العرب. قال في الكشف في الكلام على هذه الآية الكريمة: ومن بدع التفاسير، تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث منحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزاء المرأة ثم صنعوا بيتاً وبيتاً: * إن أجزاء حرة يوماً فلا عجب * زوجتها من بنات الأوس مجزئة اهـ. منه بلفظه.

وقال ابن منظور في اللسان: وفي التنزيل العزيز: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}. قال أبو إسحاق يعني به الذين جعلوا الملائكة بنات الله تعالى وتقدس عما افتروا، قال: وقد أنشدت بيتاً يدل على أن معنى جزءاً معنى الإناث قال: ولا أدري البيت هو قديم أو مصنوع؟ * إن أجزاء حرة يوماً فلا عجب * البيت والمعنى في قوله: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} أي جعلوا نصيب الله من الولد الإناث، قال ولم أجده في شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقات، وأجزاء المرأة ولدت الإناث، وأنشد أبو حنيفة: * زوجتها من بنات الأوس مجزئة * البيت انتهى الغرض من كلام صاحب اللسان.

وظاهر كلامه هذا الذي نقله عن الزجاج أن قولهم: أجزاء المرأة إذا ولدت الإناث معروف، ولذا ذكره وذكر البيت الذي أنشده له أبو حنيفة كالمسلم له.

والوجه الثاني: وهو التحقيق إن شاء الله أن المراد بالجزء في الآية الولد، وأنه أطلق عليه اسم الجزء، لأن الفرع كأنه جزء من أصله والولد كأنه بضعة من الوالد كما لا يخفى.

وأما كون المراد بالولد المعبر عنه بالجزء في الآية خصوص الإناث فقرينة السياق دالة عليه دلالة واضحة، لأن جعل الجزء المذكور لله من عباده هو بعينه الذي أنكره الله إنكاراً شديداً ووقع مرتكبه تقريباً شديداً في قوله تعالى بعده {أُمُّ إِيحَدَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِلَيْبِنَوَادَا بُشْرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا} إلى قوله: {وَهُوَ فِي لُخْصَامٍ غَيْرٍ مُّبِينٍ}.

وقرأ هذا الحرف شعبة عن عاصم {جُزْءًا} بضم الزاي وباقي السبعة بإسكانها وحمزة عند الوقف يسقط الهمزة، بنقل حركتها إلى الزاي مع حذف التنوين للوقف. قوله تعالى: {أُمُّ إِيحَدَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِلَيْبِنِنٍ}. أم هنا بمعنى استفهام الإنكار، فالكفار لما قالوا: الملائكة بنات الله أنكر الله عليهم أشد الإنكار، موبخاً لهم أشد التوبيخ، حيث افتروا عليه الولد، ثم جعلوا له أنقص الولدين وأحقرهما وهو الأنثى كما قال هنا: {أُمُّ إِيحَدَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ} وهي النصيب الأدنى من الأولاد، وأصفاكم أنتم، أي خصكم وأثركم بالبنين الذين هم النصيب الأعلى من الأولاد.

وإنكار هذا عليهم وتوبيخهم عليه جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله هنا {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا} يعني الأنثى، كما أوضحه بقوله: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} يعني فكيف تجعلون لله الإناث وأنتم لو بشر الواحد منكم بأن امرأته ولدت أنثى لظل وجهه مسوداً يعني من الكآبة وهو كظيم أي ممتلىء حزنًا وغماً، وكقوله تعالى هنا {أَوْ مَن يُنْشَأُ فِي لُحْلِيَّةٍ وَهُوَ فِي لُخْصَامٍ غَيْرٍ مُّبِينٍ} ففيه إنكار شديد وتقرير عظيم لهم بأنهم مع افتراءهم عليه جل وعلا الولد جعلوا له أنقص الولدين الذي لنقصه الخلقي، ينشأ في الحلية من الحلبي والحلل وأنواع الزينة، من صغره إلى كبره ليحبر بتلك الزينة نقصه الخلقي الطبيعي، وهو في الخصام غير مبين، لأن الأنثى غالباً لا تقدر على القيام بحجتها ولا الدفاع عن نفسها.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية غاية الإيضاح في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَقُرْءَانٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} وكقوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ لِبَنَاتٍ سُبْحَانَهُ وَلَهُنَّ مَا يَشْتَهُونَ}. وقوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ}.

وقوله تعالى: { أَقَاصِفَكُم رَّبُّكُمْ بِلَبِّينَ وَ تَخَذَ مِنْ لَمَلَيْكَةِ إِنَاثًا
إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا } وقوله تعالى { أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ
الْأُنثَىٰ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ }.

وقوله تعالى: { وَ سَتَفْتِهِمُ الرَّبُّ لِبَنَاتٍ لَّهُمْ لِبُنْيَانِهِمْ خَلَقْنَا
لَمَلَيْكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ أَفْكَهْمَوْلِدٍ أَلَّهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَىٰ لِبَنَاتٍ عَلَيَّ لِبَيْنِمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ أَمْ يَكْتُمِبُ كُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ }.

وقد قدمنا كثيراً من الآيات الموضحة لهذا المعنى في سورة النحل
في الكلام على قوله تعالى: { وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ لِبَنَاتٍ سُبْحٰنَهُ وَلَهُمْ مَا
يَشْتَهُونَ } ووجه التعبير عن الأنثى بما ضرب مثلاً لله في قوله:
{ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلًا } ظاهر، لأن البنات
المزعومة يلزم ادعاءها أن تكون من جنس من نسبت إليه، لأن
الوالد والولد من جنس واحد، وكلاهما يشبه الآخر في صفاته. قوله
تعالى: { وَ جَعَلُوا لَمَلَيْكَةَ لِذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنثًا أَشْهَدُوا
خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ } . قرأ هذا الحرف نافع وابن
كثير وابن عامر { عِنْدَ الرَّحْمٰنِ } بسكون النون وفتح الدال ظرف
كقوله تعالى: { إِنَّ لِّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }، وقرأه أبو عمرو
وعاصم وحمزة والكسائي { لِذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ } بكسر العين
وباء موحدة بعدها ألف وضم الدال جمع عبد كقوله: { وَ عِبَادُ
الرَّحْمٰنِ } الآية.

وقوله { أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ } . قرأه عامة السبعة غير نافع أشهدوا
بهمزة واحدة مع فتح الشين، وقرأه نافع أشهد. بهمزتين الأولى
مفتوحة محققة، والثانية مضمومة مسهلة بين بين وقالوا يجعل
بين الهمزتين ألف الإدخال على إحدى الروايتين.
وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أربع مسائل:
الأولى: أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث زاعمين أنهم
بنات الله.

الثانية: أنه وبخهم على ذلك توبيخاً شديداً وأنكر عليهم ذلك في
قوله: { أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ } يعني هل حضروا خلق الله لهم فعابوهم
إناثاً.

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم.

الرابعة: أنهم يسألون عنها يوم القيامة.

وهذه المسائل الأربع التي تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت
موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأولى منها. وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثاً، فقد ذكرها
تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى { أَقَاصِفَكُم رَّبُّكُمْ بِلَبِّينَ
وَ تَخَذَ مِنْ لَمَلَيْكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا } . وكقوله

تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ لِمَلَائِكَةِ تَسْمِيَةٍ
الَّتِي فِيهَا }، وقوله تعالى { وَ سَلَّمْتَهُمُ الرِّبَّكَ لِبَنَاتٍ وَلَهُمْ لِبَنَاتُهُمْ
خَلْقًا لِمَلَائِكَةِ إِنثًا }، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المسألة الثانية، وهي سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار
والتوبيخ والتفريع هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه، حتى علموا
أنهم خلقوا إناثاً فقد ذكرها في قوله تعالى: { أَمْ خَلَقْنَا لِمَلَائِكَةِ
إِنثًا وَهُمْ يَشْهَدُونَ } وبين تعالى أنه لم يشهد الكفار خلق شيء في
قوله: { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ }،
وأما المسألة الثالثة التي هي كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب
عليهم، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: { وَإِنَّ
عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ مَا تَفَعَّلُونَ }، وقوله تعالى:
{ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْنِسُحُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }،
وقوله تعالى: { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى
وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }، وقوله تعالى: { إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا
تَمْكُرُونَ } وقوله تعالى: { وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْرَّمْتُهُ طَيْرَهُ فِي عُنُقِهِ
وَنُخِرْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا قُرْأً كَتَيْكَ }، وقوله
تعالى: { سَتَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا }.

وأما المسألة الرابعة: وهي كونهم يسألون عن ذلك الافتراء
والكفر، فقد ذكرها تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى:
{ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا
كَانُوا يَفْعَلُونَ } وقوله تعالى: { قَوْرَبِكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ }، وقوله تعالى: { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ }
وقوله تعالى: { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلُّهُ
لِنَسْأَلِنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ } إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى:
{ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ }، في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن
قول الكفار الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْ
شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ }، هو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح،
لأن الله لو شاء أن يعبدوهم ما عبدهم، كما قال تعالى { وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا }، وقال تعالى: { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ هُدًى
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ }، وقال تعالى: { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ
هُدَاهَا }، وقال تعالى: { فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ }، وقال تعالى:
{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ
النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ }.

وهذا الإشكال المذكور في آية الزخرف هو بعينه واقع في آية
الأنعام، وآية النحل.

أما آية الأنعام فهي قوله: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ}.
وأما آية النحل، فهي قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا}.

فإذا عرفت أن ظاهر آية الزخرف وآية الأنعام، وآية النحل: أن ما قاله الكفار حق، وأن الله لو شاء ما عبدوا من دونه من شيء ولا أشركوا به شيئاً، كما ذكرنا في الآيات الموضحة قريباً.

فاعلم أن وجه الإشكال، أن الله صرح بكذبهم في هذه الدعوي التي ظاهرها حق، قال في آية الزخرف: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} أي يكذبون، وقال في آية الأنعام {كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافِقُوا بَاسِنًا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}، وقال في آية النحل {كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا لِيَبْلُغَ لِمُبِينٍ}.

ومعلوم أن الذي فعله الذين من قبلهم، هو الكفر بالله والكذب على الله، في جعل الشركاء له وأنه حرم ما لم يحرمه.

والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا} وقولهم {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا} مرادهم به أن الله لما كان قادراً على منعهم من الشرك، وهدايتهم إلى الإيمان ولم يمنعهم من الشرك. دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك في زعمهم.

قالوا لأنه لو لم يكن راضياً به، لصرفنا عنه، فتكذيب الله لهم في الآيات المذكورة فنصب على دعواهم أنه راض به، والله جل وعلا يكذب هذه الدعوى في الآيات المذكورة وفي قوله {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ لِكُفْرٍ}.

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية، تستلزم الرضى وهو زعم باطل، وهو الذي كذبهم الله فيه من الآيات المذكورة. وقد أشار تعالى إلى هذه الآيات المذكورة، حيث قال في آية الزخرف: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} أي آتيناهم كتاباً يدل على أنا رضوان منهم بذلك الكفر، ثم أضرب عن هذا إضراب إبطال مبيناً أن مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آباءهم بالتقليد الأعمى، وذلك في قوله {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} أي شريعة وملة وهي الكفر وعبادة الأوثان {وَأِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ}.

فقوله عنهم مهتدون هو مصب التكذيب، لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال.

فالاhtداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى، وسيأتي إيضاح رده عليهم قريباً إن شاء الله.

وقال تعالى في آية النحل بعد ذكره دعواهم المذكورة: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ فَامْتَعْتُمْ وَمِنكُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} . فأوضح في هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضياً بكفرهم، وأنه بعث في كل أمة رسولا، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده، ويجتنبوا الطاغوت أي يتباعدا عن عبادة كل معبود سواه. وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة أي ثبت عليه الكفر والشقاء. وقال تعالى في آية الأنعام {قُلْ قَلِيلٌ لِّحُجَّةٍ لِّبَلَاغَةِ قَلْوِ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ} .

فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية، هو الحجة البالغة على خلقه، يعني فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق، فهو فضل منا ورحمة. ومن لم نعمل له ذلك فهو عدل منا وحكمة، لأنه لم يكن له ذلك ديناً علينا ولا واجباً مستحقاً يستحقه علينا، بل إن أعطينا ذلك ففضل، وإن لم نعطه فعدل.

وحاصل هذا: أن الله تبارك وتعالى قدر مقادير الخلق، قبل أن يخلق الخلق، وعلم أن قوماً صائرون إلى الشقاء وقوماً صائرون إلى السعادة، فريق في الجنة وفريق في السعير. وأقام الحجة على الجميع، ببعث الرسل وتأييدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبساً فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك. ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرهم وإراداتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه، من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء.

فأتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا، طائعين مختارين، غير مجبورين، ولا مقهورين {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} . {قُلْ قَلِيلٌ لِّحُجَّةٍ لِّبَلَاغَةِ قَلْوِ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ} .

وإدعاء أن العبد مجبور لا إرادة له ضروري السقوط عند عامة العقلاء.

ومن أعظم الضروريات الدالة عليه أن كل عاقل يعلم أن بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية، كحركة المرتعش فرقاً ضرورياً، لا ينكره عاقل.

وأنك لو ضربت من يدعي أن الخلق مجبورون، وفقأت عينه مثلاً، وقتلت ولده واعتذرت له بالجبر، فقلت له: أنا مجبور ولا إرادة لي

في هذا السوء الذي فعلته بك، بل هو فعل الله، وأنا لا دخل فيه فإنه لا يقبل منك هذه الدعوى بلا شك.
بل يباليغ في إرادة الانتقام منك قائلاً:

إن هذا بإرادتك ومشيتك.

ومن أعظم الأدلة القطعية الدالة على بطلان مذهب القدرية، وأن العبد لا يستقل بأفعاله دون قدرة الله ومشيتته، أنه لا يمكن أحداً أن ينكر علم الله بكل شيء، قبل وقوعه والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا ينكرها إلا مكابر.

وسبق علم الله بما يقع من العبد قبل وقوعه، برهان قاطع على بطلان تلك الدعوى.

وإيضاح ذلك أنك لو قلت للقدري: إذا كان علم الله في سابق أزله تعلق بانك تقع منك السرقة أو الزنا في محل كذا في وقت كذا، وأردت أنت بإرادتك المستقلة في زعمك دون إرادة الله ألا تفعل تلك السرقة أو الزنا الذي سبق بعلم الله وقوعه، فهل يمكنك أن تستقل بذلك؟ وتُصير علم الله جهلاً، بحيث لا يقع ما سبق في علمه وقوعه في وقته المحدد له؟

والجواب بلا شك: هو أن ذلك لا يمكن بحال كما قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}، وقال الله تعالى: {قُلْ قَلِيلٌ لِّهِ لِحْجَةٌ لِّبَلِغَةِ قَلْوِ شَاءٍ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ}.

ولا إشكال البتة في أن الله يخلق للعبد قدرة وإرادة يقدر بها على الفعل والترك، ثم يصرف الله بقدرته وإرادته قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به علمه فيأتيه العبد طائعا مختاراً غير مقهور ولا يجور، وغير مستقل به دون قدرة الله وإرادته كما قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}.

والمناظرة التي ذكرها بعضهم، بين أبي إسحاق الإسفراييني وعبد الجبار المعتزلي توضح هذا.

وهي أن عبد الجبار قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء يعني أن السرقة والزنا ليسا بمشيئة الله، لأنه في زعمه أنزه من أن تكون هذه الرذائل بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل.

ثم قال: سبحان من لم يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبد الجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه.

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه، أنت الرب وهو العبد؟

فقال عبد الجبار: رأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى علي

بالرديء، دعاني وسد الباب دوني؟ أتراه أحسن أم أساء؟

فقال أبو إسحاق: أرى أن هذا الذي منعك إن كان حقاً وإجباً لك

عليه فقد ظلمك وقد أساء، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً،

وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل،
فبهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب.
ومضمون جواب أبي إسحاق هذا الذي أفحم به عبد الجبار، هو
معنى قوله تعالى: {قُلْ قَلِيلٌ لِّقَلْبِهِ لِحُجَّةٍ لِّبَلِغَةٍ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
أَجْمَعِينَ}.

وذكر بعضهم أن عمرو بن عبيد جاءه أعرابي فشكا إليه أن دابته
سرتت وطلب منه أن يدعو الله ليردها إليه.
فقال عمرو ما معناه: اللهم إنها سرقت ولم ترد سرقتها، لأنك أنزه
وأجل من أن تدبر هذا الخنا.

فقال الأعرابي: ناشدتك الله يا هذا، إلا ما كفت عني من دعائك
هذا الخبيث، إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا
ترد، ولا ثقة لي برب، يقع في ملكه ما لا يشاؤه فألقمه حجراً.
وقد ذكرنا هذه المسألة في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات
الكتاب في الكلام عن آية الأنعام المذكورة في هذا البحث، وفي
سورة الشمس في الكلام عن قوله تعالى: {قَالَهُمْهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا}.

{أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهَم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا
وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِرِهِمْ مُّهِتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا
ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِرِهِمْ مُّفْتَدُونَ * قُلْ أُولَٰئِكَ جَاهِلُونَ بِأَهْدَىٰ
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قُلُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَاَنْتَقَمْنَا
مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيهِ
وَقَوْمِهِ إِنِّي أَبْرَأُ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا لِيذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّئُ دِينٍ *
وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَنَعْتَ هُوَآءًا
وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}

قوله تعالى: {أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهَم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}. أم
هنا تتضمن معنى استفهام الإنكار، يعني جل وعلا أن هذا الذي
يزعم الكفار من أنهم على حق في عبادتهم الأوثان، وجعلهم
الملائكة بنات الله، لا دليل لهم عليه. ولذا أنكر أن يكون آتاهم كتاباً
يجل فيه ذلك وأن يكونوا مستمسكين في ذلك بكتاب من الله،
فأنكر عليهم هذا إنكاراً دالاً على النفي للتمسك بالكتاب
المذكور، مع التوبيخ والتفريع.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن كفرهم المذكور لم يكن عن
هدى من الله، ولا كتاب أنزله الله بذلك، جاء موضحاً في آيات
كثيرة كقوله تعالى في سورة فاطر {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ
فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ} .
وقوله تعالى في الأحقاف { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي
بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنزِرَ مِنِّي عِلْمٌ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .
وقوله تعالى في الروم: { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا
كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ} .

وقوله تعالى في الصافات: { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} .

وقوله تعالى في النمل: { أَمَّنْ يَهْدِي لِحَلْقِ نَمْلٍ يُعْبِدُهُ وَمَنْ يَزُرُّكُمْ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَلَهُ مَعَهُ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ} .

وقوله تعالى في الحج ولقمان: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
يَغْيِرَ عِلْمَ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ} .

وقوله تعالى في الأنعام: { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} . قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ مَا
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ قُلْ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ يَأْهَدُوا
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ} .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة قد أفلح المؤمنون، في
الكلام علي قوله تعالى { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً
رَّسُولَهَا كَذَّبُوهُ} .

وفي سورة الأنعام في الكلام علي قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي
كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا} ، وقوله تعالى: { قُلْ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ يَأْهَدُوا
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ} .

قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة عن
عاصم: قُلْ أَوْ لَوْ جِنَّتِكُمْ بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر.
وقراه ابن عامر وحفص عن عاصم، قَالَ أَوْ لَوْ جِنَّتِكُمْ بفتح القاف
واللام بينهما ألف بصيغة الفعل الماضي.

فعلى قراءة الجمهور فالمعنى قل لهم يا نبي الله أتقتدون بأبائكم
في الكفر والضلال، ولو جنتكم بأهدى، أي بدين أهدى مما وجدتم
عليه آبائكم، وصيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف لأن آباءهم لا
شيء عندهم من الهداية أصلاً.

وعلى قراءة ابن عامر وحفص: فالمعنى قال هو: أي رسول الله
صلى الله عليه وسلم.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية مراراً في هذا الكتاب
المبارك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأي الكفار وبيان شدة ضلالهم في تقليدهم آباءهم هذا التقليد الأعمى، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}، وكقوله تعالى في المائدة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا إِلَهِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}.

وأوضح تعالى في آية لقمان أن ما وجدوا عليه آباءهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكها إلى عذاب السعير، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} كقوله تعالى: {إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا آبَاءَهُمْ صَالِينَ فَأَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ}، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَثِيلِ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {

والآيات يمثل ذلك كثيرة. قوله تعالى: {وَإِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا لِيذِي قَطْرِنِي فَإِنَّهُ سَيِّئُ الدِّينِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال لأبيه وقومه: إنه براء أي بريء، من جميع معبوداتهم التي يعبدونها، من دون الله أي يعني أنه بريء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذي خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى الذي ذكره عن إبراهيم في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: {قَالَ أَفِرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ لِيذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ 4} . وكقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَقَلْتُ قَالَ يَقُومُ إِلَيَّ بِرَاءً مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِلَهِي وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي قَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

وزاد جل وعلا في سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوتهم لهم وبغضه لهم في الله، وذلك في قوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا يَحْمِلُوا إِثْمَنَا وَالَّذِينَ لَا هُمْ فِي عِلْقَتِنَا مِنْ عِلْقَتِكُمْ فَذُكِّرْتُمْ 111} . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَأِنَّهُ سَيِّئُ الدِّينِ} ذكر نحوه في قوله: { لِيذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } وقوله تعالى: { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ

إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهَدِينَ} وقوله تعالى: {فَلَمَّا أَقَلَ قَالَ لَأِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}.
 وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ} {إِلَّا لِّذِي قَطَرِنِي} أي خلقي. يدل على أنه لا يستحق العبادة، إلا الخالق وحده جل وعلا.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُذِّبُوا رَبَّكُمْ لِّذِي خَلَقَكُمْ وَ لِّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، وقوله تعالى: {وَتَقُوا لِّذِي خَلَقَكُمْ وَ لِحِيلَةَ الْأُولِينَ} وقوله تعالى: {أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ لَخَلْقِ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ لَوَاحِدٌ لِّقَهْرٍ} وقوله تعالى: {أَقَمِنَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ}، وقوله تعالى: {أَبْتَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلُقُونَ} وقوله تعالى: {لِذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا وَ لَّحَدُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلُقُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}. الضمير المنصوب في جعلها على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا الله، المذكورة في قوله {إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ} {إِلَّا لِّذِي قَطَرِنِي} لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات. وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله {إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ}. ومعنى الإثبات منها هو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على السنة رسله. وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله: {إِلَّا لِّذِي قَطَرِنِي فَإِنَّهُ سَيَّهَدِينَ}.

وضمير الفاعل المستتر في قوله {وَجَعَلَهَا}. قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم وهو ظاهر السياق. وقال بعضهم: هو راجع إلى الله تعالى. فعلى القول الأول فالمعنى صير إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه أي ولده وولد ولده. وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين: أحدهما: وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيوصي به السلف منهم الخلف، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: {وَمَنْ يَرْعَبْ عَن مَّلِكِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ طُطِفْتُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ طَاطِقٌ لِّكُمُ الدِّينِ}.

والأمر الثاني هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح، كقوله تعالى {وَإِذِ اتَّخَذْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ يَكَلِّمَتِ قَاتَمَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلٌكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}، أي واجعل من ذريتي أيضاً أئمة، وقوله تعالى عنه {رَبِّ جَعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} وقوله عنه {وَ جُنَيْتِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} وقوله عنه هو وإسماعيل {رَبَّنَا وَ جَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} إلى قوله {رَبَّنَا وَ نَعْتٌ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}.

وقد أجاب الله دعاءه في بعث الرسول المذكور ببعثه محمداً صلى الله عليه وسلم.

ولذا جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «أنا دعوة إبراهيم».

وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، كما قال تعالى في سورة العنكبوت {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْبُورَةَ وَ لُوطًا وَ إِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا الْبُورَةَ وَ لُوطًا وَ لُقْمَانَ} وعلى القول الثاني، أن الضمير عائد إلى الله تعالى، فلا إشكال. وقد بين تعالى في آية الزخرف هذه، أن الله لم يجب دعوة إبراهيم في جميع ذريته، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه، لأن كفار مكة الذين كذبوا بنينا صلى الله عليه وسلم من عقبه بإجماع العلماء، وقد كذبوه صلى الله عليه وسلم وقالوا إنه ساحر. وكثير منهم مات على ذلك. وذلك في قوله تعالى {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ} يعني كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، هو محمد صلى الله عليه وسلم {وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}.

وما دلت عليه آية الزخرف هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل الله الكلمة المذكورة باقية فيهم، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى في البقرة: {قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} أي الظالمين من ذرية إبراهيم. وقوله تعالى في الصافات {وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ}.

فالمحسن منهم هو الذي الكلمة باقية فيه، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك.

وقوله تعالى في النساء { فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا } .

وقد بين تعالى في الحديد أن غير المهتدين منهم كثيرون وذلك في قوله { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهُتِدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } أي جعل الكلمة باقية فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين لمهتدين منهم، لأن الحق ما دام قائماً في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجو مأمول كما دل عليه قوله { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } .

والرجاء المذكور بالنسبة إلى بني آدم، لأنهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى، ومن يصير إلى الضلال. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة، وفي الكلام تقديم وتأخير.

والمعنى فإنه سيهدين لعلمهم يرجعون، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلمهم يرجعون، أي قال لهم، يتوبون عن عبادة غير الله. اهـ منه. وإيضاح كلامه، أن المعنى أن إبراهيم، قال لأبيه وقومه: إنني براء مما تعبدون لأجل أن يرجعوا عن الكفر إلى الحق.

والضمير في قوله لعلمهم يرجعوا على هذا راجع إلى أبيه وقومه. وعلى ما ذكرناه أولاً فالضمير راجع إلى من ضل من عقبه، لأن الضالين منهم داخلون في لفظ العقب.

فرجوع ضميرهم إلى العقب لا إشكال فيه وهذا القول هو ظاهر السياق، والعلم عند الله تعالى.

مسألة

ظاهر هذه الآيات الكريمة التي ذكرنا يدل على اتحاد معنى العقب والذرية والبنين، لأنه قال في بعضها عن إبراهيم { وَجُنُبِيَّ وَبَنِيَّ أَن تَعْبُدُوا إِلَّا صَاحِبَ الْعَرْشِ } .

وقال عنه في بعضها { رَبِّ جَعَلَنِي مُقِيمًا لِلصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي } وفي بعضها { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ } ، وفي بعضها { قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي } وفي بعضها { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } وفي بعضها { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ } .

فالظاهر المتبادر من الآيات أن المراد بالبنين والذرية والعقب شيء واحد، لأن جميعها في شيء واحد. وبذلك تعلم أن ظاهر القرآن، يدل على أن من وقف وقفاً أو تصدق صدقة على بنيه أو ذريته أو عقبه، أن حكم ذلك واحد.

وقد دل بعض الآيات القرآنية على أن أولاد البنات يدخلون في اسم الذرية واسم البنين.

وإذا دل القرآن على دخول ولد البنت، في اسم الذرية والبنين والفرض أن العقب بمعناهما، دل ذلك على دخول أولاد البنات في العقب أيضاً، فمن الآيات الدالة على دخول ولد البنت في اسم الذرية قوله تعالى { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ } إلى قوله { وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ } وهذا نص قرآني صريح في دخول ولد البنت في اسم الذرية، لأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ولد بنت إذ لا أب له.

ومن الآيات الدالة على دخول ولد البنت في اسم البنين قوله تعالى { جُزِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ } وقوله تعالى { وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ } لأن لفظ البنات في الألفاظ الثلاثة، شامل لبنات البنات وبنات بناتهن وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، وهو نص قرآني صحيح في استواء بنات بنين وبنات بناتهن.

فتحصل أن دخول أولاد البنات في الوقف على الذرية والبنين والعقب، هو ظاهر القرآن ولا ينبغي العدول عنه.

وكلام فقهاء الأمصار من الأئمة الأربعة وغيرهم في الألفاظ المذكورة معروف، ومن أراد الاطلاع عليه فلي نظر كتب فروع المذاهب ولم ينسب على ذلك الكلام هنا لأننا نريد أن نذكر هنا ما يدل ظاهر القرآن على ترجيحه من ذلك فقط.

أما لفظ الولد فإن القرآن يدل على أن أولاد البنات لا يدخلون فيه. وذلك في قوله تعالى { يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ }، فإن قوله في أولادكم لا يدخل فيه أولاد البنات، وذلك لا نزاع فيه بين المسلمين، وهو نص صريح قرآني على عدم دخول أولاد البنات في اسم الولد. وإن كان جماهير العلماء على أن العقب والولد سواء.

ولا شك أن اتباع القرآن هو المتعين على كل مسلم.

أما لفظ النسل فظاهر القرآن شموله لأولاد البنات لأن قوله تعالى { ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ لِعَزِيْزٍ الرَّحِيْمِ لِيَذِي أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ } ظاهر في أن لفظة النسل في الآية شاملة لأولاد البنات كما لا يخفى.

والألفاظ التي يتكلم عليها العلماء في هذا المبحث هي أحد عشر لفظاً ذكرنا خمسة منها وهي: الذرية والبنون والعقب والولد والنسل. وذكرنا أن أربعة منها يدل ظاهر القرآن على أنها يدخل فيها أولاد البنات وواحد بخلاف ذلك وهو الولد.

وأما الستة الباقية منها فهي الآل والأهل ومعناهما واحد.

والقراية والعشيرة والقوم والموالي، وكلام العلماء فيها مضطرب.

ولم يحضرني الآن تحديد يتميز به ما يدخل في كل واحد منها وما يخرج عنه إلا على سبيل التقريب إلا لفظين منها وهما القرابة والعشيرة.

أما القرابة فقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «أنه أعطى من خمس خبير بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل» مبيناً أن ذلك هو معنى قوله تعالى {قَالَ لِلَّهِ حُوسْنَةُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ} كما تقدم إيضاحه في سورة الأنفال في الكلام على آية الخمس هذه.

وأما العشيرة فقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس أنه لما نزلت {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي «يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا» الحديث. وفيه تحديد العشيرة الأقربين بجميع بني فهر بن مالك وهو الجد العاشر له صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية أبي هريرة في الصحيح. أنه لما نزلت الآية المذكورة قال «يا معشر قريش أو كلمة نحوها» الحديث، وقريش هم أولاد فهر بن مالك. وقيل: أولاد النضر بن كنانة، والأول هو الأظهر لحديث ابن عباس المذكور وعليه الأكثر.

تنبيه

(فإن قيل) ذكرتم أن ظاهر القرآن يدل على دخول أولاد البنات في لفظ البنين والشاعر يقول في خلاف ذلك: بَنُونًا بَنُونًا أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَبَاعِدِ

وكثير من أهل الفقه يذكرون البيت المذكور، على سبيل التسليم له، قالوا: ومما يوضح صدقه أنهم ينسبون إلى رجال آخرين، ربما كانوا أعداء لأهل أمهاتهم وكثيراً ما يتبع الولد أباه وعصبته، في عداوة أخواله وبغضهم كما هو معلوم.

(فالجواب) أن الواحد بالشخص له جهتان، فمعنى لفظ الابن له جهة خاصة هي معنى كونه خلق من ماء هذا الرجل على وجه يلحق فيه نسبه به، وهذا المعنى منفي عن والد أمه، فلا يقال له ابن بهذا الاعتبار وثابت لأبيه الذي خلق من مائه، وله جهة أخرى هي كونه خارجاً في الجملة من هذا الشخص، سواء كان بالمباشرة، أو بواسطة ابنه أو بنته وإن سفل، فالبنوة بهذا المعنى ثابتة لولد البنت، وهذا المعنى هو الذي عناه صلى الله عليه وسلم في قوله في الحسن بن علي رضي الله عنهما «إن ابني هذا سيد» الحديث وهو المراد في الآيات القرآنية كقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ} وقوله تعالى {وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ}

وكقوله تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ}.

فلفظ البنات والأبناء في جميع الآيات المذكورة شامل لجميع أولاد البنين والبنات وإن سفلوا، وإنما شملهم من الجهة المذكورة بالاعتبار المذكور، وهو إطلاق لفظ الابن على كل من خرج من الشخص في الجملة، ولو بواسطة بناته.

وأما البيت المذكور فالمراد به الجهة الأولى والاعتبار الأول. فإن بني البنات، ليسوا أبناء لآباء أمهاتهم من تلك الجهة، ولا بذلك الاعتبار لأنهم لم يخلقوا من مائهم، وإنما خلقوا من ماء رجال آخرين، ربما كانوا أباعد وربما كانوا أعداء.

فصح بهذا الاعتبار نفي البنوة عن ابن البنت. وضح بالاعتبار الأول إثبات البنوة له ولا تناقض مع انفكاك الجهة. وإذا عرفت معنى الجهتين المذكورتين وأنه بالنظر إلى إحداهما تثبت البنوة لابن البنت وبالنظر إلى الأخرى تنتفي عنه. فاعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم: «إن ابني هذا سيد» وقوله تعالى: {وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ} ونحوها من الآيات ينزل على إحدى الجهتين:

وقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ} يتنزل على الجهة الأخرى. وتلك الجهة هي التي يعني الشاعر بقوله: * وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد *

ويزيد ذلك إيضاحاً: أن قبائل العرب قد تكون بينهم حروب ومقاتلات، فيكون ذلك القتال بين أعمام الرجل وأخواله، فيكون مع عصبته دائماً على أخواله، كما في البيت المذكور. وقد يكون الرجل منهم في أخواله فيعاملونه معاملة دون معاملتهم لأبنائهم.

كما أوضح ذلك غسان بن وعلة في شعره حيث يقول: إذا كنت في سعد وأمك منهم شطيماً فلا يغرك خالك من سعد فإن ابن أخت القوم مصغي إنأؤه إذا لم يزاحم خاله بأب جلد

فقوله مصغي إنأؤه من الإصغاء وهو الإمالة، لأن الإناء إذا أميل ولم يترك معتدلاً لم يتسع إلا للقليل، فهو كناية عن نقص نصيبه فيهم وقلته.

وعلى الجهتين المذكورتين يتنزل اختلاف الصحابة في ميراث الجد والإخوة.

فمن رأى منهم أنه أب يحجب الإخوة، فقد راعى في الجد إحدى الجهتين.

ومن رأى منهم أنه ليس بأب وأنه لا يحجب الإخوة فقد لاحظ الجهة الأخرى.

ولم نطل الكلام هنا في جميع الألفاظ المذكورة التي هي أحد عشر لفظاً خوف الإطالة. ولأننا لم نجد نصواً من الوحي تحدد شيئاً منها تحديداً دقيقاً. ومعلوم أن لفظ القوم منها قد دل القرآن على أنه يختص بالذكر دون الإناث.

وإن الإناث قد يدخلن فيه بحكم التبع إذا اقترن بما يدل على ذلك. لأن الله تعالى قال: {لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ}. فعطفه النساء على القوم يدل على عدم دخولهن في لفظ القوم. ونظيره من كلام العرب قول زهير: وما أدري وسوف إخال أدري قوم آل حصن أم نساء

وأما دخول النساء في القوم بحكم التبع عند الاقتران بما يدل على ذلك، فقد بينه قوله تعالى في ملكة سبأ: {وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ}. وأما الموالى فقد دل القرآن والألغة على أن المولى يطلق على كل من له سبب يوالى ويوالى به. ولذا أطلق على الله أنه مولى المؤمنين لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء.

ونفى ولاية الطاعة عن الكافرين في قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}. وأثبت له عليهم ولاية الملك والقهر في قوله تعالى: {وَرُؤُوسًا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ لِحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}. كما أثبت لهم ولاية النار في قوله: {مَا وَآكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ}. وأطلق تعالى اسم الموالى على العصبة في قوله تعالى: {وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ لِوَالِدِنِ وَالْأَقْرَبُونَ}.

وأطلق اسم المولى على الأقارب ونحوهم في قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَن مَّوْلَىٰ شَيْئًا}.

ويكثر في كلام العرب إطلاق الموالى على العصبة وابن العم ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب: مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تظهرن لنا ما كان مدفونا

وقول طرفة بن العبد: وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

والحاصل أن من قال هذا وقف، أو صدقة على قومي، أو موالي
أنه إن كان هناك عرف خاص، وجب اتباعه في ذلك، وإن لم يكن
هناك عرف فلا نعلم نصاً من كتاب ولا سنة يحدد ذلك تحديداً
دقيقاً.

وكلام أهل العلم فيه معروف في محاله.
والعلم عند الله تعالى.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا لُقْرَاءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّن لِّقْرَبَتَيْنِ عَظِيمٍ *
أَهُمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا
وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً
لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُفْهًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا
يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ * وَرُحُفًا وَإِن كَلَّ
ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ * وَمَن يَعِشْ
عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا
قَالَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي قَدْ جَاءَكُم بَأْسٌ فَاتَّبِعُوا أَوْيَاتِي وَآتُوا
يَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنكُم فِي لَعْنَابٍ مُّشْرِكُونَ * أَقَانَتْ تُسْمِعُ أَلْصَمَّ
أَوْ تَهْدِي أَلْعَمَى وَمَن كَانَ فِي صُلَلٍ مُّبِينٍ * فَأَمَّا تَدَاهِينُ يَكُ قَاتِلًا
مِنْهُمْ مُّنتَقِمُونَ * أَوْ تُرِيْبِكَ لِيذِي وَعَدْتَهُمْ قَاتِلًا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ *
وَ سَلْتُمْ سِيكَ بِأَلْذِي أَوْجِي إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلِي صِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ
لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ * وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن
رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ *
فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَصْحَكُونَ * وَمَا يُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا
هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَدَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا
السَّاحِرُ ذُءُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمْ لَعْدَابَ إِذَا هُم يَنْكُتُونَ * وَتَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ
أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ *
أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ
أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ لَمَلِكُهُ مُّفْتَرِينَ * وَ سَلْتَحَفَ قَوْمَهُ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ * فَلَمَّا عَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَاعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ * وَلَمَّا ضُرِبَ
بُن مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ * وَقَالُوا يَا إِلَهِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا
صَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا
عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُم مَّلِكَةً
فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ {

قوله تعالى: { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمًا هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }.

وقالوا: أي قال كفار مكة، لولا أي هلا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين، أي من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف عظيم يعنون بعظمه، كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وفي مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

وعظيم الطائف. هو عروة بن مسعود. وقيل حبيب بن عمرو بن عمير. وقيل هو كنانة بن عبد ياليل وقيل غير ذلك.

وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولاً أن يبعث الله رسولاً من البشر كما أوضحناه مراراً.

ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولاً إلا من البشر تنازلوا عن اقتراحهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين: وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، حيث يجعلون كثرة المال، والجاه في الدنيا، موجبا لاستحقاق النبوة. وتنزيل الوحي.

ولذا زعموا، أن محمداً صلى الله عليه وسلم، ليس أهلاً لإنزال هذا القرآن عليه، لقلة ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه صلى الله عليه وسلم.

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة، شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله { هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ } والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك النبوة وإنزال الوحي.

وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد في القرآن كقوله تعالى في الدخان { إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ }، وقوله في آخر القصص { وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ }، وقوله في آخر الأنبياء { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }.

وقد قدمنا الآيات الدالة، على إطلاق الرحمة: والعلم على النبوة في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: { فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا }.

وقدمنا معاني إطلاق الرحمة، في القرآن في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى { مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا }.

وقوله تعالى في هذه الآية { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } يعني أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معاشهم وحظوظهم، في الدنيا، بل تولى هو جل وعلا قسمة ذلك بينهم، فجعل هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا رفيعاً، وهذا ضيعاً، وهذا خادماً، وهذا مخدوعاً، ونحو ذلك فإذا لم يفوض إليهم، حظوظهم في الدنيا، ولم يحكمهم فيها.

بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه الوحي؟ فهذا مما لا يعقل ولا يظنه إلا غبي جاهل كالكفار المذكورين.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا } التحقيق إن شاء الله أنه من التسخير.

ومعنى تسخير بعضهم لبعض، خدمة بعضهم البعض، وعمل بعضهم لبعض، لأن نظام العالم في الدنيا، يتوقف قيامه على ذلك، فمن حكمته جل وعلا، أن يجعل هذا فقيراً مع كونه قوياً قادراً على العمل، ويجعل هذا ضعيفاً لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم، يؤجر بها ذلك الفقير القوي فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي فتتظم المعيشة، لكل منهما وهكذا.

وهذه المسائل التي ذكرها الله جل وعلا، في هذه السورة الكريمة جاءت كلها موضحة في آيات أخر من كتاب الله.

أما زعمهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أنقص شرفاً، وقدرًا من أن ينزل عليه الوحي، فقد ذكره الله عنهم في (ح) في قوله تعالى { أءَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي } فقول كفار مكة { أءَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا } معناه إنكارهم، أن يخصه الله بإنزال الوحي من بينهم، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه، لكثرة ماله، وجاهه وشرفه فيهم.

وقد قال قوم صالح، مثل ذلك لصالح، كما قال تعالى منهم { أءَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ }.

فقلوب الكفار متشابهة فكانت أعمالهم متشابهة.

كما قال تعالى { كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ } وقال تعالى { اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰغُوْنَ }.

وأما اقتراحهم إنزال الوحي على غيره منهم، وأنهم لا يرضون خصوصيته بذلك دونهم، فقد ذكره تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ يُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ } وقوله تعالى في المدثر { بَلْ يُرِيدُ كُلُّ مِرِيٍّ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً }.

أي تنزل عليه صحف بالوحي من السماء، كما قال مجاهد وغير واحد، وهو ظاهر القرآن. وفي الآية قول آخر معروف.

وأما إنكاره تعالى عليهم، اقتراح إنزال الوحي على غير محمد صلى الله عليه وسلم، الذي دلت عليه همزة الإنكار المتضمنة مع الإنكار لتجهيلهم، وتسفيه عقولهم، في قوله: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}. فقد أشار تعالى إليه مع الوعيد الشديد في الأنعام. لأنه تعالى لما قال {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ} أتبع ذلك بقوله، رداً عليهم، وإنكاراً لمقالتهم {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}. ثم أوعدهم على ذلك فقوله {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}.

وأما كونه تعالى هو الذي تولى قسمة معيشتهم بينهم، فقد جاء في مواضع آخر كقوله تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا لِلَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِمْ سَوَاءٌ}. وقوله تعالى {أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} وقوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} وقوله تعالى: {وَلَكِنْ يُتْرَلُ يَقْدَرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} وقوله تعالى: {إِنْ يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا}.

وقد أوضح تعالى حكمة هذا التفاضل، والتفاوت في الأرزاق، والحظوظ والقوة والضعف، ونحو ذلك، بقوله هنا {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا}، كما تقدم.

وقوله تعالى هنا {وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}. يعني أن النبوة، والاهتداء يهدي الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة، خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى، في غير هذا الموضع، كقوله في سورة يونس {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَلِكَ قَلِيلٌ فَرِحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} وقوله تعالى في آل عمران {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}.

مسألة

دلت هذه الآيات الكريمة، المذكورة هنا، كقوله تعالى: {تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ}. وقوله {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ} ونحو ذلك من الآيات، على أن تفاوت الناس في الأرزاق، والحظوظ سنة، من سنن الله السماوية الكونية، القدرية، لا يستطيع أحد من أهل الأرض، البتة تبديلها، ولا تحويلها، بوجه من الوجوه، {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}.

وبذلك تحقق أن ما يتذرع به الآن الملاحدة المنكرون لوجود الله، ولجميع النبوات، والرسائل السماوية، إلى ابتزاز ثروات الناس، ونزع ملكهم الخاص، عن أملاكهم بدعوى المساواة بين الناس، في معايشهم أمر باطل. لا يمكن بحال من الأحوال. مع أنهم لا يقصدون ذلك الذي يزعمون. وإنما يقصدون استثناهم، بأملك جميع الناس، ليتمتعوا بها ويتصرفوا فيها، كيف شاءوا، تحت ستار كثير من أنواع الكذب، والغرور والخداع، كما يتحققه كل عاقل مطلع على سيرتهم، وأحوالهم مع المجتمع في بلادهم. فالطغمة القليلة الحاكمة، ومن ينظم إليها، هم المتمتعون بجميع خيرات البلاد. وغيرهم من عامة الشعب. محرومون من كل خير. مظلومون في كل شيء. حتى ما كسبوه بأيديهم، يعلفون ببطاقة، كما تelf البغال والحمير.

وقد علم الله جل وعلا في سابق علمه أنه يأتي ناس يغتصبون أموال الناس بدعوى أن هذا فقير وهذا غني وقد نهى جل وعلا عن اتباع الهوى بتلك الدعوى، وأوعدهم من لم ينته عن ذلك، بقوله تعالى: {إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ نَعِرْتُمْ قَاءَ اللَّهِ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}. وقوله: {قَالَ اللَّهُ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} فيه وعيد شديد لمن فعل ذلك. قوله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ لَمَّةٌ وَحِدَةٌ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ رُحُفًا وَإِنْ كُلُّ لَمَّةٍ لَّمَّا مَتَّعْ لِحَيَاةٍ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}. قوله لبئوتهم، في الموضوعين، قرأه ورش وأبو عمرو وحفص، عن عاصم، بضم الباء على الأصل.

وقرأه قالون، عن نافع وابن كثير، وابن عامر، وحمزة والكسائي، وشعبة عن عاصم {لِبُيُوتِهِمْ} بكسر الباء لمجانسة الكسرة للياء. وقوله سقفاً: قرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، سقفاً بضمين، على الجمع.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو {سُقْفًا} بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد المراد به الجمع.

وقوله: {وَرُحُفًا وَإِنْ كُلُّ لَمَّةٍ لَّمَّا مَتَّعْ لِحَيَاةٍ} قرأه نافع وابن كثير، وابن عامر، في رواية ابن ذكوان، وإحدى الروایتين عن هشام وأبي عمرو والكسائي {لَمَّا مَتَّعْ لِحَيَاةٍ الدُّنْيَا} بتخفيف الميم من لما.

وقرأه عاصم، وحمزة وهشام، عن ابن عامر، وفي إحدى الروایتين {لَمَّا مَتَّعْ لِحَيَاةٍ الدُّنْيَا} بتشديد الميم من لما.

ومعنى الآية الكريمة، أن الله لما بين حقارة الدنيا، وعظم شأن الآخرة في قوله: {وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}. أتبع ذلك بيان شدة حقارتها، وأنه جعلها مشتركة، بين المؤمنين، والكافرين وجعل ما في الآخرة من النعيم خاصاً بالمؤمنين، دون الكافرين وبين حكمته في اشتراك المؤمن مع الكافر، في نعيم الدنيا بقوله: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ} أي لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة، متفقة على الكفر، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار.

ولكننا لعلمنا، بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا، وحبها لها لو أعطينا ذلك كله للكفار، لحملت الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفاراً، فجعلنا في كل من الكافرين والمؤمنين غنياً وفقيراً، وأشركنا بينهم في الحياة الدنيا.

ثم بين جل وعلا اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله: {وَإِنْ كُنَّ دَلِيلًا لِمَا مَتَّعُ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}. أي خالصة لهم دون غيرهم.

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.

فقوله: {قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي مشتركة بينهم في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة.

أي خاصة بهم، دون الكفار، يوم القيامة. إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة.

فقوله في آية الأعراف هذه {قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} صريح في اشتراك المؤمنين مع الكفار في متاع الحياة الدنيا.

وذلك الاشتراك المذكور، دل عليه حرف لإمتناع، للوجود الذي هو لولا، في قوله هنا {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ}.

وخصوص طيبات الآخرة، بالمؤمنين المنصوص عليه في آية الأعراف بقوله {خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} هو الذي أوضحه تعالى في آية الزخرف هذه بقوله {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}.

وجميع المؤمنين يدخلون في الجملة في لفظ المتقين لأن كل مؤمن اتقى الشرك بالله.

وما دلت عليه هذه الآيات. من أنه تعالى يعطي الكفار من متاع الحياة الدنيا، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله. كقوله تعالى {قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ} وقوله {ثُمَّ نَمَتُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ} وقول تعالى {يَا أَيُّهَا

النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ { قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعُ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه، أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه، ولكنه للاستدراج، كقوله تعالى { قَدَّرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } وقوله تعالى { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقَطَّعَ دَابِرَ لِقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ لِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وقوله تعالى { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الصَّرَافُ وَ الصَّرَافُ فَآخَذْتَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } وقوله تعالى { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا } على أظهر التفسيرين. وقوله تعالى: { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيُرَدَّوْا إِلَيْنَا وَنُكَلِّمَهُمُ الْعَذَابَ مَهِينٌ } وقوله تعالى: { فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ }.

ودعوى الكفار، أن الله ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنه إن كان البعث حقاً أعطاهم خيراً منه في الآخرة قد ردها الله عليهم في آيات كثيرة كقوله تعالى { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ }، وقوله تعالى { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِأَيْدِي نُقْرَتِكُمْ عِنْدَنَا رُزْقٌ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا }، وقوله تعالى { قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ }، وقوله تعالى: { مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } وقوله تعالى: { وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى } وقوله تعالى { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ } إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: { وَلَئِن رُّدِدْتَ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا }.

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية الكريمة. فقوله { لَجَعَلْنَا } أي صيرنا، وقوله { لِيُؤْتِيَهُمْ } بدل اشتغال مع إعادة العامل، من قوله لمن يكفر، وعلى قراءة سقفاً بضمين، فهو جمع سقف، وسقف البيت معروف.

وعلى قراءة سقفاً بفتح السين، وسكون القاف: فهو مفرد أريد به الجمع.

وقد قدمنا في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} أن المفرد إذا كان اسم جنس. يجوز إطلاقه مراداً به الجمع وأكثرنا من أمثلة ذلك في القرآن، ومن الشواهد العربية. على ذلك.

وقوله {وَمَعَارِجَ} الظاهر أنه جمع معرج بلا ألف بعد الراء. والمعرج والمعراج بمعنى واحد وهو الآلة التي يعرج بها أي يصعد بها، إلى العلو.

وقوله: يظهرون أي يصعدون ويرتفعون، حتى يصيروا على ظهور البيوت. ومن ذلك المعنى قوله تعالى {فَمَا سَاطَرُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا سَبَّطُوا لَهُ تَقْبًا}.
والسرر جمع سرير، والاتكاء معروف.

والأبواب جمع باب وهو معروف، والزخرف الذهب. قال الزمخشري: إن المعارج التي هي المصاعد، والأبواب والسرر كل ذلك من فضة، كأنه يرى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في ذلك، وعلى هذا المعنى فقوله زخرفاً مفعول، عامله محذوف والتقدير وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً.

وقال بعض العلماء: إن جميع ذلك بعضه من فضة، وبعضه من زخرف، أي ذهب.

وقد ذكر القرطبي أن إعراب قوله وزخرفاً على هذا القول أنه منصوب بنزع الخافض، وأن المعنى من فضة، ومن زخرف، فحذف حرف الجر فانتصب زخرفاً.

وأكثر علماء النحو على أن النصيب بنزع الخافض ليس مطرداً ولا قياسياً، وما سمع منه يحفظ ولا يقاس عليه. وعليه درج ابن مالك في الخلاصة في قوله: وإن حذف فالنصب للمتجر نقلاً، إلخ.

وعلي بن سليمان وهو الأخفش الصغير يرى اطراده في كل شيء أمن فيه اللبس، كما أشار في الكافية بقوله:
وابن سليمان اطراده رأى إن لم يخف لبس كمن زيد نأى

وقوله تعالى: {وَإِنْ كُنُّ دَلِيلًا لَمَّا مَتَّعْ لِحَيَوَةِ الدُّنْيَا} على قراءة الجمهور بتخفيف الميم من لما، فإن هي المخففة، من الثقيلة، واللام هي الفارقة بين إن المخففة من الثقيلة، وإن النافية المشار إليها بقوله في الخلاصة: وخففت إن فعل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل

وما مزيدة للتوكيد، وأما على قراءة عاصم وحمزة وابن عامر في إحدى الروايتين عن هشام لما بتشديد الميم فإن نافية، ولما حرف إثبات بمعنى إلا.

والمعنى: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا.

وذكره بعضهم أن تشديد ميم لما على بعض القراءات في هذه الآية وآية الطارق {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} لغة بني هذيل بن مدركة والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ} إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ لِقْرَيْنٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام علي قوله تعالى: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ}. قوله تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ لِيَوْمٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي لِعَذَابٍ مُشْتَرِكُونَ}. قد قدمنا الكلام عليه في الصافات في الكلام على قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي لِعَذَابٍ مُشْتَرِكُونَ}. قوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي صُلَلٍ مُبِينٍ}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ لِمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أُمَّدِيرِينَ}. قوله تعالى: {وَ سَلِّمْ سِكَ بِأ لِح أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. أمر الله جل وعلا، نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يتمسك بهدي هذا القرآن العظيم، وبين له أنه على صراط مستقيم أي طريق واضح. لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي تضمنه هذا القرآن العظيم، الذي أوحى إليه. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، قد جاء موضحاً في آيات أخر، من كتاب الله.

أما أمره بالتمسك بالقرآن العظيم، فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَ أُولَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ}.

وأما إخباره له صلى الله عليه وسلم على صراط مستقيم فمن الآيات التي أوضح ذلك فيها قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَا عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ وَتَبِعَهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، وقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطٍ اللَّهُ لِيُذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ} وقوله تعالى: {فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَ لِح إِلَيْ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ} وقوله تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى لِحَقٍّ لُمُبِينٍ} إلى غير ذلك من الآيات.

وآية الزخرف هذه تدل على أن التمسك بهذا القرآن على هدى من الله، وهذا معلوم بالضرورة. قوله تعالى: {وَاسْتَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة. من أن جميع الرسل جاءوا بإخلاص التوحيد لله، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَحَتَّبُوا لِطُغُوتٍ}.

وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته.

قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، وقال تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، وقال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، وقال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ}.

إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}. قد قدمنا الكلام على قصة موسى وفرعون في سورة الأعراف وسورة طه. قوله تعالى: {وَأَخَذْتَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. لم يبين هنا نوع العذاب الذي أخذهم به، ولكنه أوضحه في الأعراف في قوله تعالى: {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَتْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ قَدْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ}، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ}. قوله تعالى: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاجِدُ لِعِزَّتِنَا رَبَّنَا بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ إِنَّا لَمُهتدون فتعلمنا كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون}. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أوضحه في الأعراف بقوله: {وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ لَئِن كَشَفْتَنَا عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ يَدًا إِسْرًا بَلَقَلَّمَا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}.

والرجز المذكور في الأعراف هو بعينه العذاب المذكور في آية الزخرف هذه. قوله تعالى: {وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}. قد تقدم الكلام عليه في طه في الكلام على قوله تعالى عن موسى {وَجَلَلُ عُقْدَةٍ مِّنْ لِّسَانِي}. قوله تعالى: {فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورُهُ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ لِمَلِكُهُ مُقْتَرِبِينَ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا}. قوله تعالى: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}. آسفونا معناه أغضبونا، وأسخطونا وكون المراد بالأسف الغضب، يدل عليه

إطلاق الأسف على أشد الغضب في قوله تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا} على أصح التفسيرين. قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ}. قد قدمنا الكلام عليه في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْصِيًّا مَثَلٌ لِلْأُولَىٰ}. قوله تعالى: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا يَا أَلِهُنَا حَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}. قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر والكسائي (يصدون) بضم الصاد.

وقراه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة (يصدون) بكسر الصاد. فعلى قراءة الكسر فمعنى يصدون يضجون ويصيحون، وقيل يضحكون، وقيل معنى القراءتين واحد. كيعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون.

وعلى قراءة الضم فهو من الصدود والفاعل المحذوف في قوله (ضرب).

قال جمهور المفسرين هو عبد الله بن الزبيري السهمي قبل إسلامه.

أي ولما ضرب ابن الزبيري المذكور عيسى ابن مريم فاجأك قومك بالضجيج والصياح والضحك، فرحاً منهم وزعماً منهم أن ابن الزبيري خصمك، أو فاجأك صدودهم عن الإيمان بسبب ذلك المثل.

والظاهر أن لفظة من هنا سببية، ومعلوم أن أهل العربية، يذكرون أن من معاني من السببية، ومنه قوله تعالى: {مَّمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا تَارًا}. أي بسبب خطيئاتهم أغرقوا. ومن ذلك قول الحالفين في أيمان القسامة: أقسم بالله لمن ضربه مات.

وأيضاً معنى ضرب ابن الزبيري عيسى مثلاً، أن الله لما أنزل قوله تعالى {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}، قال ابن الزبيري: إن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول إن كل معبود من دون الله في النار وأنا وأصنامنا جميعاً في النار، وهذا عيسى ابن مريم قد عبده النصارى من دون الله فإن كان ابن مريم مع النصارى الذين عبده في النار فقد رضينا أن نكون نحن وألھتنا معه.

وقالوا مثل ذلك في عزيز والملائكة لأن عزيزاً عبده اليهود، والملائكة عبدهم بعض العرب.

فاتضح أن ضربه عيسى مثلاً، يعني أنه على ما يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قاله، من أن كل معبود وعابده في النار،

يقتضي أن يكون عيسى مثلاً لأصنامهم، في كون الجميع في النار، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يثني على عيسى الثناء الجميل، ويبين للناس أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

فزعم ابن الزبيري أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لما اقتضى مساواة الأصنام مع عيسى في دخول النار مع أنه صلى الله عليه وسلم يعترف بأن عيسى رسول الله وأنه ليس في النار، دل ذلك على بطلان كلامه عنده.

وعند ذلك أنزل الله {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا نُتِيتَهُمْ أَنفُسَهُمْ خَالِدُونَ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ لِقَرَعٍ أَكْثَرُ}، وأنزل الله أيضاً قوله تعالى: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا}.

وعلى هذا القول فمعنى قوله تعالى: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا}، أي ما ضربوا عيسى مثلاً إلا من أجل الجدل والخصومة بالباطل. وقيل إن جدلاً حال وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير، وقد أوضحنا توجيهه مراراً.

والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل لقصد الغلبة بغير حق. قال جماعة من العلماء: والدليل على أنهم قصدوا الجدل بشيء يعلمون في أنفسهم أنه باطل، أن الآية التي تذرعوها بها إلى الجدل، لا تدل البتة، على ما زعموه، وهم أهل اللسان، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات.

والآية المذكورة إنما عبر الله فيها بلفظة «ما» التي هي في الموضوع العربي لغير العقلاء لأنه قال {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ} ولم يقل (ومن) تعبدون وذلك صريح في أن المراد الأصنام، وأنه لا يتناول عيسى ولا عزيزاً ولا الملائكة، كما أوضح تعالى أنه لم يرد ذلك بقوله تعالى بعده: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ}.

وإذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة، لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربي، الذي نزل به القرآن، تحققنا أنهم ما ضربوا عيسى مثلاً، إلا لأجل الجدل، والخصومة بالباطل.

ووجه التعبير في صيغة الجمع في قوله {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا} مع أن ضارب المثل واحد وهو ابن الزبيري يرجع إلى أمرين: أحدهما: أن من أساليب اللغة العربية إسناد فعل الرجل الواحد من القبيلة إلى جميع القبيلة، ومن أصرح الشواهد العربية في ذلك قوله:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فإنه نسب الضرب إلى جميع بني عبس مع تصرّحه بأن السيف في يد رجل واحد منهم، وهو ورقاء بن زهير، والشاعر يشير بذلك إلى قتل خالد بن جعفر الكلابي لزهير بن جذيمة العبسي، وأن ورقاء بن زهير، ضرب بسيف بني عبس، رأس خالد بن جعفر الكلابي، الذي قتل أباه ونبا عنه، أي لم يؤثر في رأسه، فإن معنى: نبا السيف ارتفع عن الضريبة ولم يقطع.

والشاعر يهجو بني عبس بذلك. والحروب التي نشأت عن هذه القصة، وقتل الحارث بن ظالم المري لخالد المذكور، كل ذلك معروف في محله. والأمر الثاني: أن جميع كفار قريش، صوبوا ضرب ابن الزبيري عيسى مثلاً، وفرحوا بذلك، ووافقوه عليه، فصاروا كالمتمالئين عليه.

وبهذين الأمرين المذكورين جمع المفسرون بين صيغة الجمع في قوله: {فَعَقَرُوا اللَّثَّاقَةَ} وقوله {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} وبين صيغة الأفراد في قوله: {فَتَادُوا صَحْبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}. وقال بعض العلماء: الفاعل المحذوف في قوله ولما ضرب ابن مريم مثلاً هو عامة قريش.

والذين قالوا إن كفار قريش لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر عيسى، وسمعوا قول الله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ}. ثالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ما تريد بذكر عيسى إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى.

وعلى هذا فالمعنى أنهم ضربوا عيسى مثلاً للنبي صلى الله عليه وسلم، في عبادة الناس لكل منهما، زاعمين أنه يريد أن يعبد كما عبد عيسى.

وعلى هذا القول فمعنى قوله {مَا صَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا} أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل، مع أنهم يعلمون أنك لا ترضى أن تعبد بوجه من الوجوه. وقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ}.

وإن كان من القرآن المدني النازل بعد الهجرة فمعناه يكرره عليهم النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً قبل الهجرة كما هو معلوم.

وكذلك قوله {وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِمَلَائِكَةٍ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}.

ولا شك أن كفار قريش متيقنون، في جميع المدة التي أقامها صلى الله عليه وسلم، في مكة قبل الهجرة بعد الرسالة، وهي ثلاث عشرة سنة، أنه لا يدعو إلا إلى عبادة الله، وحده لا شريك له. فادعائهم أنه يريد أن يعبدوه، افتراء منهم، وهم يعلمون أنهم مفترون، في ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}؟ التحقيق أن الضمير في قوله {هُوَ} راجع إلى عيسى، لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

قال بعض العلماء: ومرادهم بالاستفهام تفضيل معبوداتهم على عيسى.

قيل: لأنهم يتخذون الملائكة آلهة، والملائكة أفضل عندهم من عيسى.

وعلى هذا فمرادهم أن عيسى عبد من دون الله، ولم يكن ذلك سبباً لكونه في النار، ومعبوداتنا خير من عيسى، فكيف تزعم أنهم في النار.

وقال بعض العلماء: أرادوا تفضيل عيسى على آلهتهم. والمعنى على هذا أنهم يقولون: عيسى خير من آلهتنا، أي في زعمك وأنت تزعم أنه في النار، بمقتضى عموم ما تتلوه من قوله {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}. وعيسى عبده النصارى من دون الله، فدلالة قولك على أن عيسى في النار، مع اعترافك بخلاف ذلك، يدل على أن ما تقوله، من أنا ووالهتنا، في النار ليس بحق أيضاً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ} أي ليد، مبالغون في الخصومة، بالباطل، كما قال تعالى: {وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدًّا} أي شديدي الخصومة.

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي لَخِصَامٍ}، لأن الفعل بفتح فكسر كخصم، من صيغ المبالغة، كما هو معلوم في محله.

وقد علمت مما ذكرنا أن قوله تعالى هنا {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا} إنما بينته الآيات التي ذكرنا بيان سببه. ومعلوم أن الآية قد يتضح معناها بيان سببها.

فعلى القول الأول، أنهم ضربوا عيسى مثلاً لأصنامهم، في دخول النار، فإن ذلك المثل يفهم من أن سبب نزول الآية نزول قوله تعالى قبلها {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} لأنها لما نزلت قالوا إن عيسى عبد من دون الله كآلهتهم فهم بالنسبة لما دلت عليه سواء.

وقد علمت بطلان هذا مما ذكرناه آنفاً.

وعلى القول الثاني أنهم ضربوا عيسى مثلاً لمحمد صلى الله عليه وسلم، في أن عيسى قد عبد، وأنه صلى الله عليه وسلم، يريد أن يعبد كما عبد عيسى، فكون سبب ذلك سماعهم لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ} وسماعهم للآيات المكية النازلة في شأن عيسى يوضح المراد بالمثل. وأما الآيات التي بينت قوله {مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا} فبيانها له واضح على كلا القولين. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ}. والتحقيق أن الضمير في قوله: هو عائد إلى عيسى أيضاً لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام. وقوله هنا: {عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} لم يبين هنا شيئاً من الإنعام الذي أنعم به على عبده عيسى، ولكنه بين ذلك في المائدة، في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ لُكُزِّ نَعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وُلْدَتِكَ إِذْ أَبْدُوكَ بِرُوحٍ قُدُّسٍ لَّكَلِمِ الْإِنسَانِ فِي لَمَهْدٍ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَيْدِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَيْدِي وَتُبْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَأَلْبَرْنَا بِأَيْدِي وَإِذْ نَخْرُجُ لَمَوْتِي بِأَيْدِي وَإِذْ كَفَفْتُ بِيَدِ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} وفي آل عمران، في قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّنُ لَكُمُ الْكَلِمَةَ مِّنْهُ سُبُّهُ لِمَسِيحٍ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُفَرِّقِينَ} إلى قوله {وَمِنَ الصَّالِحِينَ} إلى غير ذلك من الآيات.

{وَأَنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا وَيَعُونَ هَدَا صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَبِالْبَيِّنَاتِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَخْتَلَفَ الْأَجْرَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يُعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ لِيَوْمٍ وَلَا أَنِمْ تَحْزَنُونَ * لَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * أَلْخُلُوا لِحَنَّتِهِمْ أَنَّهُمْ وَأَرْوَجُكُمْ يُخَبِّرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ لِحَنَّتُهَا أَلِجُوا فِيهَا أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَكِيهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَتَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ * لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرهُونَ * أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرَمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا}. التحقيق أن الضمير في قوله: وإنه راجع إلى عيسى لا إلى القرآن، ولا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ومعنى قوله: {لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم، والسنة المتواترة، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان، حيا علم للساعة أي علامة لقرب مجيئها لأنه من أشراتها الدالة على قربها.

وإطلاق علم الساعة على نفس عيسى، جار على أمرين، كلاهما أسلوب عربي معروف.

أحدهما: أن نزول عيسى المذكور، لما كان علامة لقربها، كانت تلك العلامة، سببا لعلم قربها، فأطلق في الآية المسبب وأريد السبب.

وإطلاق المسبب وإرادة السبب، أسلوب عربي معروف في القرآن، وفي كلام العرب.

ومن أمثله في القرآن قوله تعالى: {وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}.
فالرزق مسبب عن المطر والمطر سببه، فأطلق المسبب الذي هو الرزق وأريد سببه الذي هو المطر للملابسة القوية التي بين السبب والمسبب.

ومعلوم أن البلاغيين، ومن وافقهم، يزعمون أن مثل ذلك، من نوع ما يسمونه المجاز المرسل، وأن الملابسة بين السبب والمسبب من علاقات المجاز المرسل عندهم.

والثاني من الأمرين أن غاية ما في ذلك، أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير، وإنه لذو علم للساعة، أي وإنه لصاحب إعلام الناس، بقرب مجيئها، لكونه علامة لذلك، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كثير في القرآن، وفي كلام العرب، وإليه أشار في الخلاصة بقوله: وما يلي المضاف يأت خلفا عنه في الإعراب إذا ما حذف

وهذا الأخير أحد الوجهين اللذين وجه بهما علماء العربية النعت بالمصدر كقولك: زيد كرم وعمرو عدل أي ذو كرم وذو عدل كما قال تعالى: {وَاشْهَدُوا دَوَىٰ عَدَلٍ مِّنْكُمْ}، وقد أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله: ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا

وهذا الأخير أحد الوجهين اللذين وجه بهما علماء العربية النعت بالمصدر كقولك: زيد كرم وعمرو عدل أي ذو كرم وذو عدل كما قال تعالى: {وَاشْهَدُوا دَوَىٰ عَدَلٍ مِّنْكُمْ}، وقد أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله: ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا

أما دلالة القرآن الكريم على هذا القول الصحيح، ففي قوله تعالى سورة النساء: {وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ لِكْتَابٍ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} أي ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك صريح في أن عيسى حي

وقت نزول آية النساء هذه، وأنه لا يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب.

ومعلوم أنهم لا يؤمنون به إلا بعد نزوله إلى الأرض. فإن قيل قد ذهبت جماعة من المفسرين، من الصحابة فمن بعدهم إلى أن الضمير في قوله: قبل موته راجع إلى الكتابي، أي إلا ليؤمنن به الكتابي قبل موت الكتابي. فالجواب أن يكون الضمير راجعاً إلى عيسى، يجب المصير إليه، دون القول الآخر، لأنه أرجح منه من أربعة أوجه: الأول: أنه هو ظاهر القرآن المتبادر منه، وعليه تنسجم الضمائر بعضها مع بعض. والقول الآخر بخلاف ذلك.

وإيضاح هذا أن الله تعالى قال: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ} ثم قال تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ} أي عيسى، {وَمَا صَلَّبُوهُ} أي عيسى {وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} أي عيسى {وَأَنَّ لَّذِينَ كُتِلُوا فِيهِ} أي عيسى {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ} أي عيسى {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ} أي عيسى، {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} أي عيسى {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ} أي عيسى {وَأَنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ} أي عيسى {قَبْلَ مَوْتِهِ} أي عيسى {وَيَوْمَ لِقِيَمَتِهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} أي يكون هو، أي عيسى عليهم شهيداً. فهذا السياق القرآني الذي ترى، ظاهر ظهوراً لا ينبغي العدول عنه، في أن الضمير في قوله قبل موته، راجع إلى عيسى. الوجه الثاني: من مرجحات هذا القول، أنه على هذا القول الصحيح، فمفسر الضمير، ملفوظ مصرح به، في قوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ}. وأما على القول الآخر فمفسر الضمير ليس مذكوراً في الآية أصلاً، بل هو مقدر تقديره: ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته، أي موت أحد أهل الكتاب المقدر. ومما لا شك فيه، أن ما لا يحتاج إلى تقدير، أرجح وأولى، مما يحتاج إلى تقدير.

الوجه الثالث من مرجحات هذا القول الصحيح، أنه تشهد له السنة النبوية المتواترة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تواترت عنه الأحاديث بأن عيسى حي الآن، وأنه سينزل في آخر الزمان حكماً مقسطاً.

ولا ينكر تواتر السنة بذلك إلا مكابر. قال ابن كثير في تفسيره، بعد أن ذكر هذا القول الصحيح ونسبه إلى جماعة من المفسرين ما نصه: وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله تعالى اهـ.

وقوله بالدليل القاطع يعني السنة المتواترة، لأنها قطعية وهو صادق في ذلك.

وقال ابن كثير، في تفسير آية الزخرف هذه ما نصه: وقد تواترت الأحاديث، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، «أنه أخبر ينزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وَحَكَمًا مُفْسِطًا» اهـ منه.

وهو صادق في تواتر الأحاديث بذلك.

وأما القول بأن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى الكتاب فهو خلاف ظاهر القرآن، ولم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة. الوجه الرابع: هو أن القول الأول الصحيح، واضح لا إشكال فيه، ولا يحتاج إلى تأويل ولا تخصيص بخلاف القول الآخر، فهو مشكل لا يكاد يصدق، إلا مع تخصيص، والتأويلات التي يروونها فيه عن ابن عباس، وغيره، ظاهرة البعد والسقوط لأنه على القول بأن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى عيسى فلا إشكال ولا خفاء، ولا حاجة إلى تأويل، ولا إلى تخصيص.

وأما على القول بأنه راجع إلى الكتابي فإنه مشكل جداً بالنسبة لكل من فاجأه الموت من أهل الكتاب، كالذي يسقط من عال إلى أسفل، والذي يقطع رأسه بالسيف وهو غافل والذي يموت في نومه ونحو ذلك، فلا يصدق هذا العموم المذكور في الآية على هذا النوع، من أهل الكتاب، إلا إذا ادعى إخراجهم منه بمخصص. ولا سبيل إلى تخصيص عمومات القرآن، إلا بدليل يجب الرجوع إليه من المخصصات المتصلة أو المنفصلة.

وما يذكر عن ابن عباس من أنه سئل عن الذي يقطع رأسه من أهل الكتاب فقال إن رأسه يتكلم، بالإيمان بعيسى، وأن الذي يهوي من عال إلى أسفل يؤمن به وهو يهوي، لا يخفى بعده وسقوطه، وأنه لا دليل ألبتة عليه كما ترى.

وبهذا كله تعلم، أن الضمير في قوله {قَبْلَ مَوْتِهِ}، راجع إلى عيسى، وأن تلك الآية من سورة النساء تبين قوله تعالى هنا: {وَأَنَّهُ لَعَلَّمُ لِّلسَّاعَةِ} كما ذكرنا.

فإن قيل: إن كثيراً ممن لا تحقيق عندهم يزعمون أن عيسى قد توفي، ويعتقدون مثل ما يعتقدوه، ضلال اليهود والنصارى، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْكَ بِذُنُوبِكُمْ وَلَا تَخَفْ سَاقِئْتَ إِلَىٰ رَبِّكَ قَائِلًا مُّتَوَقِّئًا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَّا مِنَّا فَتَمَرَّدَ فَكُنَّا نَادِيًا} وقوله {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتِ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ}. فالجواب أنه لا دلالة في إحدى الآيتين ألبتة على أن عيسى قد توفي فعلاً.

أما قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} فإن دلالة المزعومة على ذلك منفية من أربعة أوجه:

الأول: أن قوله: {مُتَوَفِّيكَ} حقيقة لغوية في أخذ الشيء كاملاً غير ناقص، والعرب تقول: توفي فلان دينه يتوفاه فهو متوفٍ له إذا قبضه وحازره إليه كاملاً من غير نقص.

فمعنى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} في الوضع اللغوي أي حائزك إلي، كاملاً بروحك وجسمك.

ولكن الحقيقة العرفية خصت التوفي المذكور بقبض الروح دون الجسم ونحو هذا مما دار بين الحقيقة اللغوية العرفية فيه لعلماء الأصول ثلاثة مذاهب.

الأول: هو تقديم الحقيقة العرفية، وتخصيص عموم الحقيقة اللغوية بها.

وهذا هو المقرر في أصول الشافعي وأحمد، وهو المقرر في أصول مالك إلا أنهم في الفروع ربما لم يعتمدوه في بعض المسائل.

وإلى تقديم الحقيقة العرفية، على الحقيقة اللغوية أشار في مراقي السعودى بقوله: واللفظ محمول على الشرعي إن لم يكن فمطلق العرفي

فباللغوي على الجلي ولم يجب بحث عن المجاز في الذي انتخب المذهب الثاني: هو تقديم الحقيقة اللغوية على العرفية بناء على أن العرفية وإن ترجحت بعرف الاستعمال، فإن اللغوية مترجمة بأصل الوضع.

وهذا القول مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

المذهب الثالث: أنه لا تقدم العرفية على اللغوية، ولا اللغوية على العرفية، بل يحكم باستوائهما ومعادلة الاحتمالين فيهما، فيحكم على اللفظ بأنه مجمل، لاحتمال هذه واحتمال تلك.

وهذا اختيار ابن السبكي، ومن وافقه، وإلى هذين المذهبين الأخيرين أشار في مراقي السعودى بقوله: ومذهب النعمان عكس ما مضى والقول بالإجمال فيه مرتضى

وإذا علمت هذا، فاعلم أنه على المذهب الأول، الذي هو تقديم الحقيقة اللغوية، على العرفية، فإن قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} لا يدل إلا على أنه قبضه إليه بروحه وجسمه، ولا يدل على الموت أصلاً، كما أن توفي الغريم لدينه لا يدل على موت دينه.

وأما على المذهب الثاني: وهو تقديم الحقيقة العرفية على اللغوية، فإن لفظ التوفي حينئذ، يدل في الجملة على الموت.

ولكن سترى إن شاء الله، أنه وإن دل على ذلك في الجملة، لا يدل على أن عيسى قد توفي فعلاً.

وقد ذكرنا في كتابنا: دفع إبهام الاضطراب، عن آيات الكتاب، في سورة آل عمران، وجه عدم دلالة الآية، على موت عيسى فعلاً، أعني قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} فقلنا ما نصه: والجواب عن هذا، من ثلاثة أوجه:

الأول أن قوله تعالى: {مُتَوَفِّيكَ} لا يدل على تعيين الوقت، ولا يدل على كونه قد مضى.

وأما عطفه ورافعه إلى، على قوله: متوفيك، فلا دليل فيه لإطباق جمهور أهل اللسان العربي، على أن الواو لا تقتضي الترتيب ولا الجمع، وإنما تقتضي مطلق التشريك.

وقد ادعى السيرافي والسهيلي، إجماع النحاة على ذلك، وعزاه الأكثر للمحققين وهو الحق خلافاً لما قاله قطرب والفراء وثعلب وأبو عمرو الزاهد وهشام والشافعي من أنها تفيد الترتيب لكثرة استعمالها فيه.

وقد أنكر السيرافي ثبوت هذا القول عن الفراء وقال لم أجده في كتابه.

وقال ولي الدين: أنكر أصحابنا نسبة هذا القول إلى الشافعي. حكاه عنه صاحب الضياء اللامع.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «أبدأ بما بدأ الله به» يعني الصفا لا دليل فيه على اقتضاها الترتيب.

وبيان ذلك هو ما قاله الفهري كما ذكره عنه صاحب الضياء اللامع. وهو أنها كما أنها لا تقتضي الترتيب ولا المعية، فكذلك لا تقتضي المنع منهما.

فقد يكون العطف بها مع قصد الاهتمام بالأول كقوله: {إِنَّ أَلْصَقَا وَ لَمَرَّةً مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} بدليل الحديث المتقدم.

وقد يكون المعطوف بها مرتباً كقول حسان: * هجوت محمداً وأجبت عنه *

على رواية الواو.

وقد يراد بها المعية كقوله: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ أَلْسَفِينَةَ} وقوله {وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ} ولكن لا تحمل على الترتيب ولا على المعية إلا بدليل منفصل.

الوجه الثاني: أن معنى {مُتَوَفِّيكَ} أي منيمك ورافعك إلي، أي في تلك النوم.

وقد جاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ}، وقوله: {اللَّهُ

يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}، وعزى ابن كثير هذا القول للأكثرين، واستدل بالآيتين المذكورتين.
 الوجه الثالث: أن متوفيك، اسم فاعل توفاه، إذا قبضه وحازه إليه، ومنه قولهم: توفي فلان دينه إذا قبضه إليه، فيكون معنى متوفيك، على هذا، قابضك منهم إلي حياً، وهذا القول هو اختيار ابن جرير. وأما الجمع بأنه توفاه ساعات أو أياماً، ثم أحياه فلا معول عليه، إذ لا دليل عليه. اهـ. من دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. وقد قدمنا في هذا البحث أن دلالة قوله تعالى: {مُتَوَفِّكَ} على موت عيسى فعلاً، منفية من أربعة أوجه، وقد ذكرنا منها ثلاثة، من غير تنظيم، أولها أن {مُتَوَفِّكَ} حقيقة لغوية في أخذه بروحه وجسمه.

الثاني: أن {مُتَوَفِّكَ} وصف محتمل للحال والاستقبال والماضي، ولا دليل في الآية على أن ذلك التوفي قد وقع ومضى، بل السنة المتواترة والقرآن دالان على خلاف ذلك، كما أوضحنا في هذا المبحث.

الثالث: أنه توفي نوم، وقد ذكرنا الآيات الدالة على أن النوم يطلق عليه الوفاة، فكل من النوم والموت، يصدق عليه اسم التوفي، وهما مشتركان في الاستعمال العرفي. فهذه الأوجه الثلاثة ذكرناها كلها في الكلام الذي نقلنا من كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. وذكرنا الأول منها بانفراده لنبيين مذاهب الأصوليين فيه. أما قوله تعالى: {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}، فدلالته على أن عيسى مات، منفية من وجهين:

الأول منهما: أن عيسى يقول ذلك يوم القيامة، ولا شك أن يموت قبل يوم القيامة، فأخباره يوم القيامة بموته، لا يدل على أنه الآن قد مات كما لا يخفى.

والثاني منهما: أن ظاهر الآية أنه توفي رَفُعٌ وَقَبْضٌ للروح والجسد، لا توفي موت.

وإيضاح ذلك أن مقابلته لذلك التوفي بالديمومة فيهم في قوله: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}، تدل على ذلك لأنه لو كان توفي موت، لقال ما دمت حياً، فلما توفيتني لأن الذي يقابل بالموت هو الحياة كما في قوله: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالرَّكُوعِ مَّا دُمْتُ حَيًّا}.

أما التوفي المقابل بالديمومة فيهم فالظاهر أنه توفي انتقال عنهم، إلى موضع آخر.

وغاية ما في ذلك هو حمل اللفظ على حقيقته اللغوية مع قرينة صارفة عن قصد العرفية، وهذا لا إشكال فيه.

وأما الوجه الرابع، من الأوجه المذكورة سابقاً، أن الذين زعموا أن عيسى قد مات، قالوا إنه لا سبب لذلك الموت، إلا أن اليهود قتلوه وصلبوه، فإذا تحقق نفي هذا السبب وقطعهم أنه لم يمت بسبب غيره، تحققنا أنه لم يمت أصلاً، وذلك السبب الذي زعموه، منفي يقيناً بلا شك، لأن الله جل وعلا قال: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ} . وقال تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} . وضمير رفعه ظاهر في رفع الجسم والروح معاً كما لا يخفى. وقد بين الله جل وعلا مستند اليهود في اعتقادهم أنهم قتلوه، بأن الله ألقى شبهه على إنسان آخر فصار من يراه يعتقد اعتقاداً جازماً أنه عيسى.

فراه اليهود لما أجمعوا على قتل عيسى فاعتقدوا لأجل ذلك الشبه الذي ألقى عليه اعتقاداً جازماً أنه عيسى فقتلوه. فهم يعتقدون صدقهم، في أنهم قتلوه وصلبوه، ولكن العليم اللطيف الخبير، أوحى إلى نبيه، في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه. محمد صلى الله عليه وسلم والذين اتبعوه عندهم علم من الله بأمر عيسى لم يكن عند اليهود ولا النصراني كما أوضحه تعالى بقوله {وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا بُرْهَانَ لَّهُمْ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} . والحاصل أن القرآن العظيم على التفسير الصحيح والسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم كلاهما دال على أن عيسى حي، وأنه سينزل في آخر الزمان، وأن نزوله من علامات الساعة، وأن معتمد الذين زعموا أنهم قتلوه ومن تبعهم هو إلقاء شبهه على غيره، واعتقادهم الكاذب أن ذلك المقتول الذي شبه بعيسى هو عيسى.

وقد عرفت دلالة الوحي على بطلان ذلك، وأن قوله {مُتَوَفِّيكَ} على موته فعلاً. وقد رأيت توجيه ذلك من أربعة أوجه، وأنه على المقرر في الأصول، في المذاهب الثلاثة التي ذكرنا عنهم، ولا إشكال في أنه لم يمت فعلاً.

أما على القول بتقديم الحقيقة اللغوية فالأمر واضح، لأن الآية على ذلك لا تدل على الموت.

وأما على القول بالإجمال، فالمقرر في الأصول أن المحمل، لا يحمل على واحد من معنييه، ولا معانيه بل يطلب بيان المراد منه، بدليل منفصل.

وقد دل الكتاب هنا والسنة المتواترة على أنه لم يمت وأنه حي.

وأما على القول بتقديم الحقيقة العرفية على الحقيقة اللغوية، فإنه يجاب عنه من أوجه:
الأول: أن التوفي محمول على النوم، وحمله عليه يدخل في اسم الحقيقة العرفية.
والثاني: أنا وإن سلمنا أنه توفي موت، فالصيغة لا تدل على أنه قد وقع فعلاً.
الثالث: أن القول المذكور بتقديم العرفية، محله فيما إذا لم يوجد دليل صارف، عن إرادة العرفية اللغوية، فإن دل على ذلك دليل وجب تقديم اللغوية قولاً واحداً.
وقد قدمنا مراراً دلالة الكتاب والسنة المتواترة على إرادة اللغوية هنا دون العرفية.
واعلم بأن القول بتقديم اللغوية على العرفية، محله فيما إذا لم تتناس اللغوية بالكلية، فإن أميتت الحقيقة اللغوية بالكلية، وجب المصير إلى العرفية إجماعاً، وإليه أشار في مراقي السعود بقوله: أجمع إن حقيقة تَمَات على التقدّم له الإثبات

فمن حلف ليأكلن من هذه النخلة، فمقتضى الحقيقة اللغوية، أنه لا يبر يمينه حتى يأكل من نفس النخلة لا من ثمرتها.
ومقتضى الحقيقة العرفية أنه يأكل من ثمرتها لا من نفس جذعها.
والمصير إلى العرفية هنا واجب إجماعاً، لأن اللغوية في مثل هذا أميتت بالكلية.

فلا يقصد عاقل ألبتة الأكل من جذع النخلة.
أما الحقيقة اللغوية في قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَقِّئُكَ} فإنها ليست من الحقيقة المماتة كما لا يخفى.
ومن المعلوم في الأصول أن العرفية تسمى حقيقة عرفية ومجازاً لغوياً، وأن اللغوية تسمى عندهم حقيقة لغوية، ومجازاً عرفياً.
وقد قدمنا مراراً أنا أوضحنا أن القرآن الكريم لا مجاز فيه على التحقيق في رسالتنا المسماة «منع جواز المجاز، في المنزل للتعبد والإعجاز».

فاتضح مما ذكرنا كله أن آية الزخرف هذه تبينها آية النساء المذكورة، وأن عيسى لم يميت وأنه ينزل في آخر الزمان وإنما قلنا إن قوله تعالى هنا: {وَإِنَّهُ لَعَلَّمٌ لِلنَّاسِ} أي علامة ودليل على قرب مجيئها، لأن وقت مجيئها بالفعل لا يعلمه إلا الله.
وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك مراراً.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {قَلَّا تَمْتَرُنَّ بِهَا} أي لا تشكن في قيام الساعة فإنه لا شك فيه.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له مراراً كقوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا}. وقوله: {وَتُنذِرَ يَوْمَ لَجْمِ لَ رَيْبَ فِيهِ قَرِيْقُ فِي لِحْنَةٍ وَقَرِيْقُ فِي السَّعِيرِ}.
 وقوله {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ لَقِيْمَةٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} وقوله {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى:
 {وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة مراراً كقوله: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}. وقوله {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ نُهَيْتِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ}. إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ أَلِيمٍ}. قوله هنا {ظَلَمُوا} أي كفروا، بدليل قوله في مريم، في القصة بعينها، {قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.
 وقوله {مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ} يوضحه قوله هنا: {مِنْ عَذَابٍ يَوْمٍ أَلِيمٍ}.

وقد قدمنا مراراً الآيات الدالة على إطلاق الظلم على الكفر كقوله: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} وقوله: {وَلَا يَكْفُرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ} وقوله: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مَنَّ الظَّالِمِينَ} وقوله تعالى {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} أي بشرك، كما فسره به النبي صلى الله عليه وسلم، في الحديث الثابت في صحيح البخاري. قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}. الاستفهام بهل هنا بمعنى النفي، وينظرون بمعنى ينتظرون، أي ما ينتظر الكفار إلا الساعة، أي القيامة أن تأتيهم بغتة، أي في حال كونها مباغتة لهم، أي مفاجئة لهم، وهم لا يستغفرون أي بمفاجأتها في حال غفلتهم وعدم شعورهم بمجيئها.

والظاهر أن المصدر المنسب من أن وصلتها في قوله: {أَنْ تَأْتِيَهُمْ} في محل نصب، على أنه بدل اشتمال من الساعة، وكون ينظرون، بمعنى ينتظرون، معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس: فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفني لدى أم جندب

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الساعة تأتيهم بغتة، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله. كقوله تعالى في الأعراف: {تَقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً}. وقوله تعالى في القتال {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا} وقوله تعالى: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً}.

فالمراد بالصيحة: القيامة.
 وقوله: { وَهُمْ يَخْصَمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً }، يدل على أنها تأتيهم وهم في غفلة، وعدم شعور بإتيانها، إلى غير ذلك من الآيات. وإلعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: { يُعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ لِيَوْمٍ وَلَا أَنْتُمْ تَخَزُنُونَ لِّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ }. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة بعض صفات الذين ينتفي عنهم الخوف والحزن يوم القيامة.
 فذكر منها هنا الإيمان بآيات الله والإسلام، وذكر بعضاً منها في غير هذا الموضوع.

فمن ذلك الإيمان والتقوى، وذلك في قوله تعالى في سورة يونس { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ لِّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }.

ومن ذلك الاستقامة، وقولهم: ربنا الله، وذلك في قوله في فصلت: { إِنَّ لِّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكَبَرُوا لَهُ أَكْبَارًا وَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا }، وقوله تعالى في الأحقاف { إِنَّ لِّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } إلى غير ذلك من الآيات.

والخوف في لغة العرب: الغم من أمر مستقبل.
 والحزن: الغم من أمر ماض.

وربما استعمل كل منهما في موضع الآخر.

وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربي معروف. قال بعض العلماء: ومنه قوله تعالى { إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ }.

قال معناه: إلا أن يعلمنا.

ومنه قول أبي محجن الثقفي:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي في الممات عروقها

ولا تدفني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها
 فقوله أخاف: أي أعلم لأنه لا يشيك في أنه لا يشربها بعد موته.
 وقوله في هذه الآية الكريمة { لِّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ } ظاهره المغايرة بين الإيمان والإسلام.

وقد دل بعض الآيات على اتحادهما كقوله تعالى: { فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنْ لِّلْمُسْلِمِينَ }.
 ولا منافاة في ذلك، فإن الإيمان يطلق تارة على جميع ما يطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل. كما ثبت في الصحيح، في حديث وفد عبد القيس، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جداً.

ومن أصرحها في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع وسبعون».

وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح «وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».

فقد سمي صلى الله عليه وسلم «إماطة الأذى عن الطريق» إيماناً.

وقد أطال البيهقي رحمه الله في شعب الإيمان، في ذكر الأعمال التي جاء الكتاب والسنة تسميتها إيماناً.

فالإيمان الشرعي التام والإسلام الشرعي التام معناه واحد. وقد يطلق الإيمان إطلاقاً آخر على خصوص ركنه الأكبر الذي هو الإيمان بالقلب، كما في حديث جبريل الثابت في الصحيح.

والقلب مضغة في الجسد إذا صلحت صلح الجسد كله. فغيره تابع له. وعلى هذا تحصل المغايرة في الجملة بين الإيمان والإسلام.

فالإيمان، على هذا الإطلاق، اعتقاد الإسلام شامل للعمل.

واعلم أن مغايرته تعالى بين الإيمان والإسلام في قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ}.

قال بعض العلماء: المراد بالإيمان هنا، معناه الشرعي، والمراد بالإسلام معناه اللغوي.

لأن إزعان الجوارح وانقيادها دون إيمان القلب إسلام لغة لا شرعاً.

وقال بعض العلماء: المراد بكل منهما معناه الشرعي، ولكن نفي

الإيمان في قوله: ولما يدخل الإيمان، يراد به عند من قال هذا،

نفي كمال الإيمان لا نفي أصله، ولكن ظاهر الآية لا يساعد على

هذا، لأن قوله {وَلَمَّا يَدْخُلِ} فعل في سياق النفي وهو صيغة

عموم، على التحقيق، وإن لم يؤكد بمصدر، ووجهه واضح جداً، كما

قدمناه مراراً.

وهو أن الفعل الصناعي ينحل، عن مصدر وزمن عند النحويين،

وعن مصدر وزمن، ونسبة عند البلاغيين، كما حرروه في مبحث

الاستعارة التبعية، وهو أصوب.

فالمصدر كامن في مفهوم الفعل الصناعي إجماعاً، وهو نكرة لم

تتعرف بشيء فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي.

وقد أشار صاحب مراقبي السعود إلى أن الفعل في سياق النفي أو

الشرط من صيغ العموم بقوله: ونحو لا شربت أو وإن شرباً

واتفقوا إن مصدر قد جلباً

ووجه إهمال لا في هذه الآية في قوله تعالى: {لَا خَوْفٌ} أن لا

الثانية التي هي {وَلَا هُمْ يَخْرَتُونَ} بعدها معرفة وهي الضمير،

وهي لا تعمل في المعارف، بل في النكرات، فلما وجب إهمال الثانية، أهملت الأولى لينسجم الحرفان بعضهما مع بعض في إهمالهما معاً. قوله تعالى: {لَا خُلُوعَ لِحَنَّتِهِ أَنْتُمْ وَأَرْوُجُكُمْ تُحْبَرُونَ}. قوله تعالى في هذه الآية {وَأَرْوُجُكُمْ} فيه لعلماء التفسير وجهان: أحدهما، أن المراد بأزواجهم، نظراؤاهم وأشباههم في الطاعة وتقوى الله واقتصر على هذا القول ابن كثير. والثاني: أن المراد بأزواجهم، نساؤهم في الجنة. لأن هذا الأخير أبلغ في التنعم والتلذذ من الأول. ولذا يكثر في القرآن، ذكر إكرام أهل الجنة، بكونهم مع نساءهم دون الامتنان عليهم، بكونهم مع نظرائهم وأشباههم في الطاعة. قال تعالى: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَهُمْ وَأَرْوُجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ}. وقال كثير في أهل العلم: إن المراد بالشغل المذكور في الآية، هو افتضاض الأبقار. وقال تعالى: {وَرَوَّجْتَهُمْ بِحُورِ عَيْنٍ}. وقال تعالى: {وَحُورٌ عَيْنًا مِّثْلَ اللَّوْلُؤِ لَمَكُونٍ}. وقال تعالى: {فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ} إلى قوله: {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، وقال: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتٌ الطَّرْفِ عَيْنٌ} وقال تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتٌ الطَّرْفِ أُنْتَابٌ} إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا: أن مفرد الأزواج زوج بلا هاء، وأن الزوجة بالتاء لغة لا لحن خلافاً لمن زعم أن الزوجة لحن من لحن الفقهاء، وأن ذلك لا أصل له في اللغة. والحق أن ذلك لغة عربية، ومنه قول الفرزدق: وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقول الحماسي: فبكى يناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إلى
ثم تصدع

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في صفة «إنها زوجتي» وقوله {تُحْبَرُونَ} أقوال العلماء فيه راجعة إلى شيء واحد، وهو أنهم يكرمون بأعظم أنواع الإكرام وأتمها. قوله تعالى: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وجميع الآيات التي فيها الأنعام على أهل الجنة بأواني الذهب والفضة، والتحلي بهما، وليس الحرير، ومنه السندس والإستبرق، وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}. قوله تعالى: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، أي تلذ

به الأعين أي برؤيته لحسنه، كما قال تعالى: {صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوُثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ}. وأسند اللذة إلى العين، وهي في الحقيقة مسندة لصاحب العين، كإسناد الكذب والخطيئة إلى الناصية، وهي مقدم شعر الرأس، في قوله تعالى: {تَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ خَاطِئَةٌ} وكإسناد الخشوع، والعمل والنصب، إلى الوجوه، في قوله تعالى: {وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ}.

ومعلوم أن الكذب والخطيئة مسندان في الحقيقة لصاحب الناصية، كما أن الخشوع والعمل، والنصب مسندات إلى أصحاب الوجوه.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الجنة، فيها كل مشتهى، وكل مستلذ، جاء مبسوطاً موضحاً أنواعه في آيات كثيرة، من كتاب الله، وجاء محمد أيضاً إجمالاً شاملاً لكل شيء من النعيم. أما إجمال ذلك ففي قوله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وأما بسط ذلك وتفصيله، فقد بين القرآن، أن من ذلك النعيم المذكور في الآية، المشارب، والمآكل والمناكح، والفرش والسرر، والأواني، وأنواع الحلبي والملابس والخدم إلى غير ذلك، وسنذكر بعض الآيات الدالة على كل شيء من ذلك.

أما المآكل فقد قال تعالى: {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ}، وقال: {وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ} وقال تعالى: {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} وقال تعالى: {كَلِمًا رُّزُقُوا مِنْهَا مِنْ تَمَرَةٍ رُّزُقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}. إلى غير ذلك من الآيات.

أما المشارب، فقد قال تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}. وقال تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سبَيْلَسِيلاً}، وقوله تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ كَأْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينَةٍ يَصَدَّغُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ}. وقال تعالى: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينَةٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِ لَآ فِيهَا عَؤْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ}. وقال تعالى: {فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّم يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِ لَآ لِيَتَمَثَّرَ} وقال تعالى {كَلُوا وَشَرِبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الملابس والأواني والحلي، فقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة النحل.

وأما المناكح فقد قدمنا بعض الآيات الدالة عليها قريباً.

وهي كثيرة كقوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا أَرْوَاحٌ مُّطَهَّرَةٌ}. ويكفي ما قدمنا من ذلك قريباً.

وأما ما يتكئون عليه من الفرش والسرر ونحو ذلك، ففي آيات كثيرة كقوله تعالى: {مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}. وقوله تعالى: {هُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ} وقوله تعالى: {عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مَّتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ}. والسرر الموضوعية هي المنسوجة بقضبان الذهب. وقوله تعالى {إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَّقِلِينَ}. وقوله تعالى: {فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ}. وقوله تعالى: {مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيُّ حِسَانٍ} إلى غير ذلك من الآيات، وأما خدمهم فقد قال تعالى في ذلك: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}. وقال تعالى في سورة الإنسان في صفة هؤلاء الغلمان: {إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلَا مَنُّورًا}، وذكر نعيم أهل الجنة بأبلغ صيغة في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}.

والآيات الدالة على أنواع نعيم الجنة وحسنها وكمالها كالظلال والعيون والأنهار وغير ذلك كثيرة جداً ولنكتف منها بما ذكرنا. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، قد قدمنا الآيات الموضحة، لأن خلودهم المذكور لا انقطاع له ألبتة كقوله تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُودٍ} أي غير مقطوع، وقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَّعَادٍ} وقوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ}. قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. قد قدمنا الكلام على هذه الآية الكريمة، ونحوها من الآيات الدالة على أن العمل سبب لدخول الجنة كقوله تعالى: {يُؤْتُونَكَ أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وقوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي يُنْفِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} وقوله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وبينا أقرب أوجه الجمع بين هذه الآيات الكريمة وما بمعناها، مع وقوله صلى الله عليه وسلم «لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وذكرنا في ذلك أن العمل الذي بينت الآيات كونه سبب دخول الجنة هو العمل الذي تقبله الله برحمة منه وفضل. وأن العمل الذي لا يدخل الجنة هو الذي لم يتقبله الله.

والله يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}. قوله تعالى: {وَتَادُوا
يَمْلِكُ لِيُقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ مَكْتُوبِينَ}. اللام في قوله
{لِيُقْضَ} لام الدعاء.

والظاهر أن المعنى، أن مرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار، أن
يدعو الله لهم بالموت.

والدليل على ذلك أمران:

الأول: أنهم لو أرادوا دعاء الله بأنفسهم أن يميتهم لما نادوا يا
مالك، ولما خاطبوه في قولهم: {رَبُّكَ}.

والثاني: أن الله بين في سورة المؤمن أن أهل النار، يطلبون خزنة
النار، أن يدعو الله لهم ليخفف عنهم العذاب، وذلك في قوله
تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَلَيْنَا
يَوْمًا مِّنْ أَلْعَابِ}. وقوله {لِيُقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ} أي ليمتنا فنستريح
بالموت من العذاب.

ونظيره قوله تعالى: {فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَصَىٰ عَلَيْهِ} أي أماته.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ} دليل
على أنهم لا يجابون إلى الموت بل يموتون في النار معذبين إلى
غير نهاية.

وقد دل القرآن العظيم على أنهم لا يموتون فيها فيستريحوا
بالموت، ولا تغني هي عنهم، ولا يخفف عنهم عذابها، ولا يخرجون
منها.

أما كونهم لا يموتون فيها الذي دل عليه قوله هنا {قَالَ إِنَّكُمْ
مَّا كُنْتُمْ} فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {إِنَّهُ مَن
يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ}، وقوله
تعالى: {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَىٰ}. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ
عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا}. وقوله تعالى: {وَيَأْتِيهِ لَمَوْتُ مِّن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا
هُوَ بِمَيِّتٍ}.

وأما كون النار لا تغني عنهم، فقد بينه تعالى بقوله: {كُلَّمَا حَبَسْتُ
زِدْتَاهُمْ سَعِيرًا}، فمن يدعي أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه
بهذه الآية الكريمة.

وأما كون العذاب لا يخفف عنه فقد دلت عليه آيات كثيرة جداً
كقوله: {وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا}. وقوله تعالى: {فَلَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}، وقوله تعالى: {فَلَنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا}،
وقوله تعالى: {لَا يُقَفَّرُ عَنْهُمْ}. وقوله: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}
وقوله تعالى: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} على الأصح في الأخيرين.

وأما كونهم لا يخرجون منها فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في البقرة: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} وقوله تعالى في المائدة: {يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}، وقوله تعالى في الحج: {كَلِمًا أَرَاؤُا أَن يُخْرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا}، وقوله تعالى في السجدة: {كَلِمًا أَرَاؤُا أَن يُخْرَجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا}، وقوله تعالى في الجاثية: {وَلَيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا هذا المبحث إيضاحاً شافياً في كتابنا «دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} وفي سورة النبا في الكلام على قوله تعالى: {لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا} وسنوضحه أيضاً إن شاء الله، في هذا الكتاب المبارك في الكلام على آية النبا المذكورة، ونوضح هناك إن شاء الله إزالة إشكال يورده الملحدون على الآيات التي فيها إيضاح هذا المبحث. قوله تعالى: {لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرهُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى: {كَبُرَ عَلَيَّ الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}. قوله تعالى: {بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: {سَنُكْتَبُ سَهَدَتُهُمْ يُسْأَلُونَ}، وأكثرنا من الآيات الموضحة لذلك في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {كَلَّا سَيَكْتُبُ مَا يَقُولُ}.

{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ قَاتًا أَوَّلَ الْعَبِيدِ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرَهُمْ يَخوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ * وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قَاتِي يُوَفِّقُونَ * وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * وَطَفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}

قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ قَاتًا أَوَّلَ الْعَبِيدِ}.
 اختلف العلماء في معنى {إِنْ} في هذه الآية.
 فقالت جماعة من أهل العلم إنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا إنها شرطية، اختلفوا في المراد بقوله: فأنا أول العابدين.
 فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لذلك الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله على فرضي أن له ولداً.
 وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون
 له ولد وقالت جماعة آخرون: إن لفظة {إن} في الآية نافية.
 والمعنى ما كان لله ولد، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله:
 {قَاتَا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ} ثلاثة أوجه الأول وهو أقربها: أن المعنى ما
 كان لله ولد فأنا أول العابدين لله، المنزهين له عن الولد، وعن كل
 ما لا يليق بكماله، وجلاله.
 والثاني أن معنى قوله {قَاتَا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ}: أي الأنفين
 المستنكفين من ذلك يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي
 هو ادعاء الولد له.

والعرب تقول: عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر
 على القياس، وعابد أيضاً سماعاً، إذا اشتدت أنفته واستنكافه
 وغضبه، ومنه قول الفرزدق: أولئك قومي إن هجوني هجوتهم
 وأعد أن أهجو كلياً بدارم

فقوله: وأعبد يعني أنف وأستنكف.
 ومنه أيضاً قول الآخر: متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد
 عليه لا محالة ظالماً

وفي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه المشهورة: أنه جيء
 بامرأة من جهينة تزوجت، فولدت لسته أشهر، فبعث بها عثمان
 لترجم، اعتقاداً منه أنها كانت حاملاً قبل العقد لولادتها قبل تسعة
 أشهر، فقال له علي رضي الله عنهما: إن الله يقول: {وَحَمْلُهُ
 وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}، ويقول جل وعلا: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}
 فلم يبق عن الفصال من المدة إلا ستة أشهر.

فما عبد عثمان رضي الله عنه، أن بعث إليها، لترد ولا ترجم.
 ومحل الشاهد من القصة، فوالله: (ما عبد عثمان) أي ما أنف ولا
 استنكف من الرجوع إلى الحق.
 الوجه الثالث: أن المعنى {قَاتَا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ} أي الجاحدين
 النافين أن يكون لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.
 قال مقيدة عفا الله عنه وغفر له:

الذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة: أنه يتعين المصير إلى
 القول بأن إن نافية، وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له
 معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن، وإن قال به
 جماعة من أجلاء العلماء.

وإنما اخترنا أن {ءان} هي النافية لا الشرطية، وقلنا إن المصير
 إلى ذلك متعين في نظرنا لأربعة أمور:

الأول: إن هذا القول جار على الأسلوب العربي، جرياناً واضحاً، لا إشكال فيه، فكون إن كان بمعنى ما كان كثير في القرآن، وفي كلام العرب كقوله تعالى: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَجِدَةً} أي ما كانت إلا صيحة واحدة.

فقولك مثلاً معنى الآية الكريمة: ما كان لله ولد فأنا أول العابدين، الخاضعين للعظيم الأعظم، المنزه عن الولد أو الأنفين المستنكفين، من أن يوصف ربنا بما لا يليق بكماله وجلاله، من نسبة الولد إليه، أو الجاحدين النافين، أن يكون لربنا ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً لا إشكال فيه، لأنه جار على اللغة العربية، التي نزل بها القرآن، دال على تنزيه الله، تنزيهاً تاماً عن الولد، من غير إيهام ألبتة لخلاف ذلك.

الأمر الثاني: أن تنزيه الله عن الولد، بالعبارات التي لا إيهام فيها، هو الذي جاءت به الآيات الكثيرة، في القرآن كما قدمنا إيضاحه، في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَيُنذِرَ لَّذِينَ قَالَُوا لِيَحْدِ اللَّهُ وَلَدًا}. وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {وَقَالُوا لِيَحْدِ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} والآيات الكثيرة التي ذكرناها في ذلك تبين أن (إن) نافية.

فالنفي الصريح الذي لا نزاع فيه يبين أن المراد في محل النزاع النفي الصريح.

وخير ما يفسر به القرآن القرآن فكون المعبر في الآية: وما كان للرحمن ولد بصيغة النفي الصريح مطابق لقوله تعالى في سورة بني إسرائيل {وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ لِيَذِيَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}. وقوله تعالى في أول الفرقان {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}. وقوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ}. وقوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} وقوله تعالى {أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وأما على القول بأن إن شرطية وأن قوله تعالى: {فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ} جزاء لذلك الشرط فإن ذلك لا نظير له ألبتة في كتاب الله، ولا توجد فيه آية تدل على مثل هذا المعنى.

الأمر الثالث: هو أن القول بأن (إن) شرطية لا يمكن أن يصح له معنى في اللغة العربية، إلا معنى محذور، لا يجوز القول به بحال، وكتاب الله جل وعلا، يجب تنزيهه عن حمله على معان محذورة لا يجوز القول بها.

وإيضاح هذا أنه على القول بأن (إن) شرطية، وقوله: {فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ} جزاء الشرط لا معنى لصدقه ألبتة إلا بصحة الربط بين الشرط والجزاء.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن مدار الصدق والكذب في الشرطية المتصلة، منصب على صحة الربط بين مقدمها الذي هو الشرط وتاليها الذي هو الجزاء، والبرهان القاطع على صحة هذا، هو كون الشرطية المتصلة، تكون في غاية الصدق مع كذب طرفيها معاً، أو أحدهما لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها، فمثال كذبهما معاً مع صدقها قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} فهذه قضية في غاية الصدق كما ترى، مع أنها لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها كان كل واحد من طرفيها، قضية كاذبة بلا شك، ونعني بأداة الربط لفظة لو من الطرف الأول، واللام من الطرف الثاني، فإنهما لو أزيلا وحذفا صار الطرف الأول كان فيهما آلهة إلا الله، وهذه قضية في منتهى الكذب، وصار الطرف الثاني فسدتا أي السماوات والأرض، وهذه قضية في غاية الكذب كما ترى. فاتضح بهذا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين الطرفين وعدم صحته.

فإن كان الربط صحيحاً فهي صادقة، ولو كذب طرفاها أو أحدهما عند إزالة الربط.

وإن كان الربط بينهما كاذباً كانت كاذبة كما لو قلت: لو كان هذا إنساناً لكان حجراً، فكذب الربط بينهما وكذب القضية بسببه كلاهما واضح.

وأمثلة صدق الشرطية مع كذب طرفيها كثيرة جداً كالأية التي ذكرنا، وكقولك لو كان الإنسان حجراً لكان جماداً، ولو كان الفرس ياقوتاً لكان حجراً، فكل هذه القضايا ونحوها صادقة مع كذب طرفيها لو أزيلت أداة الربط.

ومثال صدقها مع كذب أحدهما، قولك لو كان زيد في السماء ما نجا من الموت فإنها شرطية صادقة لصدق الربط بين طرفيها، مع أنها كاذبة أحد الطرفين دون الآخر، لأن عدم النجاة من الموت صدق، وكون زيد في السماء كذب، هكذا مثل بهذا المثال البناني، وفيه عندي أن هذه الشرطية التي مثل بها اتفاقية لا لزومية، ولا دخل للاتفاقيات في هذا المبحث.

والمثال الصحيح: لو كان الإنسان حجراً لكان جسماً. واعلم أن قوماً زعموا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات منصب على خصوص التالي الذي هو الجزاء، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك.

وزعموا أن هذا المعنى هو المراد عند أهل اللسان العربي. والتحقيق الأول.

ولم يقل أحد ألبتة بقول ثالث في مدار الصدق والكذب في الشرطيات.

فإذا حققت هذا، فاعلم أن الآية الكريمة، على القول بأنها جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها ألبتة بحال على واحد من القولين اللذين لا ثالث لهما إلا على وجه محذور لا يصح القول به بحال.

وإيضاح ذلك أنه على القول الأخير، أن مصب الصدق والكذب، في الشرطيات إنما هو التالي الذي هو الجزاء، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك.

فمعنى الآية عليه باطل بل هو كفر. لأن معناه أن كونه أول العابدين يشترط فيه أن يكون للرحمن ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. لأن مفهوم الشرط أنه إن لم يكن له ولد، لم يكن أول العابدين، وفساد هذا المعنى كما ترى.

وأما على القول الأول الذي هو الصحيح أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين طرفي الشرطية.

فإنه على القول بأن الآية الكريمة جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها ألبتة أيضاً، إلا على وجه محذور لا يجوز المصير إليه بحال، لأن كون المعبود ذا ولد، واستحقاقه هو، أو ولده العبادة، لا يصح الربط بينهما ألبتة إلا على معنى هو كفر بالله، لأن المستحق للعبادة لا يعقل بحال أن يكون ولداً أو والداً. وبه تعلم أن الشرط المزعوم في قوله {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} إنما يعلق به محال لاستحالة كون الرحمن ذا ولد. ومعلوم أن المحال لا يعلق عليه إلا المحال.

فتعليق عبادة الله التي هي أصل الدين على كونه ذا ولد ظهور فسادها كما ترى، وإنما تصدق الشرطية في مثل هذا لو كان المعلق عليه مستحيلاً، فادعاء أن (إن) في الآية شرطية مثل ما لو قيل: لو كان معه آلهة لكنت أول العابدين له، وهذا لا يصدق بحال، لأن واحداً من آلهة متعددة، لا يمكن أن يعبد، فالربط بين طرفيها مثل هذه القضية لا يصح بحال.

وبتضح لك ذلك بمعنى قوله: {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}.

فإن قوله إذا: أي لو كان معه غيره من الآلهة، لذهب كل واحد منهم بما خلق واستقل به، وغالب بعضهم بعضاً ولم ينتظم للسماوات والأرض نظام ولفسيد كل شيء.

كما قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، وقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آِلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} على الصحيح الذي هو الحق من التفسيرين.

ومعنى ابتغائهم إليه تعالى سبيلاً هو طلبهم طريقاً إلى مغالبتة كما يفعله بعض الملوك مع بعضهم.

والحاصل: أن الشرط إن علق به مستحيل فلا يمكن أن يصح الربط بينه وبين الجزاء، إلا إذا كان الجزاء مستحيلاً أيضاً لأن الشرط المستحيل لا يمكن أن يوجد به إلا الجزاء المستحيل. أما كون الشرط مستحيلاً والجزاء هو أساس الدين وعماد الأمر. فهذا مما لا يصح بحال.

ومن ذهب إليه من أهل العلم والدين لا شك في غلظه. ولا شك في أن كل شرطية صدقت مع بطلان مقدمها الذي هو الشرط وصحة تاليها الذي هو الجزاء لا يصح التمثيل بها لهذه الآية بوجه من الوجوه، وأن ما ظنه الفخر الرازي من صحة التمثيل لها بذلك غلط فاحش منه بلا شك، وإيضاح ذلك أن كل شرطية كاذبة الشرط صادقة الجزاء عند إزالة الربط لا بد أن يكون موجب ذلك فيها أحد أمرين لا ثالث لهما ألبتة.

وكلاهما يكون الصدق به من أجل أمر خاص لا يمكن وجود مثله في الآية الكريمة التي نحن بصددها، بل هو مناقض لمعنى الآية. والاستدلال بوجود أحد المتناقضين على وجود الآخر ضروري البطلان.

ونعني بأول الأمرين المذكورين كون الشرطية اتفافية لا لزومية أصلاً.

وبالثاني منهما كون الصدق المذكور، من أجل خصوص المادة. ومعلوم أن الصدق من أجل خصوص المادة لا عبرة به في العقليات، وأنه في حكم الكذب لعدم اضطراده، لأنه يصدق في مادة ويكذب في أخرى.

والمعتبر إنما هو الصدق اللازم المضطرد، الذي لا يختلف باختلاف المادة بحال.

ولا شك أن كل قضية شرطية محال لا يضطرد صدقها إلا إذا كان جزاؤها محالاً خاصة.

فإن وجدت قضية باطلة الشرط صحيحة الجزاء، فلا بد أن يكون ذلك، لكونها اتفافية أو لأجل خصوص المادة فقط.

فمثال وقوع ذلك لكونها اتفافية قولك: إن كان زيد في السماء لم ينج من الموت.

فالشرط الذي هو كونه في السماء باطل والجزاء الذي هو كونه لم ينج من الموت صحيح.

وإنما صح هذا لكون هذه الشرطية اتفافية. ومعلوم أن الاتفافية لا علاقة بين طرفيها أصلاً.

فلا يقتضي ثبوت أحدهما ولا نفيه ثبوت الآخر ولا نفيه، فلا ارتباط بين طرفيها في المعنى أصلاً وإنما هو في اللفظ فقط. فكون زيد في السماء لا علاقة له بعدم نجاته من الموت أصلاً، ولا ارتباط بينهما إلا في اللفظ.

فهو كقولك: إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل. وقد قدمنا إيضاح الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَىٰ لِهْدَىٰ قَلْبٍ يَهْتَوُوا إِذَا أَبَدًا} فراجعه. ومعلوم أن قوله {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} لم يقل أحد إنها شرطية اتفاقية ولم يدع أحد، أنها لا علاقة بين طرفيها أصلاً. ومثال وقوع ذلك لأجل خصوص المادة فقط، ما مثل به الفخر الرازي لهذه الآية الكريمة، مع عدم انتباهه لشدة المناقاة بين الآية الكريمة وبين ما مثل لها به، فإنه لما قال: إن الشرط الذي هو {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} باطل، والجزاء الذي هو: {فَأَتَا أُولَ الْعَبِيدِ} صحيح.

مثل لذلك بقوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم، يعني أن قوله: إن كان الإنسان حجراً شرط باطل فهو كقوله تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} فكون الإنسان حجراً وكون الرحمن ذا ولد كلاهما شرط باطل.

فلما صح الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم دل ذلك على أن الجزاء الصحيح في قوله: {فَأَتَا أُولَ الْعَبِيدِ} يصح ترتيبه على الشرط الباطل الذي هو {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}.

وهذا غلط فاحش جداً، وتسوية بين المتنافيين غاية المناقاة، لأن الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم إنما صدق لأجل خصوص المادة لا لمعنى اقتضاه الربط ألبتة.

وإيضاح ذلك أن النسبة بين الجسم والحجر، والنسبة بين الإنسان والجسم هي العموم والخصوص المطلق في كليهما. فالجسم أعم مطلقاً من الحجر، والحجر أخص مطلقاً من الجسم، كما أن الجسم أعم من الإنسان أيضاً عموماً مطلقاً، والإنسان أخص من الجسم أيضاً خصوصاً مطلقاً: فالجسم جنس قريب للحجر، وجنس بعيد للإنسان، وإن شئت قلت: جنس متوسط له.

وإيضاح ذلك أن تقول في التقسيم الأول:

الجسم إما نام أي يكبر تدريجاً أو غير نام، فغير النامي كالحجر مثلاً، ثم تقسم النامي تقسيماً ثانياً فتقول:

النامي إما حساس أو غير حساس، فغير الحساس منه كالنبات.

ثم تقسم الحساس تقسيماً ثالثاً فتقول:

الحساس إما ناطق أو غير ناطق، والناطق منه هو الإنسان. فاتضح أن كلاً من الإنسان والحجر يدخل في عموم الجسم، والحكم بالأعم على الأخص صادق في الإيجاب بلا نزاع ولا تفصيل. فقولك: الإنسان جسم صادق في كل تركيب، ولا يمكن أن يكذب بوجه، وذلك للملابسة الخاصة بينهما من كون الجسم جنساً للإنسان، وكون الإنسان فرداً من أفراد أنواع الجسم، فلأجل خصوص هذه الملابسة بينهما، كان الحكم على الإنسان بأنه جسم صادقاً، على كل حال، سواء كان الحكم بذلك، غير معلق على شيء أو كان معلقاً على باطل أو حق.

فالاستدلال يصدق هذا المثال على صدق الربط بين الشريط والجزء في قوله تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ} بطلانه كالشمس في رابعة النهار.

والعجب كل العجب من عاقل بقوله، لأن المثال المذكور إنما صدق لأن الإنسان يشمله مسمى الجسم.

أما من كان له ولد فالنسبة بينه وبين المعبود الحق هي تباين المقابلة، لأن المقابلة بين المعبود بحق وبين والد أو ولد هي المقابلة بين الشيء ومساوي نقيضه.

لأن من يولد أو يولد له لا يمكن أن يكون معبوداً بحق بحال. وإيضاح المنافاة بين الأمرين أنك لو قلت: الإنسان جسم لقلت الحق ولو قلت: المولود له معبود، أو المولود معبود. قلت الباطل الذي هو الكفر البواح.

ومما يوضح ما ذكرنا إجماع جميع النظائر على أنه إن كانت إحدى مقدمتي الدليل باطلة، وكانت النتيجة صحيحة أن ذلك لا يكون إلا لأجل خصوص المادة فقط، وأن ذلك الصدق لا عبرة به، فحكمه حكم الكذب ولا يعتبر إلا الصدق اللازم المضطرد في جميع الأحوال.

فلو قلت مثلاً: كل إنسان حجر، وكل حجر جسم، لانتج من الشكل الأول كل إنسان جسم، وهذه النتيجة في غاية الصدق كما ترى. مع أن المقدمة الصغرى، من الدليل التي هي قولك: كل إنسان حجر في غاية الكذب كما ترى.

وإنما صدقت النتيجة لخصوص المادة كما أوضحنا، ولولا ذلك لكانت كاذبة لأن النتيجة لازم الدليل والحق لا يكون لازماً للباطل فإن وقع شيء من ذلك فلخصوص المادة كما أوضحنا.

وبهذا التحقيق تعلم، أن الشرط الباطل لا يلزم وتطرد صحة ربطه إلا بجزء باطل مثله.

وما يظنه بعض أهل العلم من أن قوله تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَأَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ لِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِكَ } كقوله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ } فهو غلط فاحش والفرق بين معنى الآيتين شاسع فظن استوائها في المعنى باطل.

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ } معناه المقصود منه جار على الأسلوب العربي، لا إبهام فيه، لأننا أوضحنا سابقاً أن مدار صدق الشرطية على صحة الربط بين شرطها وجزئها، فهي صادقة ولو كذب طرفاها عند إزالة الربط كما تقدم إيضاحه قريباً. فربط قوله: { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ } بقوله { فَأَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ لِكِتَابٍ } ربط صحيح لا إشكال فيه، لأن الشاك في الأمر شأنه أن يسأل العالم به عنه كما لا يخفى، فهي قضية صادقة، مع أن شرطها وجزءها كلاهما باطل بانفراده، فهي كقوله { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } فهي شرطية صادقة لصحة الربط بين طرفيها، وإن كان الطرفان باطلين عند إزالة الربط. أما قوله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ } على القول بأن إن شرطية لا تمكن صحة الربط بين شرطها وجزئها. البتة، لأن الربط بين المعبود وبين كونه والداً أو ولداً لا يصح بحال. ولذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب » فنفي الطرفين مع أن الربط صحيح، ولا يمكن أن ينفي صلى الله عليه وسلم هو ولا غيره: ليس له ولد ولا أعبد. وعلى كل حال، فالربط بين الشك وسؤال الشاك للعالم أمر صحيح، بخلاف الربط بين العبادة وكون المعبود والداً أو ولداً فلا يصح.

فاتضح الفرق بين الآيتين وحديث: « لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب » رواه قتادة بن دعامة مرسلًا.

وينحوه قال بعض الصحابة. فمن بعدهم، ومعناه صحيح بلا شك. وما قاله الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة يستغربه كل من رآه لقبه وشناعته، ولم أعلم أحداً من الكفار في ما قص الله في كتابه عنهم يتجرأ على مثله أو قريب منه. وهذا مع عدم فهمه لما يقول وتناقض كلامه. وسنذكر هنا كلامه القبيح للتنبيه على شناعة غلظه، الديني واللغوي.

قال في الكشف ما نصه: { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ } وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها، فأنا أول من

يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه.

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه، وألا يترك للناطق به شبهة إلا مضمحلة، مع الترجمة عن نفسه بإثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها فهو في صورة إثبات الكيونة، والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها.

ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس باله.

فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقاً للكفر.

وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا، مع الدلالة على سماحة المذهب، وضلالة الذهاب إليه، والشهادة القاطعة بإحاطته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه.

ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له: «أما والله لأبدلك بالدنيا ناراً تلظى، لو عرفت أن ذلك إليك ما عبت إليها غيرك».

وقد تمحل الناس؟ أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه، فقيل: إن كان للرحمن. ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم لإضافة الولد. إليه اه الغرض من كلام الزمخشري.

وفي كلام هذا من الجهل بالله وشدة الجراءة عليه، والتخبط والتناقض في المعاني اللغوية ما الله عالم به.

ولا أظن أن ذلك يخفى على عاقل تأمله.

وسنبين لك ما يتضح به ذلك فإنه أولاً قال: إن كان للرحمن ولد وضح ذلك ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد له كما يعظم الرجل، ولد الملك لتعظيم أبيه.

فكلامه هذا لا يخفى بطلانه على عاقل، لأنه على فرض صحة نسبة الولد إليه، وقيام البرهان الصحيح والحجة الواضحة على أنه له ولد، فلا شك أن ذلك يقتضي، أن ذلك الولد لا يستحق العبادة، بحال، ولو كان في ذلك تعظيم لأبيه، لأن أباه مثله في عدم

استحقاق العبادة والكفر بعبادة كل والد وكل مولود شرط في إيمان كل موحد، فمن أي وجه يكون هذا الكلام صحيحاً. أما في اللغة العربية فلا يكون صحيحاً ألبتة. وما أظنه يصح في لغة من لغات العجم فالربط بين هذا الشرط وهذا الجزاء لا يصح بوجه. فمعنى الآية عليه لا يصح بوجه، لأن المعلق على المحال لا بد أن يكون محالاً مثله. والزمخشري في كلامه كلما أراد أن يأتي بمثال في الآية خارج عنها اضطر إلى أن لا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً. فضربه للآية المثل بقصة ابن جبير مع الحجاج، دليل واضح على ما ذكرنا وعلى تناقضه وتخبطه. فإنه قال فيها إن الحجاج قال لسعيد بن جبير: لأبدلك بالدنيا ناراً تُلظى. قال سعيد للحجاج: لو علمت إن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك. فهو يدل على أنه علق المحال على المحال، ولو كان غير متناقض للمعنى الذي مثل له به الزمخشري لقال: لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله. فقوله: لو علمت أن ذلك إليك في معنى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}، فنسبة الولد والشريك إليه معناهما في الاستحالة وادعاء النقص واحد. فلو كان سعيد يفهم الآية كفهمك الباطل لقال: لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله. ولكنه لم يقل هذا، لأنه ليس له معنى صحيح يجوز المصير إليه. وكذلك تمثيل الزمخشري للآية الكريمة في كلامه القبيح البشع الشنيع الذي يتقاصر عن التلفظ به كل كافر. فقد اضطر فيه أيضاً إلى ألا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً شنيعاً فإنه قال فيه: ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله. فانظر قول هذا الضال في ضربه المثل في معنى هذه الآية الكريمة بقول الضال الذي يسميه العدلي: إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب إلخ. فخلق الله للكفر في القلوب وتعذيبه الكفار على كفرهم، مستحيل عنده كاستحالة نسبة الولد لله، وهذا المستحيل في زعمه الباطل، إنما علق عليه أفضع أنواع المستحيل وهو زعمه

الخبيث أن الله إن كان خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه فهو شيطان لا إله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. فانظر رحمك الله فظاعة جهل هذا الإنسان بالله، وشدة تناقضه في المعنى العربي للآية.

لأنه جعل قوله: إن كان الله خالقاً للكفر ومعذباً عليه بمعنى «إن كان للرحمن ولد» في أن الشرط فيهما مستحيل، وجعل قوله في الله أنه شيطان لا إله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

كقول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أول العابدين. فاللازم لكلامه أن يقول: لو كان خالقاً للكفر فأنا أول العابدين له، ولا يخفى أن الادعاء على الله أنه شيطان مناقض لقوله: فأنا أول العابدين.

وقد أعرضت عن الإطالة في بيان بطلان كلامه، وشدة ضلاله، وتناقضه لشناعته ووضوح بطلانه، فهي عبارات مزخرفة، وشقشقة لا طائل تحتها، وهي تحمل في طياتها الكفر والجهل بالمعنى العربي للآية، والتناقض الواضح وكم من كلام مليء بزخرف القول، وهو عقيم لا فائدة فيه، ولا طائل تحته كما قيل: وإني وإني ثم إني وإني إذا انقطعت نعلي جعلت لها شسعا فظل يعمل أياماً رويته وشبه الماء بعد الجهد بالماء

واعلم أن الكلام على القدر، وخلق أفعال العباد، قدمنا منه جملاً كافية في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ}، ولا يخفى تصريح القرآن بأن الله خالق كل شيء، كما قال تعالى: {اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، وقال تعالى: {وَوَخَّلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا}. وقال: {هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ}، وقال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}. فالإيمان بالقدر خيره وشره الذي هو من عقائد المسلمين جعله الزمخشري يقتضي أن لله شيطان، سبحانه الله وتعالى عما يقوله الزمخشري علواً كبيراً.

وجزى الزمخشري بما هو أهله. الأمر الرابع: هو دلالة استقراء القرآن العظيم أن الله تعالى إذا أراد أن يفرض المستحيل ليبين الحق بفرضه علقه أولاً بالأداة التي تدل على عدم وجوده وهي لفظة لو، ولم يعلق عليه ألبتة إلا محالاً مثله، كقوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، وقوله تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}، وقوله تعالى: {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا لَاتَّخَذْتَهُ مِن لَّدُنَّا}.

وأما تعليق ذلك بأداة لا تقتضي عدم وجوده كلفظة إن مع كون
الجزاء غير مستحيل فليس معهوداً في القرآن.
ومما يوضح هذا المعنى الذي ذكرنا، المحاورة التي ذكرها جماعة
من المفسرين، التي وقعت بين النضر بن الحارث، والوليد بن
المغيرة، وهي وإن كانت أسانيداً غير قائمة، فإن معناها اللغوي
صحيح.

وهي أن النضر بن الحارث كان يقول:
الملائكة بنات الله فأنزل الله قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
وَلَدٌ}.

فقال النضر للوليد بن المغيرة: ألا ترى أنه قد صدقني؟
فقال الوليد: لا ما صدقك ولكنه يقول:
ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، أي الموحدين، من أهل مكة
المنزهين له عن الولد. فمحاورة هذين الكافرين، العالمين
بالعربية، مطابقة لما قررنا.

لأن النضر قال: إن معنى الآية على أن إن شرطية مطابق لما
يعتقده الكفار من نسبة الولد إلى الله، وهو معنى محذور وأن
الوليد قال: إِنَّ (إِنْ) نافية، وأن معنى الآية على ذلك هو مخالفة
الكفار وتنزيه الله عن الولد.

وبجميع ما ذكرنا يتضح أن إن في الآية الكريمة نافية.
وذلك مروى عن ابن عباس والحسن والسدي وقتادة وابن زيد
وزهير بن محمد وغيرهم.

تنبيه

اعلم أن ما قاله ابن جرير وغير واحد من أن القول بأن إن نافية
يلزمه إيهام المحذور الذي لا يجوز في حق الله.
قالوا: لأنه إن كان المعنى ما كان لله ولد فإنه لا يدل على نفي
الولد، إلا في الماضي، فللكفار أن يقولوا إذا صدقت لم يكن له في
الماضي ولد. ولكن الولد طراً عليه، بعد ذلك لما صاهر الجن،
وولدت له بناته التي هي الملائكة.

وإن هذا المحذور يمنع من الحمل على النفي لا شك في عدم
صحته لدلالة الآيات القرآنية بكثرة على أن هذا الإيهام لا أثر له ولو
كان له أثر لما كان الله يمدح نفسه بالثناء عليه بلفظة كان إلدالة
على خصوص الزمن الماضي في نحو قوله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا}، {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}، {وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا
رَحِيمًا}، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
كَبِيرًا} إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب حصرها.
فإن معنى كل تلك الآيات أنه كان ولم يزل.

فلو كان الكفار يقولون ذلك الذي زعموه الذي هو قولهم: صدقت ما كان له ولد في الماضي ولكنه طراً له لقالوا مثله في الآيات التي ذكرنا.

كأن يقولوا {كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} في الماضي ولكنه طراً عليه عدم ذلك وهكذا في جميع الآيات المذكورة ونحوها. وأيضاً فإن المحذور الذي زعموه لم يمنع من إطلاق نفي الكون الماضي في قوله تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}، وقوله {وَمَا كُنْتُمْ تُنْجَدُونَ} وقوله {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي لُقْرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

ومن أوضحها في محل النزاع قوله تعالى {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}. ولم يمنع من نفي القرآن للولد في الزمن الماضي في قوله تعالى {مَا تَتَّخِذُ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ} فإن الكفار لم يقولوا يوماً ما: صدقت ما اتخذ في الماضي ولكنه طراً عليه اتخذه. وكذلك في قوله {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} وقوله {لَمْ يَلِدْ}، لأن لم تنقل المضارع إلى معنى الماضي.

والكفار لم يقولوا يوماً صدقت لم يتخذ ولداً في الماضي، ولكنه طراً عليه اتخذه ولم يقولوا لم يلد في الماضي، ولكنه ولد أخيراً. والحاصل أن الكفار لم يقروا أن الله منزه عن الولد لا في الماضي ولا في الحال، ولا في الاستقبال.

ومعلوم أن الولادة المزعومة حدث متحدد. وبذلك تعلم أنما زعموه من إيهام المحذور في كون إن في الآية نافية لا أساس له ولا معول عليه، وأن ما ادعوه من كونها شرطية ليس لها معنى في اللغة العربية إلا المعنى المحذور الذي لا يجوز في حق الله بحال. واعلم أن كلام الفخر الرازي في هذه الآية الكريمة الذي يقتضي إمكان صحة الربط بين طرفيها على أنها شرطية لا شك في غلطه فيه.

وأما إبطاله لقول من قال: إن المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين له والمكذبين لكم في ذلك، فهو إبطال صحيح، وكلامه فيه في غاية الحسن والدقة، وهو يقتضي إبطاله بنفسه، لجميع ما كان يقرره في الآية الكريمة. والحاصل أن كون معنى إن في الآية الكريمة هو النفي لا إشكال فيه، ولا محذور ولا إيهام، وأن الآيات القرآنية تشهد له لكثرة الآيات المطابقة لهذا المعنى في القرآن.

وأما كون معنى الآية الشرط والجزاء فلا يصح له معنى، غير محذور في اللغة، وليس له في كتاب الله نظير، لإجماع أهل اللسان العربي على اختلاف المعنى في التعليق بأن، والتعليق بلو.

لأن التعليق بلو يدل على عدم الشرط، وعدم الشرط استلزم عدم المشروط بخلاف إن.

فالتعليق بها يدل على الشك في وجود الشرط بلا نزاع. وما خرج عن ذلك من التعليق بها مع العلم بوجود الشرط أو العلم بنفيه، فلاسباب آخر، وأدلة خارجة، ولا يجوز حملها على أحد الأمرين المذكورين، إلا بدليل منفصل كما أوضحناه، في غير هذا الموضوع.

تنبيه
اعلم أن ما ذكرنا من أن لو تقتضي عدم وجود الشرط، وأن إن تقتضي الشك فيه، لا يرد عليه قوله تعالى: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ}. كما أشرنا له قريباً.

لأن التحقيق أن الخطاب في قوله: (إن كنت في شك) خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به من يمكن أن يشك في ذلك من أمته.

وقد قدمنا في بيورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}. دلالة القرآن الصريحة على أنه صلى الله عليه وسلم يتوجه إليه الخطاب من الله، والمراد به التشريع لأمته، ولا يراد هو صلى الله عليه وسلم ألبتة بذلك الخطاب.

وقد هنا هناك أن من أصرح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى {وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَا بَيَّغَنَّا عِنْدَكَ لِكِبَرٍ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ}، فالتحقيق أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته لا هو نفسه، لأنه هو المشرع لهم بأمر الله. وإيضاح ذلك أو معنى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ لِكِبَرٍ} أي إن يبلغ عندك الكبر يا نبي الله والداك أو أحدهما فلا تقل لهما أف. ومعلوم أن أباه مات وهو حمل، وأمه ماتت وهو في صباه فلا يمكن أن يكون المراد: إن يبلغ الكبر عندك هما أو أحدهما والواقع أنهما قد ماتا قبل ذلك بأزمان.

وبذلك يتحقق أن المراد بالخطاب غيره من أمته الذي يمكن إدراك والديه أو أحدهما الكبر عنده.

وقد قدمنا أن مثل هذا أسلوب عربي معروف وأوردنا شاهداً لذلك رجز سهل بن مالك الفزاري في قوله:

يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعني واسمعي يا جاره

وقد بسطنا القصة هناك، وبيننا أن قول من قال: إن الخطاب في قوله تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ لِكِبَرٍ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا}: لكل من

يصح خطابه من أمته، صلى الله عليه وسلم لا له هو نفسه، باطل
بدليل قوله تعالى بعده في سياق الآيات: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنْ لِحْكَمَةٍ}.

والحاصل أن آية: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ} لا ينقص
بها الضابط الذي ذكرنا لأنها كقوله: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
{لَنْ أَسْرِكَ لِيخْبَطَنَّ عَمَلُكَ} {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ} {وَلَا
تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَفِقِينَ} {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} إلى
غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أنه هو صلى الله عليه وسلم، لا يفعل شيئاً من ذلك ألبتة،
ولكنه يؤمر وينهي ليشرع لأمته على لسانه.
وبذلك تعلم اطراد الضابط الذي ذكرنا في لفظة لو، ولفظة إن،
وأنه لا ينتقض بهذه الآية.

هذا ما ظهر لنا في هذه الآية الكريمة، ولا شك أنه لا محذور فيه ولا
غرر ولا إيهام، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}. قد قدمنا معنى
لفظة سبحان، وما تدل عليه من تنزيه الله عن كل ما لا يليق
بكماله وجلاله وإعراب لفظة سبحان مع بعض الشواهد العربية في
أول سورة بني إسرائيل.

وقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}. نزه نفسه تنزيهاً تاماً
عما يصفونه به من نسبة الولد إليه مبيناً أن رب السماوات
والأرض، ورب العرش، جدير بالتنزيه عن الولد، وعن كل ما لا يليق
بكماله وجلاله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه لما ذكر وصف الكفار له،
بما لا يليق به، نزه نفسه عن ذلك، معلماً خلقه في كتابه، أن
ينزهوه عن كل ما لا يليق به، جاء مثله موضحاً في آيات كثيرة
كقوله تعالى: {مَا تَجِدَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ} إلى قوله تعالى: {سُبْحَانَ
اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} {لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ} {وَاللَّهِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}
وقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا إِلَهِي لَأَبْتَعُوا إِلَيَّ
ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} {وَاللَّهُ لَعَلَّفَ كَبِيرًا} وقوله
تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}. وقوله تعالى: {سُبْحَانَ اللَّهِ لَوْ كَانَ لَهُ
وَمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} إلى غير ذلك
من الآيات. قوله تعالى: {قَدَرَهُمْ خَوْصُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوْعَدُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة
الحجر في الكلام على قوله تعالى: {دَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ
الْأَمَلُ}. قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ
إِلَهُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الأنعام في

الكلام على قوله تعالى: { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ }. قوله تعالى: { وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ }.
 قد بينا الآيات الموضحة في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ }.
 وفي الأعراف في الكلام على قوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِيِّهَا إِلَّا هُوَ } وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: { وَلَا يُفَعِّلُ مِنْهَا شَفَاعَةً }. وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قَاتِي يُؤَفِّكُونَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة، في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا لَفُرْعَانٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ }. قوله تعالى: { وَقِيلَ لِرَبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ }. قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي (وقيله) بفتح اللام وضم الهاء، وقرأه عاصم وحمزة: (وقيله) بكسر اللام والهاء. قال بعض العلماء إعرابه بأنه عطف محل على الساعة لأن قوله تعالى: { وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } مصدر مضاف إلى مفعوله. فلفظ الساعة مجرور لفظاً بالإضافة، منصوب محلاً بالمفعولية، وما كان كذلك جاز في تابعه النصب نظراً إلى المحل، والخفض نظراً إلى اللفظ، كما قال في الخلاصة: وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن

وقال في نظيره في الوصف: واخفض أو نصب تابع الذي انخفض كمتبغى جاه ومالا من نهض

وقال بعضهم: هو معطوف على { سِرَّهُمْ }.
 وعليه فالمعنى: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، وقيله يا رب الآية.

وقال بعضهم: هو منصوب على أنه مفعول مطلق.
 أي، وقال: قيله وهو بمعنى قوله إلا أن القاف لما كسرت، أبدلت الواو ياء لمجانسة الكسرة.

قالوا: ونظير هذا الإعراب قول كعب بن زهير: تمشي الوشاة جنابيهما وقيلهم إنك يا بن أبي سلمى لمقتول

أي ويقولون: قيلهم.

وقال بعضهم: هو منصوب بيعلم محذوفة لأن العطف الذي ذكرنا على قوله: سرهم، والعطف على الساعة يقال فيه إنه يقتضي

الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يصلح لكونه اعتراضاً، وتقدير الناصب إذا دل المقام عليه لا إشكال فيه. كما قال في الخلاصة: ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزماً

وأما على قراءة الخفض، فهو معطوف على الساعة، أي وعنده علم الساعة، وعلم قبيله يا رب. واختار الزمخشري أنه مخفوض بالقسم، ولا يخفى بعده كما نبه عليه أبو حيان.

والتحقيق أن الضمير في قبيله، للنبي صلى الله عليه وسلم. والدليل على ذلك، أن قوله بعد: { وَطَفَّحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ } خطاب له صلى الله عليه وسلم بلا نزاع، فادعاء أن الضمير في قبيله لعيسى لا دليل عليه ولا وجه له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من شكواه صلى الله عليه وسلم، إلى ربه عدم إيمان قومه، جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: { وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا لِقْرَاءَانَ مَهْجُورًا }، وذكر مثله عن موسى في قوله تعالى في الدخان: { قَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ }، وعن نوح قوله تعالى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا قَلِمٌ يَرْدُهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا } إلى آخر الآيات. قوله تعالى: { وَطَفَّحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }، قرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: (فسوف يعلمون) بياء الغيبة، وقرأ نافع وابن عامر (فسوف تعلمون) بتاء الخطاب.

وهذه الآية الكريمة تضمنت، ثلاثة أمور:

الأول: أمره صلى الله عليه وسلم بالصفح عن الكفار.

والثاني: أن يقول لهم سلام.

والثالث: تهديد الكفار، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب النار.

وهذه الأمور الثلاثة جاءت موضحة في غير هذا الموضع:

كقوله تعالى في الأول { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ وَطَفَّحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ }، وقوله تعالى { وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَّفِقِينَ وَدَعَا أَذَاهُمْ }.

والصفح الإعراض عن المؤاخذة بالذنب.

قال بعضهم: وهو أبلغ من العفو.

قالوا: لأن الصفح أصله مشتق من صفحة العنق، فكأنه يولي

المذنب بصفحة عنقه معرضاً عن عتابه فما فوقه.

وأما الأمر الثاني، فقد بين تعالى أنه هو شأن عباده الطيبين.

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم سيدهم كما قال تعالى {وَعِبَادُ
الَّذِينَ يَدِينُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
قَالُوا سَلَامًا}، وقال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ
وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَكُلُّكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}.
وقال عن إبراهيم إنه قال له أبوه: {لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَهَٰجُرَنِي
مَلِيًّا} قال له {سَلَّمَ عَلَيْكَ}.

ومعنى السلام في الآيات المذكورة، إخبارهم بسلامة الكفار من
أذاهم، ومن مجازاتهم لهم بالسوء، أي سلمتم منا لا نسا فحكم، ولا
نعاملكم بمثل ما تعاملوننا.

وأما الأمر الثالث الذي هو تهديد الكفار بأنهم سيعلمون الحقيقة قد
جاء موضحاً في آيات كتاب الله كقوله تعالى: {وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاهُ بَعْدَ
حِينٍ} وقوله تعالى: {لَكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} وقوله:
{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} وقوله تعالى: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} وقوله تعالى: {لَتَرَوُنَّ
لَجَحِيمَتَهُمُ} وقوله تعالى: {لَتَرَوُنَّ لَجَحِيمَتَهُمُ} وقوله تعالى: {وَقَطَّعَ عَنْهُمْ} وما
في معناه منسوخ بآيات السيف، وجماعات من المحققين يقولون
هو ليس بمنسوخ.

والقتال في المحل الذي يجب فيه القتال، والصفح عن الجهلة،
والإعراض عنهم، وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك،
والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان

{نَجْرٌ * وَكِتَابٌ لُّمِينٌ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ *
رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * وَرَأَيْتُمُ يَوْمَ تَأْتِي
السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا كَشِفْ
عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * إِنِّي لَهُمْ الْذَكَرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ
* ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّمَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
إِن كُنْتُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطِشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ * وَلَقَدْ
فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَوْأَىٰ إِلَىٰ عِبَادِ
اللَّهِ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ

سُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونَ * وَإِن لَّمْ
 تُوْمِنُوا لِي وَتَعْتَدُوا لِي * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِ مَحْجُومُونَ * فَاسْرِعْ
 بَعَادِي لِئَلَّا أَتَاكُمْ مَتَّبِعُونَ * وَآتُرِكَ لِيَخْرَرَهُوَ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مَّعْرُوفُونَ *
 كَمْ تَرَكَوْا مِن جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا
 فِيهَا فَكَاهِنِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
 أَلْسِمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ
 لَعْدَابِ لُمُيُنِينَ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ
 خَيْرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ لَعَلِمِينَ * وَعَآتَيْنَاهُم مِّنَ آيَاتِنَا مَا فِيهِ
 بَلَاءٌ مُّبِينٌ * إِن هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
 بِمُنشَرِينَ * فَأَنوَأ يَا أَبَاتِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ يَّبْعُ
 وَ لِذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
 وَلَكِن أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِن يَوْمَ لَفْضَلٍ مِّقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ
 لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَن مَّوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ
 إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * إِن شَجَرَةَ الزَّقُومِ * طَعَامٌ لِالْأِيمِ * كَالْمُهْلِ
 يَغْلَى فِي الْبُطُونِ * كَغَلَى لِحَمِيمٍ * حُدُوهُ وَغُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءٍ
 لِّجَحِيمٍ {

قوله تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبَرَّكَاتِ } . أبهم تعالى هذه الليلة
 المباركة هنا، ولكنه بين أنها هي ليلة القدر في قوله تعالى { إِنَّا
 أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } وبين كونها (مباركة) المذكورة هنا في
 قوله تعالى { لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ } إلى آخر السورة.
 فقوله { فِي لَيْلَةِ الْمُبَرَّكَاتِ } أي كثيرة البركات والخيرات.
 ولا شك أن ليلة هي خير من ألف شهر، إلى آخر الصفات التي
 وصفت بها، في سورة القدر كثيرة البركات، والخيرات جداً.
 وقد بين تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، التي أنزل
 فيها القرآن من شهر رمضان، في قوله تعالى { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي
 أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } .

فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره، لا
 شك في أنها دعوى باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح.
 ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل.

والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنهم من شعبان المخالفة
 لصريح القرآن لا أساس لها، ولا يصح سند شيء منها، كما جزم به
 ابن العربي وغير واحد من المحققين.

فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح، بلا
 مستند كتاب ولا سنة صحيحة. قوله تعالى: { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
 حَكِيمًا مَّرًّا مِّنْ عِنْدِنَا } . معنى قوله: يفرق، أي يفصل ويبين، ويكتب
 في الليلة المباركة، التي هي ليلة القدر، كل أمر حكيم، أي ذي

حكمة بالغة لأن كل ما يفعله الله، مشتمل على أنواع الحكم الباهرة:

وقال بعضهم: حكيم، أي محكم، ولا تغيير فيه، ولا تبديل. وكلا الأمرين حق لأن ما سبق في علم الله، لا يتغير ولا يتبدل، ولأن جميع أفعاله في غاية الحكمة. وهي في الاصطلاح وضع الأمور في مواضعها وإيقاعها في مواقعها.

وإيضاح معنى الآية أن الله تبارك وتعالى في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم، بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة، إلى ليلة القدر من السنة الجديدة. فتبين في ذلك الآجال والأرزاق والفقر والغنى، والخصب والجذب والصحة والمرض، والحروب والزلازل، وجميع ما يقع في تلك السنة كائناً ما كان.

قال الزمخشري في الكشاف: ومعنى يفرق: يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وأجالهم، وجميع أمورهم فيها، إلى الأخرى القابلة إلى أن قال: فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل، والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت اهـ محل الغرض منه بلفظه.

ومرادنا بيان معنى الآية، لا التزام صحة دفع النسخ المذكورة للملائكة المذكورين، لأننا لم نعلم له مستنداً. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، يدل أيضاً على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر فهو بيان قرآني آخر. وإيضاح ذلك أن معنى قوله {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة، من رزق وموت، وحياة وولادة. ومرض، وصحة وخصب وجذب، وغير ذلك من جميع أمور السنة. قال بعضهم: حتى إن الرجل لينكح ويتصرف في أمره ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى في تلك السنة.

وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر، فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}.

وقد قدمنا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: {قَطَنَّ أَنْ لَنْ تُقَدِرَ عَلَيْهِ} أن قدر يفتح الدال مخففاً يقدر ويقدر بالكسر والضم كيضرب وينصر قدراً بمعنى قدر تقديراً، وأن ثعلباً أنشد لذلك قول الشاعر:

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أروق السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

وبينا هناك، أن ذلك هو معنى ليلة القدر، لأن الله يقدر فيها وقائع السنة.

وبينا أن ذلك هو معنى قوله تعالى: { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } وأوضحنا هناك أن القدر بفتح الدال والقدر بسكونها هما ما يقدره الله من قضائه: ومنه قول هذبة بن الخشرم: ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

واعلم أن قول من قال: إنما سميت ليلة القدر لعظمتها وشرفها على غيرها من الليالي من قولهم: فلان ذو قدر أي ذو شرف ومكانة رفيعة لا ينافي القول الأول لاتصافها بالأمرين معاً، وصحة وصفها بكل منهما كما أوضحنا مثله مراراً. واختلف العلماء في إعراب قوله { أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا }، قال بعضهم: هو مصدر منكر في موضع الحال، أي أنزلناه في حال كوننا أمرين به.

وممن قال بهذا الأخفش.

وقال بعضهم: هو ما ناب عن المطلق من قوله (أنزلناه) وجعل (أمرًا) بمعنى: إنزالاً.

وممن قال به المبرد.

وقال بعضهم هو ما ناب عن المطلق من يفرق، فجعل (أمرًا) بمعنى فرقا أو فرق بمعنى أمرًا.

وممن قال بهذا الفراء والزجاج.

وقال بعضهم هو حال من (أمر) أي (يفرق فيها بين كل أمر حكيم). في حال كونه أمرًا من عندنا، وهذا الوجه جيد ظاهر، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهي متأخرة عنها لأن النكرة التي هي (أمر) وصفت بقوله (حكيم) كما لا يخفى.

وقال بعضهم (أمرًا) مفعول به لقوله (منذرين) وقيل غير ذلك.

واختار الزمخشري: أنه منصوب بالاختصاص، فقال: جعل كل أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ثم زاده جزالة وأكسبه فخامة، بأن

قال: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا من عندنا، كائنًا من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتديبنا وهذا الوجه أيضاً ممكن، والعلم عند الله

تعالى. قوله تعالى: { إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى

{ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا }. وفي سورة

فاطر في الكلام على قوله تعالى { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا }. قوله تعالى: { ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ

مَجْنُونٌ }. هذا الذي ادعوه على النبي صلى الله عليه وسلم افتراء،

من أنه معلم، يعنون أن هذا القرآن علمه إياه بشر، وأنه صلى الله عليه وسلم مجنون، قد بينا الآيات الموضحة لإبطاله. أما دعواهم أنه معلم فقد قدمنا الآيات الدالة على تلك الدعوى في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ تَعَلَّمُ أَتَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشِيرٌ} وفي سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَقَالَ لَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَاهُ وَأَعَاتَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ} إلى قوله {فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}. وبيننا الآيات الموضحة لافتراءهم وتعتهم في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {لِسَانَ لِدِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}. وفي الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسْطِيزُوا لِلْأُولَىٰ كَتَبَهَا}.

وأما دعواهم أنه مجنون، فقد قدمنا الآيات الموضحة لها. وإبطالها في سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ} قوله تعالى: {وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَوْ أُلِيَٰ إِلَىٰ عِبَادَ اللَّهِ}. الرسول الكريم هو موسى، والآيات الدالة على أن موسى هو الذي أرسل لفرعون وقومه كثيرة ومعروفة. وقوله: {أَوْ أُلِيَٰ إِلَىٰ} أي سلموا إلى عباد الله يعني بني إسرائيل، وأرسلوهم معي.

فقوله {عِبَادَ اللَّهِ} مفعول به لقوله: {أَلَيْسَ} وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن موسى طلب فرعون أن يسلم له بني إسرائيل ويرسلهم معه جاء موضحاً في آيات أخر، مصرح فيها بأن عباد الله هم بنو إسرائيل، كقوله تعالى في طه: {قَاتِلَاهُ فَقُولاً إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنِ إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ} وقوله تعالى في الشعراء: {قَاتِلَاهُ فِرْعَوْنَ فَقُولاً إِنَّا رَسُولُ رَبِّ لَعَلَّمِينَا أَرْسِلْ مَعَنَا بِنِ إِسْرَائِيلَ}.

والتحقيق أن أن في قوله {أَنَّ} هي المفسرة، لأن مجيء الرسول يتضمن معنى القول لا المخففة من الثقل، وأن قوله: {عِبَادَ اللَّهِ} مفعول به كما ذكرنا وكما أوضحته آية طه وآية الشعراء لا منادى مضاف. قوله تعالى: {وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}. قوله تعالى: {كَذَلِكَ وَأُورَثَهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ}. لم يبين هنا من هؤلاء القوم الذين أورثهم ما ذكره هنا، ولكنه بين في سورة الشعراء أنهم بنو إسرائيل وذلك في قوله

تعالى: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} كما تقدم في الترجمة، وفي الأعراف. قوله تعالى: {وَلَقَدْ تَحَنَّنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ لَعْنَابِ لُمُهِينٍ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ}. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه نجى بني إسرائيل من العذاب المهين الذي كان يعذبهم به فرعون وقومه، جاء موضحاً في آيات أخر، مصرح فيها بأنواع العذاب المذكور، كقوله تعالى في سورة البقرة {وَإِذْ تَحَنَّنَّا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ بِهِمْ لَعْنَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} إلى قوله {وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}. وقوله في الأعراف {وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ لَعْنَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ}. وقوله تعالى في المؤمن {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}. وقوله تعالى في إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اكْتُبُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ لَعْنَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ}. وقوله في الشعراء: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}.

فتعبيده إياهم من أنواع عذابه لهم، إلى غير ذلك من الآيات. وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة، من أن فرعون كان عالياً من المسرفين، أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في يونس: {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} وقوله تعالى في أول القصص {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} إلى غير ذلك من الآيات.

{ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ لِّحْمِيمٍ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ لَعَزِيزٌ لِّكْرِيمٍ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بَحُورٍ عَيْنٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يُذَوِّقُونَ فِيهَا لَمَمَاتٍ إِلَّا لَمْوَاتٍ الْأُولَىٰ وَوَقَّهْمُ عَذَابَ لِّجِيمٍ * فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ لِقَاؤُ الْعَظِيمِ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ}

قوله تعالى: {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ لِّحْمِيمٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ لِّحْمِيمٌ}.

وقد تركنا إحالات متعددة بينا فيها بعض آيات سورة الدخان هذه خشية الإطالة بكثرة الإحالة. قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة مريم في الكلام على قوله: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ}.

تفسير سورة الجاثية

{ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَخُتِلِفَ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَبْلُوهَا عَلَيْكَ لِحَقِّ قَبَائِحِ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَقُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَان لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }

قوله تعالى: { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ خُتِلِفَ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } . ذكر جل وعلا، في هذه الآيات الكريمة، من أول سورة الجاثية ستة براهين، من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى.

الأول: منها خلقه السماوات والأرض.

الثاني: خلقه الناس.

الثالث: خلقه الدواب.

الرابع: اختلاف الليل والنهار.

الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه، وآياته.

فكانهم هم المختصون بها دون غيرهم.

ولذا قال: { لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ }، ثم قال: { آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }، ثم قال: { آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة، جاءت موضحة في آيات كثيرة جداً كما هو معلوم.

أما الأول منها وهو خلقه السماوات والأرض المذكور في قوله:

{ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى { أَقْلَمٌ يَنْطَلِقُ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقِيَامَةَ فِيهَا رُؤُوسَ } وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ * تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ }

وقوله تعالى: {أَقْلَمَ يَرَوُا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}. وقوله: {قُلِ أَنْظِرُوا مَا دَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَةُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}. وقوله: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}. وقوله: {وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} في الروم وشورى. وقوله: {لِيَذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} وقوله تعالى: {اللَّهُ لِيَذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}، وقوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} * وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَغَنَمَ لِمَهْدُونَ}. وقوله تعالى: {أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا} إلى قوله {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معروفة.

وأما الثاني منها: وهو خلقه الناس المذكور في قوله: {وَفِي خَلْقِكُمْ}، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى {وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}. وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُذُّوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ لِيَذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}. وقوله تعالى عن نبيه نوح: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}، وقوله تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثَ دَلِيقٍ أَلَلَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُصْرَفُونَ} وقوله {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الثالث منها: وهو خلقه الدواب المذكور في قوله: {وَمَا يَبْتُ مِن دَابَّةٍ} فقد جاء أيضاً موضحاً في آيات كثيرة أيضاً من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الشورى. {وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلِيُّ جَمْعُهُمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}. وقوله تعالى في البقرة: {وَمَا أَنْزَلَ إِلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ}. وقوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وقوله تعالى {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَخًا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا} والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الرابع منها: وهو اختلاف الليل والنهار المذكور في قوله: {وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ}، فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ لِفُلْكِ لِيَتَّجِرَ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} إلى قوله: {لَا يَتَّ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. وقوله تعالى في آل عمران: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلَفِ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}. وقوله تعالى في فصلت: {وَمِنَ آيَاتِهِ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}، وقوله تعالى: {وَأَيُّهُ لَهُمْ لَيْلٌ نَّسْلَخُ

مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}.
 وقوله تعالى: {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
 الْأَبْصَارِ}، وقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ
 سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَقْلًا
 تَسْمَعُونَ} * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ *
 وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ
 خُلِّفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَقْلًا تَعْقِلُونَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة
 معلومة.

وأما الخامس منها وهو: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به
 وإنبات الرزق فيها المذكور في قوله: {وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
 مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} فقد جاء موضحاً أيضاً في
 آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: {إِنَّ فِي خَلْقِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخُلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَفِي خَلْقِ
 لَيْلٍ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ
 الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} إلى قوله {لَا يَتَّخِذُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ}، وقوله تعالى:
 {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} {ثُمَّ سَفَقْنَا الْأَرْضَ سَفًّا} {فَأَنْبَتْنَا
 فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا} إلى قوله {مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِ لَكُمْ}.
 وإيضاح هذا البرهان باختصار أن قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ
 إِلَى طَعَامِهِ} أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر
 ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله، ويعيش به من خلق الماء
 الذي كان سبباً لنباته.

هل يقدر أحد غير الله أن يخلقه؟

الجواب: لا.

ثم هب أن الماء قد خلق بالفعل، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله
 إلى الأرض، على هذا الوجه الذي يحصل به النفع، من غير ضرر
 بإنزاله على الأرض رشاً صغيراً، حتى تروى به الأرض تدريجاً. من
 غير أن يحصل به هدم، ولا غرق كما قال تعالى: {فَتَرَى الْوَدْقَ
 يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ}.

الجواب: لا.

ثم هب أن الماء قد خلق فعلاً، وأنزل في الأرض، على ذلك الوجه
 الأتم الأكمل، هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض، ويخرج منها
 مسمار النبات؟

الجواب: لا.

ثم هب أن النبات خرج من الأرض، وانشقت عنه فهل يقدر أحد
 غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات؟

الجواب: لا.

ثم هب أن السنبل خرج من النبات فهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبه وينقله من طور إلى طور حتى يدرك ويكون صالحاً للغذاء والقوت؟

الجواب: لا.

وقد قال تعالى: { أَنْظُوا إِلَى تَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }، وكقوله تعالى: { وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَاً لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَأَجْنَّتِ الْقَافَا }، وقوله تعالى: { وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ لَمَيِّتَةٌ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ }، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

واعلم أن إطلاقه تعالى الرزق على الماء، في آية الجاثية هذه، قد أوضحنا وجهه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا }.

وأما السادس منها: وهو تصريف الرياح المذكور في قوله { وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ } فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات من كتاب الله كقوله في البقرة: { وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } وقوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيْحَ مُبَشِّرَاتٍ }، وقوله تعالى { وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ } إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه

اعلم أن هذه البراهين العظيمة المذكورة، في أول سورة الجاثية، هذه ثلاثة منها، من براهين البعث، التي يكثر في القرآن العظيم، الاستدلال بها على البعث، كثرة مستفيضة.

وقد أوضحناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة وسورة النحل وغيرهما، وأحلنا عليها مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك وسنعيد طرفاً منها هنا لأهميتها إن شاء الله تعالى. والأول من البراهين المذكورة هو خلق السماوات والأرض المذكور هنا في سورة الجاثية هذه { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ } لأن خلقه جل وعلا للسماوات والأرض، من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت لأن من خلق الأعظم الأكبر، لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر.

والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى: { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } أي ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر، وقوله تعالى: { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }، وقوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ لَمْوَاتٍ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيمٍ} وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ}. وقوله تعالى:
{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَهَارٍ فَسَمَكُهَا فَسَوَاهَا وَأَعْطَشَ
لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ رَحْوًا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا
وَمَرْعَاهَا وَجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَعْمَالِكُمْ}.

ونظير آية النزاعات هذه قوله تعالى في أول الصفات:
{وَ سَلِّفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنُ خَلَقْنَا}، لأن قوله: {أَمْ مَنُ
خَلَقْنَا} يشير به إلى خلق السماوات والأرض وما ذكر معهما
المذكور في قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشْرِقِ} إلى قوله {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}.

وأما الثاني من البراهين المذكورة: فهو خلقه تعالى للناس المرة
الأولى، لأن من ابتدع خلقهم على غير مثال سابق، لا شك في
قدرته على إعادة خلقهم، مرة أخرى كما لا يخفى.

والاستدلال بهذا البرهان على البعث كثير جداً في كتاب الله كقوله
تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ لِّبَعْثِ قَائِلَاتٍ خَلَقْتَكُمْ مِّنْ
تُرَابٍ} إلى آخر الآيات. وقوله تعالى: {وَوَضَعْنَا لَنَا مِنبَرًا وَنَبِيًّا
خَلَقَهُ قَالَ مَن يُّجِي لِعِظَمِ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} وقوله تعالى: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا
مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ
شَيْئًا فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ}.

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}.
وقوله تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}
وقوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْهَا النَّاسَ أَنَّا كُنَّا مُّعِينِينَ}
وقوله تعالى: {أَفَعَيَّبْنَا بِلِحْنِ أَوَّلِ بَلِّهِمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ
جَدِيدٍ} وقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ قُلُوبًا تَذَكَّرُونَ}
وقوله تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَيْنِ نُطْفَةً إِذَا
تُتَمَّنَّوْنَ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَىٰ} وقوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
يُتْرَكَ سُدًّا أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مِّنِي يُمْنًا كَانَتْ عَاقِبَةُ فَخَلَقَ
فَسَوَّيْنَاهُ لِمَا نَشَاءُ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ لَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ
يُجِيئَ لِمَا يَشَاءُ}. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ وَالزَّيْنُوتِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا
الْبَلَدُ الْأَمِينُ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} إلى قوله {فَمَا
يُكذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ} يعني أي شيء يحملك على التكذيب بالدين أي

بالبعث والجزاء، وقد علمت أني خلقتك الخلق الأول في أحسن
تقويم، وأنت تعلم أنه لا يخفى على عاقل أن من ابتدع الإيجاد
الأول لا شك في قدرته، على إعادته مرة أخرى إلى غير ذلك من
الآيات.

وأما البرهان الثالث منها: وهو إحياء الأرض بعد موتها المذكور في قوله تعالى في سورة الجاثية هذه: { وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا }، فإنه يكثر الاستدلال به أيضاً على البعث في القرآن العظيم، لأن من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الناس بعد موتهم، لأن الجميع أحياء بعد موت.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { وَمِن آيَاتِهِ أَنْزَلَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا لِمَاءً هُمَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الْأَرْضَ أَخْيَهَا لِمُحْيِي لِمَوْتِي إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } وقوله تعالى: { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا لِمَاءً هُمَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجْدِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي لِمَوْتِي وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } وقوله تعالى: { فَانظُرْ إِلَى آثِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي لِمَوْتِي وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } وقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَبَ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّتَهُ لَيْلِيًّا فَيَنْزِلْنَا بِهِ لِمَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ لِمَوْتِي لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }.

فقوله تعالى: { كَذَلِكَ نُخْرِجُ لِمَوْتِي } أي نبعثهم من قبورهم أحياء كما أخرجنا تلك الثمرات بعد عدمها، وأحيينا بإخراجها ذلك البلد الميت، وقوله تعالى: { يُخْرِجُ لِحَيٍّ مِنْ لِمَيِّتٍ وَيُخْرِجُ لِمَيِّتٍ مِنْ لِحَيٍّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ لِحَيٍّ مِنْ قُبُورِكُمْ أحياء بعد الموت. وقوله تعالى: { وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ لُخْرُوجٌ } إلي غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ }، أشار جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم إلى آيات هذا القرآن العظيم، وبين لنبيه أنه يتلوها عليه، متلبسة بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

وما ذكره جل وعلا في آية الجاثية هذه، ذكره في آيات أخر بلفظه كقوله تعالى في البقرة: { وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ الْبَاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ إِنَّ اللَّهَ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } وقوله تعالى في آل عمران: { وَأَمَّا لِذِي نَبِيٍّ نُبِصَتِ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا جَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا

لِلْعَالَمِينَ } وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { تِلْكَ } بمعنى هذه. ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله: { ذَلِكَ لِكِتَابٍ } بمعنى هذا الكتاب. كما حكاه البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، ومن شواهده قول خفاف بن ندبة السلمي:

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا

أقول له والرمح ياطر منته تأمل خفافاً إنني أنا ذالكا

يعني أنا هذا.

وقد أوضحنا هذا المبحث وذكرنا أوجهه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب) في أول سورة البقرة وقوله تعالى: {تَتْلُوهَا} أي نقرؤها عليك.

وأسند جل وعلا تلاوتها إلي نفسه لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغاً عنه جل وعلا.

ونظير ذلك قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَذَكِّرْ لَعَلَّهُمْ يَحْتَفُونَ}.

فقوله: فإذا قرأناه أي قرأه عليك الملك المرسل به، من قبلنا مبلغاً عنا، وسمعته منه، فاتبع قرآنه أي فاتبع قراءته وقرأه كما سمعته يقرؤه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ}.

وسمعه صلى الله عليه وسلم القرآن من الملك المبلغ عن الله كلام الله وفهمه له هو معنى تنزيله إياه على قلبه في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ لَبِّسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} وقوله تعالى في هذه الآية: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ} يعني آياته الشرعية الدينية.

واعلم أن لفظ الآية، يطلق في اللغة العربية إطلاقين، وفي القرآن العظيم إطلاقين أيضاً. أما إطلاقه في اللغة العربية.

فالأول منهما وهو المشهور في كلام العرب، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة، وهذا مستفيض في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان: توهمت آيات لها فعرفتها لسته أعوام وذا العام سابع

ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار في قوله بعده: رماد ككحل العين لآيا أبينه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

وأما الثاني منهما فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة، يقولون: جاء القوم بآيتهم أي بجماعتهم.

ومنه قول برج بن مسهر: خرجنا من النقبين لحي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقوله: بآياتنا يعني بجماعتنا.
وأما إطلاقه في القرآن العظيم:
فالأول منهما إطلاق الآية على الشرعية الدينية كآيات هذا القرآن
العظيم، ومنه قوله هنا: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَلُوهَا عَلَيْكَ لِحَقِّ}.
وأما الثاني منهما: فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية
كقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِتَلَفِ لَيْلٍ
وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}.
أما الآية الكونية القدرية فهي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة،
لأن الآيات الكونية علامات قاطعة، على أن خالقها هو الرب
المعبود وحده.

وأما الآية الشرعية الدينية، فقال بعض العلماء: إنها أيضاً من الآية
التي هي العلامة، لأن آيات هذا القرآن العظيم، علامات على صدق
من جاء بها، لما تضمنته من برهان الإعجاز، أو لأن فيها علامات
يعرف بها مبدأ الآيات ومنتهاها.
وقال بعض العلماء إنها من الآية بمعنى الجماعة، لتضمنها جملة
وجماعة من كلمات القرآن وحروفه.
واختار غير واحد أن أصل الآية أيبة يفتح الهمزة وفتح الياءين بعدها،
فاجتمع في الياءين موجباً لإعلال، لأن كلا منهما متحركة حركة
أصلية بعد فتح متصل، كما أشار له في الخلاصة بقوله:
من واو وياء بتحريك أصل ألفاً أبدل بعد فتح متصل

إن حرك التالي... إلخ.
والمعروف في علم التصريف، أنه إن اجتمع موجباً لإعلال في كلمة
واحدة فالأكثر في اللغة العربية تصحيح الأول منهما، وإعلال الثاني
بإبداله ألفاً كالهوى والنوى والظوى والشوى، وربما صحح الثاني
وأعل الأول كغاية، وراية، وآية على الأصح، من أقوال عديدة،
ومعلوم أن إعلالهما لا يصح، ولهذا أشار في الخلاصة بقوله: وإن
لحرفين ذا الإعلال استحق صحح أول وعكس قد يحق
قوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ لِكُلِّ أَفَّاكٍ
أَثِيمٍ سَمِعَ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَان لَمْ يَسْمَعْهَا
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من
أن من كفر بالله وبآيات الله ولم يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة
والبراهين على لزوم الإيمان بالله، وآياته أنه يستبعد، أن يؤمن
بشيء آخر، لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن بالله وبآياته لظهور
الأدلة على ذلك، وأن من لم يؤمن بآيات الله متوعد بالويل، وأنه
أفَّاك أثيم، والأفَّاك: كثير الإفك وهو أسوأ الكذب، والأثيم: هو
مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه، فهو مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه،

قد ذكره تعالى في غير هذا الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن، بالويل يوم القيامة، وبين استبعاد إيمانهم، بأي حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن، وذلك بقوله في آخر المرسلات: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا تَرَكَعُوا قَالُوا إِنَّمَا نَسْتَعِينُ بِاللِّقَاءِ فِي يَوْمِئِذٍ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْمَرْسَلِ الَّذِينَ آمَنُوا مِن قَبْلُ وَالَّذِينَ هُم مِّن قَبْلُ كَانُوا مِن قَبْلُ كَمَا كَانُوا مِن قَبْلُ} فبقوله تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُكذِّبِينَ} كقوله هنا {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}.

وقد كرر تعالى وعيد المكذبين بالويل في سورة المرسلات كما هو معلوم وقوله في آخر المرسلات: {قَبَائِلُ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} كقوله هنا في الجاثية: {قَبَائِلُ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}. ومعلوم أن الإيمان بالله على الوجه الصحيح، يستلزم الإيمان بآياته، وأن الإيمان بآياته كذلك يستلزم الإيمان به تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} يدل على أن من يسمع القرآن يتلى ثم يصر على الكفر والمعاصي في حالة كونه متكبراً عن الانقياد إلى الحق الذي تضمنته آيات القرآن كأنه لم يسمع آيات الله، له البشارة يوم القيامة بالعذاب الأليم وهو الخلود في النار، وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في لقمان: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيُّهُ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرْهُ بِعَذَابٍ} وقوله تعالى في الحج: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُنكَرٍ يَكَذِّبُونَ يَسْتَبْطِنُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَقَاتِبْكُمْ بِشَرِّ مَن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسِّرَ لِمَصِيرٍ} وقوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أَوْلَٰئِكَ لَٰئِذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}، فبقوله تعالى عنهم: ماذا قال أنفاً. يدل على أنهم ما كانوا يبالون بما يتلو عليهم النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والهدى.

وقد ذكرنا كثيراً من الآيات المتعلقة بهذا المبحث في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}.

وقوله تعالى في هذه الآية. {كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا} خفت فيه لفظة كان، ومعلوم أن كان إذا خفت كان اسماً مقدرًا وهو ضمير الشأن والجملة خبرها كما قال في الخلاصة: وخفت كان أيضاً فنوى منصوبها وثابتاً أيضاً روى

وقد قدمنا في أول سورة الكهف: أن البشارة تطلق غالباً على الإخبار بما يسر، وأنها ربما أطلقت في القرآن وفي كلام العرب على الإخبار بما يسوء أيضاً.

وأوضحنا ذلك بشواهد العربية، وقوله في هذه الآية الكريمة: {وَيَلُّ لَكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}.

قال بعض العلماء: {وَيَلُّ} واد في جهنم. والأظهر أن لفظه {وَيَلُّ} كلمة عذاب وهلاك، وأنها مصدر لا لفظ له من فعله، وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ آلِهٍ وَعَائِيَتِهِ يُؤْمِنُونَ}.
قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو وحفص، عن عاصم: يؤمنون بياء الغيبة.

وقراه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم تؤمنون بتاء الخطاب.

وقراه ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو يؤمنون بإبدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً.

وقراه حمزة بإبدال الهمزة واواً في الوقف دون الوصل. والباقيون بتحقيق الهمزة مطلقاً.

{وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً لَّخَذَهَا هُرُوّاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ *
مَنْ وَرَثَتُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا لَّخَدُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ أُولَئَاءِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ * اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ
لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحاً
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ * وَعَائِيَتُهُمْ بَيِّنَاتٌ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مَن بَعْدَ
مَا جَاءَهُمْ لَعَلُّهُمْ بَغِيّاً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}

قوله تعالى: {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً لَّخَذَهَا هُرُوّاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة توعداً للأفَّاك الأثيم بالويل، والبشارة بالعذاب الأليم.

وقد قدمنا قريباً أن من صفاته، أنه إذا سمع آيات الله تتلى عليه أصر مستكبراً كأن لم يسمعها، وذكر في هذه الآية الكريمة أنه إذا

علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً أي مهزوءاً بها، مستخفاً بها، ثم توعدده على ذلك بالعذاب المهين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يتخذون آيات الله هزواً، وأنهم سيعذبون على ذلك يوم القيامة، قد بينه تعالى في غير هذا الموضوع كقوله تعالى في آخر الكهف: {ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَ تَنَحَّوْا عَنِّي وَرُسُلِي هُزُوراً} وقوله تعالى في الكهف أيضاً: {وَبُجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْطُلَ لِيُدْجِحُوا بِهِ لِحَقِّ وَ تَنَحَّوْا عَنِّي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوراً وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَسْبَى مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}. وقوله تعالى في سورة الجاثية هذه: {وَقِيلَ لَيْتُمْ تَنسَآكُم كَمَا تَسِيبْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكُم النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرٍ يَنْدَلِكُمْ بِأَنكُمُ لَنَحْدِثُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوراً}.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة وحفص عن عاصم هزواً بضم الزاي بعدها همزة محققة.

وقرأه حفص عن عاصم بضم الزاي وإبدال الهمزة واواً.

وقرأه حمزة هزواً بسكون الزاي بعدها همزة محققة في حالة الوصل.

وأما في حالة الوقف، فعن حمزة نقل حركة الهمزة إلى الزاي فتكون الزاي مفتوحة بعدها ألف، وعنه إبدالها واواً محرقة بحركة الهمزة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} أي لأن عذاب الكفار الذين كانوا يستهزءون بآيات الله لا يراد به إلا إهانتهم وخزيهم وشدة إيلاهم بأنواع العذاب.

وليس فيه تطهير ولا تمحيص لهم بخلاف عصاة المسلمين فإنهم وإن عذبوا فسيصيرون إلى الجنة بعد ذلك العذاب.

فليس المقصود بعذابهم مجرد الإهانة بل ليؤلوا بعده إلى الرحمة ودار الكرامة. قوله تعالى: {مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا

كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. قوله تعالى: {مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ} قد قدمنا الآيات

الموضحة له مع الشواهد العربية في سورة إبراهيم في الكلام على قوله تعالى: {وَ سَتَفْتَحُوا وَحَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ}.

وبينا هناك أن أصح الوجهين أن وراء بمعنى أمام.

فمعنى من ورائه جهنم أي أمامه جهنم يصلها يوم القيامة كما قال تعالى: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيَةٍ عَصَباً} أي أمامهم

ملك.

وذكرنا هناك الشواهد العربية على إطلاق وراء بمعنى أمام، وبينا أن هذا هو التحقيق في معنى الآية وكذلك آية الجاثية هذه، فقوله

تعالى {مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ} أي أمامهم جهنم يصلونها يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أُخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ } .
أوضح فيه أن ما كسبه الكفار في دار الدنيا من الأموال والأولاد لا يغني عنهم شيئاً يوم القيامة أي لا ينفعهم بشيء فلا يجلب لهم بسببه نفع ولا يدفع عنهم بسببه ضرر، وإنما اتخذه من الأولياء في دار الدنيا من دون الله، كالمعبودات التي كانوا يعبدونها، ويزعمون أنها شركاء لله لا ينفعهم يوم القيامة أيضاً بشيء.
وهاتان المسألتان اللتان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد أوضحهما الله في آيات كثيرة من كتابه.

أما الأولى منهما: وهي كونهم لا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً فقد أوضحها في آيات كثيرة كقوله تعالى: { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } وقوله تعالى: { وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى } وقوله تعالى: { لِيَذِيَ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ } . وقوله تعالى: { قَدْ قَالهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . وقوله تعالى: { يَلِيَّتْهَا كَانَتْ لِقَاضِيَةِ مَا أَخْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ } . وقوله تعالى: { قَالُوا مَا أَخْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } . وقوله تعالى عن إبراهيم: { وَلَا يُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَبُوتُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ } . وقوله تعالى: { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِأَلْتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَيَا زُلْفَى } . وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ } . وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

وقوله تعالى في المجادلة { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ لَّنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا } .

والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

وأما الثانية منهما، وهي كونهم لا تنفعهم المعبودات، التي اتخذوها أولياء من دون الله، فقد أوضحها تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هود: { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابَعًا } . وقوله تعالى { فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ لِيُذِينَ لِيُخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } . وقوله تعالى: { وَقِيلَ لِّعِبَادِ اللَّهِ تَتَابَعُوا فِدْعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا لِعَذَابِ اللَّهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } : وقوله تعالى { وَيَوْمَ يَقُولُ تَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فِدْعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا } .

لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا { وقوله تعالى: { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً } وقوله تعالى: { دَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا سَبَّحَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } وقوله تعالى: { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا }، وقوله تعالى: { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَبَلَغَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ }، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ }، الأولياء جمع ولي.

والمراد بالأولياء هنا، المعبودات التي يوالونها بالعبادة من دون الله، { وَمَا * كَسَبُوا } في قوله: { وَمَا }؟ { وَمَا اتَّخَذُوا } موصولة وهي في محل رفع في الموضعين، لأن { مَا } الأولى فاعل { يُعْنَى }؟ { وَمَا } الثانية معطوفة عليها وزيادة لا، قبل المعطوف على منفي معروفة. وقوله: { وَلَا يُعْنَى } أي لا ينفع. والظاهر أن أصله من الغناء بالفتح والمد وهو النفع.

ومنه قول الشاعر: وقل غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثاً وواراك لاحد

فقوله: قل غناء أي قل نفعاً. وقول الآخر: قل الغناء إذا لاقى الفتى تلفاً قول الأجابة لا تبعد وقد بعدا

فقوله: الغناء أي النفع.

والبيت من شواهد إعمال المصدر المعرف بالألف واللام، لأن قوله: قول الأجابة، فاعل قوله الغناء. وأما الغناء بالكسر والمد فهو الألحان المطربة.

وأما الغنى بالكسر والقصر فهو ضد الفقر.

وأما الغنى بالفتح والقصر فهو الإقامة، من قولهم غنى بالمكان بكسر النون يغنى بفتحها غنى بفتحيتين إذا أقام به.

ومنه قوله تعالى { كَانَ لَمْ تَعَنَّ بِالْأَمْسِ } وقوله تعالى { كَانَ لَمْ يَغْتَوُوا فِيهَا } كأنهم لم يقيموا فيها.

وأما الغنى بالضم والقصر فهو جمع غنية وهي ما يستغنى به الإنسان.

وأما الغناء بالمد والضم فلا أعلمه في العربية.

وهذه اللغات التي ذكرنا في مادة غنى كنت تلقيتها في أول شبابي في درس من دروس الفقه لقنيتها شيخي الكبير أحمد الأفرم بن محمد المختار الجكني، وذكر لي بيتي رجز في ذلك لبعض أفاضل علماء القطر وهما قوله:

وَضَدُ فِقْرِ كَالِي وَكَسْحَابِ النِّفْعِ وَالْمَطْرَبِ أَيْضًا كَكِتَابِ
وَكَفْتِي إِقَامَةً وَكُهْنًا جَمَعَ لَغْنِيَةً لِمَا بِهِ الْغِنَى
قوله تعالى: { هَذَا هُدًى وَ لِّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ }. الإشارة في قوله { هَذَا هُدًى } راجعة للقرآن العظيم المعبر عنه بآيات الله في قوله { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ }. وقوله { قِبَآئِ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ }. وقوله: { يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلِّىٰ عَلَيْهِ } وقوله: { وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا }.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن هدى، وأن من كفر بآياته له العذاب الأليم، جاء موضحاً في غير هذا الموضع. أما كون القرآن هدى، فقد ذكره تعالى، في آيات كثيرة كقوله تعالى { وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }. وقوله تعالى: { وَتَرَلْنَا عَلَيْكَ لِكِتَابٍ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } وقوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفُرْقَانٌ يُّهْدِي لِلَّذِينَ هُمْ أَقْوَمُ } وقوله تعالى { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ لَِقُرْآنٌ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَ الْفُرْقَانِ } وقوله { إِنَّ هَذَا لَفِ تَفْصِيلٍ لِّكِتَابٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } وقوله تعالى: { قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً }، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون من كفر بالقرآن يحصل له بسبب ذلك العذاب الأليم، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى { وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَإِنَّ لَهُ مِوْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ }: وقوله تعالى { وَقَدْ أَتَيْنَكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا مِّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرَ أَخْلَادِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا } وقوله تعالى: { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَ أَتَّخَوْا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا } والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: { وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ } وغير ذلك من المواضع، أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقاً عاماً، بمعنى أن الهدى هو البيان والإرشاد وإيضاح الحق، كقوله { وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ } أي بينا لهم الحق وأوضحناه وأرشدناهم إليه وإن لم يتبعوه، وكقوله { هُدًى لِّلنَّاسِ } وقوله هنا { هَذَا هُدًى } وأنه يطلق أيضاً في القرآن بمعناه الخاص وهو التفضل بالتوفيق إلى طريق الحق والإصطفاء كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } وقوله { قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً } وقوله

{ وَ الَّذِينَ هَدَوْنَا رَأَاهُمْ هُدًى } وقوله { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ قَبِيحَاتِهِمْ قَبِيحَاتِهِمْ } إلى غير ذلك من الآيات.
وقد أوضحنا في سورة فصلت أن معرفة إطلاق الهدى المذكورين، يزول بها الإشكال الواقع في آيات من كتاب الله.

والهدى مصدر هداه على غير قياس، وهو هنا من جنس النعت بالمصدر، وبيننا فيما مضى مراراً أن تنزيل المصدر منزلة الوصف إما على حذف مضاف، وإما على المبالغة.

وعلى الأول فالمعنى هذا القرآن ذو هدى أي يحصل بسببه الهدى لمن اتبعه كقوله { إِنَّ هَذَا لَقُرْآنٌ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ }.
وعلى الثاني فالمعنى أن المراد المبالغة في اتصاف القرآن بالهدى حتى أطلق عليه أنه هو نفس الهدى.

وقوله في هذه الآية الكريمة، لهم عذاب من رجز أليم، أصح القولين فيه أن المراد بالرجز العذاب، ولا تكرر في الآية لأن العذاب أنواع متفاوتة والمعنى لهم عذاب، من جنس العذاب الأليم، والأليم معناه المؤلم. أي الموصوف بشدة الألم وفضاعته.

والتحقيق إن شاء الله: أن العرب تطلق الفعيل وصفاً بمعنى المفعول، فما يذكر عن الأصمعي من أنه أنكر ذلك إن صح عنه فهو غلط منه، لأن إطلاق الفعيل بمعنى المفعول معروف في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومن إطلاقه في القرآن العظيم قوله تعالى: { عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي مؤلم وقوله تعالى: { يَدِيعُ آليَسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي مبدعهما وقوله تعالى: { إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ }. أي منذر لكم، ونظير ذلك من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب: أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

فقوله الداعي السميع يعني الداعي المسمع. وقوله أيضاً: وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

أي موجع. وقول غيلان بن عقبة:
ويرفع من صدور شمردلات يصك وجوهها وهج أليم

أي مؤلم. وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم من رجز أليم بخفض أليم على أنه نعت لرجز. وقرأه ابن كثير وحفص عن عاصم من رجز أليم، يرفع أليم على أنه نعت لعذاب. قوله تعالى: { اللَّهُ لِيذِي سَخَّرَ لَكُمْ لِيَبْحَرَ لِيَجْرِي لِفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { وَهُوَ لِيذِي سَخَّرَ لِيَبْحَرَ لِيَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا }، وفي سورة

الزخرف في الكلام على قوله تعالى: { وَ لِي ذِي خَلَقَ [الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا] إِلَى قَوْلِهِ: { وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } . قوله تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا قَلِيلًا فَسَوَّيْنَاهُ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْنَاهَا } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ } ، وفي غير ذلك من المواضع . قوله تعالى: { وَ فَضَّلْتُهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه فضل بني إسرائيل على العالمين .

وذكر هذا المعنى في موضع آخر من كتابه كقوله تعالى في سورة البقرة: { يٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ذُكِّرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } في الموضوعين . وقوله في الدخان: { وَلَقَدْ خُذْنَا مِنْهُمْ عِلْمَ عَلِيِّ الْعَلَمِينَ } ، وقوله في الأعراف: { قَالَ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْعِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } . ولكن الله جل وعلا بين أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير من بني إسرائيل وأكرم على الله ، كما صرح بذلك في قوله: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ } . فخير صيغة تفضيل والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم ، بني إسرائيل وغيرهم .

ومما يزيد ذلك إيضاحاً حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أمته: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» : وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وهو حديث مشهور . وقال ابن كثير: حسنه الترمذي ، ويروى من حيث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه اهـ .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: ولا شك في صحة معنى حديث معاوية بن حيدة المذكور رضي الله عنه . لأنه يشهد له النص المعصوم المتواتر في قوله تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } ، وقد قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } . وقوله: { وَسَطًا } أي خياراً عدولاً . واعلم أن ما ذكرنا من كون أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من بني إسرائيل كما دلت عليه الآية والحديث المذكوران وغيرهما من الأدلة لا يعارض الآيات المذكورات أنفاً في تفضيل بني إسرائيل .

لأن ذلك التفضيل الوارد في بني إسرائيل ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد صلى الله عليه وسلم . والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل أو يفضل عليه . ولكنه تعالى بعد وجود أمة محمد صلى الله عليه وسلم صرح بأنها هي خير الأمم .

وهذا واضح لأن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل .
إنما يراد به ذكر أحوال سابقة .

لأنهم في وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا كما قال تعالى :
{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } .
ومعلوم أن الله لم يذكر لهم في القرآن فضلاً إلا ما يراد به أنه كان
في زمنهم السابق لا في وقت نزول القرآن .

ومعلوم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن موجودة في
ذلك الزمن السابق الذي هو ظرف تفضيل بني إسرائيل ، وأنها بعد
وجودها ، صرح الله بأنها هي خير الأمم ، كما أوضحنا . والعلم عند
الله تعالى .

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ وَتَبِعَهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ جَنَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ
كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَيِّئًا مَا
يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ
بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَىٰ إِلَهًا هَوَاهُ وَأَصْلَهُ
اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً
فَمَن يَهْدِيهِ مِّن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
هُم إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن
قَالُوا إِنَّا بُدِئْنَا بِهَذَا قُرْآنًا كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم مِّمَّن يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
* وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ
لِمُبْطِلُونَ * وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا لِيَوْمٍ
تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا
نَسْنِسِيحُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ لِقَاؤُهُمْ لِمُتِّبِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا أَقْلَمَ تَكْرًا أَيْ تَلَىٰ عَلَيْكُمْ وَ سَتَّكَبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا
تَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ * وَبَدَأَ لَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَخَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * وَقِيلَ لِيَوْمٍ
تَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن
نَّاصِرِينَ * ذَلِكَ بِأَنكُم كُنْتُمْ تَخْتَدِعُونَ أَنَّ إِلَهًا هَرُؤًا وَعَرَّتِكُمْ لِحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلِيَوْمٍ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * قُلِ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ وَاتَّبَعَهَا}. وقد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {وَوَسَّوْنَاكَ بِاللَّيْلِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}. قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}.

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم، في هذه الآية الكريمة عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون.

وقد قدمنا في بيورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} أنه جل وعلا يأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وبينها، ليشرع بذلك الأمر والنهي، لأمته كقوله هنا: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}. وقوله تعالى: {فَلَا تُطِعْ لِمُكَذِّبِينَ}. وقوله: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ خَلَفٍ مَّهِينٍ}. وقوله: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}. وقوله: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد بينا الأدلة القرآنية على أنه صلى الله عليه وسلم يخاطب، والمراد به التشريع لأمته، في آية بني إسرائيل المذكورة.

وما تضمنته آية الجاثية هذه، من النهي عن اتباع أهوائهم جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في الشورى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا آنَزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ} وقوله تعالى في الأنعام: {فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ}. وقوله تعالى في القصص: {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ وَ عَلَّمْنَا أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد بين تعالى في قد أفلح المؤمنون أن الحق لو اتبع أهواءهم لفسد العالم وذلك في قوله تعالى: {وَلَوْ اتَّبَعَ لِحَقِّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}.

والأهواء: جمع هوى بفتحين وأصله مصدر، والهمزة فيه مبدلة من ياء كما هو معلوم. قوله تعالى: {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}. قد قدمنا في هذا الكتاب المبارك مراراً أن الظلم في لغة العرب أصله وضع الشيء في غير موضعه.

وأن أعظم أنواعه الشرك بالله لأن وضع العبادة في غير من خلق ورزق هو أشنع أنواع وضع الشيء في غير موضعه. ولذا كثر في القرآن العظيم، إطلاق الظلم بمعنى الشرك. كقوله تعالى:

{وَ لِكُفْرُونَهُمْ الظَّالِمُونَ}. وقوله تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ}. وقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ لِيَلْبِسَنِي لِحَدِيثِ مَعَ الرَّسُولِ سَيْبًا}. وقوله تعالى في لقمان: {يَبْنِي لَكَ شُرَكَاءَ

بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}. وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر قوله تعالى: {لَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} «بأن معناه ولم يلبسوا إيمانهم بشرك». وما تضمنته آية الجاثية هذه من أن الظالمين بعضهم أولياء بعض جاء مذكوراً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في آخر الأنفال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}. وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ لَهُمُ الطَّغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}. وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يُخَذُّوا لِلشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}. وقوله تعالى: {فَقَاتِلْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}. وقوله تعالى: {إِنَّمَا ذُكِرَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}. وقوله {إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ}. إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه ولي المتقين، وهم الذين يمثلون أمره ويجتنبون نهيه.

وذكر في موضع آخر أن المتقين أولياؤه فهو وليهم وهم أولياؤه لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان، وهو يوالِيهم بالرحمة والجزاء، وذلك في قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

ثم بين المراد بأوليائه في قوله {لَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، فقوله تعالى: {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} كقوله في آية الجاثية هذه {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤه كقوله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}. وقوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}. وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا}. وقوله تعالى {إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهُ لَإِذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} وقوله تعالى في الملائكة {قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ}. إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه بإسبغ من هذا. قوله تعالى: {هٰذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}. الإشارة في قوله {هٰذَا} للقرآن العظيم.

والبصائر جمع بصيرة والمراد بها البرهان القاطع الذي لا يترك في الحق لبساً كقوله تعالى: {قُلْ هٰذِهِ سَبِيلُ اُدْعُو اِلَى اللّٰهِ عَلٰى بَصِيْرَةٍ} أي على علم ودليل واضح. والمعنى أن هذا القرآن براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، على أن الله هو المعبود وحده، وأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن القرآن بصائر للناس جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى في أخريات الأعراف { قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }، وقوله تعالى في الأنعام { قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ }.

وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة، ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا لِقَوْمِ الْآلِوَءِ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }.

وما تضمنته آية الجاثية هذه من كون القرآن هدى ورحمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع.

أما كونه هدى فقد ذكرنا الآيات الموضحة له قريباً. وأما كونه رحمة فقد ذكرنا الآيات الموضحة له في الكهف في الكلام على قوله تعالى { فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأْتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا }، وفي أولها في الكلام على قوله تعالى { لِحَمْدٍ لِلَّهِ إِذْى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ }، وفي فاطر في الكلام على قوله تعالى { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا }، وفي الزخرف في الكلام على قوله: { أَنَّهُمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }، أي لأنهم هم المنتفعون به.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف. وهو أن المبتدأ الذي هو قوله { هَذَا } اسم إشارة إلى مذكر مفرد، والخبر الذي هو بصائر جمع مكسر مؤنث.

فيقال: كيف يسند الجمع المؤنث المكسر إلى المفرد المذكر؟ والجواب: أن مجموع القرآن كتاب واحد، تصح الإشارة إليه بهذا، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة، فصح إسناد البصائر إليه لا يشتماله عليها كما لا يخفى. قوله تعالى: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ جُنَّخُوا لِسَانَهُمْ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }.

قد قدمنا الكلام عليه في سورة (ص) في الكلام على قوله تعالى: { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }.

قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ }.

قد أوضحنا معناه في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا }.

قوله تعالى: { وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرًا }.

قد أوضحنا معناه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: { خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ }

وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}. قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا}. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إنكار الكفار للبعث بعد الموت، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم {وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ}. وقوله {أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} وقوله تعالى عنهم {أءَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} وقوله تعالى عنهم {أءَدَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَفْرَةِ أَدَا كُنَّا عِظْمًا تَخْرَعَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَسِيرَةٌ}.

وقوله تعالى: {قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد قدمنا البراهين القاطعة القرآنية، على تكذيبهم في إنكارهم البعث، وبيننا دلالتها على أن البعث واقع لا محالة، في سورة البقرة، وسورة النحل، وسورة الحج، وأول سورة الجاثية هذه، وأحلنا على ذلك مراراً.

وبينا في سورة الفرقان الآيات الموضحة أن إنكار البعث كفر بالله، والآيات التي فيها وعيد منكري البعث بالنار في الكلام على قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}. قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ}. قوله تعالى: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا}. قد قدمنا إيضاحه في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}. قوله تعالى: {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: {كَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَتَمُدُّ لهُ مِنْ لِعَذَابٍ مَدًّا}. وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَقِيلَ لِيَوْمٍ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيتَ وَلَمْ تَجِدْ لَهُ عَزْمًا}. قوله تعالى: {وَإِيَّاهُمْ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}. قد أوضحنا معنى قوله: يستعتبون في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: فالיום لا يخرجون منها، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {وَتَادُوا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ}. قوله

تعالى: { قَلِيلٌ لِّحَمْدِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } .
 أتبع الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، حمده جل وعلا بوصفه
 بأنه رب السماوات والأرض ورب العالمين، وفي ذلك دلالة على
 أن رب السماوات والأرض، ورب العالمين مستحق لكل حمد
 ولكل ثناء جميل.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر كقوله
 تعالى في سورة الفاتحة { لِحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وقوله تعالى
 في آخر الزمر { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ لِحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ } وقوله تعالى: { فَفَطَعَ دَايِرٌ لِقَوْمٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ لِحَمْدِ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وقوله تعالى في أول الأنعام { لِحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } وقوله تعالى في
 أول سبأ { لِحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ
 لِحَمْدٌ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } .

وقوله في أول فاطر { لِحَمْدِ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } . قوله
 تعالى: { وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .
 ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن له الكبرياء في السماوات
 والأرض، يعني أنه المختص بالعظمة، والكمال والجلال والسلطان،
 في السماوات والأرض، لأنه هو معبود أهل السماوات والأرض،
 الذي يلزمهم تكبيره وتعظيمه، وتمجيده، والخضوع والذل له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى:
 { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ
 وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } .
 فقوله { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ } معناه أنه هو
 وحده الذي يعظم ويعبد في السماوات والأرض ويكبر ويخضع له
 ويذل.

وقوله تعالى: { وَلَهُ لِمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .

فقوله { وَلَهُ لِمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } معناه أن له
 الوصف الأكمل، الذي هو أعظم الأوصاف، وأكملها وأجلها في
 السماوات والأرض.

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم
 «أن الله يقول: العظمة إزاري والكبرياء، ردائي فمن نازعني في
 واحد منهما أسكنته ناري» .

تم بحمد الله تفسير سورة الجاثية

وكقوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ لَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }، لأن قوله: { عُبُدُوا رَبَّكُمْ } فيه معنى الإثبات من لا إله إلا الله.

وقوله { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } يتضمن معنى النفي منها على أكمل وجه وأتمه.

وقد أقام الله جل وعلا البرهان القاطع، على صحة معنى لا إله إلا الله، نفيًا وإثباتًا، يخلقه للسموات والأرض، وها بينهما في قوله { الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ لَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } لَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً }.

وبذلك تعلم أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقًا متلبسًا بأعظم الحق، الذي هو إقامة البرهان القاطع، على توحيده جل وعلا، ومن كثرة الآيات القرآنية، الدالة على إقامة هذا البرهان، القاطع المذكور، على توحيده جل وعلا، علم من استقرأ القرآن، أن العلامة الفارقة من يستحق العبادة، وبين من لا يستحقها، هي كونه خالقًا لغيره، فمن كان خالقًا لغيره، فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يعبد بحال.

فالآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًا كقوله تعالى في البقرة المذكورة أنفًا: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ لَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ }.

فقوله: { الَّذِي خَلَقَكُمْ } يدل على أن المعبود هو الخالق وحده، وقوله تعالى: { أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ لَخَلْقِ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ }، يعني وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

وقد أوضح تعالى هذا في سورة النحل، لأنه تعالى لما ذكر فيها البراهين القاطعة، على توحيده جل وعلا، في قوله { خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } إلى قوله { وَ عَلَامَاتٍ وَ بِاللَّجَمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } أتبع ذلك بقوله { أَقَمَنَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ }.

وذلك واضح جدًا في أن من يخلق غيره هو المعبود وأن من لا يخلق شيئًا لا يصح أن يعبد.

ولهذا قال تعالى بعده قريباً منه { وَ لَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ }، وقال تعالى في الأعراف { أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ }، وقال تعالى في الحج { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَا سَمِعُوا لَهُ إِنَّ لِّلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن

يَخْلُقُوا دُبَابًا وَلَوْ جُتِمَعُوا لَهُ { أي ومن لم يقدر أن يخلق شيئاً لا يصح أن يكون معبوداً بحال وقال تعالى: { سَبِّحْ سُبْحَانَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى }.

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان، صفات من يستحق أن يعبد، ومن لا يستحق ذلك.

قال في صفات من يستحق العبادة: { لِذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا }.

وقال في صفات من لا يصح أن يعبد { وَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ }.

والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً وكل تلك الآيات تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق.

وقد بين جل وعلا أن من الحق الذي خلق السماوات والأرض وبينهما، خلقاً متلبساً به، تعليمه خلقه أنه تعالى على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، وذلك في قوله تعالى: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }.

فلام التعليل في قوله: لتعلموا متعلقة بقوله { خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } وبه تعلم أنه ما خلق السماوات السبع، والأرضين السبع، وجعل الأمر يتنزل بينهن، إلا خلقاً متلبساً بالحق.

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما خلقاً متلبساً به، هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى في أول سورة هود: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ أَمَاءٍ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }.

فلام التعليل في قوله: ليبلوكم متعلقة بقوله { خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } وبه تعلم أنه ما خلقهما إلا خلقاً متلبساً بالحق.

ونظير ذلك قوله تعالى في أول الكهف { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } وقوله تعالى في أول الملك: { لِذِي خَلَقَ لِمَوْتٍ وَ لِحَيَاةٍ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }.

ومما يوضح أنه ما خلق السماوات والأرض إلا خلقاً متلبساً بالحق، قوله تعالى في آخر الذاريات { وَمَا خَلَقْتُ لِجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مَرْغَبًا مَّن رَزَقُوا وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ }.

سواء قلنا: إن معنى إلا ليعبدون أي لأمرهم بعبادتي فيعبدني السعداء منهم، لأن عبادتهم يحصل بها تعظيم الله وطاعته،

والخضوع له كما قال تعالى: { قَانَ يَكْفُرُ بِهَا هُوًّا إِعًا فَقَدَ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُسُوا بِهَا بِكَفِيرِينَ } . وقال تعالى: { قَانَ سَتَكْبُرُوا وَلِيَدِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ } .
أو قلنا: إن معنى إلا ليعبدون أي إلا ليقروا لي بالعبودية، ويخضعوا ويدعونا لعظمتي، لأن المؤمنين يفعلون ذلك طوعاً، والكفار يذعنون لقهرة وسلطانه تعالى كرهاً.
ومعلوم أن حكمة الابتلاء والتكليف لا تتم إلا بالجزاء على الأعمال. وقد بين تعالى أن من الحق الذي خلق السماوات والأرض خلقاً متلبساً به، جزاء الناس بأعمالهم، كقوله تعالى في النجم { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } .
فقوله تعالى: { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } أي هو خالقها ومن فيهما { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا } .
ويوضح ذلك قوله تعالى في يونس { إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ } وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } .
ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء، هددهم بالويل من النار، بسبب ذلك الظن السيء، في قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } .
وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً، لا لتكليف وحساب وجزاء، وأنكر ذلك على من ظنه، في قوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } فَتَعَالَى اللَّهُ لِمَلِكٍ لِحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } .
فقوله (فتعالى الله) أي تنزهه وتعاضم، وتقدس، عن أن يكون خلقهم لا لحكمة تكليف وبعث، وحساب وجزاء.
وهذا الذي نزه تعالى عنه نفسه، نزهه عنه أولو الألباب، كما قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفِ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ } إلى قوله: { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } ،
فقوله عنهم { سُبْحَانَكَ } أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت هذا الخلق، باطلاً لا لحكمة تكليف، وبعث وحساب وجزاء.
وقوله جل وعلا في آية الأحقاف هذه: { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } ، يفهم منه أنه لم يخلق ذلك باطلاً، ولا لعباً ولا عبثاً.

وهذا المفهوم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلَانًا}، وقوله تعالى: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلَانًا}، وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبِنَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}.

وقوله تعالى في آية الأحقاف هذه {وَأَجَلٌ مُّسَمًّى} معطوف على قوله: {بِالْحَقِّ} أي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق، وبتقدير أجل مسعى، أي وقت معين محدد ينتهي إليه أمد السماوات والأرض، وهو يوم القيامة كما صرح الله بذلك في أخريات الحجر في قوله تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ}.

فقوله في الحجر: {وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ} بعد قوله {إِلَّا بِالْحَقِّ} يوضح معنى قوله في الأحقاف {إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى}.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن للسماوات والأرض أمداً ينتهي إليه أمرهما. كما قال تعالى: {وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ}. وقال تعالى: {يَوْمَ تَطْوَى السَّمَاوَاتُ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ}. وقوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ} وقوله: {وَإِذَا السَّمَاءُ كَشِطَتْ} وقوله تعالى {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ}.

إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ}. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} وقوله في سبأ: {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}. وقوله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والإعراض عن الشيء الصدود عنه. وعدم الإقبال إليه. قال بعض العلماء: وأصله من العرض بالضم. وهو الجانب. لأن المعرض عن الشيء يوليه بجانب عنقه. صاداً عنه. والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد. فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً.

وقد أوضحنا معاني الإنذار في أول سورة الأعراف. {وَمَا} في قوله {عَمَّا أُنذِرُوا} قال بعض العلماء هي موصولة. والعائد محذوف، أي الذين كفروا معرضون عن الذي أنذروه. أي خوفوه من عذاب يوم القيامة. وحذف العائد المنصوب بفعل أو وصف مضطرد كما هو معلوم.

وقال بعض العلماء: هي مصدرية. أي والذين كفروا معرضون عن الإنذار، ولكليهما وجه. قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. قد ذكرنا قريباً أن قوله: {مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} يتضمن البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله. وأن العلامة الفارقة بين المعبود بحق. وبين غيره هي كونه خالقاً. وأول سورة الأحقاف هذه يزيد ذلك إيضاحاً. لأنه ذكر من صفات المعبود بحق أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق. وذكر من المعبودات الأخرى التي عبادتها كفر. مخلد في النار أنها لا تخلق شيئاً. فقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله. أروني ماذا خلقوا من الأرض.

فقوله: أروني. يراد بها التعجيز والمبالغة في عدم خلقهم شيئاً. وعلى أن {مَا} استفهامية. {وَدَا} موصولة. فالمعنى أروني ما الذي خلقوه من الأرض. وعلى أن {مَا} و {دَا} بمنزلة كلمة واحدة يراد بها الاستفهام. فالمعنى: أروني أي شيء خلقوه من الأرض؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من لم يخلق شيئاً في الأرض ولم يكن له شرك في السماوات. لا يصح أن يكون معبوداً بحال جاء موضحاً في آيات كثيرة. كقوله تعالى في فاطر {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شِرْكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا}. وقوله في لقمان: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} وقوله في سبأ {قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وقد قدمنا طرفاً منها قريباً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا}، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}. قوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ الْيَوْمَ لِقِيمَةً وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الجاثية في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءً}. وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا}. قوله

تعالى: {وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا قرئت عليهم آيات هذا القرآن العظيم الذي هو الحق ادعوا أنها سحر مبین واضح.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من افتراءهم على القرآن أنه سحر وعلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه ساحر جاء موضحاً في آيات كثيرة. كقوله تعالى في سبأ {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}. وقوله تعالى في الزخرف {وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}. وقوله تعالى: {مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأِهيَةٌ قُلُوبُهُمْ} إلى قوله {أَفَتَأْتُونَ السَّخْرَ وَإِنَّمَا تُبْصِرُونَ}. وقوله تعالى: {وَلَئِن قُلْتُمُ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ لَمَوْتٍ لَّيْقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}.

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ هُوَ نَزَّلَهُ قُلْ إِنْ هُوَ مِنِّي لَأَمْلِكَنَّ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}. أم هذه هي المنقطعة وقد قدمنا أنها تأتي بمعنى الإضراب. وتأتي بمعنى همزة الإنكار.

وتأتي بمعناها معاً وهو الظاهر في هذه الآية الكريمة. فأم فيها على ذلك تفيد معنى الإضراب والإنكار معاً، فهو بمعنى دع هذا، واسمع قولهم المستنكر لظهور كذبهم فيه، أن محمداً افتري هذا القرآن، وقد كذبهم الله في هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله تعالى {أَمْ يَقُولُونَ هُوَ نَزَّلَهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ}. وقوله {أَمْ يَقُولُونَ هُوَ نَزَّلَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ}: وقوله تعالى {وَمَا كَانَ هَذَا إِلْفَرَاءً إِنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصَدِيقَ لِّذِي بَيِّنَاتٍ يَدِيهِ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {قُلْ إِنْ هُوَ مِنِّي لَأَمْلِكَنَّ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أي إن كنت افتريت هذا القرآن على سبيل الفرض.

والتقدير: عاجلني الله بعقوبته الشديدة، وأنتم لا تملكون لي منه شيئاً، أي لا تقدر أن تدفعوا عني عذابه إن أراد أن يعذبني على الافتراء.

فكيف أفتره لكم، وأنتم لا تقدر أن تدفعوا عني عذاب الله عني؟ وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ لَقَطَعْنَا مِنْهُ لُوتَيْفَمَا مِنكُمْ مَّنْ أَحَدٍ عَنهُ خَبِيرٌ}. فقوله تعالى في آية الحاقة هذه: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ} كقوله في آية الأحقاف {قُلْ إِنْ هُوَ مِنِّي لَأَمْلِكَنَّ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}.

وقوله في الحاقة: {فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} يوضح معنى قوله: {فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، لأن معنى قوله: {فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ}، أنهم لا يقدرون على أن يحجزوا عنه أي يدفعوا عنه عقاب الله له بالقتل، لو تقول عليه بعض الأقاويل. وذلك هو معنى قوله: {فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أي لا تقدرين على دفع عذابه عني.

ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ لِمَسِيحٍ بُنِ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} وقوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}. وما تضمنته آية الأحقاف هذه وآية الحاقة المبينة لها من أنه لو افتري على الله أو تقول عليه عاجله بالعذاب، وأنه لا يقدر أحد على دفعه عنه جاء معناه في بعض الآيات. كقوله تعالى في يونس: {قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَىٰ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مَّا يَكُونُ رَاً أَنْ أَبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسٍ إِنْ أَتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَىٰ} عَصِيَّتْ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ { أي إني أخاف إن عصيت ربي بالافتراء عليه بتبديل قرآنه أو الإتيان بقرآن غيره. عذاب يوم عظيم.

وذكر الله تعالى مثل هذا عن بعض الرسل في آيات أخر كقوله عن صالح {قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِّن رَّبِّي وَعَاءً نِّي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ}. وقوله تعالى عن نوح: {وَيَقَوْمِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ}. قوله تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّن الرُّسُلِ}. الأظهر في قوله {بِدَعَا} أنه فعل بمعنى المفعول فهو بمعنى مبتدع، والمبتدع هو الذي أبدع على غير مثال سابق.

ومعنى الآية قل لهم يا نبي الله: ما كنت أول رسول أرسل إلي البشر، بل قد أرسل الله قبلي جميع الرسل إلى البشر، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي، واستنكاركم إياها، لأن الله أرسل قبلي رسلاً كثيرة.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَرْوَاجًا وَدُرِّيَّةً} وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِّن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}.

وقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ مِّن بَعْدِهِ}. وقوله تعالى {حَمْسًا كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ لَعَزِيزٌ لِّحَكِيمٌ} وقوله تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}. وقوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ}. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رُسُلًا مِّن

قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَتَهُمُ نَضْرَتَنَا}، والآيات
بمثل ذلك كثيرة معلومة. قوله تعالى: {وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا
بِكُمْ}. التحقيق إن شاء الله، أن معنى الآية الكريمة، ما أدري ما
يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا، فما أدري أخرج من مسقط رأسي
أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء.
وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمور في تحمل أعباء الرسالة.
وما أدري ما يفعل بكم أيخسف بكم، أو تنزل عليكم حجارة من
السماء، ونحو ذلك.

وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين.
وهذا المعنى في هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله
تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ لَعَيَّبْتَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنْ لِحْيَةٍ وَمَا مَسَّنِي
أَلْسُنُهُ}. وقوله تعالى أمراً له صلى الله عليه وسلم: {قُلْ لَا أَقُولُ
لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ لَعَيَّبَ}.
وبهذا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وأنس وغيرهما من أن
المراد، {وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ} أي في الآخرة فهو خلاف
التحقيق، كما سترى إيضاحه إن شاء الله.

فقد روي عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن
في أحد قوليه أنه لما نزل قوله تعالى: {وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا
بِكُمْ} فرح المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبياً لا
يدري ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي
يقوله، من عند نفسه، لأخبره الذي بعثه بما يفعل به.
فنزلت {لِيَعْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} فنسخت هذه
الآية.

وقالت الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، لقد بين لك الله ما يفعل
بك فليت شعربنا هو ما فاعل بنا.

فنزلت {لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ لِمُؤْمِنَاتٍ حَبَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الأنهار}، ونزلت: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً}.
فالظاهر أن هذا كله خلاف التحقيق، وأن النبي صلى الله عليه
وسلم لا يجهل مصيره يوم القيامة لعصمته صلوات الله وسلامه
عليه: وقد قال له الله تعالى {وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْآوَّلِ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ} وأن قوله: {وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}
في أمور الدنيا كما قدمنا. فإن قيل: قد صح عن النبي صلى الله
عليه وسلم من حديث أم العلاء الأنصارية ما يدل على أن قوله:
{مَا يُفْعَلُ بِي} أي في الآخرة فإن حديثها في قصة وفاة عثمان بن
مظعون رضي الله عنه عندهم، ودخول رسول الله صلى الله عليه
وسلم فيه، أنها قالت: رحمة الله عليك، أبا السائب شهادتي عليك
لقد أكرمك الله عز وجل تعني عثمان بن مظعون، فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» الحديث.

فالجواب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله، فقد قال في تفسير هذه الآية الكريمة، بعد أن ساق حديث أم العلاء المذكور بالسند الذي رواه به أحمد رحمه الله انفراد به البخاري دون مسلم، وفي لفظ له «ما أدري وأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفعل به»، وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزنتني ذلك أهـ. محل الغرض منه وهو الصواب إن شاء الله، والعلم عند الله تعالى.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ سِوَةِ اللَّهِ عَلَىٰ مِثْلِهِ بِآمَنٍ وَ سَيُكْفَرْتُمْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَهْدِي لِقَوْمٍ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِيمَانًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ لَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِّلْمُحْسِنِينَ * إِنْ لَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ سَلَّطْنَا فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دِينِي إِنَّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّادِقُ لِذِي كَانُوا يُوعَدُونَ * وَ لِذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفٍ لِّكَمَا أَلَّعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتِ لِقُرُونٍ مِّن قَبْلِي وَهَمَّا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ عَائِمُنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّ قِيْقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ لِيَذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ لِقَوْلُ فِي أَمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِّن قَبْلِهِمْ مِّن لِّجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }

قوله تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ }. جواب الشرط في هذه الآية محذوف.

وأظهر الأقوال في تقديره إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتكم به، ووجدتموه فأنتم ضلال ظالمون. وكون جزاء الشرط في هذه الآية كونهم ضالين ظالمين بينه قوله تعالى في آخر فصلت: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِّنْ أَصَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي

شِقَاقِ بَعِيدٍ}، وقوله في آية الأحقاف هذه {فَأَمَّنَ وَ سَتَّكَبَرْتُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

وقال أبو حيان في البحر: مفعولاً رأيتم محذوفان لدلالة المعنى
عليهما.

والتقدير: رأيتم حالكم، إن كان كذا أستم ظالمين.
فالأول حالكم، والثاني أستم ظالمين، وجواب الشرط محذوف
أي فقد ظلمتم.

ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً.
وبعض العلماء يقول: إن {أَرَاءَيْتُمْ} بمعنى أخبروني. والعلم عند
الله تعالى. قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى
مِثْلِهِ}. التحقيق: إن شاء الله، أن هذه الآية الكريمة جارية على
أسلوب عربي معروف، وهو إطلاق المثل، على الذات نفسها،
كقولهم: مثلك، لا يفعل هذا، يعنون لا ينبغي لك أنت أن تفعله.
وعلى هذا فالمعنى، وشهد شاهد من بني إسرائيل على أن هذا
القرآن، وحى منزل حقاً من عند الله، لأنه شهد على شيء آخر
مماثل له.

ولذا قال تعالى {فَأَمَّنَ وَ سَتَّكَبَرْتُمْ}.

ومما يوضح هذا، تكرار إطلاق المثل في القرآن مراداً به الذات
كقوله تعالى {أَوْ مَن كَانَ يَمِينًا فَاخِيَّتُهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ}.

فقوله: كمن مثله في الظلمات، أي كمن هو نفسه في الظلمات،
وقوله تعالى {قَانِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ هْتَدُوا} أي فإن
آمنوا بما آمنتم به لا بشيء آخر مماثل له على التحقيق.

ويستأنس له بالقراءة المروية عن ابن عباس وابن مسعود {قَانِ
ءَامَنُوا بِمَا بِهِ ءَالِنَ} الآية.

القول بأن لفظة ما في الآية مصدرية، وأن المراد تشبيه الإيمان
بالإيمان، أي فإن آمنوا بإيمان مثل إيمانكم فقد اهتدوا لا يخفى
بعده.

والشاهد في الآية هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه كما قال
الجمهور، وعليه فهذه الآية مدنية في سورة مكية.

وقيل: إن الشاهد موسى بن عمران عليه وعلي نبينا الصلاة
والسلام، وقيل غير ذلك. قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}. أظهر أقوال العلماء في هذه
الآية الكريمة، أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين لو كان خيراً ما
سبقونا إليه، أنهم كفار مكة، وأن مرادهم أن فقراء المسلمين،
وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم، أحقر عند الله
من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير.

وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير لزعيمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة.

وهذا المعنى الذي استظهرناه في هذه الآية الكريمة تدل له آيات كثيرة من كتاب الله، وخير ما يفسر به القرآن القرآن. أما ادعاؤهم أن ما أعطوا من المال، والأولاد والجاه، في الدنيا دليل على أنهم سيعطون مثله في الآخرة، وتكذيب الله لهم في ذلك، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَيْتِيسَارِعُ لَهُمْ فِي لَحْيَتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ }، وقوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ لِيذَى كَفَرْنَا بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ لِعَيْبِ أَمِ لِحَدِّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَيَمُدُّ لَهُ مِنْ لِعَذَابِ مَدًّا }، وقوله تعالى { وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ } مع قوله { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِلَيْتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى }، وقوله تعالى: { وَلَئِن رَّجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنَى فَلَنُتَبَّنَّ لِدِينِ كَفَرُوا بِمَا عَمَلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ }.

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: { وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا }، وأما احتقار الكفار لضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وزعمهم أنهم أحقر عند الله، من أن يصيبهم بخير، وإنما هم عليه لو كان خيراً لسبقهم إليه أصحاب الغنى، والجاه والولد، من الكفار فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى في الأنعام: { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّن بَيْنِنَا }.

فهمزة الإنكار في قوله: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، تدل على إنكارهم أن الله يمن على أولئك الضعفاء بخير. وقد رد الله عليهم بقوله { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِيمٌ عَلَيْكُمْ }، وقوله تعالى في الأعراف: { وَتَادِي أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ تَاهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ لَّا خُلُوعًا لَّجَنَّةٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَخَزِنُونَ } وقوله تعالى في حر { وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ أَتَّخَذْتُهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَأَعْتِ عَنْهُمْ [الْبَصْرُ] }.

فقد قال غير واحد: إن الرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار هم ضعفاء المسلمين الذين كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا ويزعمون أنهم أحقر من أن ينالهم الله بخير ويدل له قوله { أَتَّخَذْتُهُمْ سِحْرِيًّا } وسيسخر ضعفاء المسلمين في الجنة من

الكفار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم في النار، كما قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونُوا إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ } إلى قوله تعالى { وَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَا أَلَرَأَيْكَ يَنْظُرُونَ أَهْلًا تُؤْتِيهِمْ لِكْفَارٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } . وقوله تعالى { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِحَيَاتِهِمُ الْأَلْبَابُ وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ الَّذِينَ يُقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } . قوله تعالى:

{ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِكَ عَرَبِيًّا } . قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى { لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ لِسَانًا عَرَبِيًّا مُبِينًا } وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: { فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } . قوله تعالى: { لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان أنواع الإنذار في القرآن في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: { فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنِّي لِتُنذِرَ بِهِ } . وفي أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى { لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِّمَنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ لِّلْمُؤْمِنِينَ } . قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ } . قوله تعالى: { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا } . قرأ هذا الحرف، نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو { حَسَنًا } بضم الحاء وسكون السين، وكذلك هو في مصاحفهم. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي: إحساناً بهمزة مكسورة وإسكان الحاء وألف بعد السين.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { وَقَصَى رَبُّكَ الْأَعْيُنَ عَنَّا وَإِذَا تَغَبُّوا إِلَّا إِلَهُهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } وقال أبو حيان في البحر:

قيل ضمن { وَوَصَّيْنَا } معنى ألزمتنا فيتعدى لاثنين فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا.

وقيل: التقدير إيضاء ذا حسن أو ذا إحسان ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له، أي ووصيناها بها لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى.

وقيل: النصب على المصدر على تضمين معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً أه منه، وكلها له وجه. قوله تعالى: { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا } . قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر: { كُرْهًا } بفتح الكاف في الموضعين.

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي، وابن ذكوان، عن ابن عامر:
 {كَرْهًا} بضم الكاف في الموضوعين.
 وهما لغتان كالضَّعْف والضَّعْف.
 ومعنى حملته {كَرْهًا} أنها في حال حملها به تلاقي مشقة شديدة.
 ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل، من المشقة والضعف، إذا أثقلت
 وكبر الجنين في بطنها.
 ومعنى وضعته كرهاً: أنها في حالة وضع الولد، تلاقي من ألم
 الطلق، وكربه مشقة شديدة، كما هو معلوم.
 وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم في حمل الولد ووضعه، لا
 شك أنها يعظم حقها بها، ويتحتم برها، والإحسان إليها كما لا
 يخفى.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيها الحامل،
 ودلت عليه آية أخرى، وهي قوله تعالى في لقمان: {وَوَصَّيْنَا
 الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ} أي تهن به وهناً على
 وهن أي ضعفاً على ضعف، لأن الحمل كلما تزايد وعظم في
 بطنها، ازدادت ضعفاً على ضعف.
 وقوله في آية الأحقاف هذه كرهاً في الموضوعين مصدر منكر وهو
 حال أي حملته ذات كره ووضعت ذات كره، وإتيان المصدر المنكر
 حالاً كثير كما أشار له في الخلاصة بقوله: ومصدر منكر حالاً يقع
 بكثرة كبغته زيد طلع

وقال بعضهم: كرهاً في الموضوعين نعت لمصدر، أي حملته حملاً ذا
 كره، ووضعت ووضعاً ذا كره، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى:
 {وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}. هذه الآية الكريمة، ليس فيها
 بانفرادها تعرض لبيان أقل مدة الحمل، ولكنها بضميمة بعض
 الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد الحمل، لأن هذه الآية الكريمة،
 من سورة الأحقاف، صرحت بأن أمد الحمل والفصال معاً، ثلاثون
 شهراً.

وقوله تعالى في لقمان: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}. وقوله في البقرة
 {وَلَوْلِذْتُ بُرْصِعَنَّ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ} يبين أن أمد الفصال
 عامان وهما أربعة وعشرون شهراً، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت
 ستة أشهر، فتعين كونها أمداً للحمل، وهي أقله، ولا خلاف في ذلك
 بين العلماء.

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هي المعروفة
 عند علماء الأصول بدلالة الإشارة.
 وقد أوضحنا الكلام عليها، في مباحث الحج، في سورة الحج، في
 مبحث أقوال أهل العلم، في حكم المبيت بمزدلفة، وأشرنا لهذا

النوع، من البيان في ترجمة هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} . قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} ، وفي ترجمة هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: {وَ لِيذَى قَالَ لِيُولَدِيهِ أَف لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَيْتَ لِقُرُونٍ مِنْ قَبْلِي وَهُمْ لَا يَسْتَعِينَانِ لِلَّهِ وَبِئْسَ الْوَالِدُ الْكَافِرُ الَّذِي إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَدْعُوهُ لِيُؤْتِيَهُ مِثْلُ مِيرَاثِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ} . التحقيق إن شاء الله أن، { لِيذَى } في قوله: { وَ لِيذَى قَالَ لِيُولَدِيهِ } بمعنى الذين، وأن الآية عامة في كل عاق لوالديه مكذب بالبحث. والدليل من القرآن على أن الذي، بمعنى الذين، وأن المراد به العموم، أن { لِيذَى } في قوله: { وَ لِيذَى قَالَ لِيُولَدِيهِ } مبتدأ خبره قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} . والإخبار عن لفظة الذي في قوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ} القول بصيغة الجمع، صريح في أن المراد بالذي، العموم لا الأفراد. وخير ما يفسر به القرآن القرآن. وبهذا الدليل القرآني تعلم أن قول من قال في هذه الآية الكريمة أنها نازلة في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ليس بصحيح، كما جازمت عائشة رضي الله عنها بطلانه.

وفي نفس أية الأحقاف هذه دليل آخر واضح على بطلانه، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول، وهو قوله {وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} . ومعلوم أن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم وحسن إسلامه، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة، رضي الله عنهم.

وغاية ما في هذه الآية الكريمة هو إطلاق الذي وإرادة الذين، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب، لأن لفظ الذي مفرد ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها، وقد تقرر في علم الأصول أن الموصولات كالذي والتي وفروعها من صيغ العموم، كما أشار له في مراقبي السعود بقوله: صيغة كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

فمن إطلاق الذي وإرادة الذين في القرآن، هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف. وقوله تعالى في سورة البقرة: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ لِيذَى سَبْتًا إِذْ تَرَكَتَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} بصيغة الجمع في الضمائر الثلاثة التي هي {يُبْصِرُونَ} {وَتَرَكَتَهُمْ}، والواو في {لَا يُبْصِرُونَ} وقوله تعالى في البقرة أيضاً: {كَلِمَاتٍ يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ

{النَّاسِ} أي كالذين ينفقون بدليل قوله {لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا}.

وقوله في الزمر: {وَلَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وقوله في التوبة {وَحُصِّنْكُمْ كَلَّذِي خَاصًا} أي كالذين خاضوا بناء على أنها موصولة لا مصدرية، ونظير ذلك من كلام العرب قول أشهب بن رميلة: فإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عدیل بن الفرخ العجلي: وبت أساقي القوم إخوتي الذي غوايتهم غيبي ورشدهم رشدي

وقول الراجز: يا رب عبس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا في من قعد

* إلا الذي قاموا بإطراف المسد *
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {أَفْ لَكُمْ آ} كلمة تضجر. وقائل ذلك عاق لوالديه غير مجتنب نهى اللو في قوله: {إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ لِكِبَرٍ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ}. وقوله {أَتَعِدَّائِنِي}: فعل مضارع وعد، وحذف واوه في المضارع مطرد، كما ذكره في الخلاصة بقوله: فإمر أو مضارع من كوعد احذف وفي كعدة ذاك اطرد

والنون الأولى نون الرفع، والثانية نون الوقاية كما لا يخفى. وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي: أتعدانني بنونين مكسورتين مخفتين وبياء ساكنة.

وقراه هشام عن ابن عامر بنون مشددة مكسورة وبياء ساكنة. وقرأه نافع وابن كثير بنونين مكسورتين مخفتين وبياء مفتوحة، والهمزة للإنيكار.

وقوله {أَنْ أُخْرَجَ} أي أبعث من قبري حياً بعد الموت. والمصدر المنسب من أن وصلتها هو المفعول الثاني لتعدانني يعني أتعدانني الخروج من قبري حياً بعد الموت، والحال قد مضت القرون أي هلكت الأمم الأولى، ولم يحيي منهم أحد، ولم يرجع بعد أن مات.

وهما أي والداه يستغيثان الله أي يطلبانه أن يغيثهما بأن يهدي ولدهما إلى الحق والإقرار بالبعث، ويقولان لولدهما: ويلك أمن. أي بالله وبالبعث بعد الموت.

والمراد بقولهما وويلك: حثه على الإيمان إن وعد الله حق، أي وعده بالبعث بعد الموت حق لا شك فيه، فيقول ذلك الولد العاق المنكر للبعث: {مَا هَذَا} إن الذي تعداني إياه من البعث بعد الموت، {إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ}.

والأساطير جمع أسطورة. وقيل جمع إسطورة، ومراده بها ما سطره الأولون، أي كتبه من الأشياء التي لا حقيقة لها. وقوله {أُولَئِكَ} ترجع الإشارة فيه، إلى العاقبين المكذبين، بالبعث المذكورين في قوله: {وَلِذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أَفٍّ لَكُمْ}.

وقوله: {حَقٌّ عَلَيْهِمْ لِقَوْلُ} أي وجبت عليهم كلمة العذاب.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة يس في الكلام على قوله تعالى {لَقَدْ حَقَّ لِقَوْلِ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن منكري البعث يحق عليهم

القول لكفرهم، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان

في الكلام على قوله تعالى {وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}.

{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدُّنْيَا وَ سَلَّمْتُمْ عَلَيْهَا فَا لِيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ

تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ * وَ لِكُرْ آجَا

عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّارُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

إِلَّا تَعْبَأُوا إِلَّا اللَّهَ لِيُخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْنَا

لِنُفَكِّنَا عَنْ عَاهِلَتِنَا قَاتِنًا يَمَّا بَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا

أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنْ أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ *

قَلَّمَا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرٌ بَلْ

هُوَ مَا بَشَّرْتُم بِهِ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا

فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسِيكُهُمْ كَذَلِكَ تَجْزِي لِقَوْمٍ مُجْرِمِينَ *

وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنْتُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ

وَأَفْبَدَهُ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْبَدْتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ

إِذْ كَانُوا يَخْجَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ *

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا جَوْلَكُمْ مِّنْ لِّقْرَىٰ وَصَرَّفْنَا آيَاتٍ لَّعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *

قَلُولًا نَّصَرَّهُمْ لِّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا

عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَقْرًا مِّن

لِجَنٍّ يَسْتَمِعُونَ لِقُرْآنٍ فَلَمَّا حَصَرُوهُ قَالُوا أَنْصُبُوا قَلَمًا فُضِيَ

وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يُقَوْمَتَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِن

بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ

مُسْتَقِيمٍ * يُقَوْمَتَنَا أَحْيُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَعَامِيُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن

ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِيَكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ

بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

* أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ لِذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْزِ

بَخْلَفَهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُجِيءَ لِمَوْتِي بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *
 وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا
 الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَطَبَّرَ كَمَا صَبَّرَ أَوْلُوا
 لِعِزْمٍ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ
 يَلَوْا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا لِقَوْمٍ لِّفَسِقُونَ {
 قوله تعالى: { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا
 كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ } .
 معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار:
 { أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ } .

فقوله يعرضون على النار: قال بعض العلماء: معناه يباشرون
 حرها كقول العرب: عرضهم على السيف إذا قتلهم به، وهو معنى
 معروف في كلام العرب.

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا في قوله: { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ } وهذا يدل على أن المراد
 بالعرض مباشرة العذاب لقوله: { قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا
 الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } . وقوله تعالى: { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ
 سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا } لأنه عرض عذاب.
 وقال بعض العلماء: معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها،
 والكشف لهم عنها، حتى يروها كما قال تعالى: { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ
 النَّارَ } . وقال تعالى: { وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ } .

وقال بعض العلماء: في الكلام قلب، وهو مروى عن ابن عباس
 وغيره.

قالوا: والمعنى ويوم تعرض النار على الذين كفروا قالوا وهو
 كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض. يعنون عرضت الحوض
 على الناقة، ويدل لهذا قوله تعالى: { وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
 لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا } .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له:
 هذا النوع الذي ذكره من القلب في الآية، كقلب الفاعل مفعولاً،
 والمفعول فاعلاً، ونحو ذلك اختلف فيه علماء العربية، فمنعه
 البلاغيون إلا في التشبيه، فأجازوا قلب المشبه مشبهاً به والمشبه
 به مشبهاً بشرط أن يتضمن ذلك نكتة وسراً لطيفاً كما هو
 المعروف عندهم في مبحث التشبيه المقلوب.

وأجازه كثير من علماء العربية.
 والذي يظهر لنا أنه أسلوب عربي نطقت به العرب في لغتها، إلا
 أنه يحفظ ما سمع منه، ولا يقاس عليه ومن أمثلته في التشبيه
 قول الراجز:

ومنهل مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

أي كأن سماءه لون أرضه، وقول الآخر:
وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فقلب التشبيه ليوهم أن الفرع أقوى من الأصل في وجه الشبه.
قالوا ومن أمثلته في القرآن {وَأَنْبِئَهُمْ مَنْ لِيُكُونُوا مَأْوَاً وَإِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ}، لأن العصبه من الرجال هي التي تنوء بالمفاتيح أي تنهض بها بمشقة وجهه لكثرتها وثقلها، وقوله تعالى: {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ} أي عموا عنها. ومن أمثله في كلام العرب قول كعب بن زهير:

كأن أوب ذراعها إذا عرقت وقد تلعف بالقور العساقيل
لأن معنى قوله: تلعف لبس اللفاح وهو اللحاف، والقور الحجارة العظام، والعساقيل: السراب.
والكلام مقلوب، لأن القور هي التي تلتحف بالعساقيل لا العكس كما أوضحه لبيد في معلقته بقوله:
فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحي واجتاب أردية السراب إكامها

فصرح بأن الإكام التي هي الحجارة اجتابت أي لبست أردية السراب.

والأردية جمع رداء، وهذا النوع من القلب وإن أجاز به بعضهم فلا ينبغي حمل الآية عليه، لأنه خلاف الظاهر، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه.

وظاهر الآية جار على الأسلوب العربي الفصيح، كما أوضحه أبو حيان في البحر المحيط.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَ سَبَّحْتُمْ بِهَا} قرأه ابن كثير وابن عامر {أأذهبتكم} بهمزتين وهما على أصولهما في ذلك.

فابن كثير يسهل الثانية بدون ألف إدخال بين الهمزتين. وهشام يحققها ويسهلها مع ألف الإدخال. وابن ذكوان يحققها من غير إدخال.

وقرأه نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ} بهمزة واحدة علي الخبر من غير استفهام.

واعلم أن للعلماء كلاماً كثيراً في هذه الآية قائلين إنها تدل على أنه ينبغي التقشف والإقلال من التمتع بالماكل والمشارب والملابس ونحو ذلك.

وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفاً منه، أن يدخل في عموم من يقال لهم يوم القيامة: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}. والمفسرون يذكرون هنا آثاراً كثيرة في ذلك، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش. قال مقيده عفا الله عنه وغفر له:

التحقيق: إن شاء الله في معنى هذه الآية هو أنها في الكفار وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم، لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم. وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق، لأن الكتاب والسنة الصحيحة دلان عليه والله تعالى يقول: {قَاتِن تَنَارَ عَنَّمْ فِي شَيْءٍ قَرَدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}.

أما كون الآية في الكفار فقد صرح الله تعالى به في قوله: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ}. والقرآن والسنة الصحيحة، قد دلا على أن الكافر إن عمل عملاً صالحاً مطابقاً للشرع، مخلصاً فيه لله، كالكافر الذي يبر والديه، ويصل الرحم ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين المظلوم يتبغى بذلك وجه الله يثاب بعمله في دار الدنيا خاصة بالرزق والعافية، ونحو ذلك ولا نصيب له في الآخرة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْحَسُونَ} وَلِيكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَخَبَطُوا مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وقوله تعالى: {وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}.

وقد قيد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في الآيات بمشيئته وإرادته، في قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ لِعَجَلَةٍ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا تَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا}. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها» هذا لفظ مسلم في صحيحه.

وفي لفظ له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته» اهـ. فهذا الحديث الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه التصريح، بأن الكافر ببخارى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، وبمقتضى ذلك. يتعين تعييناً لا

محيص عنه، أن الذي أذهب طبيباته في الدنيا واستمتع بها هو الكافر، لأنه لا يجزي بحسناته إلا في الدنيا خاصة. وأما المؤمن الذي يجزي بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، فلم يذهب طبيباته في الدنيا، لأن حسناته مدخرة له في الآخرة مع أن الله تعالى يشبه بها في الدنيا كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لا يحتسب ثوباً في الدنيا وليس ينقص أجر تقواه في الآخرة.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وعلى كل حال فالله جل وعلا أباح لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم الطبيبات في الحياة الدنيا، وأجاز لهم التمتع بها، ومع ذلك جعلها خاصة بهم في الآخرة، كما قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.

فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطبيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتمتع بذلك يوم القيامة، وهو صريح في أنهم لم يذهبوا طبيباتهم في حياتهم الدنيا. ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة، يكون لهم أجر زائد على ذلك، لأن المؤمنين يؤجرون، بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد، كما هو معلوم. والنصوص الدالة على أن الكافر هو الذي يذهب طبيباته في الحياة الدنيا، لأنه يجزي في الدنيا فقط كالآيات المذكورة، وحديث أنس المذكور عند مسلم، قد قدمناها موضحة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} وذكرنا هناك أسانيد الحديث المذكور وألفاظه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَلْيَوْمَ نُجْزَوْنَ عَذَابَ لَهْوٍ} أي عذاب الهوان وهو الذل والصغار. وقوله تعالى: {بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ}، الباء في قوله: بما كنتم سببية، وما مصدرية أي تجزون عذاب الهون بسبب كونكم مستكبرين في الأرض، وكونكم فاسقين.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} وقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ}.

وقد قدمنا النتائج الوخيمة الناشئة عن التكبر في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا}. وقوله تعالى: {بِغَيْرِ حَقٍّ} مع أنه من المعلوم أنهم لا يستكبرون في الأرض إلا استكباراً متلبساً بغير الحق كقوله تعالى: {وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه، وقوله: {فَقَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُوبُونَ لِكُتِّبَ بِأَيْدِيهِمْ}، ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم، ونحو ذلك من الآيات، وهو أسلوب عربي نزل به القرآن. قوله تعالى: {وَوُكِّرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ}. أيهم جل وعلا في هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعينه ولكنه بين في آيات أخرى، أنه يهود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كقوله تعالى: {وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} في سورة الأعراف وسورة هود وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {أَلَّا تَعْبُؤْا إِلَّا اللَّهَ}، {أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن النبي هوداً نهى قومه أن يعبدوا غير الله، وأمرهم بعبادته تعالى وحده، وأنه خوفهم من عذاب الله، إن تمادوا في شركهم به. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية جاءا موضحين في آيات

آخر. أما الأول منهما ففي قوله تعالى: {وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} في سورة الأعراف وسورة هود ونحو ذلك من الآيات. وأما خوفه عليهم العذاب العظيم فقد ذكره في الشعراء في قوله تعالى: {وَأَقْبُوا لَكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ مَا مَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ وُجُوهِتِ وَعُيُونِنَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وهو يوم القيامة. قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ}. ومعنى قوله تعالى: {عَظِيمٍ} قالوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَّ، أي لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة الله وحده.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين: أحدهما: إنكار عاد على هود أنه جاءهم، ليركوا عبادة الأوثان، ويعبدوا الله وحده. والثاني: أنهم قالوا له: إئتنا بما تعدنا من العذاب وعجله لنا إن كنت صادقاً فيما تقول، عناداً منهم وعتوا.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف {قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَعَبَّدَ اللَّهَ وَخَدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَتَعَبَّدُ آبَاؤُنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ}. قوله تعالى: {وَأَتْلَعَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبي الله هوداً قال لقومه، إنه يبلغهم ما أرسل به إليهم، لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وهذا المعنى جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في

الأعراف: { قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
لَعَلِّمِينَ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ تَاصِحٌ أَمِينٌ } وقوله تعالى
في سورة هود: { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ }.
قوله تعالى: { بَلْ هُوَ مَا سَتَعَجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ }. قد
قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله
تعالى: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ }. قوله
تعالى: { وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ }.
لفظة {ءان} في هذه الآية الكريمة فيها للمفسرين ثلاثة أوجه،
يدل استقرار القرآن، على أن واحداً منها هو الحق، دون الاثنين
الآخرين.

قال بعض العلماء: إن شرطية وجزاء الشرط محذوف، والتقدير
إن مكناكم فيه طغيتم وبغيتم.
وقال بعضهم: إن زائدة بعد ما الموصولة حملاً لما الموصولة على
ما النافية لأن ما النافية تزداد بعدها لفظة إن كما هو معلوم.
كقول قتيلة بنت الحرث والنضر العبديّة: أبلغ بها ميتاً بأن تحية
ما إن نزل بها النجائب تخفقوا

وقول دريد بن الصمة في الخنساء: ما إن رأيت ولا سمعت به
كالיום طالى أينق جرب

فإن زائدة بعد ما النافية في البيتين وهو كثير، وقد حملوا على ذلك
ما الموصولة فقالوا: تزداد بعدها إن كاية الأحقاف هذه. وأنشد
لذلك الأخفش: يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه
الخطوب

أي يرجى المرء الشيء الذي لا يراه، وإن زائدة، وهذان هما
الوجهان اللذان لا تظهر صحة واحد منهما.
لأن الأول منهما فيه حذف وتقدير.
والثاني منهما فيه زيادة كلمة.
وكل ذلك لا يصار إليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.
أما الوجه الثالث الذي هو الصواب إن شاء الله، فهو أن لفظة إن
نافية بعد ما الموصولة أي ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه
من القوة في الأجسام، وكثرة الأموال والأولاد، والعدد.
وإنما قلنا: إن القرآن يشهد لهذا القول لكثرة الآيات الدالة عليه،
فإن الله جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه يهدد كفار مكة بأن
الأمم الماضية كانت أشد منهم بطشاً وقوة، وأكثر منهم عدداً،
وأموالاً، وأولاداً، فلما كذبوا الرسل، أهلكهم الله ليخافوا من تكذيب

النبى صلى الله عليه وسلم أن يهلكهم الله بسببه، كما أهلك الأمم التي هي أقوى منهم، كقوله تعالى في المؤمن { أَقَلَّمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا آغَيْنَاهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } .
 وقوله فيها أيضاً: { أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاتَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ } .

وقوله تعالى في الروم: { أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَلُوا مِن شَرِّهِمْ قُوَّةً وَءَاتَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا } .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف في السلام على قوله تعالى: { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَصَّيْ مَثَلُ الْأُولِينَ } . قوله تعالى: { فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ لَإِذِينَ لَآخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكْ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } .
 قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الجاثية في الكلام على قوله تعالى: { وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا لَآخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } .

قوله تعالى: { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ لِقْرَاءَانَ لِقْرَاءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ } . ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف، أنه صرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم { نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ } والنفر دون العشرة { يَسْتَمِعُونَ لِقْرَاءَانَ } وأنهم لما حضروه، قال بعضهم لبعض { أَنصِتُوا } أي اسكتوا مستمعين، وإليه لما قضى. أي انتهى النبي صلى الله عليه وسلم من قراءته { وَلُوا } أي رجعوا إلى قومهم من الجن في حال كونهم منذرين أي مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بالله، ويجيبوا داعيه محمداً صلى الله عليه وسلم. وأخبروا قومهم، أن هذا الكتاب الذي سمعوه يتلى، المنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق، وهو ضد الباطل، وإلى طريق مستقيم، أي لا اعوجاج فيه. وقد دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبي صلى الله عليه وسلم، حتى أوحى الله ذلك إليه، كما قال تعالى في القصة بعينها،

مع بيانها وبسطها، بتفصيل الأقوال التي قالتها الجن، بعد استماعهم القرآن العظيم: { قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ سَتَمِعَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا } إلى آخر الآيات. قوله تعالى: { يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا

دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَبُجْرَكُمْ مِّنْ عَذَابِ
 أَلِيمٍ}. منطوق هذه الآية أن من أجاب داعي الله محمداً صلى الله
 عليه وسلم وأمن به، وبما جاء به، من الحق غفر الله له ذنوبه.
 وأجاره من العذاب الأليم، ومفهومها، أعني مفهوم مخالفتها،
 والمعروف بدليل الخطاب، أن من لم يجب داعي الله من الجن،
 ولم يؤمن به لم يغفر له، ولم يجره، من عذاب أليم، بل يعذبه
 ويدخله النار، وهذا المفهوم جاء مصرحاً به مبيناً في آيات أخر،
 كقوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِّنْ لِّجِنَّةٍ وَالنَّاسِ
 أَجْمَعِينَ}. وقوله تعالى: {وَلَكِنَّ حَقَّ لِقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِّنْ
 لِّجِنَّةٍ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} وقوله تعالى {قَالَ لَخُلُوا فِيَّ أَهْمٌ قَدْ
 خَلَّتْ مِنِّي قَبْلِكُمْ مِّنْ لِّجَنٍّ وَالنَّاسِ فِي النَّارِ}: وقوله تعالى
 {فَكُنُكِبُوا فِيهَا هُمْ وَ لِعَاؤُوتَوْجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} إلى غير ذلك
 من الآيات.

أما دخول المؤمنين، المجيبين داعي الله من الجن، الجنة فلم
 تتعرض له الآية الكريمة بإثبات ولا نفي، وقد دلت آية أخرى على
 أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة، وهي قوله تعالى في سورة
 الرحمن: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ نَّبَاتٍ ءَالَاءِ رَبِّكَ مَا تُكَدِّبَانِ}
 وبه تعلم أن ما ذهب إليه بعض أهل العلم، قائلين إنه يفهم من هذه
 الآية، من أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة، وأن جزاء
 إيمانهم وإجابتهم داعي الله، هو الغفران وإجارتهم من العذاب
 الأليم فقط، كما هو نص الآية، كله خلاف التحقيق.
 وقد أوضحنا ذلك في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب، عن آيات
 الكتاب» في الكلام على هذه الآية، من سورة الأحقاف فقلنا فيه
 ما نصه:

هذه الآية، يفهم من ظاهرها، أن جزاء المطيع من الجن غفران
 ذنوبه، وإجارته من عذاب أليم، لا دخوله الجنة.
 وقد تمسك جماعة من العلماء منهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله
 تعالى، بظاهر هذه الآية، فقالوا إن المؤمنين المطيعين من الجن لا
 يدخلون الجنة، مع أنه جاء في آية أخرى، ما يدل على أن مؤمنهم
 في الجنة وهي قوله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}، لأنه
 تعالى بين شموله للجن والإنس، بقوله {قَبَائِ ءَالَاءِ رَبِّكَ مَا
 تُكَدِّبَانِ}.

ويستأنس لهذا بقوله تعالى {لَمْ يَطْمِئْتُهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}
 فإنه يشير إلى أن في الجنة جناً يطمئون النساء كالإنس.
 والجواب عن هذا، أن آية الأحقاف، نص فيها على الغفران،
 والإجارة من العذاب، ولم يتعرض فيها لدخول الجنة، بنفي ولا

إثبات، وآية الرحمن نص فيها على دخولهم الجنة، لأنه تعالى قال فيها: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ}. وقد تقرر في الأصول أن الموصولات من صيغ العموم، فقوله: {وَلِمَنْ خَافَ}، يعم كل خائفٍ مقام ربه، ثم صرح بشمول ذلك الجن والإنس معاً بقوله: {قَبَائِلُ آلِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فبين أن الوعد بالجننتين لمن خاف مقام ربه من الآئ، أي نعمه على الإنس والجن، فلا تعارض بين الآيتين، لأن إحداهما بينت ما لم تعرض له الأخرى.

ولو سلمنا أن قوله: {يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}، يفهم منه عدم دخولهم الجنة، فإنه إنما يدل عليه بالمفهوم، وقوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ} {قَبَائِلُ آلِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ كَفَرُوا} يدل على دخولهم الجنة بعموم المنطوق.

والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر في الأصول. ولا يخفى أنا إذا أردنا تحقيق هذا المفهوم المدعي وجدناه معدوماً من أصله للإجماع على أن قسمة المفهوم ثنائية، إما أن يكون مفهوم موافقة أو مخالفة ولا ثالث.

ولا يدخل هذا المفهوم المدعي في شيء من أقسام المفهومين. أما عدم دخوله في مفهوم الموافقة بقسميه فواضح. وأما عدم دخوله في شيء من أنواع مفهوم المخالفة، فلأن عدم دخوله في مفهوم الحصر أو الغاية أو العدد أو الصفة أو الظرف واضح.

فلم يبق من أنواع مفهوم المخالفة يتوهم دخوله فيه إلا مفهوم الشرط أو اللقب، وليس داخلياً في واحد منهما. فظهر عدم دخوله فيه أصلاً.

أما وجه توهم دخوله في مفهوم الشرط، فلأن قوله: {يَغْفِرُ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ} فعل مضارع مجزوم بكونه جزاء الطلب. وجمهور علماء العربية على أن الفعل إذا كان كذلك فهو مجزوم بشرط مقدر، لا بالجملة قبله، كما قيل به.

وعلى الصحيح الذي هو مذهب الجمهور، فتقرير المعنى: {أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ} إن تفعلوا ذلك يغفر لكم، فيتوهم في الآية مفهوم هذا الشرط المقدر.

والجواب عن هذا: أن مفهوم الشرط عند القائل به، إنما هو في فعل الشرط لا في جزائه، وهو معتبر هنا في فعل الشرط على عادته، فمفهوم أن تجيبوا داعي الله وتؤمنوا به يغفر لكم، أنهم إن لم يجيبوا داعي الله ولم يؤمنوا به لم يغفر لهم، وهو كذلك.

أما جزاء الشرط فلا مفهوم له لاحتمال أن تترتب على الشرط الواحد مشروطات كثيرة، فيذكر بعضها جزاء له فلا يدل على نفي غيره.

كما لو قلت لشخص مثلاً: إن تسرق يجب عليك غرم ما سرقت. فهذا الكلام حق ولا يدل على نفي غير الغرم كالقطع، لأن قطع اليد مرتب أيضاً على السرقة كالغرم.

وكذلك الغفران، والإجارة من العذاب ودخول الجنة كلها مرتبة على إجابة داعي الله والإيمان به.

فذكر في الآية بعضها وسكت فيها عن بعض، ثم بين في موضع آخر، وهذا لا إشكال فيه.

وأما وجه توهم دخوله في مفهوم اللقب، فلأن اللقب في اصطلاح الأصوليين هو ما لم يمكن انتظام الكلام العربي دونه، أعني المسند إليه سواء كان لقباً أو كنية أو اسماً أو اسم جنس أو غير ذلك.

وقد أوضحنا اللقب غاية في المائدة.

والجواب عن عدم دخوله في مفهوم اللقب، أن الغفران والإجارة من العذاب المدعي بالفرض أنهما لقبان لجنس مصدريهما، وأن تخصيصهما بالذكر يدل على نفي غيرهما في الآية سندان لا مسند إليهما بدليل أن المصدر فيهما كامن في الفعل ولا يستند إلى الفعل إجماعاً ما لم يرد مجرد لفظه على سبيل الحكاية.

ومفهوم اللقب عند القائل به إنما هو فيما إذا كان اللقب مسنداً إليه، لأن تخصيصه بالذكر عند القائل به يدل على اختصاص الحكم به دون غيره، وإلا لما كان للتخصيص بالذكر فائدة كما عللوا به مفهوم الصفة.

وأجيب من جهة الجمهور: بأن اللقب ذكر ليتمكن الحكم لا لتخصيصه بالحكم، إذ لا يمكن الإسناد بدون مسند إليه. لا يظهر.

فلا عبرة بقول الصيرفي وأبي بكر الدقاق وغيرهما من الشافعية. ولا يقول ابن خويز منداد وابن القصار من المالكية ولا يقول بعض الحنابلة باعتبار مفهوم اللقب، لأنه لا دليل على اعتباره عند القائل به، إلا أنه يقول:

لو لم يكن اللقب مختصاً بالحكم لما كان لتخصيصه بالذكر فائدة، كما علل به مفهوم الصفة لأن الجمهور يقولون: ذكر اللقب ليسند إليه وهو واضح لا إشكال فيه.

وأشار صاحب مراقبي السعود إلى تعريف اللقب بالاصطلاح الأصولي وأنه أضعف المفاهيم بقوله: أضعفها اللقب وهو ما أبى من دونه نظم الكلام العرب

وحاصل فقه هذه المسألة أن الجن مكلفون، على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم بدلالة الكتاب والسنة، وإجماع المسلمين وأن كافرهم في النار بإجماع المسلمين، وهو صريح قوله تعالى: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} وقوله تعالى: {فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَ إِبْرَاهِيمُ وَتُوحْيُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ}، وقوله تعالى: {قَالَ خُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِّنْ لِّجِنٍّ وَالنَّاسِ فِي النَّارِ} إلى غير ذلك من الآيات.

وأن مؤمنينهم اختلف في دخولهم الجنة ومنشأ الخلاف الاختلاف في فهم الآيتين المذكورتين.

والظاهر دخولهم الجنة كما بينا، والعلم عند الله تعالى. اهـ. منه بلفظه. قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزَمْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ لِمَوْتِي بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية، وأنها من الآيات الدالة على البعث في البقرة والنحل والجمانية، وغير ذلك من المواضع وأحلنا على ذلك مراراً، والباء في قوله {بِقَادِرٍ} يسوغه أن النفي متناول لأن فما بعدها، فهو في معنى أليس الله بقادر؟ ويوضح ذلك قوله بعد: بلى. مقبراً لقدرته على البعث وغيره. قوله تعالى: {وَ طَبَّرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ}، فامر الله العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافاً كثيراً.

وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا أربعة فصار هو صلى الله عليه وسلم خامسهم.

واعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن لفظة من، في قوله: من الرسل بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: {وَ طَبَّرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ}، فامر الله جل وعلا نبيه في آية القلم هذه بالصبر، ونهاه عن أن يكون مثل يونس، لأنه هو صاحب الحوت وكقوله: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} فأية القلم، وآية طه المذكورتان كلتاها تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}.

نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة، أن يستعجل العذاب لقومه، أي يدعو الله عليهم بتعجيله لهم، فمفعول تستعجل محذوف تقديره العذاب، كما قاله القرطبي، وهو الظاهر. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {وَدَّرْنِي وَ لِمُكَدِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلاً}. وقوله تعالى {فَمَهَلٍ لِّلْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوْبُدًا}.

فإن قوله {وَمَهَلْهُمُ قَلِيلاً}، وقوله: {فَمَهَلٍ لِّلْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوْبُدًا} موضح لمعنى قوله {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}.

والمراد بالآيات، نهيه صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل العذاب لهم، لأنهم معذبون، لا محالة عند انتهاء المدة المحدودة للإمهال، كما يوضحه قوله تعالى {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا}. وقوله تعالى {نُمتُّهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضَّضْتَهُمْ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} وقوله تعالى {قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَّتْ قَلِيلاً ثُمَّ أَصْطَرَّتْ إِلَى عَذَابٍ أَلْتَارٍ}. وقوله تعالى: {لَا يُعْرَبُكَ تَقَلُّبُ لِّذِينَ كَفَرُوا فِي لِيَدِيْمَتِّعٍ قَلِيلٍ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَنَسِيَ لِمَهَادٍ} وقوله تعالى: {قُلْ إِنْ لِّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ لِكْذِبٍ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُؤْا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَان لَمْ يَلْبُؤْا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} وفي سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: {قَالُوا لَيْسَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّيْنَ}.

وبيناً في الكلام على آية قد أفلح المؤمنون وجه إزالة إشكال معروف في الآيات المذكورة. قوله تعالى: {بَلَاغٌ}. التحقيق إن شاء الله أن أصوب القولين في قوله: {بَلَاغٌ} أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره، هذا بلاغ، أي هذا القرآن بلاغ من الله إلى خلقه. ويدل لهذا قوله تعالى في سورة إبراهيم {هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ}، وقوله في الأنبياء {إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ}، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والبلاغ اسم مصدر، بمعنى التبليغ، وقد علم باستقراء اللغة العربية، أن الفعال يأتي كثيراً، بمعنى التفعيل، كبلغه بلاغاً: أي تبليغاً، وكلمه كلاماً، أي تكليماً، وطلقها طلاقاً، وسرحها سراحاً، وبينه بياناً.

كل ذلك بمعنى التفعيل، لأن فعل مضعفة العين، غير معتلة اللام ولا مهموزته قياس مصدرها التفعيل.

وما جاء منه على خلاف ذلك، يحفظ ولا يقاس عليه، كما هو معلوم في محله.

أما القول بأن المعنى وذلك اللبث بلاغ، فهو خلاف الظاهر كما ترى، والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة الأحقاف



{ لِيَذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَ أَعْمَلَهُمْ * وَ لِيَذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ
مِنَ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ يَسْتَنِبِتُهُمْ وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ * ذَلِكَ بَانَ لِيَذِينَ كَفَرُوا
لَتُبْعُوا لِبَطَلٍ وَأَنَّ لِيَذِينَ ءَامَنُوا تَبْعُوا لِحَقٍّ مِّنَ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ * فَإِنَّا لَيَقِينُ لِيَذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبَ
الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا لُؤْيَاقَ فَإِنَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءً
حَتَّى تَضَعَ لِحَرْبٍ أَوْ رَأَيْهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَنَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن
لَيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ لِيَذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَلَن يُضِلُّ أَعْمَلَهُمْ
* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بِأَلْفِهِمْ * وَيُدْخِلُهُمْ لِحَنَّةٍ عَرَفَهَا لَهُمْ * يَا أَيُّهَا لِيَذِينَ
ءَامَنُوا إِن تَضَرُّوا إِلَهَ تَنَصَّرُكُمْ وَيَسْتَبِثُ أَقْدَامَكُمْ * وَ لِيَذِينَ كَفَرُوا
فَتَعَسَى لَهُمْ وَأَصَلَ أَعْمَلَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَلَهُمْ * أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
لِيَذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا * ذَلِكَ بَانَ لِلَّهِ
مَوْلَى لِيَذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ لِكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ
لِيَذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَ لِيَذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ
* وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ
فَلَا نَصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُرَّ لَهُ سُؤ
عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ }

سُورَةُ الْقِيَامِ وَهِيَ سُورَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قوله تعالى: { لِيَذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَ أَعْمَلَهُمْ وَ لِيَذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِّنَ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ يَسْتَنِبِتُهُمْ وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ ذَلِكَ بَانَ لِيَذِينَ كَفَرُوا لَتُبْعُوا لِبَطَلٍ وَأَنَّ لِيَذِينَ ءَامَنُوا تَبْعُوا لِحَقٍّ مِّنَ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ }. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: وصدوا عن سبيل الله، قال بعضهم: هو من الصدود، لأن صد في الآية لازمة.

وقال بعضهم: هو من الصد لأن صد في الآية متعدية.

وعليه فالمفعول محذوف أي صدوا غيرهم عن سبيل الله، أي عن الدخول في الإسلام.

وهذا القول الأخير هو الصواب، لأنه على القول بأن صد لازمة، فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله {كَفَرُوا} لأن الكفر هو أعظم أنواع الصدود عن سبيل الله.

وأما على القول: بأن صد متعدية فلا تكرار لأن المعنى أنهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم بصددهم إياهم عن سبيل الله، وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {فَلْيُحْيِيَهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ}، أن اللفظ إذا دار بين التأكيد والتأسيس وجب حمله على التأسيس، إلا بدليل يجب الرجوع إليه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {أَصَلَّ أَعْمَلَهُمْ} أي أبطل ثوابها، فما عمله الكافر من حسن في الدنيا، كقري الضيف، وبر الوالدين، وحمي الجار، وصلة الرحم، والتنفيس عن المكروب، يبطل يوم القيامة، ويضمحل ويكون لإثر له، كما قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا}، وهذا هو الصواب في معنى الآية.

وقيل: أضل أعمالهم أي أبطل كيدهم، الذي أرادوا أن يكيدوا به النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} أي غفر لهم ذنوبهم وتجاوز لهم عن أعمالهم السيئة {وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ} أي أصلح لهم شأنهم وحالهم إصلاحاً لا فساد معه، وما ذكره جل وعلا هنا في أول هذه السورة الكريمة، من أن يبطل أعمال الكافرين، ويبقى أعمال المؤمنين جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْإِحْيَاءَ الَّذِي أَوْزَيْنَاهَا نُوفًا إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. وقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمِمَّا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ النَّصِيبِ} وقوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا مع بعض الأحاديث الصحيحة فيه، مع زيادة إيضاح مهمة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}. وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ دُونِ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ}،

وذكرنا طرفاً منه في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَبِئْتُمْتَعْتُم بِهَا}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {أَصَلَّ أَعْمَلُهُمْ} أصله من الضلال بمعنى الغيبة، والاضمحلال. لا من الضالة كما زعمه الزمخشري فهو كقوله: {وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}. وقد قدمنا معاني الضلال في القرآن واللغة، في سورة الشعراء في الكلام على قوله: {قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا وَاثًا مِنَ الصَّالِينَ}، وفي آخر الكهف في الكلام على قوله تعالى: {لَّذِينَ صَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، وفي غير ذلك من المواضع. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قد قدمنا إيضاحه في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}، وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَوَاعظُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ}.

قال فيه ابن كثير: هو عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان، بعد بعثته صلى الله عليه وسلم. اهـ منه. ويبدل لذلك قوله تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتُنَّ مَوْعِدُهُ قَلَّا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ لِحَقٌّ مِّنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَهُوَ لِحَقٌّ} جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم هو الحق من الله، كما قال تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ لِحَقٌّ}، قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَيَّ لِكُفْرَيْتُمْ بِهِ لِحَقِّ لَيَقِينَ}. وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ لِحَقٌّ مِّنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ هُدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِّنْ رَبِّكُمْ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا لِبَطْلٍ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا لِحَقٍّ مِّنْ رَبِّهِمْ} أي ذلك المذكور من إضلال أعمال الكفار أي إبطالها واضمحلالها، وبقاء ثواب أعمال المؤمنين، وتكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم، كله واقع بسبب أن الكفار اتبعوا الباطل، ومن اتبع الباطل فعمله باطل. والزائل المضمحل تسميه العرب باطلاً وضده الحق. وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق، ومتبع الحق أعماله حق، فهي ثابتة باقية، لا زائلة مضمحلة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن اختلاف الأعمال، يستلزم اختلاف الثواب، لا يتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل، الذي يستوجب الإنكار عليه، جاء موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى: {أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} . وقوله تعالى: {أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} . وقوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ جُنَّحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ} .

قال فيه الزمخشري: فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟ قلت: في جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار. واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين. اهـ. منه.

وأصل ضرب الأمثال يراد منه بيان الشيء بذكر نظيره الذي هو مثل له. قوله تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخِنْتُمُوهُمْ فَاسُدُّوا وُجُوهَكُمْ فَاسُدُّوا وُجُوهَكُمْ وَإِنَّمَا يَأْتِي بِذُنُوبِهِمْ لَحَرْبٌ أُوْرَارَهَا} . قوله تعالى: فاضرب الرقاب مصدر نائب عن فعله، وهو بمعنى فعل الأمر، ومعلوم أن صيغ الأمر في اللغة العربية أربع:

وهي فعل الأمر كقوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكَ السَّمْسِ} . واسم فعل الأمر كقوله تعالى: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ} . والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى: {ثُمَّ لِيَقْضُوا تَقَاتِهِمْ وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ} .

والمصدر النائب عن فعله كقوله تعالى: {فَصَرْبَ الرِّقَابِ} ، أي فاضربوا رقابهم، وقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَثَخِنْتُمُوهُمْ} أي أوجعتم فيهم قتلاً.

فالإثخان هو الإكثار من قتل العدو حتى يضعف ويثقل عن النهوض. وقوله: فاسدوا الوجوه، أي فأسروهم، والوجوه بالفتح والكسر اسم لما يؤسر به الأسير من قد ونحوه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم المسلمون، ثم بعد ذلك بأسروهم جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {مَا كَانَ لِئَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ} ، وقد أمر تعالى بقتلهم في آيات آخر كقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} . وقوله: {وَاصْرَبُوا قَوْقُوعًا وَأَعْتَقُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} ، وقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا

لْمُشْرِكِينَ كَافَّةً}. وقوله: {فَإِمَّا تَثُقَفَانَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ}، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} أي فيما تمنون عليهم منا، أو تفادونهم فداءً. ومعلوم أن المصدر إذا سيق لتفصيل وجب حذف عامله، كما قال في الخلاصة: وما لتفصيل كما منا عامله يحذف حيث عنا

ومنه قول الشاعر: لأجهدن فيما درء واقعة تخشى وإما بلوغ
السؤل والأمل

وقال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة بالآيات التي ذكرنا قبلها وممن يروى عنه هذا القول، ابن عباس والسدي وقتادة والضحاك وابن جريج.

وذكر ابن جرير عن أبي بكر رضي الله عنه ما يؤيده. ونسخ هذه الآية هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله فإنه لا يجوز عنده المن ولا الفداء، لأن الآية المنسوخة عنده بل يخير عنده الإمام بين القتل والاسترقاق.

ومعلوم أن آيات السيف النازلة في براءة نزلت بعد سورة القتال هذه.

وأكثر أهل العلم يقولون: إن الآية ليست منسوخة، وإن جميع الآيات المذكورة، محكمة، فالإمام مخير وله أن يفعل ما رآه مصلحة للمسلمين من من وفداء وقتل واسترقاق. قالوا: قتل النبي صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث أسيرين يوم بدر، وأخذ فداء غيرهما من الأسارى. ومن على ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، وكان يسترق السبي من العرب وغيرهم.

وقال الشوكاني في نيل الأوطار: والحاصل أنه قد ثبت في جنس أسارى الكفار جواز القتل والمن والفداء والاسترقاق، فمن ادعى أن بعض هذه الأمور تختص ببعض الكفار دون بعض لم يقبل منه ذلك إلا بدليل ناهض يخصص العمومات، والمجوز قائم في مقام المنع، وقول علي وفعله عند بعض المانعين من استرقاق ذكور العرب حجة. وقد استرق بني ناجية ذكورهم وإناتهم وباعهم كما هو مشهور في كتب السير والتواريخ اهـ. محل الغرض منه. ومعلوم أن بني ناجية من العرب. قال مقيدة عفا الله عنه وغفر له: لم يختلف المسلمون في جواز الملك بالرق.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية التي فيها تقسيم حكم الأسارى، إلى من وفداء، لم تتناول قطعاً إلا الرجال المقاتلين من الكفار لأن قوله {فَصْرَبَ الرِّقَابِ}، وقوله: {حَتَّىٰ إِذَا أَثَخْنْتُمُوهُمْ}. صريح في ذلك كما ترى.

وعلى إثخان هؤلاء المقاتلين رتب بالفاء قوله: {فَشُدُّوا لُؤْتَاقَ}. فظهر أن الآية لم تتناول أنثى ولا صغيراً البتة.

ويزيد ذلك إيضاحاً أن النهي عن قتل نساء الكفار وصبيانهم ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأكثر أهل الرق في أقطار الدنيا إنما هو من النساء والصبيان.

ولو كان الذي يدعي نفي الرق من أصله يعترف بأن الآية، لا يمكن أن يستدل بها على شيء غير الرجال المقاتلين، لقصر نفي الرق الذي زعمه على الرجال الذين أسروا، في حال كونهم مقاتلين، ولو قصره على هؤلاء، لم يمكنه أن يقول بنفي الرق من أصله كما ترى.

الوجه الثاني: هو ما قدمنا من الأدلة على ثبوت الرق في الإسلام. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {حَتَّىٰ تَصْعَ لِحَرْبِ أَوْزَارِهَا} أي إذا لقيتم الكفار فاضربوا أعناقهم {حَتَّىٰ إِذَا أَثَخْنْتُمُوهُمْ} قتلاً فأسروهم {حَتَّىٰ تَصْعَ لِحَرْبِ أَوْزَارِهَا} أي حتى تنتهي الحرب. وأظهر الأقوال في معنى وضع الحرب أوزارها أنه وضع السلاح، والعرب تسمي السلاح وزراً، وتطلق العرب الأوزار على آلات الحرب وما يساعد فيها كالخيل، ومنه قول الأعشى: وأعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

وفي معنى أوزار الحرب، أقوال أخر معروفة تركناها، لأن هذا أظهرها عندنا. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}. ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن المؤمنين، إن نصرُوا ربهم، نصرهم على أعدائهم، وثبت أقدامهم، أي عصمهم من الفرار والهزيمة. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، وبين في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}، ثم بين صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعده {لَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ قَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}، وكقوله تعالى: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}، وقوله تعالى: {إِنَّا لَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا لِمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في بيان صفات من وعدهم بالنصر في الآيات المذكورة: { لِّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ }.

يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنصر البتة.

فمثلهم كمثل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئاً ثم جاءه يطلب منه الأجرة.

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين ثم يقولون: إن الله سينصرنا مفررون لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى.

ومعنى نصر المؤمنين لله، نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم، في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتتمثل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عبادته بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: { أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أُمْتَلَاهَا } . قد قدمنا إيضاحه في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: { وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ } ، وأحلنا على الآيات الموضحة لذلك في سورة الروم في الكلام على قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ } . وأوضحنا في الزخرف في الكلام على قوله: { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا } وفي الأحقاف في الكلام على قوله تعالى: { وَلَقَدْ مَكَتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَتُكُمْ فِيهِ } ، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { وَكَانَ مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدَّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا تَصِرَ لَهُمْ } . التي توضح معنى هذه الآية، هي المشار إليها في نفس الآية، التي ذكرنا قبلها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إخراج كفار مكة للنبي صلى الله عليه وسلم منها بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّن لِّحْقٍ يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّكُمْ } ، وقوله تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْبُوَكَ أَوْ يُقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } . وقد أخرجوه فعلاً بمكرهم المذكور، وبين جل وعلا أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله، كما قال تعالى { لِّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } وقال تعالى

{يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم.

وقال تعالى في إخراجهم له {أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَهُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ}. إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الكاف وياء مشددة مكسورة ونون ساكنة.

وقرأه ابن كثير وكأئن، بألف بعد الكاف، وهمزة مكسورة.

وكلهم عند الوقف يقفون على النون الساكنة، كحال الصلة، إلا أبا عمرو فإنه يقف على الياء.

وقد قدمنا أوجه القراءة في كآين ومعناها، وما فيها من اللغات،

مع بعض الشواهد العربية في سورة الحج في الكلام على قوله

تعالى {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}.

{مَثَلُ لِحْيَةِ لَيْثٍ يُعَذِّبُ بِهَا الْأَنْهَارَ مِنَ الْمَاءِ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٍ
مَنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٍ مِّنْ حَمَرٍ لَّدَى الشَّرِيبِ وَأَنْهَارٍ مِّنْ
عَسَلٍ مَّصْفَى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ

خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ * وَمِنْهُمْ مَّنْ

يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا

قَالَ عَازِفًا أُؤْتِيكَ الَّذِينَ طَبِعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ *

وَالَّذِينَ هُتَدُوا رَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا

السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ إِشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ

ذِكْرَاهُمْ * وَ عَلِمَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ سَيَتَعَفَّرُ لَدَيْكَ وَالْمُؤْمِنِينَ

وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ * وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا لِقَاتٌ رَأَيْتَ

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَطَرُّ لِمَعْشَى عَلَيْهِ مِنْ

الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ * طَلَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ قَلُّوا

صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ

وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْءَانٍ أَمْ عَلَي قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {

قوله تعالى: {مَثَلُ لِحْيَةِ لَيْثٍ يُعَذِّبُ بِهَا الْأَنْهَارَ مِنَ الْمَاءِ غَيْرِ

آسِنٍ وَأَنْهَارٍ مِّنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٍ مِّنْ حَمَرٍ لَّدَى

لِلشَّرِيبِ}. أنهار الماء، وأنهار الخمر التي ذكرها الله في هذه

الآية بين بعض صفاتها، في آيات أخرى كقوله تعالى {تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} في آيات كثيرة، وقوله {وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ}. وقوله:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ}، وقوله {فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ}، وقد

بين تعالى من صفات خمر الجنة أنها لا تسكر شاربها، ولا تسبب له

الصداع الذي هو وجع الرأس في آيات من كتابه كقوله تعالى: {لَا

يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ}، وقوله {لَا فِيهَا عَاوِلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ}.

وقد قدمنا معنى هذه الآيات بإيضاح في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى {إِنَّمَا لِحَمْرٍ وَ لِمَيْسِرٍ وَ لَانَصَابٍ وَ لِأَزْلَامٍ رَجِسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَ جُنَّبُوهُ}، وقوله تعالى في الآية الكريمة {غَيْرِ آسِنٍ} أي غير متغير اللون ولا الطعم. والآسن والآجن معناهما واحد، ومنه قول ذي الرمة:
ومنهل آجن قفر محاضره تذرروا الرياح على جماته البعرا

وقول الراجز:

ومنهل فيه الغراب ميت كأنه من الأجون زيت
* سقيت منها القوم واستقيت *

وبما ذكرنا تعلم أن قوله: غير آسن كقوله: من لبن لم يتغير طعمه. قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}. قد بين تعالى في سورة البقرة أن الثمار التي يرزقها أهل الجنة يشبه بعضها بعضاً في الجودة والحسن والكمال، ليس فيها شيء رديء، وذلك في قوله تعالى: {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَّرَقَا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}. قوله تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ لِحَمِيمٍ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ}. قوله تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}. قوله تعالى: {قَاتِلْ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرَاهُمْ}. التحقيق إن شاء الله تعالى، في معنى هذه الآية الكريمة، أن الكفار يوم القيامة، إذا جاءتهم الساعة، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسوله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته فقوله {ذِكْرَاهُمْ} مبتدأ خبره {قَاتِلْ لَهُمْ} أي كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله، وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان.

والضمير المرفوع في {جَاءَهُمْ} عائد إلى الساعة التي هي القيامة.

وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون، ولا ينفعهم إيمانهم جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَادُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ}، وقوله تعالى: {وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ } - إلى قوله - { أَوْ تُرَدُّ فَعَمَلٌ غَيْرٌ لِّذِي كَيْثٍ تَعْمَلُ } .

فظهر أن قوله { فَأَتَى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ } على حذف مضاف، أي أني لهم نفع ذكراهم.

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاض الحامل على الإيمان. قوله تعالى: { فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذُكِرَ فِيهَا لِقِتَالِ رَأَيْتَ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَطَرَّ لِمَعْشَى عَلَيْهِ مِنْ لَمُوتٍ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه إذا أنزل سورة محكمة، أي متقنة الألفاظ والمعاني، واضحة الدلالة، لا نسخ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار، تسبب عن ذلك، كون الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه لأنه في سياق الموت، لأن نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره. وهذا إنما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم.

وقد صرح جل وعلا بأن ذلك من الخوف المذكور في قوله: { فَإِذَا جَاءَ لِحُوفٍ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ لَمُوتٍ } .

وقد بين تعالى، أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل الله سورة، فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلي عن الجهاد، وذمهم الله على ذلك، وذلك في قوله تعالى: { وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ سُبَّتْ أَدْبَابُ أُولَئِكَ أَلْطُولَ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا تَكُنْ مَعِ الْقَعْدِيَّتَرَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَلِفِ وَطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } . قوله تعالى: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْءَانٍ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } . الهمزة في قوله: أفلا يتدبرون للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير يعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له في الخلاصة بقوله: * وحذف متبوع بدا هنا استبح * وقوله تعالى: { أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } فيه منقطة بمعنى بل، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْءَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ خْتِلافًا كَثِيرًا } ، وقوله تعالى { أَفَلَمْ يَتَذَكَّرُوا لِقَوْلِ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ

يَأْتِ آيَاتِ آبَائِهِمُ الْأُولِينَ} ، وقوله تعالى { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } .

وقد ذم جل وعلا المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا } . وقوله تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا } . ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكى النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى { وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا لِقُرْآنًا مَهْجُورًا } . وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن المشتغلين بذلك هم خير الناس . كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وقال تعالى: { وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } .

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له . من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدي .

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة . وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل .

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة .

فمرتكبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعاً وللأئمة رحمهم الله، كما ستري إيضاحه إن شاء الله تعالى . مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة المسألة الأولى:

اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به . لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً .

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين، على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما.

أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعاً. وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح. فله أن يعمل به. ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً. ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس.

ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكماً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى. ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذا فدخل الكفار والمنافقين، في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به. وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة، من الكتاب والسنة، لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد، حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أنما ذكره صاحب مراقبي السعود تبعاً للقرافي من قوله: من لم يكن مجتهداً فالعمل منه بمعنى النص مما يحظل

لا يصح على إطلاقه بحال لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل.

ومن المعلوم، أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

ومن المعلوم أيضاً، أن عمومات الآيات والأحاديث، الدالة على حث جميع الناس، على العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، أكثر من أن تحصى، كقوله صلى الله عليه وسلم: «تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي» وقوله صلى الله عليه وسلم «عليكم بسنتي» الحديث. ونحو ذلك مما لا يحصى.

فتخصيص جميع تلك النصوص، بخصوص المجتهدين وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم، تحريماً باتاً يحتاج إلى دليل من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بأراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين.

ومعلوم أن المقلد الصرف، لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء، كما سترى إيضاحه إن شاء الله. وقال صاحب مراقبي السعود، في نشر البنود، في شرحه لبيته المذكور آنفاً ما نصه: يعني أن غير المجتهد، يحظر له. أي يمنع أن يعمل بمعنى نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها لاحتمال عوارضه، من نسخ وتقييد، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد. قاله القرافي. اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أنه لا مستند له، ولا للقرافي الذي تبعه، في منع جميع المسلمين، غير المجتهدين من العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، إلا مطلق احتمال العوارض، التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك، وهو مردود من وجهين: الأول: أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود النسخ والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصص، والمطلق ظاهر في الإطلاق، حتى يثبت ورود المقيد والنص يجب العمل به، حتى يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به عموماً كان أو إطلاقاً أو غيرهما، حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح. كما هو معروف في محله.

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام، حتى يبحث عن المخصص فلا يوجد ونحو ذلك، أبو العباس بن سريج وتبعه جماعات من المتأخرين، حتى حكموا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها. وقد أوضح ابن القاسم العبادي، في الآيات البيئات غلطهم في ذلك، في كلامه على شرح المحل لقول ابن السبكي في جمع الجوامع، ويتمسك بالعام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، قبل البحث عن المخصص، وكذا بعد الوفاة، خلافاً لابن سريج اهـ. وعلى كل حال فظواهر النصوص، من عموم وإطلاق، ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه، من مخصص أو مقيد، لا لمجرد مطلق الاحتمال، كما هو معلوم في محله. فادعاء كثير من المتأخرين، أنه يجب ترك العمل به، حتى يبحث عن المخصص، والمقيد مثلاً خلاف التحقيق.

الوجه الثاني: أن غير المجتهد إذا تعلم آيات القرآن، أو بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ليعمل بها، تعلم ذلك النص

العام، أو المطلق، وتعلم معه، مخصصه ومقيده إن كان مخصصاً أو مقيداً، وتعلم ناسخه إن كان منسوخاً وتعلم ذلك سهل جداً، بسؤال العلماء العارفين به، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتبر بها في ذلك، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها، وحديثاً فيعمل به، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، وربما عمل الإنسان بما علم فعمله ما لم يكن يعلم، كما يشير لم قوله تعالى: { وَتَقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ } وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّبِعُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي يفرق به بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ } .

وهذه التقوى، التي دلت الآيات، على أن الله يعلم صاحبها، بسببها ما لم يكن يعلم، لا تزيد على عمله بما علم، من أمر الله وعليه فهي عمل ببعض ما علم زاده الله به علم ما لم يكن يعلم.

فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة، حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين، من الانتفاع بنور القرآن، حتى يحصلوا شرطاً مفقوداً، في اعتقاد القائلين بذلك، وادعاء مثل هذا على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله هو كما ترى.

تنبيه مهم

يجب على كل مسلم، يخاف العرض على ربه، يوم القيامة، أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطاعة الكبرى، التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة، وهي ادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله، استغناء تاماً، في جميع الأحكام من عبادات ومعاملات، وحدود وغير ذلك، بالمذاهب المدونة.

وبناء هذا على مقدمتين:

إحدهما: أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمجتهدين. والثانية: أن المجتهدين معدومون عدماً كلياً، لا وجود لأحد منهم، في الدنيا، وأنه بناء على هاتين المقدمتين، يمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله منعاً باتاً على جميع أهل الأرض، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة.

وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان.

فتأمل يا أخي رحمك الله: كيف يسوغ لمسلم، أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعدم

وجوب تعلمهما والعمل بهما، استغناء عنهما بكلام رجال، غير معصومين ولا خلاف في أنهم يخطئون.

فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة، لا حاجة إلى تعلمهما، وأنهما يغني غيرهما، فهذا بهتان عظيم، ومنكر من القول وزور.

وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يقدر عليه، فهو أيضاً زعم باطل، لأن تعلم الكتاب والسنة، أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع كونها في غاية التعقيد، والكثرة والله جل وعلا يقول في سورة القمر مرات متعددة: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} . ويقول تعالى في الدخان: {قَائِمًا يَسَّرْتَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} . ويقول في مريم: {قَائِمًا يَسَّرْتَهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} .

فهو كتاب ميسر، بتيسير الله، لمن وفقه الله للعمل به، والله جل وعلا يقول بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورٍ لِذِي بَالٍ أَوْثُوا لِعِلْمٍ} ، ويقول {} ، ويقول {وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

فلا شك أن الكذي يتباعد، عن هداه، يحاول التباعده، عن هدى الله ورحمته.

ولا شك أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه، ليستضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار، والرشد من الغي.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} .

وقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} . وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا الْإِيمَانِ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} وقال تعالى: {قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا} وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنزَلْنَا مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} .

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور.

فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم: خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعمي أعين الخفاش

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ}. {أَقَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ أَلْتَبِ}.
ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور، تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور.
وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف، أنه يجب عليك الجد، والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما، علماً صحيحاً.
ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان، أيسر منه بكثير في القرون الأولى، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك، من ناسخ ومنسوخ وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين وأحوال الرجال، من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف، لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم.
فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي صلى الله عليه وسلم ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين.
وجميع الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف.
فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جداً على كل من رزقه الله فهماً وعلماً.
والناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك تسهل معرفته اليوم على كل ناظر في الكتاب والسنة ممن رزقه الله فهماً ووقفه لتعلم كتاب الله وسنة رسوله.
واعلم أيها المسلم المنصف، أن من أشنع الباطل وأعظم القول بغير الحق، على الله وكتابه وعلى النبي وسنته المطهرة، ما قاله الشيخ أحمد الصاوي، في حاشيته على الجلالين، في سورة الكهف وآل عمران واغتر بقوله في ذلك، خلق لا يحصى من المتسمين، باسم طلبة العلم، لكونهم لا يميزون بين حق وباطل.
فقد قال الصاوي أحمد المذكور في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً}، بعد أن ذكر الأقوال في انفصال الاستثناء عن المستثنى منه بزمان، ما نصه: وعامة المذاهب الأربعة على خلاف ذلك كله فإن شرط حل الأيمان بالمشيئة أن تتصل، وأن يقصد بها حل اليمين، ولا يضر الفصل بتنفس أو سعال أو عطاس، ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة،

ضال مضل وربما أداة ذلك للكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر. اهـ. منه بلفظه.

فانظر يا أخي رحمك الله، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله، وما أجراً قائله على الله، وكتابه وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}.

أما قوله بأنه لا يجوز الخروج عن المذاهب الأربعة، ولو كانت أقوالهم مخالفة للكتاب والسنة، وأقوال الصحابة فهو قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم وإجماع الأئمة الأربعة أنفسهم، كما سنرى إيضاحه إن شاء الله بما لا مزيد عليه في المسائل الآتية بعد هذه المسألة. فالذي ينصره هو الضال المضل.

وأما قوله: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة، من أصول الكفر، فهذا أيضاً من أشنع الباطل وأعظمه، وقائله من أعظم الناس انتهاكاً لحرمة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}.

والتحقيق الذي لا شك فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامة علماء المسلمين أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال من الأحوال بوجه من الوجوه، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح.

والقول بأن العمل بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يصدر البتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله وإنما يصدر عن من لا علم له بالكتاب والسنة أصلاً، لأنه لجهله بهما يعتقد ظاهرهما كفرةً والواقع في نفس الأمر أن ظاهرهما بعيد مما ظنه أشد من بعد الشمس من اللمس.

ومما يوضح لك ذلك أن آية الكهف هذه، التي ظن الصاوي أن ظاهرها حل الأيمان بالتعليق بالمشيئة المتأخر وزمنها عن اليمين وأن ذلك مخالف للمذاهب الأربعة: وبنى على ذلك أن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر كله باطل لا أساس له. وظاهر الآية بعيد مما ظن بل الظن الذي ظنه والزعم الذي زعمه لا تشير الآية إليه أصلاً، ولا تدل عليه لا بدلالة المطابقة، ولا التضمن ولا الالتزام. فضلاً على أن تكون ظاهرة فيه.

وسبب نزولها يزيد ذلك إيضاحاً، لأن سبب نزول الآية أن الكفار سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فقال لهم سأخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله فعاتبه ربه بعدم تفويض الأمر إليه، وعدم تعليقه بمشيئته جل وعلا فتأخر عنه الوحي.

ثم علمه الله في الآية والأدب معه في قوله: { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ }.
ثم قال لنيبه { وَ لُكِّرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ } (الكهف: 42) يعني إن قلت سأفعل كذا غداً، ثم نسيت أن تقول إن شاء الله، ثم تذكرت بعد ذلك، فاذكر ربك، أي قل إن شاء الله، أي لتتدارك بذلك الأدب، مع الله الذي فاتك عند وقته، بسبب النسيان وتخرج من عهدة النهي في قوله تعالى { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ }.

والتعليق بهذه المشيئة المتأخرة لأجل المعنى المذكور، الذي هو ظاهر الآية الصحيح لا يخالف مذهباً من المذاهب الأربعة ولا غيرهم، وهو التحقيق في مراد ابن عباس بما ينقل عنه من جواز تأخير الاستثناء كما أوضحه كبير المفسرين. أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله.

وقد قدمنا إيضاحه في الكلام على آية الكهف هذه. فيا أتباع الصاوي المقلدين له تقليداً أعمى على جهالة عمياء، أين دل ظاهر آية الكهف هذه، على اليمين بالله، أو بالطلاق أو بالعتق أو بغير ذلك من الأيمان؟

هل النبي صلى الله عليه وسلم حلف لما قال للكفار: سأخبركم غداً؟

وهل قال الله: ولا تقولن لشيءٍ إني حالف سأفعل ذلك غداً؟ ومن أين جئتم باليمين، حتى قلتم إن ظاهر القرآن، هو حل الأيمان بالمشيئة المتأخرة عنها، وبنيتم على ذلك أن ظاهر الآية مخالف لمذاهب الأئمة الأربعة، وأن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر؟

ومما يزيد ما ذكرنا إيضاحاً ما قاله الصاوي أيضاً في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ لُفْتَةٍ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ } فإنه قال على كلام الجلال ما نصه: زيف أي ميل عن الحق للباطل، قوله: بوقوعهم في الشبهات واللبس، أي كنصاري نجران، ومن حذا حذوهم ممن أخذ بظاهر القرآن، فإن العلماء ذكروا أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة اهـ.

فانظر رحمك الله، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله وما أجراً قائله على انتهاك حرمة الله، وكتابه ونبيه وسنته صلى الله عليه وسلم، وما أدله على أن صاحبه لا يدري ما يتكلم به. فإنه جعل ما قاله نصاري نجران، هو ظاهر كتاب الله، ولذا جعل مثلهم من حذا حذوهم فأخذ بظاهر القرآن.

وذكر أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر مع أنه لا يدري وجه ادعاء نصارى نجران على ظاهر القرآن أنه كفر، مع أنه مسلم أن ادعاءهم على ظاهر القرآن أنه كفرهم ومن هذا حذوهم ادعاء صحيح إلا أن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر.

وقد قال قبل هذا: قيل سبب نزولها أن وفد نجران قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألسنت تقول: إن عيسى روح الله وكلمته؟ فقال نعم، فقالوا حسبنا، أي كفانا ذلك في كونه ابن الله. فنزلت الآية.

فاتضح أن الصاوي يعتقد أن ادعاء نصارى نجران أن ظاهر قوله تعالى: { وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ } هو أن عيسى ابن الله ادعاء صحيح، وبنى على ذلك أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر.

وهذا كله من أشنع الباطل وأعظمه، فالآية لا يفهم من ظاهرها البتة، بوجه من الوجوه، ولا بدلالة من الدلالات، أن عيسى ابن الله، وادعاء نصارى نجران ذلك كذب بحت.

فقول الصاوي كنصارى نجران، ومن هذا حذوهم ممن أخذ بظواهر القرآن صريح في أنه يعتقد أن ما ادعاه وفد نجران من كون عيسى ابن الله هو ظاهر القرآن اعتقاد باطل باطل باطل، حاشا القرآن العظيم من أن يكون هذا الكفر البواح ظاهره، بل هو لا يدل عليه البتة فضلاً عن أن يكون ظاهره وقوله: { وَرُوحٌ مِّنْهُ } كقوله تعالى: { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ } أي كل ذلك من عيسى ومن تسخير السماوات والأرض مبدؤه ومنشؤه جل وعلا.

فلفظة من في الآيتين لابتداء الغاية، وذلك هو ظاهر القرآن وهو الحق خلافاً لما زعمه الصاوي وحكاه عن نصارى نجران. وقد اتضح بما ذكرنا أن الذين يقولون: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يعلمون ما هي الظواهر وأنهم يعتقدون شيئاً ظاهر النص. والواقع أن النص لا يدل عليه بحال من الأحوال فضلاً عن أن يكون ظاهره.

فبنوا باطلاً على باطل، ولا شك أن الباطل لا يبنى عليه إلا الباطل. ولو تصوروا معاني ظواهر الكتاب والسنة على حقيقتها لمنعهم ذلك، من أن يقولوا ما قالوا.

فتصور الصاوي، أن ظاهر الآية الكهف المتقدمة، هو حل الأيمان، بالتعليق بالمشيئة المتأخر زمنها عن اليمين، وبنائوه على ذلك مخالفة ظاهر الآية لمذاهب الأئمة الأربعة، وأن الأخذ بظواهر

الكتاب والسنة من أصول الكفر، مع أن الآية لا تشير أصلاً إلى ما اعتقد أنه ظاهرها.
وكذلك اعتقاده أن ظاهر آية آل عمران المذكورة هو ما زعمه نصارى نجران، من أن عيسى ابن الله فإنه كله باطل وليس شيء مما زعم ظاهر القرآن مطلقاً، كما لا يخفى على عاقل.
وقول الصاوي في كلامه المذكور في سورة آل عمران: إن العلماء قالوا: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر. قول باطل لا يشك في بطلانه من عنده أدنى معرفة.
ومن هم العلماء الذين قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر؟

سموهم لنا، وبينوا لنا من هم؟
والحق الذي لا شك فيه أن هذا القول لا يقوله عالم، ولا متعلم، لأن ظواهر الكتاب والسنة هي نور الله الذي أنزله على رسوله ليستضاء به في أرضه وتقام به حدوده، وتنفذ به أوامره، وينصف به بين عباده في أرضه.

والنصوص القطعية التي لا احتمال فيها قليلة جداً لا يكاد يوجد منها إلا أمثلة قليلة جداً كقوله تعالى: {قَصِيَامٌ تَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي لِحْجٍ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ}.
والغالب الذي هو الأكثر هو كون نصوص الكتاب والسنة ظواهر. وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعي صارف عنه، إلى المحتمل المرجوح، وعلى هذا كل من تكلم في الأصول.

فتنغير الناس وإبعادها عن كتاب الله، وسنة رسوله، بدعوى أن الأخذ بظواهرهما من أصول الكفر هو من أشنع الباطل وأعظمه كما ترى.

وأصول الكفر يجب على كل مسلم أن يحذر منها كل الحذر، ويتباعد منها كل التباعد ويتجنب أسبابها كل الاجتناب، فيلزم على هذا القول المنكر الشنيع وجوب التباعد من الأخذ بظواهر الوحي. وهذا كما ترى، وبما ذكرنا يتبين أن من أعظم أسباب الضلال، ادعاء أن ظواهر الكتاب والسنة دالة على معان قبيحة، ليست بلائقة.

والواقع في نفس الأمر بعدها وبراءتها من ذلك. وسبب تلك الدعوى الشنيعة على ظواهر كتاب الله، وسنة رسوله، هو عدم معرفة مدعيها.

ولأجل هذه البلية العظمى، والطامة الكبرى، زعم كثير من النظائر الذين عندهم فهم، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها، غير لائقة بالله، لأن ظواهرها المتبادرة منها هو تشبيه صفات الله بصفات

خلقه، وعقد ذلك المقري في إضاءته في قوله: والنص إن أوهم
غير اللائق بالله كالتشبيه بالخلائق
فاصرفه عن ظاهره إجماعاً واقطع عن الممتنع الأظماعاً

وهذه الدعوى الباطلة، من أعظم الافتراء على آيات الله تعالى،
وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم.
والواقع في نفس الأمر أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها
المتبادرة منها، لكل مسلم راجع عقله، هي مخالفة صفات الله
لصفات خلقه. ولا بد أن نتساءل هنا فنقول:
أليس الظاهر المتبادر مخالفة الخالق للمخلوق، في الذات
والصفات والأفعال؟
والجواب الذي لا جواب غيره: بلى.

وهل تشابهت صفات الله مع صفات خلقه حتى يقال إن اللفظ
الدال على صفته تعالى ظاهره المتبادر منه تشبيهه بصفة الخلق؟
والجواب الذي لا جواب غيره: لا.
فبأي وجه يتصور عاقل أن لفظاً أنزله الله في كتابه، مثلاً دالاً على
صفة من صفات الله أثنى بها تعالى على نفسه، يكون ظاهره
المتبادر منه، مشابهته لصفة الخلق؟ {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ
عَظِيمٌ}.

فالخالق والمخلوق متخالفان كل التخالف وصفاتهما متخالفة كل
التخالف.

فبأي وجه يعقل دخول صفة المخلوق في اللفظ الدال على صفة
الخالق؟ أو دخول صفة الخالق في اللفظ الدال على صفة
المخلوق مع كمال المنافاة بين الخالق والمخلوق؟
فكل لفظ دل على صفة الخالق ظاهره المتبادر منه أن يكون لائقاً
بالخالق منزهاً عن مشابهة صفات المخلوق.
وكذلك اللفظ الدال على صفة المخلوق لا يعقل أن تدخل فيه صفة
الخالق.

فالظاهر المتبادر من لفظ اليد بالنسبة للمخلوق، هو كونها جارحة
هي عظم ولحم ودم، وهذا هو الذي يتبادر إلى الذهن في نحو قوله
تعالى: {وَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}.

والظاهر المتبادر من اليد بالنسبة للخالق في نحو قوله تعالى: {مَا
مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ} أنها صفة كمال وجلال، لائقة
بالله جل وعلا ثابتة له على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

وقد بين جل وعلا عظم هذه الصفة وما هي عليه من الكمال
والجلال، وبين أنها من صفات التأثير كالقدرة، قال تعالى في
تعظيم شأنها {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ

يَوْمَ لِقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

وبين أنها صفة تأثير كالقدرة، في قوله تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، فتصريحه تعالى بأنه خلق نبيه آدم بهذه الصفة العظيمة التي هي صفات كماله وجلاله يدل على أنها من صفات التأثير كما ترى.
ولا يصح هنا تأويل اليد بالقدرة ألبتة، لإجماع أهل الحق والباطل، كلهم على أنه لا يجوز تشبيه القدرة.
ولا يخطر في ذهن المسلم المراجع عقله، دخول الجارحة التي هي عظم ولحم ودم في معنى هذا اللفظ، الدال على هذه الصفة العظيمة، من صفات خالق السماوات والأرض.
فاعلم أيها المدعي أن ظاهر لفظ اليد في الآية المذكورة وأمثالها، لا يليق بالله، لأن ظاهرها التشبيه بجارحة الإنسان، وأنها يجب صرفها، عن هذا الظاهر الخبيث، ولم تكتف بهذا حتى ادعيت الإجماع على صرفها عن ظاهرها. إن قولك هذا كله افتراء عظيم على الله تعالى، وعلى كتابه العظيم، وإنك بسبه كنت أعظم المشبهين والمجسمين، وقد جرك شؤم هذا التشبيه، إلى ورطة التعطيل، فنفيت الوصف الذي أثبتته الله في كتابه لنفسه بدعوى أنه لا يليق به، وأولته بمعنى آخر من تلقاء نفسك بلا مستند من كتاب ولا سنة ولا إجماع، ولا قول أحد من السلف.
وماذا عليك لو صدقت الله وأمنت بما مدح به نفسه على الوجه اللائق بكماله وجلاله من غير كيف ولا تشبيه ولا تعطيل؟
وبأي موجب سوغت لذهنك أن يخطر فيه صفة المخلوق عند ذكر صفة الخالق؟

هل تلبس صفة الخالق بصفة المخلوق عن أحد؟ حتى يفهم صفة المخلوق من اللفظ الدال على صفة الخالق؟
فاخش الله يا إنسان، واحذر من التقول على الله بلا علم، وآمن بما جاء في كتاب الله مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه.
واعلم أن الله الذي أحاط علمه بكل شيء لا يخفى عليه الفرق بين الوصف اللائق به والوصف غير اللائق به، حتى يأتي إنسان فيتحکم في ذلك فيقول: هذا الذي وصفت به نفسك غير لائق بك، وأنا أنفيه عنك بلا مستند منك ولا من رسولك، وأتيك بدله بالوصف اللائق بك.

فاليد مثلاً التي وصفت بها نفسك لا تليق بك لدالتها على التشبيه بالجارحة، وأنا أنفيها عنك نفيًا باتًا، وأبدلها لك بوصف لائق بك وهو النعمة أو القدرة مثلاً أو الجود.
{سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}.

{ وَتَقُفُوا لِلَّهِ يَأُولَى الْأَلْتَبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ
ذِكْرَ آيَاتِهِ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظَّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ }.

ومن الغريب أن بعض الجاحدين لصفات الله المؤولين لها بمعان
لم ترد عن الله ولا عن رسوله يؤمنون فيها ببعض الكتاب دون
بعض.

فيقرون بأن الصفات السبع التي تشتق منها أوصاف ثابتة لله مع
التنزيه، ونعني بها القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر
والكلام، لأنها يشتق منها قادر حي عليم إلخ. وكذلك في بعض
الصفات الجامعة كالعظمة والكبرياء والملك والجلال مثلاً، لأنها
يشتق منها العظيم المتكبر والجليل والملك، وهكذا يجحدون كل
صفة ثبتت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم
يشتق منها غيرها كصفة اليد والوجه ونحو ذلك، ولا شك أن هذا
التفريق بين صفات الله التي أثبتتها لنفسه أو أثبتها له رسوله صلى
الله عليه وسلم لا وجه له ألينة بوجه من الوجوه.

ولم يرد عن الله ولا عن رسوله صلى الله عليه وسلم الإذن في
الإيمان ببعض صفاته ووجد بعضها، وتأويله لأنها لا يشتق منها.
وهل يتصور عاقل أن يكون عدم الاشتقاق مسوغاً لجحد ما وصف
الله به نفسه؟

ولا شك عند كل مسلم راجع عقله، أن عدم الاشتقاق لا يرد به
كلام الله، فيما أثنى به على نفسه، ولا كلام رسوله فيما وصف به
ربه.

والسبب الموجب للإيمان إيجاباً حتماً كلياً هو كونه من عند الله،
وهذا السبب هو الذي علم الراسخون في العلم أنه الموجب
للإيمان بكل ما جاء عن الله سواء استأثر الله بعلمه كالمتشابه، أو
كان مما يعلمه الراسخون في العلم كما قال الله عنهم:

{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا }.

فلا شك أن قوله تعالى: { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } من عند ربنا. وقوله
تعالى: { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } من عند ربنا أيضاً، فيجب
علينا الإيمان بالجميع، لأنه كله من عند ربنا.

أما الذي يفرق بينه، وهو عالم بأن كله من عند ربه، بأن هذا يشتق
منه، وهذا لا يشتق منه فقد آمن ببعض الكتاب دون بعض.
والمقصود أن كلما جاء من عند الله، يجب الإيمان به سواء كان من
المتشابه، أو من غير المتشابه، وسواء كان يشتق منه أو لا.
ومعلوم أن مالكا رحمه الله سئل كيف استوى، فقال الاستواء غير
مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب.

وما يزعمه بعضهم من أن القدرة والإرادة مثلاً ونحوهما ليست كاليد، والوجه، بدعوى أن القدرة والإرادة مثلاً ظهرت آثارهما في العالم العلوي والسفلي بخلاف غيرهما كصفة اليد ونحوها فهو من أعظم الباطل.

ومما يوضح ذلك أن الذي يقوله هو وأبوه وجده من آثار صفة اليد التي خلق الله بها نبيه آدم. ونحن نرجو أن يغفر الله تعالى للذين ماتوا على هذا الاعتقاد، لأنهم لا يقصدون تشبيه الله بخلقه، وإنما يحاولون تنزيهه عن مشابهة خلقه.

فقصدهم حسن ولكن طريقهم إلى ذلك القصد سيئة. وإنما نشأ لهم ذلك السوء بسبب أنهم ظنوا لفظ الصفة التي مدح الله بها نفسه يدل ظاهره على مشابهة صفة الخلق فنفوا الصفة التي ظنوا أنها لا تليق قصداً منهم لتنزيه الله، وأولوها بمعنى آخر يقتضي التنزيه في ظنهم فهم كما قال الشافعي رحمه الله: رام نفعاً فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقاً

ونحن نرجو أن يغفر الله لهم خطأهم، وأن يكونوا داخلين في قوله تعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً}.

وخطوهم المذكور لا شك فيه، ولو وفقهم الله لتطهير قلوبهم من التشبيه أولاً، وجزموا بأن ظاهر صفة الخالق هو التنزيه عن مشابهة صفة المخلوق، لسلموا مما وقعوا فيه. ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم، عالم كل العلم، بأن الظاهر المتبادر، مما مدح الله به نفسه، في آيات الصفات هو التنزيه التام عن صفات الخلق، ولو كان يخطر في ذهنه أن ظاهره لا يليق، لأنه تشبيه بصفات الخلق، لبادر كل المبادرة إلى بيان ذلك، لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، ولا سيما في العقائد، ولا سيما فيما ظاهره الكفر والتشبيه. فسكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان هذا يدل على أن ما زعمه المؤلون لا أساس له كما ترى.

فإن قيل: إن هذا القرآن العظيم، نزل بلسان عربي مبين، والعرب لا تعرف في لغتها، كيفية لليد مثلاً، إلا كيفية المعاني المعروفة عندها كالجارحة، وغيرها من معاني اليد المعروفة في اللغة، فبينوا لنا كيفية لليد ملائمة لما ذكرتم.

فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن العرب لا تدرك كيفيات صفات الله من لغتها، لشدة منافاة صفة الله لصفة الخلق.

والعرب لا تعرف عقولهم كيفيات إلا لصفات الخلق، فلا تعرف العرب كيفية للسمع والبصر، إلا هذه المشاهدة، في حاسة الأذن والعين، أما سمع لا يقوم بإذن وبصر لا يقوم بحدقة، فهذا لا يعرفون له كيفية البتة.

فلا فرق بين السمع والبصر، وبين اليد والاستواء، فالذي تعرف كيفيته العرب من لغتها من جميع ذلك، هو المشاهد في المخلوقات.

وأما الذي اتصف الله به من ذلك، فلا تعرف له العرب كيفية، ولا حداً لمخالفة صفاته لصفات الخلق، إلا أنهم يعرفون من لغتهم أصل المعنى، كما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

كما يعرفون من لغتهم، أن بين الخالق والمخلوق، والرزق والمرزوق، والمحيي والمحيى، والمميت والممات. فوارق عظيمة لا حد لها، تستلزم المخالفة، التامة، بين صفات الخالق والمخلوق. الوجه الثاني: أن نقول لمن قال: بينوا لنا كيفية لليد ملائمة لما ذكرتم، من كونها صفة كمال، وجلال، منزهة عن مشابهة جارحة المخلوق.

هل عرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة باليد، فلا بد أن يقول: لا. فإن قال ذلك.

قلنا: معرفة كيفية الصفات تتوقف على معرفة كيفية الذات. فالذات والصفات من باب واحد.

فكما أن ذاته جل وعلا تخالف جميع الذوات، فإن صفاته تخالف جميع الصفات.

ومعلوم أن الصفات، تختلف وتباين، باختلاف موصوفاتها.

ألا ترى مثلاً أن لفظة رأس كلمة واحدة؟

إن أضفتها إلى الإنسان فقلت رأس الإنسان، وإلى الوادي فقلت رأس الوادي، وإلى المال فقلت رأس المال، وإلى الجبل فقلت رأس الجبل.

فإن كلمة الرأس اختلفت معانيها، وتباينت تبايناً شديداً بحسب اختلاف إضافتها مع أنها في مخلوقات حقيرة.

فما بالك بما أضيف من الصفات إلى الله وما أضيف منها إلى خلقه، فإنه يتباين كتباين الخالق والمخلوق، كما لا يخفى.

فاتضح بما ذكر أن الشرط في قول المقرري في إضاءته: * والنص إن أوهم غير اللائق *

شرط مفقود قطعاً، لأن نصوص الوحي الواردة في صفات الله، لا تدل ظواهرها ألبتة، إلا على تنزيه الله، ومخالفته لخلقه في الذات والصفات والأفعال.

فكل المسلمين، الذين يراجعون عقولهم، لا يشك أحد منهم في أن الظاهر المتبادر السابق إلى ذهن المسلم، هو مخالفة الله لخلقه، كما نص عليه بقوله {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وقوله {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ونحو ذلك من الآيات، وبذلك تعلم أن الإجماع الذي بناه على ذلك في قوله: * فاصرفه عن ظاهره إجماعاً *
إجماع مفقود أصلاً، ولا وجود له ألبتة، لأنه مبني على شرط مفقود لا وجود له ألبتة.

فالإجماع المعدوم المزعوم لم يرد في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، ولم يقله أحد من أصحاب رسول الله، ولا من تابعيهم ولم يقله أحد من الأئمة الأربعة، ولا من فقهاء الأمصار المعروفين. وإنما لم يقولوا بذلك لأنهم يعلمون أن ظواهر نصوص الوحي لا تدل إلا على تنزيه الله عن مشابهة خلقه، وهذا الظاهر الذي هو تنزيه الله لا داعي لصرفها عنه كما ترى.

ولأجل هذا كله قلنا في مقدمة هذا الكتاب الميارك، إن الله تبارك وتعالى موصوف بتلك الصفات حقيقة لا مجازاً، لأننا نعتقد اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه شك، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها، لا تدل ألبتة إلا على التنزيه عن مشابهة الخلق واتصافه تعالى بالكمال والجلال.

وإثبات التنزيه والكمال والجلال لله حقيقة لا مجازاً لا ينكره مسلم.

ومما يدعو إلى التصريح بلفظ الحقيقة، ونفي المجاز، كثرة الجاهلين الزاعمين أن تلك الصفات لا حقائق لها، وأنها كلها مجازات.

وجعلوا ذلك طريقاً إلى نفيها، لأن المجاز يجوز نفيه، والحقيقة لا يجوز نفيها.

فقالوا مثلاً: اليد مجاز يراد به القدرة والنعمة أو الجود، فنفوا صفة اليد، لأنها مجاز.

وقالوا على العرش استوى: مجاز فنفوا الاستواء، لأنه مجاز. وقالوا: معنى استوى: استولى، وشبهوا استيلاءه باستيلاء بشر بن مروان على العراق.

ولو تدبروا كتاب الله، لمنعهم ذلك من تبديل الاستواء بالاستيلاء، وتبديل اليد بالقدرة، أو النعمة، لأن الله جل وعلا يقول في محكم كتابه في سورة البقرة {قَبَدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا

يَفْسُفُونَ}. ويقول في الأعراف {قَبَدَل لَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا
عَبَّرَ لِدَى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رَجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ} فالقول الذي قاله الله لهم، هو قوله حطة، وهي فعلة
من الحط بمعنى الوضع خبر مبتدأ محذوف أي دعاؤنا ومسألتنا لك
حطة لذنوبنا أي حط ووضع لها عنا فهي بمعنى طلب المغفرة،
وفي بعض روايات الحديث في شأنهم أنهم بدلوا هذا القول بأن
زادوا نونا فقط فقالوا حنطة وهي القمح.
وأهل التأويل قيل لهم على العرش استوى.
فزادوا لا ما فقالوا استولى.

وهذه اللام التي زادوها يشبه شيء بالنون التي زادها اليهود في
قوله تعالى {وَقُولُوا حِطَّةٌ}. ويقول الله جل وعلا في منع تبديل
القرآن بغيره: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءٍ تَقْدِيرٍ إِنْ أَتَيْعُ
إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.
ولا شك أن من بدل استوى باستولى مثلا لم يتبع ما أوحى إلى
النبي صلى الله عليه وسلم.

فعليه أن يجتنب التبديل ويخاف العذاب العظيم، الذي خافه رسول
الله صلى الله عليه وسلم لو عصا الله فبدل قرآنا بغيره المذكور
في قوله {وَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.
واليهود لم ينكروا أن اللفظ الذي قاله الله لهم: هو لفظ حطة
ولكنهم حرفوه بالزيادة المذكورة.

وأهل هذه المقالة، لم ينكروا أن كلمة القرآن هي استوى، ولكن
حرفوها وقالوا في معناها استولى وإنما أبدلوها بها، لأنها أصلح في
زعمهم من لفظ كلمة القرآن، لأن كلمة القرآن توهم غير اللائق،
وكلمة استولى في زعمهم هي المنزهة اللائقة بالله مع أنه لا يعقل
تشبيهه أشنع من تشبيهه استيلاء الله على عرشه المزعوم، باستيلاء
بشر على العراق.

وهل كان أحد يغالب الله على عرشه حتى غلبه على العرش،
واستولى عليه؟

وهل يوجد شيء إلا والله مستول عليه، فالله مستول على كل
شيء.

وهل يجوز أن يقال إنه تعالى استوى على كل شيء غير العرش؟
فافهم.

وعلى كل حال، فإن المؤول، زعم أن الاستواء يوهم غير اللائق
بالله لاستلزامه مشابهة استواء الخلق، وجاء بدله بالاستيلاء، لأنه
هو اللائق به في زعمه، ولم ينتبه.

لأن تشبيه استيلاء الله على عرشه باستيلاء بشرين مروان على
العراق هو أفضح أنواع التشبيه، وليس بلائق قطعاً، إلا أنه يقول: إن

الاستيلاء المزعوم منزّه، عن مشابهة استيلاء الخلق، مع أنه ضرب
للمثل باستيلاء بشر على العراق والله يقول { فَلَا تَصْرِيحًا لِلَّهِ
الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }.

ونحن نقول: أيها المؤول هذا التأويل، نحن نسألك إذا علمت أنه لا
بد من تنزيه أحد اللفظين أعني لفظ { سُبُّنَوِي } الذي أنزل الله به
الملك على النبي صلى الله عليه وسلم قرآناً يتلى، كل حرف منه
عشر حسنات ومن أنكر أنه من كتاب الله كفر.

ولفظه استولى التي جاء بها قوم من تلقاء أنفسهم من غير استناد
إلى نص من كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من السلف.
فأي الكلمتين أحق بالتنزيه في رأيك. الأحق بالتنزيه كلمة القرآن،
المنزلة من الله على رسوله، أم كلمتكم التي جئتم بها، من تلقاء
أنفسكم، من غير مستند أصلاً؟

ونحن لا يخفى علينا الجواب الصحيح، عن هذا السؤال إن كنت لا
تعرفه.

واعلم أننا ذكرنا من أن ما وصف الله به نفسه من الصفات، فهو
موصوف به حقيقة لا مجازاً، على الوجه اللائق بكماله وجلاله.
وأنه لا فرق ألبتة بين صفة يشتق منها وصف، كالسمع والبصر
والحياة.

وبين صفة لا يشتق منها كالوجه واليد.

وأن تأويل الصفات كتأويل الاستواء بالاستيلاء لا يجوز ولا يصح.

هو معتقد أبي الحسن الأشعري رحمه الله.

وهو معتقد عامة السلف، وهو الذي كان عليه النبي صلى الله عليه
وسلم وأصحابه.

فمن ادعى على أبي الحسن الأشعري، أنه يؤول صفة من
الصفات، كالوجه واليد والاستواء، ونحو ذلك فقد افتري عليه
افتراء عظيماً.

بل الأشعري رحمه الله مصرح في كتبه العظيمة التي صنفها بعد
رجوعه عن الاعتزال، (كالموجز)، (ومقالات الإسلاميين واختلاف
المصلين)، (والإبانة عن أصول الديانة) أن معتقده الذي يدين الله
به هو ما كان عليه السلف الصالح من الإيمان بكل ما وصف الله به
نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، وإثبات ذلك كله
من غير كيف ولا تشبيه ولا تعطيل.

وأن ذلك لا يصح تأويله ولا القول بالمجاز فيه.

وأن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو مذهب المعتزلة ومن ضاهاهم.
وهو أعلم الناس بأقوال المعتزلة لأنه كان أعظم إمام في مذهبهم،
قبل أن يهديه الله إلى الحق، وسنذكر لك هنا بعض نصوص أبي
الحسن الأشعري رحمه الله لتعلم صحة ما ذكرنا عنه.

قال رحمه الله (في كتاب الإبانة عن أصول الديانة)، الذي قال غير واحد أنه آخر كتاب صنفه، ما نصه:

فإن قال لنا قائل: قد أنكروا قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة، والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون قيل له:
قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث.

ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نصر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون.

لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين، وزبح الزائغين وشك الشاكين. فرحمة الله عليه من إمام مقدم و خليل معظم مفخم، وعلى جميع أئمة المسلمين.

وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نرد من ذلك شيئاً.

وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله استوى على عرشه كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سِتْوَى} وأن له وجهاً كما قال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ}. وأن له يدين بلا كيف كما قال {خَلَقْتُ يَدَيَّْ} وكما قال {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}، وأن له عينان بلا كيف كما قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أن من يفترى على الأشعري أنه من المؤولين المدعين أن ظاهر آيات الصفات وأحاديثها لا يليق الله كاذب عليه كذباً شنيعاً.

وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتاب الإبانة أيضاً في إثبات الاستواء لله تعالى ما نصه:

إن قال قائل ما تقولون في الاستواء؟ قيل له نقول: إن الله عز وجل مستو على عرشه كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سِتْوَى}. وقد قال الله عز وجل: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} وقد قال: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}. قال عز وجل {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}. وقال حكاية عن فرعون: {يَهْمُنُ بِنِ

لِي صَرْحًا لَعْنًا أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ سَبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ
مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا}.

فكذب فرعون نبي الله موسى عليه السلام في قوله: (إن الله عز
وجل فوق السماوات). وقال عز وجل: {أَعْمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ
أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ}.

فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السماوات: قال
{أَعْمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ} لأنه مستو على العرش الذي فوق
السماوات، وكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السماوات. هذا
لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة المذكور.
وقد أطال رحمه الله في الكلام بذكر الأدلة القرآنية، في إثبات
صفة الاستواء، وصفة العلو لله جل وعلا.
ومن جملة كلامه المشار إليه ما نصه:

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن قول الله
عز وجل {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سِتْوَى} أنه استولى وملك
وقهر، وأن الله عز وجل في كل مكان. ووجدوا أن يكون الله عز
وجل على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى
القدرة.

ولو كان هذا كما ذكروه كان لا فرق بين العرش والأرض، فإله
سبحانه قادر عليها وعلى الحشوش، وعلى كل ما في العالم.
فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء وهو عز وجل
مستول على الأشياء كلها لكان مستوياً على العرش وعلى الأرض
وعلى السماء وعلى الحشوش والأفراد، لأنه قادر على الأشياء
مستول عليها.

وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين
أن يقول:

إن الله عز وجل مستو على الحشوش والأخلية، لم يجز أن يكون
الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها.
ووجب أن يكون معناه استواء يختص العرش دون الأشياء كلها.
وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله عز وجل في كل
مكان فلزمهم أنه في بطن مريم وفي الحشوش والأخلية.
وهذا خلاف الدين، تعالى الله عن قولهم. اهـ.

هذا لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في آخر مصنفاته. وهو
كتاب الإبانة عن أصول الديانة.

وتراه صرح رحمه الله بأن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو قول
المعتزلة والجهمية والحرورية لا قول أحد من أهل السنة وأقام
البراهين الواضحة على بطلان ذلك.

فليعلم مؤولو الاستواء بالاستيلاء أن سلفه في ذلك المعتزلة والجهمية والحرورية، لا أبو الحسن الأشعري رحمه الله ولا أحد من السلف.

وقد أوضحنا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ }. أن قول الجهمية ومن تبعهم: إن الله في كل مكان قول باطل. لأن جميع الأمكنة الموجودة، أحقر وأقل وأصغر، من أن يسع شيء منها خالق السماوات والأرض، الذي هو أعظم وأكبر من كل شيء، وهو محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء. فانظر إيضاح ذلك في الأنعام.

واعلم أن ما يزعمه كثير من الجهلة، من أن ما في القرآن العظيم، من صفة الاستواء والعلو والفقوية، يستلزم الجهة، وأن ذلك محال على الله، وأنه يجب نفي الاستواء والعلو والفقوية، وتأويلها بما لا دليل عليه من المعاني كله باطل.

وسببه سوء الظن بالله وبكتابه، وعلى كل حال فمدعي لزوم الجهة لظواهر نصوص القرآن العظيم. واستلزام ذلك للنقص الموجب للتأويل يقال له:

ما مرادك بالجهة؟

إن كنت تريد بالجهة مكاناً موجوداً، انحصر فيه الله، فهذا ليس بظاهر القرآن، ولم يقله أحد من المسلمين. وإن كنت تريد بالجهة العدم المحض. فالعدم عبارة عن لا شيء.

فميز أولاً، بين الشيء الموجود وبين لا شيء.

وقد قال أيضاً أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة أيضاً ما نصه:

فإن سئلنا أتقولون إن لله يدين؟ قيل نقول ذلك، وقد دل عليه قوله عز وجل: { يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ }. وقوله عز وجل: { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }.

وأطال رحمه الله، الكلام في ذكر الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات صفة اليدين لله.

ومن جملة ما قال ما نصه:

ويقال لهم: لم أنكرتم أن يكون الله عز وجل عني بقوله: { يَدَيَّ } يدين ليستا نعمتين.

فإن قالوا: لأن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة.

قيل لهم: ولم قضيتم أن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة؟

فإن رجوعنا إلى شاهدنا، وإلى ما نجده فيما بيننا من الخلق؟

فقالوا: اليد إذا لم تكن نعمة في الشاهد لم تكن إلا جارحة.

قيل لهم: إن عملتم على الشاهد وقضيتم به على الله عز وجل فكذلك لم نجد حياً من الخلق، إلا جسماً لحمياً ودماً، فاقضوا بذلك على الله عز وجل.

وإلا فأنتم لقولكم متأولون ولاعتلالكم ناقضون.

وإن أثبتتم حياً لا كالأحياء منا.

فلم أنكرتم أن تكون اليدان اللتان أخبر الله عز وجل عنهما، يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ولا كالأيدي؟

وكذلك يقال لهم:

لم تجدوا مدبراً حكيماً إلا إنساناً، ثم أثبتتم أن للدنيا مدبراً حكيماً، ليس كالإنسان، وخالفتم الشاهد ونقضتم اعتلالكم.

فلا تمنعوا من إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين، من أجل أن ذلك خلاف الشاهد هـ. محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أن الأشعري رحمه الله، يعتقد أن الصفات التي أنكرها المؤولون كصفة اليد، من جملة صفات المعاني كالحياة ونحوها، وأنه لا فرق ألبتة بين صفة اليد وصفة الحياة فما اتصف الله به من جميع ذلك فهو منزّه عن مشابهة ما اتصف به الخلق منه.

واللازم لمن شبه في بعض الصفات ونزهه في بعضها أن يشبه في جميعها أو ينزهه في جميعها، كما قاله الأشعري.

أما ادعاء ظهور التشبيه في بعضها دون بعض، فلا وجه له بحال من الأحوال، لأن الموصوف بها واحد، وهو منزّه عن مشابهة صفات خلقه.

ومن جملة كلام أبي الحسن الأشعري رحمه الله المشار إليها آنفاً في إثبات الصفات ما نصه:

فإن قال قائل: لم أنكرتم أن يكون قوله: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا} وقوله {لِمَا خَلَقْتُ يَدَيْيَّ} على المجاز؟

قيل له: حكم كلام الله عز وجل أن يكون على ظاهره وحقيقته ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا لحجة.

ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم فإذا ورد بلفظ العموم، والمراد به الخصوص، فليس هو على حقيقة الظاهر؟

وليس يجوز أن يعدل بما ظاهره العموم عن العموم بغير حجة؟

كذلك قول الله عز وجل {لِمَا خَلَقْتُ يَدَيْيَّ} على ظاهره وحقيقته من إثبات اليدين، ولا يجوز أن يعدل به عن ظاهر اليدين إلى ما ادعاه خصومنا إلا بحجة.

ولو جاز ذلك لمدع أن يدعي أن ما ظاهره العموم، فهو على

الخصوص، وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة.

وإذا لم يجز هذا لمدعيه بغير برهان، لم يجز لكم ما ادعيتموه، أنه مجاز بغير حجة.

بل واجب أن يكون قوله {لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّْ} إثبات يدين لله تعالى في الحقيقة غير نعمتين إذا كانت النعمتان لا يجوز عند أهل اللسان أن يقول قائلهم: فعلت بيدي وهو يعني النعمتين. اهـ محل الغرض منه بلفظه.

وفيه تصريح أبي الحسن الأشعري رحمه الله، بأن صفات الله كصفة اليد ثابتة له حقيقة لا مجازاً، وأن المدعين أنها مجازهم خصومه وهو خصمهم كما ترى.

وإنما قال رحمه الله: إنه تعالى متصف بها حقيقة لا مجازاً، لأنه لا يشك في أن ظاهر صفة الله هو مخالفة صفة الخلق، وتنزيهها عن مشابهتها كما هو شأن السلف الصالح كلهم.

فإثبات الحقيقة ونفي المجاز في صفات الله هو اعتقاد كل مسلم طاهر القلب من أقدار التشبيه، لأنه لا يسبق إلى ذهنه من اللفظ الدال على الصفة كصفة اليد والوجه إلا أنها صفة كمال منزهة عن مشابهة صفات الخلق.

فلا يخطر في ذهنه التشبيه الذي هو سبب نفي الصفة وتأويلها بمعنى لا أصل له.

تنبيه مهم

فإن قيل دل الكتاب والسنة وإجماع السلف على أن الله وصف نفسه بصفة اليدين كقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّْ}. وقوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} وقوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}.

والأحاديث الدالة على مثل ما دلت عليه الآيات المذكورة كثيرة، كما هو معلوم، وأجمع المسلمون على أنه جل وعلا، لا يجوز أن يوصف بصفة الأيدي مع أنه تعالى قال {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} فلم أجمع المسلمون على تقديم آية لما خلقت بيدي على آية مما عملت أيدينا؟

فالجواب: أنه لا خلاف بين أهل اللسان العربي ولا بين المسلمين أن صيغ الجموع تأتي لمعنيين أحدهما إرادة التعظيم فقط، فلا يدخل في صيغة الجمع تعدد أصلاً، لأن صيغة الجمع المراد بها التعظيم، إنما يراد بها واحد.

والثاني أن يراد بصيغة الجمع معنى الجمع المعروف، وإذا علمت ذلك، فاعلم أن القرآن العظيم، يكثر فيه جداً إطلاق الله جل وعلا، على نفسه صيغة الجمع، يريد بذلك تعظيم نفسه، ولا يريد بذلك تعدداً ولا أن معه غيره، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، كقوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}.

فصيغة الجمع في قوله: {إِنَّا} وفي قوله: {تَخُنُّ} وفي قوله: {تَزَلَّتْنَا} وقوله: {لَحْفِظُونَ} لا يراد بها أن معه منزلاً للذكر، وحافظاً له غيره تعالى.

بل هو وجه المنزل له والحافظ له، وكذلك قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونًا نُّنُّمُ تَخْلُقُونَهُ أَمْ تَخُنُّ لَخَلْقُونَهُ} وقوله {لَأَن تَأْتُمُ أَنْزَلْتُمُوهُ مِّن لُّمُنَزِلُونَ} وقوله: {أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ تَخُنُّ لِمُنْشِئُونَ}، ونحو هذا كثير في القرآن جداً، وبه تعلم أن صيغة الجمع في قوله: {إِنَّا}. وفي قوله: (خلقنا) وفي قوله: {عَمِلْتَ أَيَّدِيْنَا} إنما يراد بها التعظيم، ولا يراد بها التعدد أصلاً. وإذا كان يراد بها التعظيم، لا التعدد علم بذلك أنها لا تصح بها معارضة قوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيْ}، لأنها دلت على صفة اليمين، والجمع في قوله: {أَيَّدِيْنَا} لمجرد التعظيم.

وما كان كذلك لا يدل على التعدد فيطلب الدليل من غيره، فإن دل على أن المراد بالتعظيم واحد حكم بذلك، كالأيات المتقدمة. وإن دل على معنى آخر حكم به.

فقوله مثلاً: {وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ} قام فيه البرهان القطعي أنه جافظ واحد، وكذلك قوله: {أَمْ تَخُنُّ لَخَلْقُونَهُ}، {أَمْ تَخُنُّ لِمُنْزِلُونَ}، {أَمْ تَخُنُّ لِمُنْشِئُونَ} فإنه قد قام في كل ذلك البرهان القطعي على أنه خالق واحد، ومنزل واحد، ومنشئ واحد.

وأما قوله: {مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِيْنَا} فقد دل البرهان القطعي، على أن الله موصوف بصفة اليمين كما صرح به في قوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيْ} كما تقدم إيضاحه قريباً.

وقد علمت أن صيغة الجمع في قوله: {لَحْفِظُونَ}، وقوله: {أَمْ تَخُنُّ لَخَلْقُونَهُ} وقوله: {أَمْ تَخُنُّ لِمُنْزِلُونَ} وقوله: {أَمْ تَخُنُّ لِمُنْشِئُونَ} وقوله: {خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِيْنَا} لا يراد بشيء منه معنى الجمع، وإنما يراد به التعظيم فقط.

وقد أجاب أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة بما يقرب من هذا في المعنى.

واعلم أن لفظ اليمين، قد يستعمل في اللغة العربية استعمالاً خاصاً، بلفظ خاص لا تقصد به في ذلك النعمة ولا الجارحة ولا القدرة، وإنما يراد به معنى أمام.

واللفظ المختص بهذا المعنى هو لفظة اليمين التي أضيفت إليها لفظة بين خاصة، أعني لفظة بين يديه، فإن المراد بهذه اللفظة أمامه. وهو استعمال عربي معروف مشهور في لغة العرب لا يقصد فيه معنى الجارحة ولا النعمة ولا القدرة، ولا أي صفة كائنة ما كانت.

وانما يراد به أمام فقط كقوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا لُقُزَّاءٍ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } أي ولا بالذي كان أمامه سابقاً عليه من الكتِّب.

وكقوله: { وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ } أي مصدقاً لما كان أمامه متقدماً عليه من التوراة.

وكقوله: { فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ }، فالمراد بلفظ ما بين أيديهم ما أمامهم.

وكقوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ }، أي يرسل الرياح مبشرات أمام رحمته التي هي المطر، إلى غير ذلك من الآيات.

ومما يوضح لك ذلك أنه لا يمكن تأويل اليمين في ذلك بنعمتين ولا قدرتين ولا جارحتين. ولا غير ذلك من الصفات، فهذا أسلوب خاص دال على معنى خاص. بلفظ خاص مشهور، في كلام العرب فلا صلة له باللفظ الدال على الجارحة، بالنسبة إلى الإنسان ولا باللفظ الدال على صفة الكمال والجلال الثابتة لله تعالى. فافهم.

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتابه: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، الذي ذكر فيه أقوال جميع أهل الأهواء والبدع والمؤولين والنافين لصفات الله أو بعضها ما نصه: جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسوله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يردون من ذلك شيئاً.

وأن الله سبحانه إله واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله سبحانه على عرشه كما قال { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سُبُوًى } وأن له يدين بلا كيف كما قال: { خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }، وكما قال: { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } إلى أن قال في كلامه هذا، بعد أن سرد مذهب أهل السنة والجماعة. ما نصه:

فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين، وعليه نتوكل وإليه المصير، هذا لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب المقالات المذكور.

وبه تعلم أنه يؤمن بكل ما جاء عن الله في كتابه وما ثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يرد من ذلك شيئاً ولا ينفيه بل يؤمن به ويثبت لله، بلا كيف ولا تشبيه، كما هو مذهب أهل السنة.

وقال أبو الحسن الأشعري أيضاً في كتاب المقالات المذكور ما نصه:

وقال أهل السنة وأصحاب الحديث: ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وأنه على العرش كما قال عز وجل: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سُبُّوتَى} ولا نقدم بين يدي الله في القول بل نقول: استوى بلا كيف، ثم أطال الكلام رحمه الله، في إثبات الصفات كما قدمنا عنه، ثم قال ما نصه وقالت المعتزلة: إن الله استوى على عرشه بمعنى استولى. اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

فتراه صرح في كتاب المقالات المذكور، بأن تأويل الاستواء بالاستيلاء، هو قول المعتزلة لا قوله هو، ولا قول أحد من أهل السنة.

وزاد في كتاب الإبانة مع المعتزلة الجهمية والحرورية كما قدمنا. وبكل ما ذكرنا تعلم أن الأشعري رجع عن الاعتزال إلى مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها.

وقد قدمنا إيضاح الحق في آيات الصفات بالأدلة القرآنية بكثرة في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ سُبُّوتَى عَلَى الْعَرْشِ}.

واعلم أن أئمة القائلين بالتأويل، رجعوا قبل موتهم عنه، لأنه مذهب غير مأمون العاقبة، لأن مبناه على ادعاء أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها، لا تليق بالله لظهورها وتبادرها في مشابهة صفات الخلق.

ثم نفي تلك الصفات الواردة في الآيات والأحاديث، لأجل تلك الدعوى الكاذبة المشؤومة، ثم تأويلها بأشياء أخرى، دون مستند من كتاب أو سنة، أو قول صحابي أو أحد من السلف.

وكل مذهب هذه حاله، فإنه جدير بالعاقل المفكر أن يرجع عنه إلى مذهب السلف.

وقد أشار تعالى في سورة الفرقان أن وصف الله بالاستواء صادر عن خبير بالله، وبصفاته عالم بما يليق به، وبما لا يليق وذلك في قوله تعالى: {لِذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ سُبُّوتَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ قَاسِئًا بِهِ خَبِيرًا}. فتأمل قوله: {قَاسِئًا بِهِ خَبِيرًا}، بعد قوله: {ثُمَّ سُبُّوتَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ}، تعلم أن من وصف الرحمن بالاستواء على العرش خبير بالرحمن وبصفاته لا يخفى عليه اللائق من الصفات وغير اللائق.

فالذي نبأنا بأنه استوى على عرشه هو العليم الخبير الذي هو الرحمن.

وقد قال تعالى: {وَلَا يُبْسِكُ مِثْلُ خَبِيرٍ}. وبذلك تعلم أن من يدعي أن الاستواء يستلزم التشبيه، وأنه غير لائق غير خبير، نعم والله هو غير خبير.

وسنذكر هنا إن شاء الله أن أئمة المتكلمين المشهورين رجعوا
كلهم عن تأويل الصفات.

أما كبيرهم الذي هو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى أبي الحسن
الأشعري، وهو القاضي محمد بن الطيب المعروف بأبي بكر
الباقلاني، فإنه كان يؤمن بالصفات على مذهب السلف ويمنع
تأويلها منعاً باتاً، ويقول فيها بمثل ما قدمنا عن الأشعري.
وسنذكر لك هنا بعض كلامه.

قال الباقلاني المذكور في كتاب التمهيد ما نصه:
باب في أن لله وجهاً وبدين، فإن قال قائل. فما الحجة في أن لله
عز وجل وجهاً وبدين؟ قيل له قوله:
{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ}.
وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّْ}، فأثبت لنفسه وجهاً
وبدين.

فإن قالوا: فما أنكرتم أن يكون المعنى في قوله {خَلَقْتُ بِيَدَيَّْ}
أنه خلقه بقدرته أو بنعمته، لأن اليد في اللغة قد تكون بمعنى
النعمة، وبمعنى القدرة، كما يقال: لي عند فلان يد بيضاء. يراد به
نعمة.

وكما يقال: هذا الشيء في يد فلان وتحت يد فلان، يراد به أنه
تحت قدرته وفي ملكه.

ويقال: رجل أيدٌ إذا كان قادراً.

وكما قال تعالى: {خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً} يريد عملنا
بقدرتنا. وقال الشاعر: إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة
باليمين

فكذلك قوله: {خَلَقْتُ بِيَدَيَّْ} يعني بقدرتي أو نعمتي.

يقال لهم هذا باطل لأن قوله: {بِيَدَيَّْ} يقتضي إثبات يدين هما
صفة له.

فلو كان المراد بهما القدرة لموجب أن يكون له قدرتان.

وأنتم لا تزعمون أن للباري سبحانه قدرة واحدة، فكيف يجوز أن
تثبتوا له قدرتين؟

وقد أجمع المسلمون من مثبتي الصفات والنافين لها على أنه لا
يجوز أن يكون له تعالى قدرتان فيبطل ما قلتم.

وكذلك لا يجوز أن يكون الله تعالى خلق آدم بنعمتين، لأن نعم الله
تعالى على آدم وعلي غيره لا تحصى.

ولأن القائل لا يجوز أن يقول: رفعت الشيء بيدي أو وضعته بيدي
أو توليته بيدي وهو يعني نعمته.

وكذلك لا يجوز أن يقال: لي عند فلان يدان يعني نعمتين.

وإنما يقال لي عنده يدان بيضاوان، لأن القول: يد، لا يستعمل إلا في اليد التي هي صفة الذات.
وبدل على فساد تأويلهم أيضاً أنه لو كان الأمر على ما قالوه لم يغفل عن ذلك إبليس، وعن أن يقول وأي فضل لآدم علي يقتضي أن أسجد له، وأنا أيضاً بيدك خلقتني التي هي قدرتك وبنعمتك خلقتني؟

وفي العلم بأن الله تعالى فضل آدم عليه بخلقه بيديه، دليل على فساد ما قالوه.

فإن قال قائل: فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة؟ إذ كنتم لم تعقلوا يد صفة ووجه صفة لا جارحة. يقال له: لا يجب ذلك كما لا يجب إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسماً أن نقضي نحن وأنتم على الله تعالى بذلك.

وكما لا يجب متى كان قائماً بذاته أن يكون جوهرًا أو جسماً، لأننا وإياكم لم نجد قائماً بنفسه في شاهدنا إلا كذلك. اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

وهو صريح في أنه يرى أن صفة الوجه وصفة اليد وصفة العلم والحياة والقدرة كلها من صفات المعاني ولا وجه للفرق بينها وجميع صفات الله مخالفة لجميع صفات خلقه.

وقال الباقلاني أيضاً في كتاب التمهيد ما نصه:
فإن قالوا: فهل تقولون: إنه في كل مكان؟

قيل: معاذ الله بل هو مسبو على العرش كما أخبر في كتابه، فقال: {الَّذِينَ عَلَى الْعَرْشِ سُبُّوهُ} وقال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} وقال: {أَعْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ}.

ولو كان في كل مكان، لكان في جوف الإنسان، وفمه وفي الحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها، تعالى عن ذلك، ولوجب أن يزيد بزيادة الأماكن إذ خلق منها ما لم يكن خلقه، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان.

ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض وإلى وراء ظهورنا وعن أيماننا وشمائلنا.

وهذا ما قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله، إلى أن قال رحمه الله: ولا يجوز أن يكون معنى استوائه على العرش هو استيلاؤه عليه كما قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهوراق

لأن الاستيلاء هو القدرة والقهر، والله تعالى لم يزل قادراً قاهراً عزيزاً مقتدرًا.

وقوله: {ثُمَّ سُبُّوْا عَلَيَّ لَعْرَشِي} يقتضي استفتاح هذا الوصف بعد أن لم يكن، فيبطل ما قالوه.
فإن قال قائل: ففصلوا لي صفات ذاته من صفات أفعاله، لأعرف ذلك.

قيل له: صفات ذاته هي التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها. وهي الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه والعينان واليدان. اهـ محل الغرض منه بلفظه. وقد نقلناه من نسخة هي أجود نسخة موجودة لكتاب التمهيد للباقلاني المذكور.

وترى تصريحه فيها بأن صفة الوجه واليد من صفات المعاني كالحياة والعلم والقدرة والإرادة، كما هو قول أبي الحسن الأشعري الذي قدمنا إيضاحه.

واعلم أن إمام الحرمين، أبا المعالي الجويني، كان في زمانه من أعظم أئمة القائلين بالتأويل، وقد قرر التأويل وانتصر له في كتابه الإرشاد.

ولكنه رجع عن ذلك في رسالته العقيدة النظامية فإنه قال فيها: اختلف مسالك العلماء، في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق فحواها وإجراؤها على موجب ما تبرزه أفهام أرباب اللسان منها.

فراى بعضهم تأويلها، والتزام هذا المنهج في آي الكتاب وفيما صح من سنن النبي صلى الله عليه وسلم.

وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه.

والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً، اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع والدليل السمعي القاطع في ذلك، أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة.

وقد درج صحب الرسول صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام والمشتغلون بأعباء الشريعة.

وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها.

فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة.

فإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع بحق.

فعلى ذي الدين أن يعتقد تنزه الرب تعالى عن صفات المحدثات ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب.

ومما استحسَن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس أنه سئل عن قوله تعالى: {الَّذِينَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا}، فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة.

فلتجر آية الاستواء والمجيء وقوله: {لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ}، {وَبَيَّنَّقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ}، وقوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، وما صح عن الرسول عليه السلام كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا، فهذا بيان ما يجب لله تعالى. اهـ. كلامه بلفظه من الرسالة النظامية المذكورة مع أن رجوع الجويني فيها إلى أن الحق هو مذهب السلف أمر معلوم. وكذلك أبو حامد الغزالي، كان في زمانه من أعظم القائلين بالتأويل ثم رجع عن ذلك، وبين أن الحق الذي لا شك فيه هو مذهب السلف.

وقال في كتابه: إجماع العوام عن علم الكلام: اعلم أن الحق الصريح الذي لا مرء فيه عند أهل البصائر، هو مذهب السلف أعني الصحابة والتابعين، ثم قال: إن البرهان الكلي على أن الحق في مذهب السلف وحده ينكشف بتسليم أربعة أصول مسلمة عند كل عاقل.

ثم بين أن الأول من تلك الأصول المذكورة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد في دينهم ودنياهم.

الأصل الثاني: أنه بلغ كلما أوحى إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم، ولم يكتف منه شيئاً.

الأصل الثالث: أن أعرف الناس بمعاني كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسرارهم هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لازموه وحضروا التنزيل وعرفوا التأويل. والأصل الرابع: أن الصحابة رضي الله عنهم في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى التأويل، ولو كان التأويل من الدين أو علم الدين لأقبلوا عليه ليلاً ونهاراً ودعوا إليه أولادهم وأهلهم.

ثم قال الغزالي: وبهذه الأصول الأربعة المسلمة عند كل مسلم نعلم بالقطع أن الحق ما قالوه والصواب ما رأوه. اهـ. باختصار.

ولا شك أن الاستدلال الغزالي هذا لأن مذهب السلف هو الحق استدلال لا شك في صحته، ووضوح وجه الدليل فيه، وأن التأويل لو كان سائغاً أو لازماً لبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، ولقال به أصحابه وتابعوهم كما لا يخفى.

وذكر غير واحد عن الغزالي: أنه رجع في آخر حياته إلى تلاوة كتاب الله وحفظ الأحاديث الصحيحة والاعتراف بأن الحق هو ما في كتاب الله وسنة رسوله.

وذكر بعضهم أنه مات وعلى صدره صحيح البخاري رحمه الله. واعلم أيضاً أن الفخر الرازي الذي كان في زمانه أعظم أئمة التأويل رجع عن ذلك المذهب إلى مذهب السلف معترفاً بأن طريق الحق هي اتباع القرآن في صفات الله. وقد قال في ذلك في كتابه: أقسام اللذات.

لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلاً، ولا تشفي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سِتَّوَى}، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، وفي النفي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. اهـ.

وقد بين هذا المعنى في أبياته المشهورة التي يقول فيها:

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
إلى آخر الأبيات.

وكذلك غالب أكابر الذين كانوا يخوضون في الفلسفة والكلام، فإنه ينتهي بهم أمرهم إلى الحيرة وعدم الثقة بما كانوا يقررون. وقد ذكر عن الحفيد ابن رشد وهو من أعلم الناس بالفلسفة أنه قال:

ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به؟

وذكروا عن الشهرستاني أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وقد قال في ذلك: لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وأمثال هذا كثيرة.

فيا أيها المعاصرون المتعصبون لدعوى أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها خبيث لا يليق بالله لاستلزامه التشبيه بصفات الخلق، وأنها يجب نفيها وتأويلها بمعان ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه ولا من التابعين.

فمن هو سلفكم في هذه الدعوى الباطلة المخالفة لإجماع السلف؟

إن كنتم تزعمون أن الأشعري يقول مثل قولكم، وأنه سلفكم في ذلك فهو بريء منكم ومن دعاكم.
وهو مصرح في كتبه التي صنفها بعد الرجوع عن الاعتزال أن القائلين بالتأويل هم المعتزلة، وهم خصومه وهو خصمهم، كما أوضحنا كلامه في الإباحة والمقالات.
وقد بينا أن أساطين القول بالتأويل قد اعترفوا بأن التأويل لا مستند له، وأن الحق هو اتباع مذهب السلف كما أوضحنا ذلك عن أبي بكر الباقلاني، وأبي المعالي الجويني، وأبي حامد الغزالي، وأبي عبد الله الفخر الرازي، وغيرهم ممن ذكرنا.
فنوصيكم وأنفسنا بتقوى الله وألا تجادلوا في آيات الله بغير سلطان أتاكم، والله جل وعلا يقول في كتابه: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ وَ سَتَعِدُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ويقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ائْتُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ لَّسَّعِيرٍ}.

المسألة الثانية في الكلام على الاجتهاد
اعلم أولاً أنا قدمنا بطلان قول الظاهرية بمنع الاجتهاد مطلقاً، وأن من الاجتهاد ما هو صحيح موافق للشرع الكريم، وبسطنا أدلة ذلك بإيضاح في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكَمَانِ فِي الْحَرْثِ}.
وبينا طرفاً منه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} فأغنى ذلك عن إعادته هنا. وغرضنا في هذه المسألة هو أن نبين أن تدبر القرآن وانتفاع متدبره بالعمل بما علم منه الذي دل عليه قوله تعالى في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددنا التي هي قوله تعالى: {أَقْلَابًا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}، لا يتوقف على تحصيل الاجتهاد المطلق بشروطه المعروفة عند متأخري الأصوليين.
اعلم أولاً: أن المتأخرين من أهل الأصول الذين يقولون بمنع العمل بالكتاب والسنة مطلقاً إلا للمجتهدين، يقولون: إن شروط الاجتهاد هي كون المجتهد بالغاً، عاقلاً شديد الفهم، طبعاً عارفاً بالدليل العقلي، الذي هو استصحاب العدم الأصلي، حتى يرد نقل صارف عنه.
عارفاً باللغة العربية، وبالنحو من صرف وبلاغة مع معرفة الحقائق الشرعية والعرفية.

وبعضهم يزيد المحتاج إليه من فن المنطق كشرائط الحدود،
 والرسوم، وشرائط البرهان.
 عارفاً بالأصول، عارفاً بأدلة الأحكام من الكتاب والسنة.
 ولا يشترط عندهم حفظ النصوص، بل يكفي عندهم علمه
 بمداركها في المصحف وكتب الحديث.
 عارفاً بمواقع الإجماع والخلاف.
 عارفاً بشروط المتواتر، والآحاد والصحيح والضعيف.
 عارفاً بالناسخ والمنسوخ.
 عارفاً بأسباب النزول.
 عارفاً بأحوال الصحابة وأحوال رواة الحديث، اختلفوا في شرط
 عدم إنكاره للقياس. اهـ.
 ولا يخفى أن مستندهم في اشتراطهم لهذه الشروط ليس نصاً
 من كتاب ولا سنة يصرح بأن هذه الشروط كلها لا يصح دونها عمل
 بكتاب ولا سنة، ولا إجماعاً دالاً على ذلك.
 وإنما مستندهم في ذلك هو تحقيق المناط في ظنهم.
 وإيضاح ذلك هو أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
 وإجماع المسلمين كلها دال على أن العمل بكتاب الله وسنة
 رسوله صلى الله عليه وسلم، لا يشترط له إلا شرط واحد، وهو
 العلم بحكم ما يعمل به منهما.
 ولا يشترط في العمل بالوحي شرط زائد على العلم بحكمه ألبتة.
 وهذا مما لا يكاد ينازع فيه أحد.
 ومراد متأخري الأصوليين بجميع الشروط التي اشترطوها هو
 تحقيق المناط.
 لأن العلم بالوحي لما كان هو مناط العمل به أرادوا أن يحققوا هذا
 المناط، أي يبينوا الطرق التي يتحقق بها حصول العلم الذي هو
 مناط العمل.
 فاشترطوا جميع الشروط المذكورة، ظناً منهم أنه لا يمكن تحقيق
 حصول العلم بالوحي دونها.
 وهذا الظن فيه نظر.
 لأن كل إنسان له فهم إذا أراد العمل بنص من كتاب أو سنة فلا
 يمتنع عليه، ولا يستحيل أن يتعلم معناه ويبحث عنه هل هو منسوخ
 أو مخصص أو مقيد حتى يعلم ذلك فيعمل به.
 وسؤال أهل العلم: هل لهذا النص ناسخ أو مخصص أو مقيد مثلاً.
 وإخبارهم بذلك ليس من نوع التقليد، بل هو من نوع الاتباع.
 وسننن إن شاء الله الفرق بين التقليد والاتباع في مسألة التقليد
 الآتية.

والحاصل أن نصوص الكتاب والسنة التي لا تحصى واردة بإلزام جميع المكلفين بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وليس في شيء منها التخصيص بمن حصل شروط الاجتهاد المذكورة.

وسنذكر طرفاً منها لنبين أنه لا يجوز تخصيصها بتحصيل الشروط المذكورة.

قال الله تعالى: { تَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ }، والمراد بما أنزل إليكم هو القرآن والسنة المبينة له لا آراء الرجال.

وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا }.

فدللت هذه الآية الكريمة أن من دعي إلى العمل بالقرآن والسنة وصد عن ذلك، أنه من جملة المنافقين، لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وقال تعالى: { فَإِنْ تَبَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَارْجِعُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ }، والرد إلى الله والرسول هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول بعد وفاته صلى الله عليه وسلم هو الرد إلى سنته.

وتعليقه الإيمان في قوله: { إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } على رد التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله، يفهم منه أن من يرد التنازع إلى غيرهما لم يكن يؤمن بالله.

وقال تعالى: { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }.

ولا شك أن القرآن أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، والسنة مبينة له، وقد هدد من لم يتبع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا بقوله: { مَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }.

وقال تعالى: { لِيَذِرَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ }، ولا شك أن كتاب الله وسنة رسوله أحسن من آراء الرجال.

وقال تعالى: { وَمِمَّا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } وقوله: { إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } فيه تهديد شديد لمن لم يعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سيما إن كان يظن أن أقوال الرجال تكفي عنها.

وقال تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَالْأَسْوَةَ: الاقتداء.

فيلزم المسلم أن يجعل قدوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك باتباع سنته.

وقال تعالى: {قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ} وَيُحْكَمُونَ حَتَّىٰ يُحْكَمُوا لَكَ وَيَتْلُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ لَا يَحِذُّونَ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، وقد أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما اختلفوا فيه. وقال تعالى: {قَالَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا يَسْتَجِيبُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيًا يُغَيِّرُ هُدًى مِّنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

والاستجابة له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته هي الرجوع إلى سنته صلى الله عليه وسلم، وهي مبينة لكتاب الله. وقد جاء في القرآن العظيم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتبع شيئاً إلا الوحي.

وأن من أطاعه صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله. قال تعالى في سورة يونس: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَدَّبَهُ مِنْ تَلْقَائِهِ أَن يَخِفُّ عَلَيَّ إِلَّا مَا يُؤَخِّرُ إِلَيَّ} وَأَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

وقال تعالى في الأنعام: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَنبِئُكُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ} وقال تعالى في الأحقاف: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِّي أَنبِئُكُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ}.

وقال تعالى في الأنبياء: {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ}، فحصر الإنذار في الوحي دون غيره. وقال تعالى: {قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ هَدَيْتُ فَبِمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي}، فبين أن الهدى إنما هو بالوحي والآيات بمثل هذا كثيرة.

وإذا علمت منها أن طريقه صلى الله عليه وسلم هي اتباع الوحي، فاعلم أن القرآن دل على أن من أطاعه صلى الله عليه وسلم فهو مطيع لله كما قال تعالى: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} ولم يضمن الله لأحد ألا يكون ضالاً في الدنيا ولا شقياً في الآخرة إلا لمتبعي الوحي وحده.

قال تعالى في طه: {فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}، وقد دلت آية طه هذه على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعي الوحي.

ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنه، وذلك في قوله تعالى: {فَأَمَّا يَا تَيْبَتِكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

ولا شك أن انتفاء الضلال والشقاوة والخوف والحزن عن متبعي الوحي، المصرح به في القرآن، لا يتحقق فيمن يقلد عالماً ليس بمعصوم، لا يدري أصواب ما قلده فيه أم خطأ. في حال كونه معرضاً عن التدبر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولا سيما إن كان يظن أن آراء العالم الذي قلده، كافية مغنية، عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. والآيات القرآنية الدالة على لزوم اتباع الوحي، والعمل به، لا تكاد تحصى، وكذلك الأحاديث النبوية الدالة على لزوم العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا تكاد تحصى، لأن طاعة الرسول طاعة الله.

وقد قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، وقال تعالى: {وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

وقال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ}.

وقال: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}.

وقال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}.

وقال تعالى: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}.

وقال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ لِقَوْمٍ اعْظَمُوا مَن يَعصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}.

وقال تعالى: {وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَحُذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلِيَ رَسُولُنَا لِبَلِّغِ لِمُيِّنٍ}.

وقال تعالى: {وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ}.

وقال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا لِبَلِّغِ لِمُيِّنٍ}.

وقال: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}.

وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَاتَّقَاهُ فَأُولَئِكَ هُمُ لِقَائِزُونَ}.

وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}.

وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ}.

ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي، محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فمنصوص القرآن والسنة كلها دالة على لزوم تدبر الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل به.

فتخصيص تلك النصوص كلها، بدعوى أن تدبر الوحي وتفهمه والعمل به: لا يصح شيء منه إلا لخصوص المجتهدين، الجامعين لشروط الاجتهاد المعروفة عند متأخري الأصوليين، يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه.

ولا دليل على ذلك ألبتة.

بل أدلة الكتاب والسنة، دالة على وجوب تدبر الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل بكل ما علم منه، علماً صحيحاً قليلاً كان أو كثيراً.

وهذه المسألة الثانية يتداخل بعض الكلام فيها، مع بعض الكلام، في المسألة الأولى. فهما شبه المسألة الواحدة.

المسألة الثالثة في التقليد في بيان معناه لغة واصطلاحاً وأقسامه وبيان ما يصح منها وما لا يصح

اعلم أن التقليد في اللغة: هو جعل القلادة في العنق.

وتقليد الولاية هو جعل الولايات قلائد في أعناقهم.

ومنه قول لقيط الأيادي: وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

وأما التقليد في اصطلاح الفقهاء: فهو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليله.

والمراد بالمذاهب هو ما يصح فيه الاجتهاد خاصة.

ولا يصح الاجتهاد ألبتة في شيء يخالف نصاً من كتابه أو سنة ثابتة،
سالمًا من المعارض.

لأن الكتاب والسنة حجة على كل كائناً من كان، لا تسوغ
مخالفتها ألبتة لأحد كائناً من كان فيجب التفطن، لأن المذهب
الذي فيه التقليد يختص بالأمور الاجتهادية ولا يتناول ما جاء فيه نص
صحيح من الوحي سالم من المعارض.

قال الشيخ الحطاب في شرحه لقول خليل في مختصره: مختصراً
على مذهب الإمام مالك بن أنس ما نصه:

(والمذهب لغة الطريق ومكان الذهاب، ثم صار عند الفقهاء حقيقة
عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية) اهـ.
محل الغرض منه بلفظه.

فقوله: من الأحكام الاجتهادية تدل على أن اسم المذهب لم يتناول
مواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض.

وذلك أمر لا خلاف فيه لإجماع العلماء على أن المجتهد المطلق إذا
أقام باجتهاده دليلاً، مخالفاً لنص من كتاب أو سنة أو إجماع، أن
دليله ذلك باطل بلا خلاف.

وأنه يرد بالقادح المسمى في الأصول بفساد الاعتبار.
وفساد الاعتبار الذي هو مخالفة الدليل لنص أو إجماع من القوادح
التي لا نزاع في إبطال الدليل بها. وإليه الإشارة بقول صاحب
مراقي السعود في القوادح: والخلف للنص أو إجماع دعا فسادا
لاعتبار كل من وعى

وبما ذكرنا تعلم أنه لا اجتهاد أصلاً ولا تقليد أصلاً في شيء يخالف
نصاً من كتاب أو سنة أو إجماع.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن بعض الناس من المتأخرين أجاز التقليد،
ولو كان فيه مخالفة نصوص الوحي، كما ذكرنا عن الصاوي
وأضرابه.

وعليه أكثر المقلدين للمذاهب في هذا الزمان وأزمان قبله.
وبعض العلماء منع التقليد مطلقاً، وممن ذهب إلى ذلك ابن خوير
منداد من المالكية، والشوكاني في القول المفيد في أدلة الاجتهاد
والتقليد.

والتحقيق: أن التقليد منه ما هو جائز، ومنه ما ليس بجائز.
ومنه ما خالف فيه المتأخرون المتقدمين من الصحابة وغيرهم من
القرون الثلاثة المفضلة.

وسنذكر كل الأقسام هنا إن شاء الله مع بيان الأدلة.
أما التقليد الجائز الذي لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو
تقليد العامي عالماً أهلاً للفتيا في نازلة نزلت به، وهذا النوع من

التقليد كان شائعاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا خلاف فيه.
فقد كان العامي، يسأل من شاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه.
وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابي الذي أفتاه أولاً بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعمل بفتياه.
قال صاحب نشر البنود في شرحه لقوله في مراقي السعود:
رجوعه لغيره في آخر يجوز للإجماع عند الأكثر

ما نصه: يعني أن العامي يجوز له عند الأكثر، الرجوع إلى قول غير المجتهد الذي استفتاه أولاً في حكم آخر لإجماع الصحابة رضي الله عنهم، على أنه يسوغ للعامي السؤال لكل عالم، ولأن كل مسألة لها حكم نفسها.
فكما لم يتعين الأول للاتباع في المسألة الأولى إلا بعد سؤاله، فكذلك في المسألة الأخرى. قاله الحطاب شارح مختصر خليل.
قال القرافي: انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر.
وأجمع الصحابة على أن من استفتى أبا بكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتي أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما، ويعمل بقولهم بغير نكير.
فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل. اهـ. محل الغرض منه.

وما ذكره من انعقاد الإجماعين صحيح كما لا يخفى، فالأقوال المخالفة لهما من متأخري الأصوليين كلها مخالفة للإجماع. وبعض العلماء يقول: إن تقليد العامي المذكور للعالم وعمله بفتياه من الاتباع لا من التقليد.
والصواب: أن ذلك تقليد مشروع مجمع على مشروعيته.
وأما ما ليس من التقليد بجائز لا خلاف؟ فهو تقليد المجتهد الذي ظهر له الحكم باجتهاده، مجتهداً آخر يرى خلاف ما ظهر له هو، للإجماع على أن المجتهد إذا ظهر له الحكم باجتهاده لا يجوز له أن يقلد غيره المخالف لرأيه.
وأما نوع التقليد الذي خالف فيه المتأخرون، الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير، فهو تقليد رجل واحد معين دون غيره، من جميع العلماء.

فإن هذا النوع من التقليد، لم يرد به نص من كتاب ولا سنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير. وهو مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله، فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره، من جميع علماء المسلمين.

فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع، ومن يدعي خلاف ذلك، فليعين لنا رجلاً واحداً من القرون الثلاثة الأولى، التزم مذهب رجل واحد معين ولن يستطيع ذلك أبداً، لأنه لم يقع ألبتة.

وسنذكر هنا إن شاء الله جملًا من كلام أهل العلم في فساد هذا النوع من التقليد وحجج القائلين به، ومناقشتها. وبعد إيضاح ذلك كله نبين ما يظهر لنا بالدليل أنه هو الحق والصواب إن شاء الله. قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله، في كتابه جامع بيان

العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ما نصه:

باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع.

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه، فقال: { تَخَوُّوا أَخْبَرَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ }.

وروي عن حذيفة وغيره قالوا: «لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم».

وقال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عنقي الصليب فقال لي: «يا عدي: ألق هذا الوثن من عنقك،

فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية:

{ تَخَوُّوا أَخْبَرَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ } قال قلت يا

رسول الله: إنا لم نتخذهم أرباباً. قال بلى أليس يحلون لكم ما

حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه؟ فقلت بلى فقال: تلك عبادتهم».

حدثنا عبد الوارث بن سفيان ثم ساق السند إلى أن قال عن أبي

البخري في قوله عز وجل: { تَخَوُّوا أَخْبَرَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن

دُونِ اللَّهِ } أما إنهم لو أمرهم أن يعبدوهم من دون الله ما

أطاعوهم ولكنهم أمرهم، فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية.

قال وحدثنا ابن وضاح، ثم ساق السند إلى أن قال عن أبي

البخري قال: قيل لحذيفة في قوله: { تَخَوُّوا أَخْبَرَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ

أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ } أكانوا يعبدونهم؟ فقال لا، ولكن كانوا يحلون

لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه.

وقال جل وعز: { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ قُلْ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ يَأْتِيهِمْ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ }.

فمنعهم الاقتداء بأبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: { إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }.

وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ بُكْمٌ لِّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ }.

وقال: { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ يُبْعَوْنَ مِنَ الَّذِينَ يُبْعَوُ وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمْ الْأَسْبَابُ قَالَ الَّذِينَ يُبْعَوُونَ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ }.

وقال عز وجل عائياً لأهل الكفر وذاماً لهم: { مَا هَذِهِ التَّمَثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ }.

وقال { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا قَاصلُونَ السَّبِيلَ }.

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء.

وقد احتج العلماء بهذه الآيات، في إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر.

وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة.

لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه.

وقال الله عز وجل: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ }.

وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب هذا، وفي ثبوته إبطال التقليد أيضاً.

فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها، وهي الكتاب والسنة أو ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك.

أخبرنا عبد الوارث ثم ساق السند إلى أن قال: حدثنا كثير بن عبد

الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال: سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إني لأخاف على أمتي

من بعدي من أعمال ثلاثة، قال وما هي يا رسول الله؟

قال: أخاف عليهم من زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوى

متبع.»

وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تركت

فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله.»

هذا لفظ أبي عمر في جامعه.

وكثير بن عبد الله المذكور في الإسناد ضعيف، وأبوه عبد الله مقبول.

ولكن المتنين المرويين بالإسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل علي أن أصله صحيح.

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر في جامعه بإسناده عن زياد بن حدير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون.

ثم ذكر بالإسناد المذكور عن ابن مهدي عن جعفر بن حبان، عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: إن فيما أخشى عليكم زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق وعلى القرآن منار كأعلام الطريق.

ثم أخرج بإسناده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يقول في مجلسه كل يوم، قلما يخطئه أن يقول ذلك «الله حكم قسط هلك المرتابون إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والصبي والأسود والأحمر فيوشك أحدهم أن يقول: قد قرأت القرآن، فما أظن أن يتبعوني حتى أبتدع لهم غيره، فأياكم وما ابتدع، فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم» إلى آخر ما ذكره رحمه الله من الآثار الدالة على نحو ما تقدم من أن زلة العالم من أخوف المخاوف على هذه الأمة.

وإنما كانت كذلك لأن من يقلد العالم تقليداً أعمى يقلده فيما زل فيه فيتقول علي الله أن تلك الزلة التي قلد فيها العالم من دين الله، وأنها مما أمر الله بها ورسوله، وهذا كما ترى والتنبيه عليه هو مراد ابن عبد البر.

ومرادنا أيضاً بإيراد الآثار المذكورة.

ثم قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه ما نصه: وشبه الحكماء زلة العالم بانكسار السفينة، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير.

وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطيء، لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه.

حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ثم ساق السند إلى أن قال: عن ابن مسعود أنه كان يقول: «اغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة» فيما بين ذلك.

ثم ساق الروايات في تفسيرهم الإمعة. ومعنى الإمعة معروف.

قال الجوهري في صحاحه: يقال الإمع والإمعة أيضاً للذي يكون لضعف رأيه مع كل أحد، ومنه قول ابن مسعود: لا يكونن أحدكم إمعة. اهـ. منه.

ولقد أصاب من قال: شمر وكن في أمور الدين مجتهدا ولا تكن مثل غير قيد فانقادا

وذكر ابن عبد البر بإسناده عن ابن مسعود في تفسير الإمعة أنه قال.

كنا ندعو الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره، وهو فيكم اليوم المحقب دينه الرجال.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ويل للاتباع من عثرات العالم، قيل كيف ذلك؟ قال: يقول العالم شيئاً برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم منه فيترك قوله ذلك ثم تمضي الأتباع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد النخعي، وهو حديث مشهور عند أهل العلم، يستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم:

يا كميل إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، إلى آخر الحديث.

وفيه: أف لحامل حق لا يصيره له، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا يدري أين الحق، إن قال خطأ وإن أخطأ لم يدرك، مشغوف بما لا يدري حقيقته، فهو فتنة لمن افتتن به، وإن من الخير كله من عرفه الله دينه، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف دينه. ولا شك أن المقلد غيره تقليداً أعمى يدخل فيما ذكره علي رضي الله عنه في هذا الحديث، لأنه لا يدري عن دين الله شيئاً إلا أن الإمام الفلاني عمل بهذا.

فعلمه محصور في أن من يقلده من الأئمة ذهب إلى كذا ولا يدري أمصيب هو فيه أم مخطيء.

ومثل هذا لم يستضيء بنور العلم ولم يلجأ إلي ركن وثيق لجواز الخطأ على متبوعه، وعدم ميزه هو بين الخطأ والصواب.

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعته بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر.

وقال في جامعہ أيضاً رحمہ اللہ: وثبت عن النبی صلی اللہ علیہ وسلم مما قد ذکرناه فی کتابنا هذا أنه قال: «تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالاً یسألون فیفتون بغير علم فیضلون ویضلون».

وهذا كله نفي للتقليد، وإبطال له لمن فهمه وهدى لرشده. ثم ذكر رحمہ اللہ آثاراً نحو ما تقدم ثم قال: وقال: عبید اللہ بن المعتمر: لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان یقلد. وهذا كله لغير العامة، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها.

لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها. وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة. واللہ أعلم. ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول اللہ عز وجل: {وَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}. وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه في القبلة إذا أشكلت عليه.

فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا. وذلك واللہ أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحريم والتحليل، والقول في العلم.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن أبي هريرة رضي اللہ عنه «أن رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم قال: من قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانہ، ومن أفتى بفتيا من غير ثبت فإنما إثمها على من أفتاه». ثم ذكر بسنده أيضاً عن ابن عباس رضي اللہ عنهما أنه قال: من أفتى بفتيا وهو يعمى عنها كان إثمها عليه اهـ.

ولا شك أن المقلد أعمى عما يفتي به لأن علمه به محصور في أن فلاناً قاله مع علمه بأن فلاناً ليس بمعصوم من الخطأ والزلل. ثم قال أبو عمر رحمہ اللہ: وقال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ما هو به، فمن بان له الشيء فقد علمه.

قالوا: والمقلد لا علم له. ولم يختلفوا في ذلك إلى أن قال رحمہ اللہ، وقال أبو عبد اللہ بن خويز منداد البصري المالكي: التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه. وذلك ممنوع منه في الشريعة. والاتباع ما ثبت عليه حجة.

وقال في موضع آخر من كتابه: كل من اتبعت قوله من غير أن
يجب عليك قبوله لدليل يوجب عليك ذلك فأنت مقلده.
والتقليد في دين الله غير صحيح.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه.
والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع.

وقال أبو عمر في آخر كلامه في هذا الباب ما نصه:
ولا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد فأغنى ذلك عن
الإكثار.

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله، في كلامه عن التقليد ما
نصه:

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد
بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم.

فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزني رحمه الله، وأنا أورده قال:
يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به؟
فإن قال: نعم، أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا
التقليد.

وإن قال: حكمت به بغير حجة.

قيل له: فلم أرقت الدماء، وأبحت الفروج وأتلفت الأموال، وقد
حرم الله ذلك إلا بحجة؟

قال الله عز وجل {إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا} أي من حجة
بهذا؟

فإن قال: أنا أعلم أنني قد أصبت وإن لم أعرف الحجة، لأنني قلدت
كبيراً من العلماء وهو لا يقول إلا بحجة خفيت علي.
قيل له: إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك،
فتقليد معلم معلمك أولى.

لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك: كما لم يقل معلمك إلا
بحجة خفيت عليك.

فإن قال: نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه.

وكذلك من هو أعلا حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم.

وإن أبى ذلك نقض قوله.

وقيل له: كيف تجوز تقليد من هو أصغر، وأقل علماً؟

ولا تجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علماً، وهذا تناقض؟

فإن قال لأن معلمي وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه
إلى علمه، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك.

قيل له: كذلك من تعلم من معلمك، فقد جمع علم معلمك وعلم
من فوقه إلى علمه، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك.

وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك. لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك.

فإن أعاد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء، أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك الصحاب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه في قياس قوله. والأعلى للأدنى أبداً.

وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً اهـ.

ثم قال أبو عمر رحمه الله بعد هذا ما نصه:

يقال لمن قال بالتقليد: لم قلت به، وخالفت السلف في ذلك فإنهم لم يقلدوا؟

فإن قال: قلدت لأن كتاب الله لا علم لي بتأويله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم أحصها.

والذي قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم مني.

قيل له: أما العلماء، إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه.

ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض.

فما حجتك في تقليد بعضهم دون بعض.

وكلهم عالم، والعالم الذي رغبت عن قوله، أعلم من الذي ذهب إلى مذهبه.

فإن قال: قلدته لأنني أعلم أنه صواب.

قيل له: علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع؟

فإن قال نعم. أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل.

وإن قال: قلدته لأنه أعلم مني.

قيل له: فقلد كل من هو أعلم منك.

فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً ولا تخص من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك.

فإن قال: قلدته لأنه أعلم الناس.

قيل له: فإنه إذا أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً.

فإن قال: أنا أقلد بعض الصحابة. قيل له: فما حجتك في ترك من لم تقلد منهم، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله؟

على أن القول لا يصح لفضل قائله، وإنما يصح بدلالة الدليل عليه.

وقد ذكر ابن مزين عن عيسى بن دينار، عن ابن القاسم عن مالك، قال: ليس كل ما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتبع عليه لقول الله عز وجل:

{ لَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } . فإن قال قصري وقلة علمي يحملني على التقليد.

قيل له: أما من قلد فيما ينزل. من أحكام شريعته عالماً يتفق له على علمه، فيصدر في ذلك عما يخبره فمعدور، لأنه قد أدى ما عليه وأدى ما لزمه فيما نزل به لجهله ولا بدله من تقليد عالم، فيما جهله، لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره في القبلة لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك.

ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا في شرائع دين الله؟ فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك وبصيرها إلى غير من كانت في يديه بقول لا يعرف صحته ولا قام له الدليل عليه؟

وهو مقر أن قائله يخطيء ويصيب، وأن مخالفه في ذلك ربما كان المصيب، فيما خالفه فيه.

فإن أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع، لزمه أن يجيزه للعامة.

وكفى بهذا جهلاً، ورداً للقرآن قال الله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } . وقال: { أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } . وقد أجمع العلماء على أن ما لم يتبين ويتيقن فليس بعلم، وإنما هو ظن، والظن لا يغني عن الحق شيئاً اهـ. كله من جامع ابن عبد البر رحمه الله.

واعلم أن حاصل جميع حجج المقلدين منحصر في قولهم: نحن معاشر المقلدين ممثلون قول الله تعالى: { وَ سَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } .

فأمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من هو أعلم منه، وهذا نص قولنا.

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم من لا يعلم إلى سؤال من يعلم، فقال في حديث صاحب الشجرة: «ألا سألو إذا لم يعلموا، إنما شفاء العيي السؤال».

وقال أبو العسيف: الذي زنى بامرأة مستأجرة:

«وإنني سألت أهل العلم فأخبروني أن ما على ابني جلد مائة

وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد من هو أعلم منه»:

وهذا عالم الأرض عمر قد قلد أبا بكر.

فروى شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي أن أبا بكر قال في الكلالة: أقضي فيها فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني

ومن الشيطان، والله منه بريء: هو ما دون الولد والوالد، فقال

عمر بن الخطاب إنني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر.

وصح عنه أنه قال له: رأينا لرأيك تبع، وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر. وقال الشعبي عن مسروق: كان ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتون الناس ابن مسعود وعمر بن الخطاب وعلي وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو موسى. وكان ثلاثة منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة. كان عبد الله يدع قوله لقول عمر، وكان أبو موسى يدع قوله لقول علي، وكان زيد يدع قوله لقول أبي بن كعب. وقال جندب: ما كنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن معاذاً قد سنَّ لكم سنة فكذاك فافعلوا» في شأن الصلاة حيث أخرج فصلى ما فاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام.

قال المقلدة:

وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر وهم العلماء أو العلماء والأمرء، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به. فإنه لولا التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم. وقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ قَدْ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وَ الَّذِينَ تَبِعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. وتقليدهم اتباع لهم ففاعله ممن رضي الله عنهم، ويكفي ذلك الحديث المشهور. «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي». وقال: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد».

وقد كتب عمر إلى شريح: أن اقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قضى به الصالحون.

وقد منع عمر عن بيع أمهات الأولاد وتبعه الصحابة. وألزم بالطلاق الثلاث فتبعوه أيضاً.

واحتلم مرة، فقال له عمرو بن العاص: خذ ثوباً غير ثوبك فقال لو فعلتها صارت سنة.

وقال أبي بن كعب وغيره من الصحابة: ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه.

وقد كان الصحابة يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي بين أظهرهم.

وهذا تقليد لهم قطعاً.

إذ قولهم لا يكون حجة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد قال تعالى: {قُلُوبًا نَقَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} فأوجب عليهم قبول ما أنذروهم به إذا رجعوا إليهم. وهذا تقليد منهم للعلماء.

وصح عن ابن الزبير، أنه سئل عن الجد والإخوة، فقال: أما الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذته خليلاً، فإنه أنزله أبا. وهذا ظاهر في تقليده له.

وقد أمر الله سبحانه بقبول شهادة الشاهد، وذلك تقليد له. وجاءت الشريعة، بقبول قول القائف، والخارص والقاسم والمقوم للمتلفات، وغيرها والحاكمين بالمثل، في جزاء الصيد وذلك تقليد محض.

وأجمعت الأمة على قبول قول المترجم والرسول والمعرف والمعدل، وإن اختلفوا في جواز الاكتفاء بواحد، وذلك تقليد محض لهؤلاء.

وأجمعوا على جواز شراء اللحمان، والثياب والأطعمة وغيرها، من غير سؤال عن أسباب حلها، وتجريمها اكتفاء بتقليد أربابها. ولو كلف الناس كلهم الاجتهاد وأن يكونوا علماء فضلاء لصاغت مصالح العباد، وتعطلت الصنائع والمتاجر، وكان الناس كلهم علماء مجتهدين.

وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً، والقدر قد منع من وقوعه. وقد أجمع الناس على تقليد الزوج، للنساء اللاتي يهدين إليه زوجته وجواز وطئها تقليداً لهن في كونها هي زوجته.

وأجمعوا على أن الأعمى يقلد في القبلة، وعلى تقليد الأئمة في الطهارة، وقراءة الفاتحة، وما يصح به الاقتداء، وعلى تقليد الزوجة مسلمة كانت أو ذمية أن حيضها قد انقطع فيباح للزوج وطؤها بالتقليد.

وبباح للولي تزويجها بالتقليد لها في انقضاء عدتها. وعلى جواز تقليد الناس للمؤذنين في دخول أوقات الصلوات.

ولا يجب عليهم الاجتهاد ومعرفة ذلك بالدليل.
وقد قالت الأمة السوداء لعقبة بن الحرث: أَرْضَعْتِكِ وَأَرْضَعْتَ
أَمْرَأَتَكَ، فَأَمْرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفِرَاقِهَا، وَتَقْلِيدِهَا فِيمَا أَخْبَرْتَهُ
بِهِ مِنْ ذَلِكَ.

وقد صرح الأئمة بجواز التقليد، فقال حفص بن غياث: سمعت
سفيان يقول: إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه
وأنت ترى تحريمه فلا تنهه.

وقال محمد بن الحسن: يجوز للعالم تقليد من هو أعلم منه، ولا
يجوز له تقليد من هو مثله.

وقد صرح الشافعي بالتقليد فقال: في الضيع بغير، قلته تقليداً
لِعَمْرٍ.

وقال في مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب، قلته تقليداً
لِعَثْمَانَ.

وقال في مسألة الجد مع الإخوة إنه يقاسمهم ثم قال: وإنما قلت
بقول زيد. وعنه قبلنا أكثر الفرائض.

قال في موضع آخر من كتابه الجديد، قلته تقليداً العطاء.
وهذا أبو حنيفة رحمه الله في مسائل الآبار ليس معه فيها إلا تقليد
من تقدمه من التابعين فيها وهذا مالك لا يخرج عن عمل أهل
المدينة.

ويصرح في موطنه بأنه أدرك العمل على هذا، وهو الذي عليه أهل
العلم ببلدنا.

ويقول في غير موضع: ما رأيت أحداً اقتدى به يفعله، ولو جمعنا
ذلك من كلامه لطال.

وقد قال الشافعي في الصحابة: رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا،
ونحن نقول ونصدق أن رأي الشافعي والأئمة معه لنا خير من رأينا
لأنفسنا.

وقد جعل الله سبحانه في فطر العباد تقليد المتعلمين للأستاذين
والمعلمين ولا تقوم مصالح الخلق إلا بهذا.
وذلك عام في كل علم وصناعة.

وقد فاوت الله سبحانه بين قوي الأذهان، كما فاوت بين الأبدان،
فلا يحسن في حكمته وعدله ورحمته أن يفرض على جميع خلقه
معرفة الحق بدليله، والجواب عن معارضة في جميع مسائل الدين
دقيقها وجليلها.

ولو كان كذلك لتساوت أقدام الخلائق في كونهم علماء، بل جعل
سبحانه تعالى هذا عالماً، وهذا متعلماً وهذا متبعاً للعالم مؤتماً به
بمنزلة المأموم مع الإمام والتابع مع المتبوع، وأين حرم الله تعالى

على الجاهل أن يكون متبعاً للعالم مؤتماً به مقلداً له يسير بسيره
وينزل بنزوله.
وقد علم الله سبحانه أن الحوادث والنوازل كل وقت نازلة بالخلق،
فهل فرض على كل منهم عين، أن يأخذ حكم نازلة من الأدلة
الشرعية بشروطها ولوازمها؟
وهل ذلك في إمكان أحد فضلاً عن كونه مشروعاً؟
وهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحوا البلاد،
وكان الحديث العهد بالإسلام يسألهم فيفتونه.
ولا يقولون له عليك أن تطلب معرفة الحق في هذه الفتوى
بالدليل ولا يعرف ذلك عن أحد منهم ألبتة.
وهل التقليد إلا من لوازم التكليف ولوازم الوجود؟ فهو من لوازم
الشرع والقدر.
والمنكرون له مضطرون إليه ولا بد. وذلك فيما تقدم بيانه من
الأحكام وغيرها.
ونقول لمن احتج على إبطاله: كل حجة أثرية ذكرتها فأنت مقلد
لحملتها ورواتها إذ لم يقم دليل قطعي على صدقهم، فليس بيدك
إلا تقليد الراوي.
وليس بيد الحاكم إلا تقليد الشاهد، وكذلك ليس بيد العامي إلا
تقليد العالم.
فما الذي سوغ لك تقليد الراوي والشاهد ومنعنا من تقليد العالم،
وهذا سمع بأذنه ما رواه.
وهذا عقل بقلبه ما سمعه فأدى هذا مسموعه، وأدى هذا معقوله.
وفرض على هذا تأدية ما سمعه، وعلى هذا تأدية ما عقله، وعلى
من لم يبلغ منزلتهما القبول منهما.
ثم يقال للمانعين من التقليد أنتم منعمتموه خشية وقوع المقلد في
الخطأ، بأن يكون مقلده مخطئاً في فتواه، ثم أوجبتم عليه النظر
والاستدلال في طلب الحق.
ولا ريب أن صوابه في تقليده للعالم أقرب من صوابه في اجتهاده
هو لنفسه.
وهذا كمن أراد شراء سلعة لا خبرة له بها، فإنه إذا قلد عالماً بتلك
السلعة خبيراً بها أميناً ناصحاً كان صوابه وحصول غرضه أقرب
من اجتهاده لنفسه، وهذا متفق عليه بين العقلاء اهـ.
هذا هو غاية ما يحتج به المقلدون، وقد ذكره ابن القيم رحمه الله
في إعلام الموقعين، وبين بطلانه من واحد وثمانين وجهاً.
وسنذكر هنا إن شاء الله جملاً مختصرة من كلامه الطويل تكفي
المنصف.
وتزبد المسألة إن شاء الله إيضاحاً وإقناعاً.

قال في إعلام الموقعين بعد ذكره حجج المقلدين التي ذكرناها آنفاً ما نصه:

قال أصحاب الحجة:

عجباً لكم معاشر المقلدين، الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله، ولا معدودين في زمرة أهله. كيف أبطلتم مذهبكم، بنفس دليلكم، فما للمقلد وما للاستدلال؟ وأين منصب المقلد من منصب المستدل؟

وهل ما ذكرتم من الأدلة إلا ثياباً استعرتموها، من صاحب الحجة فتجملتم بها، بين الناس، وكنتم في ذلك متشبهين بما لم تعطوه، ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم أنكم لم تؤتوه، وذلك ثوب زور لبستموه، ومنصب لستم من أهله غصبتموه.

فأخبرونا، هل صرتم إلى التقليد لدليل قادكم إليه، وبرهان دلكم عليه، فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل، وكنتم به عن التقليد بمعزل، أم سلكتم سبيله اتفاقاً، وتخميناً من غير دليل. وليس إلى خروجكم عن أحد هذين القسمين، سبيل، وأيهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم، والرجوع إلى مذهب الحجة منه لازم.

ونحن إن خاطبناكم بلسان الحجة، قلتم لسنا من أهل هذه السبيل، وإن خاطبناكم بحكم التقليد، فلا معنى لما أقمتموه من الدليل. والعجب أن كل طائفة من الطوائف، وكل أمة من الأمم، تدعي أنها على حق، حاشا فرقة التقليد، فإنهم لا يدعون ذلك، ولو ادعوه لكانوا مبطلين، فإنهم شاهدون على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الأقوال لدليل قادهم إليها، وبرهان دلهم عليها، وإنما سبيلهم محض التقليد.

والمقلد لا يعرف الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل. وأعجب من هذا أن أئمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم، وقالوا نحن على مذاهبهم، وقد دانوا بخلافهم في أصل المذهب الذي بنوا عليه.

فإنهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم إذا ظهر الدليل أن يتركوا أقوالهم ويتبعوه، فخالفوهم في ذلك كله.

وقالوا نحن من أتباعهم، تلك أمانيتهم، وما أتباعهم إلا من سلك سبيلهم، واقتفى آثارهم في أصولهم وفروعهم.

وأعجب من هذا أنهم مصرحون في كتبهم ببطلان التقليد، وتحريمه، وأنه لا يحل القول به في دين الله.

ولو اشترط الإمام على الحاكم أن يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولا توليته.

ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط.

وكذلك المفتي عليه الإفتاء بما لا يعلم صحته باتفاق الناس.
والمقلد لا علم له بصحة القول وفساده إذ طريق ذلك مسدودة
عليه.

ثم كل منهم يعرف من نفسه أنه مقلد لمتبوعه لا يفارق قوله،
ويترك له كل ما خالفه من كتاب أو سنة أو قول صاحب، أو قول
من هو أعلم من متبوعه أو نظيره.
وهذا من أعجب العجب.

وأيضاً فإننا نعلم بالضرورة، أنه لم يكن في عصر الصحابة، رجل
واحد اتخذ رجلاً منهم يقلده في جميع أقواله، فلم يسقط منها
شيئاً وأسقط أقوال غيره، فلم يأخذ منها شيئاً.
ونعلم بالضرورة، أن هذا لم يكن في عصر التابعين، ولا تابعي
التابعين.

فليكذبنا المقلدون برجل واحد، سلك سبيلهم الوخيمة، في القرون
الفضيلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه
صلى الله عليه وسلم.

فالمقلدون لمتبوعهم في جميع ما قالوه، يبيحون به الفروج،
والدماء والأموال، ويحرمونها ولا يدرون ذلك صواب أم خطأ على
خطر عظيم، ولهم بين يدي الله موقف شديد يعلم فيه من قال
على الله ما لا يعلم أنه لم يكن على شيء اهـ محل الغرض منه
بلفظه.

وعلى كل حال فأنتم أيها المقلدون: تقولون إنه لا يجوز العمل
بالوحي إلا بخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الاستدلال
على التقليد بآية: {وَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، وآية
{قُلْ لَوْ لَا تَقَرَّرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ}.

هل رجعتم عن قولكم بأن الاستدلال بالوحي لا يجوز لغير المجتهد،
أو ارتكبتم ما تعتقدون أنه حرم من استدلالكم بالقرآن مع شدة
بعدكم عن رتبة الاجتهاد؟

وفي هذا رد إجمالي ما استدلتكم به على التقليد الذي أنتم عليه.
ثم يقال: أليست هذه الآيات التي استدلتكم بها في زعمكم، من
ظواهر الكتاب، التي سن لكم الصاوي وأمثاله، أن العمل بها من
أصول الكفر.

فإنه لم يستثن شيئاً من ظواهر القرآن يكون العمل به ليس من
أصول الكفر.

فلم تجرأتكم على شيء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم
الاستدلال بالقرآن، مع أنه لا يجوز عندكم إلا للمجتهدين.

وسنذكر رد استدلال المقلدين تفصيلاً، بإيجاز إن شاء الله تعالى.
أما استدلالهم بآية { وَ سَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } فهو
استدلال في غير محله.

فإن الآية لا تدل على هذا النوع من التقليد الأعمى الذي هو عليه
من التزام جميع أقوال رجل واحد وترك جميع ما سواها.
ولا شك أن المراد بأهل الذكر أهل الوحي الذين يعلمون ما جاء من
عند الله كعلماء الكتاب والسنة.
فقد أمروا أن يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذي
هو الوحي.

ومن سأل عن الوحي وأعلم به، وبين له كان عمله به اتباعاً للوحي
لا تقليداً واتباع الوحي لا نزاع في صحته.
وإن كانت الآية تدل على نوع تقليد في الجملة، فهي لا تدل إلا على
التقليد الذي قدمنا أنه لا خلاف فيه بين المسلمين، وهو تقليد
العامي الذي تنزل به النازلة عالماً من العلماء، وعمله بما أفتاه به
من غير التزام منه لجميع ما يقوله ذلك العالم، ولا تركه لجميع ما
يقوله غيره.

وأما استدلالهم بالحديث الوارد في الرجل الذي أصابته شجة في
رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه: هل يعلمون له رخصة في التيمم؟
فقالوا: ما نرى لك رخصة وأنت قادر على الماء، فاغتسل فمات.
فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا
إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العبي السؤال».
فهو استدلال أيضاً في غير محله، وهو حجة أيضاً على المقلدين لا
لهم.

قال في إعلام الموقعين في بيان وجه ذلك ما نصه:
إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أرشد المستفتين، كصاحب
الشجة بالسؤال عن حكمه، وسنته فقال:

قتلوه قتلهم الله، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم.
وفي هذا تحريم الإفتاء بالتقليد.

فإنه ليس علماً باتفاق الناس.

فإنما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاعله، فهو حرام
وذلك أحد أدلة التحريم.

فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم.
وكذلك سؤال أبي العسيف الذي زنى بامرأة مستأجرة لأهل العلم.
فإنه لما أخبروه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في البكر
الزاني أقره على ذلك، ولم ينكره، فلم يكن سؤالهم عن رأيهم
ومذاهبهم.

وأما استدلالهم بأن عمر قال في الكلالة: إني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر، وأن ذلك تقليد منه له. فلا حجة لهم فيه أيضاً. وخلاف عمر لأبي بكر رضي الله عنهما أشهر من أن يذكر. كما خالفه في سبي أهل الردة فسباهم أبو بكر، وخالفه عمر. وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا لمن ولدت لسيدها منهن.

ونقص حكمه، ومن جملتهن خولة الحنفية أم محمد بن علي. وخالفه في أرض العنوة فقسماها أبو بكر ووقفها عمر. وخالفه في المفاضلة في العطاء، فرأى أبو بكر التسوية، ورأى عمر المفاضلة.

وخالفه في الاستخلاف، فاستخلف أبو بكر عمر على المسلمين، ولم يستخلف عليهم عمر أحداً إيثاراً لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فعل أبي بكر رضي الله عنهم. وخالفه في الجد والإخوة، مع أن خلاف أبي بكر الذي استحيي منه عمر هو خلافه في قوله: إن يكون صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله منه برىء، هو ما دون الولد والوالد فاستحيى عمر من مخالفة أبي بكر في اعترافه بجواز الخطأ عليه، وأنه ليس كلامه كله صواباً مأموناً عليه الخطأ. ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقر عند موته أنه لم يقض في الكلالة بشيء.

وقد اعترف أنه لم يفهمها، قاله في إعلام الموقعين. ومن العجب استدلال المقلدين على تقليدهم، باستحياء عمر من مخالفة أبي بكر، مع أنهم لم يستحيوا من مخالفة أبي بكر وعمر، وجميع الصحابة، ومخالفة الكتاب والسنة إذا كان ذلك، لا يوافق مذهب إمامهم، كما هو معلوم من عاداتهم.

وكما أوضحه الصاوي في الكلام الذي قدمنا على قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}. فقد قدمنا هناك أنه قال: إن من خرج عن المذاهب الأربعة فهو ضال مضل، ولو وافق الصحابة، والحديث الصحيح والآية. وربما أداه ذلك إلى الكفر، لأن الأخذ بطواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر

فمن هذا مذهبه ودينه، وكيف يستدل باستحياء عمر من مخالفة أبي بكر؟

بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحي، أو قول أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ مع أن أبا بكر خليفة راشد أمر النبي بالاعتداء به في قوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» الحديث.

فليس الاقتداء بالخلفاء كالاقتداء بغيرهم.
وأما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لأبي بكر رضي الله عنهما:
رأينا لرأيك تبع.

فيكفي في رده ما قدمنا قريباً، من مخالفة عمر لأبي بكر، مع
القصة التي قال له فيها: رأينا لرأيك تبع، رد فيها على أبي بكر
بعض ما قاله.

وأيد الصحابة ما قال عمر في رده على أبي بكر رضي الله عنهما.
لأن الحديث المذكور في وفد بزاخة من أسد وغطفان حين قدموا
على أبي بكر يسألونه الصلح، فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية
والسلم المخزية.

فقالوا هذه المجلية قد عرفناها. فما المخزية؟
قال: تنزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا لكم وتردون لنا ما
أصبتم منا؟ وتدون لنا قتلانا إلى آخر كلامه.
وفيه: فقام عمر بن الخطاب فقال: قد رأيت رأياً سنشير عليك.
أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ما ذكرت.
وما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم، وتردون ما أصبتم منا، فنعم
ما ذكرت.

وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم في النار.
فإن قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله،
ليس لها ديات.

فتتابع القوم على ما قال عمر رضي الله عنه.
فهذه القصة الثابتة: هي التي في بعض ألفاظها ورأينا لرأيك تبع.
وأنت ترى عمر رضي الله عنه لم يقلد فيها أبا بكر رضي الله عنه،
إلا فيما يعتقد صوابه.
فإنما ظهر له أنه صواب قال له فيه: نعم ما ذكرت.
وما ظهر له أنه ليس بصواب رده على أبي بكر، وهو قول أبي بكر
بدفع ديات الشهداء.

لأن عمر يعتقد أن الشهيد في سبيل الله لا دية له، لأن الله يقول:
{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ لَجَنَةٌ
يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمْ لَئِيْذٍ بِآيَاتِكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ لَفْظٌ لِعَظِيمٍ}.

وذلك يوضح ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لا يعدلون عن
الكتاب والسنة إلى قول أحد.

وأما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط، ولو
وافق عمر في بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء
لبعض، لاتفاق رأيهم لا لتقليد بعضهم لبعض.

وقد خالف ابن مسعود عمر رضي الله عنهما في مسائل كثيرة جداً، كمخالفته له في أم الولد، لأن ابن مسعود يقول فيها إنها تعتق من نصيب ولدها، ومن ذلك أن ابن مسعود كان يطبق في ركوعه إلى أن مات، وعمر كان يضع يديه على ركبتيه. وكان ابن مسعود يقول في الحرام هي يمين وعمر يقول: إنه طليقة واحدة.

وكان ابن مسعود يحزم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما، وينكح أحدهما الآخر.

وكان ابن مسعود يرى بيع الأمة طلاقها، وعمر يرى عدم ذلك وأمثال هذا كثيرة معلومة.

مع أن ابن مسعود يقول: إنه أعلم الصحابة بكتاب الله وأنه لو كان أحداً أعلم منه به لرحل إليه.

ولم ينكر عليه أحد من الصحابة.

وقد قدمنا عنه قوله: كن عالماً أو متعلماً ولا تكن إمعة.

فليس ابن مسعود من أهل التقليد، مع أن المقلدين المحتجين

بتقليد ابن مسعود لعمر، لا يقلدون ابن مسعود، ولا عمر ولا

غيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يأخذون بقول الله ولا رسوله وإنما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة أصحاب المذاهب رحمهم الله.

وأما استدلالهم على التقليد بأن عبد الله كان يدع قوله لقول عمر. وأبو موسى كان يدع قوله لقول علي.

وزيد يدع قوله لقول أبي بن كعب فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأنه من المعلوم أن الصحابة المذكورين رضي الله عنهم لا يدعون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول أحد، وهذا لا شك فيه.

وكان ابن عمر يدع قول عمر، إذا ظهرت له السنة.

وكان ابن عباس يقول: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو

بكر وعمر.

وأما استدلالهم على التقليد بأن معاذاً رضي الله عنه صلى

مسبوقاً فصلى ما أدرك مع الإمام أولاً، ثم قضى ما فاتته بعد سلام الإمام، وكانوا قبل ذلك يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام

في الباقي.

وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ذلك «إن معاذاً قد سن لكم سنة، فكذلك فافعلوا» فهو ظاهر السقوط أيضاً، لأن ذلك لم

يكن سنة إلا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى.

فلا حجة قطعاً في قول أحد كائناً من كان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود.

وإنما العبرة بقوله صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره.
وهذا معلوم بالضرورة من الدين.

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ}.
قائلين إن المراد بأولي الأمر العلماء، وأن طاعتهم المأمور بها في الآية هي تقليدهم، فهو ظاهر السقوط أيضاً.
لأنه لا يجوز طاعة أولي الأمر إجماعاً فيما خالف كتاباً أو سنة، ولا طاعة لهم إلا في المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم.

ولا نزاع بين المسلمين في أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والتحقيق في معنى الآية الكريمة أن المراد بأولي الأمر: ما يشمل الأمراء والعلماء.

لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله، والأمراء منفذون، ولا تجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه.
لأن ما أمر به أولو الأمر لا يخلو من أحد أمرين:
أحدهما: أن يكون طاعة لله ولرسوله من غير نزاع، وطاعة أولي الأمر في مثل هذا من طاعة الله ورسوله.

والثاني: أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أو لا؟
وفي هذه الحالة لا تجوز الطاعة العمياء لأولي الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح الله تعالى بذلك في نفس الآية.

لأنه تعالى لما قال: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، أتبع ذلك بقوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}.

فالآية صريحة في رد كل نزاع إلى الله ورسوله.
والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

وقد قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} بعض الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كحديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

وحديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا في النار «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إنما الطاعة في المعروف». وفي الكتاب العزيز: {وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ}. ولا يخفى أن طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها في الآية لا يتحقق وجودها إلا بمعرفة أمر الله ورسوله ونهي الله ورسوله. والمقلدون مقرون على أنفسهم بأنهم لا يعلمون أمر الله ولا نهيه، ولا أمر رسوله ولا نهيه.

وغاية ما يدعون علمه هو أن الإمام الذي قلده قال كذا، مع عجزهم عن التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب، بل أكثرهم لا يميزون بين قول الإمام وبين ما أحقه أتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه.

ولا شك أن طاعة العلماء هي اقتفاء ما كانوا عليه من النظر في كتاب الله وسنة رسوله وتقديمها على كل قول وعلى كل رأي كائناً ما كان.

فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنة لأقوالهم، فهو المخالف لهم المتباعد عن طاعتهم كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله.

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} لِمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}، قائلين: إن تقليدهم من جملة أتباعهم بإحسان، فمقلدهم ممن رضي الله عنه بنص الآية فهو ظاهر السقوط أيضاً. لأن الذين اتبعوهم بإحسان هم الذين ساروا على مثل ما كانوا عليه من العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فلم يكن أحد منهم يقلد رجلاً ويترك الكتاب والسنة لقوله. فالمقلدون التقليد الأعمى ليسوا ممن اتبعوهم ألبتة، بل هم أعظم الناس مخالفة لهم، وأبعدهم عن اتباعهم، فاتبع الناس لمالك مثلاً ابن وهب ونظراؤه، ممن يعرضون أقواله على الكتاب والسنة، فيأخذون منها ما وافقهما دون غيره. وأتبع الناس لأبي حنيفة أبو يوسف ومحمد مع كثرة مخالفتها له، لأجل الدليل من كتاب أو سنة.

وأتبع أصحاب أحمد بن حنبل له البخاري ومسلم وأبو داود والأثرم لتقديمهم الدليل على قوله وقول غيره، وهكذا.

وأما استدلالهم على تقليدهم: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» فهو ظاهر السقوط أيضاً. اعلم أولاً أن الحديث لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به.

فجميع طرقه ليس فيها شيء قائم، قال في إعلام الموقعين:
روى هذا الحديث من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر،
ومن حديث سعيد بن المسيب عن ابن عمر.
ومن طريق حمزة الجري عن نافع عن ابن عمر، ولا يثبت شيء
منها.

قال ابن عبد البر حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد أن أبا عبد الله
بن مضر حدثهم ثنا محمد بن أيوب الصموت قال: قال لنا البزار.
وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أصحابي كالنجوم
بأيهم اقتديتم اهتديتم» فهذا الكلام لا يصح عن النبي صلى الله
عليه وسلم. اهـ. منه.

وضعف الحديث المذكور معروف عن أهل العلم.
مع أن المقلدين المحتجين به يمنعون تقليد الصحابة، ويحرمون
الاهتداء بتلك النجوم.

وهو تناقض عجيب لأنهم تركوا نفس ما دل عليه الحديث واستدلوا
بالحديث على ما لم يتعرض له الحديث، وهو تقديمهم تقليد أئمتهم
على تقليد الصحابة.

مع أن قياسهم على الصحابة لا يصح لعظم الفارق، وبما ذكرنا تعلم
سقوط استدلالهم بما ذكروا عن ابن مسعود من قوله:
«من كان مستنأ منكم فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب
محمد».

والله جل وعلا يقول: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ }.
وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم «عليكم بسنتي وسنة
الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

وقوله صلى الله عليه وسلم «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر
وعمر» فهو حجة عليهم لا لهم.

لأن سنة الخلفاء الراشدين التي حث عليها رسول الله صلى الله
عليه وسلم مقرونة بسنته ليس فيها ألبتة تقليد أعمى، ولا التزام
قول رجل بعينه.

بل سنتهم هي اتباع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
وتقديمهما على كل شيء.

لأنهم هم أتبع الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأشدهم
حرصاً على العمل بما جاء به.

فالذي يقدم آراء الرجال على كتاب الله وسنة رسوله ويستدل
على ذلك بحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين»
الحديث، هو كما ترى.

وأقوال الخلفاء رضي الله عنهم وأفعالهم كلها معروفة مدونة إلى
الآن ليس فيها تقليد أعمى ولا جمود على قول رجل واحد.

وإنما هي عمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومشاورة لأصحابه فيما نزل من النوازل واستنباط ما لم يكن منصوصاً من نصوص الكتاب والسنة على أحسن الوجوه وأتقنها، وأقربها لرضى الله والاحتياط في طاعته. وكانوا إذا بلغهم شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا إليه ولو كان مخالفاً لرأيهم.

فقد رجع أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى قول المغيرة بن شعبة، ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم فرض للجدّة السدس.

وكان أبو بكر يرى أنها لا ميراث لها، وقد قال لها لما جاءته «لا أرى لك شيئاً في كتاب الله ولا أعلم لك شيئاً في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وقد رجع عمر إلى قول المذكورين في دية الجنين أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل فيها غرة عبد أو وليدة. ورجع عمر أيضاً إلى حديث عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر. ورجع عمر أيضاً إلى قول الضحاک بن سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها. ورجع عثمان بن عفان إلى حديث فريعة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالسكنى في البيت الذي توفي عنها زوجها وهي فيه حتى تنقضي عدتها. وكان عثمان بعد ذلك يفتي بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى تنقضي عدتها.

وأمثال هذا أكثر من أن تحصى، وفي ذلك بيان واضح، لأن سنة الخلفاء الراشدين هي المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وتقديم سنته على كل شيء، فعلينا جميعاً أن نعمل بمثل ما كانوا يعملون لنكون متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنتهم.

أما المقلد المعرض عن سنتهم، وعن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مفضلاً على ذلك تقليد أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رحمهم الله، فما كان يحق له أن يستدل بحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث لأنه مقر بمقتضى تقليده، بأنه أبعد الناس عن العمل بحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث.

وأما استدلالهم، بأن عمر كتب إلى شريح: أن اقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فيما في سنة رسول الله صلى الله

عليه وسلم، فإن لم يكن في سنة رسول الله، فيما قضى به الصالحون فهو حجة عليهم أيضاً لا لهم. لأن فيه تقديم كتاب الله، ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم العمل بما قضى به الصالحون، وخيرهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولو كان المقلدون يمثلون هذا، لما أنكر عليهم أهل العلم، ولكن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون العمل بكتاب الله وسنة رسوله، والعمل بفتاوى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويوجبون الجمود على قول الإمام الذي قلده والتزموا بمذهبه. ومن كانت هذه حاله، فلا يحق له أن يستدل بشيء من هذه الأدلة. وأما استدلالهم بأن عمر رضي الله عنه منع بيع أمهات الأولاد فتبعه الصحابة.

وألزم الطلاق الثلاث بكلمة واحدة وتبعه الصحابة. فهو ظاهر السقوط أيضاً.

وقد قدمنا أن متابعة بعض الصحابة لبعض إنما هي لاتفاقهم فيما رأوه، لا لأن بعضهم مقلد بعضاً تقليداً أعمى. وقد قدمنا إيضاح ذلك بما يكفي.

مع أن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون تقليد عمر، وسائر الصحابة، فمن عجائبهم أنهم يستدلون بما يعتقدون أن العمل به ممنوع.

وأما استدلالهم بأن عمرو بن العاص قال لعمر لما احتلم: خذ ثوباً غير ثوبك، فقال لو فعلت صارت سنة. فهو ظاهر السقوط أيضاً. لأن عمر بن الخطاب خاف أن يفعل شيئاً فيعتقد من لا علم عنده أنه إنما فعله لكونه سنة، فامتنع من فعله لأجل هذا المحذور.

مع أن المقلد يرى منع تقليد عمر رضي الله عنه.

وأما استدلالهم بما ذكروه عن أبي وغيره أنه قال:

ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه، فهو حجة عليهم أيضاً لا لهم.

لأن قوله: ما استبان لك فاعمل به، صريح في أن ما استبان من كتاب الله وسنة رسوله، يجب العمل به ولا يجوز العدول عنه لقول أحد.

وهذا نقيض ما عليه المقلدون، فهم دائماً يستدلون على مذهبهم بما يناقضه.

والأظهر أن مراد أبي بن كعب بقوله: فكله إلى عالمه، أي فكل علمه إلى الله.

فمراده بما اشتبه المتشابه، ومراده بعالمه الله.

فهو يشير إلى قوله تعالى: { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرُّسُخُونَ فِيهِ يُعَلِّمُونَ ءَامَنًا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا } .
فالذين قالوا أمنا به كل من عند ربنا، فقد وكلوا ما اشتباه عليهم إلى عالمه وهو الله.

ويحتمل أن يكون مراد أبي بقوله: فكله إلى عالمه أي فكله إلى من هو أعلم به منك من العلماء.

وهذا هو الذي فهمه ابن القيم في إعلام الموقعين من كلام أبي. وعلى هذا الاحتمال فلا حجة فيه أيضاً للمقلدين لأن من خفي عليه شيء من العلم فوكله إلى من هو أعلم به منه، فقد أصاب. ولا يلزم من ذلك الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله بل هو عمل بالقرآن لقوله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } .

وأما استدلالهم على تقليدهم بأن الصحابة كانوا يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود بين أظهرهم، وأن ذلك تقليد لهم فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأنهم ما كانوا يفتونهم في حالة وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم إلا بما علمهم من الكتاب والسنة كما لا يخفى. ومن أفتى منهم وغلط في فتواه أنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم فتواه التي ليست مطابقة للحق، وردها عليه كإنكاره على أبي السنابل بن بعكك قوله لسبيعة الأسلمية لما مات زوجها ووضعت حملها بعد ذلك بأيام:

«إنها لا تنقضي عدتها إلا بعد أربعة أشهر وعشر ليال» .

وقد استدل أبو السنابل على ما أفتى به بعموم قوله تعالى: { وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا } .

وقد رد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فتواه مبيناً أن عموم قوله تعالى: { وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا } ، مخصص بقوله تعالى: { وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } .

وكأنكاره صلى الله عليه وسلم على الذين أفتوا صاحب الشجة بأنهم لم يجدوا له رخصة وهو يقدر على الماء.

وقد قدمنا قصته، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيهم: «قتلوه قتلهم الله» الحديث.

والظاهر أنهم استندوا في فتواهم لما فهموه من قوله تعالى { قَلَمٌ تَجِدُوا مَاءً فَتَيْمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا } وغلطوا عن قوله: { وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَى } ، وأمثال هذا كثيرة.

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى { قَلَوْا لَا تَقَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ

لَعَلَّهُمْ يَحَذَّرُونَ} قائلين إن الآية أوجبت قبول إنذارهم، وأن ذلك تقليد لهم، فهو ظاهر السقوط أيضاً.
لأن الإنذار في قوله {وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ} لا يكون برأي.
وإنما يكون بالوحي خاصة، وقد حصر تعالى الإنذار في الوحي بأداة الحصر التي هي إنما في قوله {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ}.
وبه تعلم أن الإنذار لا يقوم إلا بالحجة فمن لم تقم عليه الحجة، لم يكن قد أُنذر، كما أن النذير من أقام الحجة، فمن لم يأت بحجة فليس بنذير.

فما لا شك فيه أن هذا الإنذار المذكور في قوله {وَلِيُنذِرُوا}، والتحذير من مخالفته في قوله: {لَعَلَّهُمْ يَحَذَّرُونَ} ليس برأي ولا اجتهاد.

وإنما هو إنذار بالوحي ممن تفقه في الدين، وصار ينذر بما علمه من الدين، كما يدل عليه قوله تعالى قبله {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ}، فهو يدل على أن قوله: {وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ} أي بما تفقهوا فيه من الدين.

وليس التفقه في الدين إلا علم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فتبين أن الآية لا دليل فيها ألبتة لطائفة التقليد، الذين يوجبون تقليد إمام بعينه، من غير أن يرد من أقواله شيء، ولا يؤخذ من أقوال غيره شيء. ونجعل أقواله عياراً لكتاب الله وسنة رسوله فما وافق أقواله منهما قبل وما لم يوافقها منهما رد.

وهذا النوع من التقليد لا شك في بطلانه، وعدم جوازه.
فالآية الكريمة بعيدة كل البعد من الدلالة عليه، مع أن استدلال المقلدين بها على تقليدهم استدلال بشيء يعتقدون أن الاستدلال به ممنوع باتاً، لأنه استدلال بقرآن.

وأما قبول إنذارهم فهو من الاتباع لا من التقليد، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله.

وأما استدلالهم بأن ابن الزبير، قال ما يدل على تقليده لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في أن الجد يحجب الإخوة، فهو ظاهر السقوط أيضاً.

وقد قدمنا مراراً في رد استدلالهم بتقليد الصحابة بعضهم بعضاً ما يكفي، فأغنى عن إعادته هنا.

وأما استدلالهم بقبول شهادة الشاهد في الحقوق. قائلين: إن قبول شهادته فيما شهد به تقليد له، فهو ظاهر السقوط لظهور الفرق بينه وبين ما استدلوا عليه به. من تقليد رجل واحد بعينه، بحيث لا يترك من أقواله شيء ولا يؤخذ مما خالفها شيء، ولو كان كتاباً أو سنة.

وذلك من وجهين.
أحدهما: أن العمل بشهادة الشاهد أخذ بكتاب الله وسنة رسوله،
لأن الله يقول: { وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ } ويقول:
{ وَ بَيِّنُوا شَهَادَتَهُمْ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
وَ مَرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ } إلى غير ذلك من الآيات.
وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاء بالشاهد واليمين
في الأموال.

وفي الحديث «شاهداك أو يمينه» وهو حديث صحيح.
فالأخذ بشهادة الشاهد إذا من العمل بكتاب الله وسنة رسوله لا
من التقليد لرجل واحد بعينه تقليداً أعمى.
الوجه الثاني: أن الشاهد إنما يخبر عما أدركه بإحدى حواسه
والمدرک بالحاسة يحصل به القطع لمن أدركه بخلاف الرأي، فإن
صاحبه لا يقطع بصحة ما ظهر له من الرأي.
ولذا أجمع العلماء على الفرق بين خبر التواتر المستند إلى حس،
وبين خبر التواتر المستند إلى عقل.
فأجمعوا على أن الأول يوجب العلم المفيد للقطع لاستناده إلى
الحس.

وأن الثاني لا يوجب، ولو كان خبر التواتر يفيد العلم في المعقولات
لكان قدم العالم مقطوعاً به.

لأنه تواتر عليه من الفلاسفة خلق لا يحصيهم إلا الله.

مع أن حدوث العالم أمر قطعي لا شك فيه.

فالذين تواتروا من الفلاسفة على قدم العالم الذي هو من
المعقولات لا من المحسوسات لو تواتر عشرهم على أمر
محسوس لأفاد العلم اليقيني فيه.

فالشاهد إن أخبر عن محسوس، وكان عدلاً، فهو عدل مخبر عما

قطع به قطعاً لا يتطرق إليه الشك، بخلاف المجتهد، فإنه عدل

أخبر عما ظنه، فوضوح الفرق بين الأمرين كما ترى.

وأما استدلالهم على تقليدهم بقبول قول القائف والخارص

والمقوم والحاكمين بالمثل في جزاء الصيد.

وتقليد الأعمى في القبلة.

وتقليد المؤذنين في الوقب والمترجمين والمعرفين، والمعدلين،

والمجرحين.

وتقليده المرأة في طهرها، فهو كله ظاهر السقوط أيضاً.

لأن جميع ذلك لا يقبل منه إلا ما قام عليه دليل من كتاب أو سنة.

فالعامل به من العمل بالدليل الشرعي لا من التقليد الأعمى.

وذلك كله من قبيل الشهادة، والإخبار بما عرفه القائف والخارص

إلى آخره، لا من قبيل الفتوى في الدين.

وقد استدلل العلماء على قبول قول القائف بسرور النبي صلى الله عليه وسلم من قول مجزز بن الأعور المدلجي في أسامة وزيد «هذه الأقدام بعضها من بعض».

فلو كان قول القائف: لا يقبل لما أقره النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما برقت أساريير وجهه سروراً به.

فقبوله لذلك، فهو اتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد قدمنا الأحاديث النبوية الدالة على قبول قول الخارص، وبيننا أن بعضها ثابت في الصحيح. ورد قول من منع ذلك في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}. فهذا مثال ما ثبت بالسنة من قبول قول المذكورين.

ومثال ما دل عليه القرآن من ذلك قبول قول الحكمين في المثل في جزاء الصيد، لأن الله نص عليه في قوله تعالى {فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ}. وهكذا كل من ذكروا، فإن قبول قولهم: إنما صح بدليل شرعي يدل على قبوله من كتاب أو سنة أو إجماع.

مع أن الإخبار عن جميع ما ذكر إخبار عن محسوس، والتقليد الذي استدلوا به عليه إخبار عن معقول مظنون.

والفرق بين الأمرين قدمناه قريباً، فليس شيء من ذلك تقليداً أعمى بدون حجة.

وأما استدلالهم على التقليد المذكور بجواز شراء اللحوم والثياب والأطعمة وغيرها من غير سؤال عن أسباب حلها اكتفاءً بتقليد أربابها.

فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأن الاكتفاء بقول الذابح والبائع ليس بتقليد أعمى في حكم ديني لهما.

وإنما هو عمل بالأدلة الشرعية، لأنها دلت على أن ما في أسواق المسلمين من اللحوم والسلع محمول على الجواز والصحة، حتى يظهر ما يخالف ذلك.

ومما يدل على ذلك، ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت «إن قوماً قالوا يا رسول الله: إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوا، قال: وكانوا حديثي عهد بالكفر» قال المجد في المنتقى بعد أن ساق الحديث: رواه البخاري والنسائي وابن ماجه، وهو دليل على أن التصرفات والأفعال تحمل على حال الصحة والسلامة إلى أن يقوم دليل الفساد. اهـ منه.

وقد أجمع العلماء على هذا، فالعمل به عمل بالدليل الشرعي.

لأن الله لو كلف الناس ألا يشتري أحد منهم شيئاً حتى يعلم حليته فوقعوا في حرج عظيم تتعطل به المعيشة ويختل به نظامها. فأجاز الله تعالى ذلك برفع الحرج كما قال تعالى {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} فالاستدلال به على التقليد الأعمى فاسد، لأنه أخذ بالحجة والدليل، وليس من التقليد. وأما استدلالهم على التقليد بأن الله لو كلف الناس كلهم الاجتهاد، وأن يكونوا علماء ضاعت مصالح العباد، وتعطلت الصنائع والمتاجر، وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً وقدرًا. فهو ظاهر السقوط أيضاً.

ومن أوضح الأدلة على سقوطه أن القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير، لم يكن فيهم تقليد رجل واحد بعينه هذا التقليد الأعمى. ولم تتعطل متاجرهم ولا صنائعهم، ولم يرتكبوا ما يمنعه الشرع ولا القدر.

بل كانوا كلهم لا يقدمون شيئاً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وكان فيهم علماء مجتهدون يعلمون بالكتاب والسنة ويفتون بهما. وكان فيهم قوم دون رتبهم في العلم، يتعلمون من كتاب الله وسنة رسوله ما يحتاجون للعمل به في أنفسهم، وهم متبعون لا مقلدون.

وفيهم طائفة أخرى، هي العوام لا قدرة لها على التعلم. وكانوا يستفتون فيما نزل من النوازل من شاءوا من العلماء وتارة يسألونه عن الدليل فيما أفتاهم به.

وتارة يكتفون بفتواه ولا يسألون ولم يتقيدوا بنفس ذلك العالم الذي استفتوه.

فإذا نزلت بهم نازلة أخرى، سألوا عنها غيره من العلماء إن شاءوا. ولا إشكال في هذا الذي مضت عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم، ولا يلزمه تعطيل صنائع ولا متاجر، ولا يمنعه شرع ولا قدر.

فكيف يستدل منصف للتقليد الأعمى، بأن الناس لو لم ترتكبه لوقعوا في المحذور المذكور.

وعلى كل حال فكل عاقل لم يعمه التعصب، يعلم أن تقليد إمام واحد بعينه، بحيث لا يترك من أقواله شيء، ولا يؤخذ من أقوال غيره شيء، وجعل أقواله عياراً لكتاب الله، وسنة رسوله فما وافق أقواله منهما جاز العمل به، وما خالفها منهما وجب اطراحه، وترك العمل به لا وجه له ألبتة.

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم وإجماع الأئمة الأربعة.

فالواجب على المسلمين تعلم كتاب الله وسنة رسوله، والعمل بما علموا منهما.

والواجب على العوام الذين لا قدرة لهم على التعلم سؤال أهل العلم، والعمل بما أفتوهم به. وسيأتي لهذا زيادة إيضاح وإقناع للمنصف في التنبيهات الآتية إن شاء الله تعالى.

وقد بينا هنا بطلان جميع الحجج التي يحتج بها المقلدون التقليد المذكور، وما لم نذكر من حججهم، قد أوضحنا رده وإبطاله فيما ذكرنا.

تنبيهات مهمة تتعلق بهذه المسألة التنبيه الأول اعلم أن المقلدين، اغتروا بقضيتين ظنوهما صادقتين، وهما بعيدتان من الصدق. وظن صدقهما يدخل أولياً في عموم قوله تعالى {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، وقوله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». أما الأولى منهما فهي ظنهم، أن الإمام الذي قلده لا بد أن يكون قد اطلع على جميع معاني كتاب الله، ولم يفته منها شيء. ولذلك فإن كل آية وكل حديث قد خالفا قوله فلا شك عندهم أن ذلك الإمام اطلع على تلك الآية وعلم معناها، وعلى ذلك الحديث وعلم معناه.

وأنه ما ترك العمل بهما إلا لأنه اطلع على ما هو أقوى منهما وأرجح.

ولذلك يجب تقديم ذلك الأرجح الذي تخيلوه شيء من الوحي الموجود بين أيديهم.

وهذا الظن كذب باطل بلا شك. والأئمة كلهم معترفون بأنهم ما أحاطوا بجميع نصوص الوحي، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله.

ومن أصرح ذلك أن الإمام مالكا رحمه الله، إمام دار الهجرة المجمع على علمه وفضله وجلالته، لما أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على العمل بما جمعه في موطنه لم يقبل ذلك من أبي جعفر ورده عليه.

وأخبره أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في أقطار الدنيا، كلهم عنده علم ليس عند الآخر.

ولم يجمع الحديث جمعا تاما بحيث أمكن جمع جميع السنة إلا بعد الأئمة الأربعة.

لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تفرقوا في أقطار الدنيا روي عنهم كثير من الأحاديث لم يكن عند غيرهم، ولم يتيسر الاطلاع عليه إلا بعد أزمان.

وكثرة علم العالم لا تستلزم اطلاعه على جميع النصوص.
فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو عجز عن أن يفهم معنى
الكلالة حتى مات رضي الله عنه.

وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها كثيراً فبينها له ولم
يفهم.

فقد ثبت عنه رضي الله عنه أنه قال: ما سألت رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة، حتى طعن
بإصبعه في صدري، وقال لي «يكفيك آية الصيف في آخر سورة
النساء».

فهذا من أوضح البيان، لأن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بآية
الصيف {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} والآية تبين معنى
الكلالة بياناً شافياً، لأنها أوضحت أنها: ما دون الولد والوالد.
فبينت نفي الولد بدلاله المطابقة في قوله تعالى: {إِنْ مَرُّوْهُ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ} وبينت نفي الوالد بدلالة الالتزام في قوله تعالى
{وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}، لأن ميراث الأخت يستلزم نفي
الولد.

ومع هذا البيان النبوي الواضح لهذه الآية الكريمة، فإن عمر رضي
الله عنه لم يفهم.

وقد صح عنه أن الكلالة لم تزل مشكلة عليه.

وقد خفي معنى هذا أيضاً على أبي بكر الصديق رضي الله عنه
فقال في الكلالة: أقول فيها برأيي. فإن كان صواباً فمن الله وإن
كان خطأ فمني ومن الشيطان، هو ما دون الولد والوالد.
فوافق رأيه معنى الآية.

والظاهر أنه لو كان فاهماً للآية لكفته عن الرأي.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: «تكفيك
آية الصيف».

وهو تصريح منه صلى الله عليه وسلم بأن في الآية كفاية عن كل
ما سواها في الحكم المسؤول عنه.

ومما يوضح ذلك أن عمر طلب من النبي صلى الله عليه وسلم
بيان الآية.

وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز في حقه صلى الله عليه
وسلم.

فما أحال عمر على الآية إلا لأن فيها من البيان ما يشفي وبكفي.
وقد خفي على أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله
عليه وسلم «أعطى الجدة السدس حتى أخبره المغيرة بن شعبة
ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاهما
السدس» فرجع إلى قولهما.

ولم يعلم عمر رضي الله عنه بأن النبي صلى الله عليه وسلم: قضى في دية الجنين بغرة عبد أو وليدة حتى أخبره المذكوران قبل.

ولم يعلم عمر رضي الله عنه بأن المرأة تترث من دية زوجها. حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليه: أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها. ولم يعلم أيضاً بأخذ الجزية من المجوسي حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف. بأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر.

ولم يعلم بحكم الاستئذان ثلاثاً حتى أخبره أبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري رضي الله عنه.

ولم يعلم عثمان رضي الله عنه بوجود السكنى للمتوفى عنها حتى أخبرته قريعة بنت مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم: ألزمها بالسكنى في المحل الذي مات عنها زوجها فيه حتى تنقضي عدتها.

وأمثال هذا أكثر من أن تحصر.

فهؤلاء الخلفاء الراشدون وهم هم، خفي عليهم كثير من قضايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحاديثه مع ملازمته له، وشدة حرصهم على الأخذ منه.

فتعلموه ممن هو دونهم في الفضل والعلم.

فما ظنك بغيرهم من الأئمة الذين نشأوا وتعلموا بعد تفرق الصحابة في أقطار الدنيا؟

وروي عنه الأحاديث عدول من الأقطار التي ذهبوا إليها؟ والحاصل أن ظن إحاطة الإمام بجميع نصوص الشرع ومعانيها ظن لا يغني من الحق شيئاً، وليس بصحيح قطعاً. لأنه لا شك أنه يفوته بعض الأحاديث فلم يطلع عليها ويرويه بعض العدول عن الصحابة فيثبت عند غيره.

وهو معذور في ترك العمل به، بعدم اطلاعه عليه مع أنه بذل المجهود في البحث.

ولذا كان له أجر الاجتهاد والعذر في الخطأ.

وقد يكون الإمام اطلع على الحديث، ولكن السند الذي بلغه به ضعيف فيتركه لضعف السند.

ويكون غيره اطلع على رواية أخرى صحيحة يثبت بها الحديث فهو معذور في تركه، لأنه لم يطلع إلا على السند الضعيف ولم تبلغه الطريق الصحيحة الأخرى.

وقد يترك الحديث لشيء يظنه أرجح منه، ويكون الواقع أن الحديث أرجح من ذلك الشيء الذي ظنه لقيام أدلة أخرى على

ذلك لم يطلع عليها. إلى أسباب أخر كثيرة، كترك الأئمة للعمل ببعض النصوص.

وبهذا كله تعلم أن ظن اطلاع الإمام على كل شيء من أحكام الشرع وإصابته في معانيها كلها ظن باطل.

وكل واحد من الأئمة يصرح ببطلان هذا الظن كما سترى إيضاحه إن شاء الله.

فباللزام هو ما قاله الأئمة أنفسهم رحمهم الله من أنهم قد يخطئون ونهوا عن اتباعهم في كل شيء يخالف نصاً من كتاب أو سنة.

فالممتنع لهم حقيقة، هو من لا يقدم على كتاب الله وسنة رسوله شيئاً.

أما الذي يقدم أقوال الرجال على الكتاب وصحيح السنة، فهو مخالف لهم لا متبع لهم.

ودعوا اتباعهم كذب محض.

وأما القضية الثانية:

فهي ظن المقلدين أن لهم مثل ما للإمام من العذر في الخطأ. وإيضاحه: أنهم يظنون أن الإمام لو أخطأ في بعض الأحكام وقلدوه في ذلك الخطأ بكون لهم من العذر في الخطأ والأجر مثل ما لذلك الإمام الذي قلدوه.

لأنهم متبعون له فيجري عليهم ما جرى عليه.

وهذا ظن كاذب باطل بلا شك. لأن الإمام الذي قلدوه بذل جهده في تعلم كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أصحابه وفتاويهم.

فقد شمر وما قصر فيما يلزم من تعلم الوحي والعمل به وطاعة الله على ضوء الوحي المنزل.

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بالعذر في خطئه والأجر في اجتهاده.

وأما مقلدوه فقد تركوا النظر في كتاب الله وسنة رسوله وأعرضوا عن تعلمهما إعرافاً كلياً مع يسره وسهولته ونزلوا أقوال الرجال الذين يخطئون ويصيبون منزلة الوحي المنزل من الله.

فأين هؤلاء من الأئمة الذين قلدوهم؟

وهذا الفرق العظيم بينهم، وبينهم، يدل دلالة واضحة، على أنهم ليسوا ماجورين في الخطأ في تقليد أعمى إذ لا اقتداء ولا أسوة في غير الحق.

وليسوا معذورين لأنهم تركوا ما يلزمهم تعلمه من أمر الله ونهيه على ضوء وحيه المنزل.

والذي يجب عليهم من تعلم ذلك، هو ما تدعوهم الحاجة للعمل به، كأحكام عباداتهم ومعاملاتهم.

وأغلب ذلك تدل عليه نصوص واضحة، سهلة التداول من الكتاب والسنة.

والحاصل أن المعرض عن كتاب الله، وسنة رسوله المفراط في تعلم دينه، مما أنزل الله، وما سنه رسوله، المقدم كلام الناس على كتاب الله، وسنة رسوله، لا يكون له ألبتة ما للإمام الذي لم يعرض عن كتاب الله وسنة رسوله، ولم يقدم عليهما شيئاً ولم يفراط في تعلم الأمر والنهي من الكتاب والسنة.

فأين هذا من هذا؟

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

التنبيه الثاني

اعلم أن الأئمة الأربعة رحمهم الله، متفقون على منع تقليدهم، التقليد الأعمى الذي يتعصب له من يدعون أنهم أتباعهم. ولو كانوا أتباعهم حقاً لما خالفوهم في تقليدهم الذي منعوا منه ونهوا عنه.

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه:
أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القاضي المالكي، قال حدثنا موسى بن إسحاق، قال حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال حدثنا معن بن عيسى، قال سمعت مالك بن أنس يقول: إنما أنا بشر أخطيء وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. اهـ. محل الغرض منه بلفظه. فمالك رحمه الله مع علمه وجلالته وفضله يعترف بالخطأ وينهى عن القول بما خالف الوحي من رأيه.

فمن كان مالكيّاً فليمثل قول مالك ولا يخالفه بلا مستند.

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه أيضاً:

أخبرني أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي حدثني أبي حدثنا محمد بن عمر بن لبابة قال: حدثنا مالك بن علي القرشي، قال أنبأنا عبد الله بن مسلمة القعنبي قال:

دخلت على مالك فوجدته باكياً فسلمت عليه فرد علي ثم سكت عني يبكي، فقلت له:

يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك؟ فقال لي يا ابن قعنب إنا لله على ما فرط مني، ليتني جلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط،

ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي، وهذه المسائل قد كانت لي سعة فيما سبقت إليه. اهـ محل الغرض منه بلفظه.

ومن المعلوم بالضرورة أن مالكاً رحمه الله لا يسره ولا يرضيه تقديم رأيه هذا الذي يسترجع ويبكي ندماً عليه، ويتمنى لو ضرب

بالسياط ولم يكن صدر منه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فليتق الله وليستحي من الله من يقدم مثل هذا الرأي على الكتاب والسنة زاعماً أنه متبع مالكا في ذلك.

وهو مخالف فيه لمالك، ومخالف فيه لله ورسوله، ولأصحابه ولكل من يعتد به من أهل العلم.

وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين: وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة.

فقال الشافعي: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة، كمثّل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري، ذكره البيهقي.

وقال إسماعيل بن عيسى المزني في أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعي، ومن معنى قوله لأقربه على من أراده مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه إلى أن قال:

وقال أحمد بن حنبل: لا تقلدني، ولا تقلد مالكا، ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا. وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال.

وقال بشر بن الوليد: قال أبو يوسف: لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا.

وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يستتاب، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله أهـ محله الغرض منه.

ومما لا شك فيه أن الأئمة الأربعة رحمهم الله نهوا عن تقليدهم في كل ما خالف كتاباً أو سنة كما نقله عنهم أصحابهم. كما هو مقرر في كتب الحنفية عن أبي حنيفة.

وكتب الشافعية عن الشافعي القائل: إذا صح الحديث فهو مذهبي. وكتب المالكية، والحنابلة عن مالك وأحمد رحمهم الله جميعاً.

وكذلك كان غيرهم من أفاضل العلماء يمنعون من تقليدهم فيما لم يوافق الكتاب والسنة وقد يتحفظون منه ولا يرضون.

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه:

وذكر محمد بن حارث في أخبار سحنون بن سعيد عن سحنون،

قال كان مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبي سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما.

وإذا سأله محمد بن إبراهيم بن دينار وذووه لم يجبهما.

فقال له:

يسألك مالك وعبد العزيز فتجييهما، وأسألك أنا وذوي فلا تجيبنا؟
فقال:

أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك؟

قال: نعم: فقال له:

إني قد كبرت سني ورق عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في
عقلي مثل الذي خالطني في بدني.

ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا مني حقاً قبلاه، وإذا
سمعا خطأ تركاه.

وأنت وذووك ما أحببتموه به قبلتموه.

قال محمد بن حارث: هذا والله هو الدين الكامل، والعقل الراجح.
لا كمن يأتي بالهذيان، ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن. ا

هـ منه.

التنبيه الثالث

اعلم أن المقلدين للأئمة هذا التقليد الأعمى قد دل كتاب الله،
وسنة رسوله، وإجماع من يعتد به من أهل العلم، أنه لا يجوز لأحد
منهم أن يقول: هذا حلال وهذا حرام.

لأن الحلال ما أحله الله، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم
في كتابه أو سنة رسوله، والحرام ما حرمه الله على لسان رسوله
صلى الله عليه وسلم في كتابه، أو سنة رسوله.

ولا يجوز ألبتة للمقلد أن يزيد على قوله: هذا الحكم قاله الإمام
الذي قلده أو أفتى به.

أما دلالة القرآن على منع ذلك فقد قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَأَللَّهُ أَذِينَ لَكُمْ أَمْ
عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} وقال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا يَصِفُ السِّبِّكُمْ
لِكَذِبٍ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ لِكَذِبٍ إِنْ لِيذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ لِكَذِبٍ لَا يُفْلِحُونَ}. وقال تعالى: {قُلْ هَلْ
شَهِدْنَاكُمْ لِيذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا}.

ومعلوم أن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب كما بيناه
مراراً، وأوضحنا أدلته من السنة الصحيحة.

ومما يوضح هذا أن المقلد الذي يقول: هذا حلال وهذا حرام من
غير علم بأن الله حرمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم،
يقول على الله بغير علم قطعاً.

فهو داخل بلا شك في عموم قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي
لِفُؤْحِشٍ مِمَّا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَإِثْمَ وَبَغْيٍ بَغْيٍ لِحَقٍّ وَأَنْ
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ}.

فدخوله في قوله: {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} كما ترى.

وهو داخل أيضاً في عموم قوله تعالى: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ
وَلَفَحَشَاءٍ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

وأما السنة، فقد قال مسلم بن الحجاج في صحيحه:
حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع بن الجراح عن سفيان
ح وحدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا يحيى بن آدم حدثنا سفيان
قال: أملاه علينا إملاء.

ح وحدثني عبد الله بن هاشم واللفظ له حدثني عبد الرحمن يعني
ابن مهدي حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة
عن أبيه قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو
سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً
ثم قال:

«اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله» الحديث.
وفيه «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله
فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري،
أتصيب حكم الله فيهم أم لا».

هذا لفظ مسلم في صحيحه.

وفيه النهي الصريح من النبي صلى الله عليه وسلم عن نسبة حكم
إلى الله، حتى يعلم بأن هذا حكم الله الذي شرعه على لسان
رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولأجل هذا كان أهل العلم لا يتجرؤون على القول بالتحريم
والتحليل إلا بنص من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه
وسلم.

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه:

حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا
ابن وضاح قال حدثنا يوسف بن عدي قال حدثنا عبيدة بن حميد
عن عطاء بن السائب قال: قال الربيع بن خيثم:

إياكم أن يقول الرجل في شيء وإن الله حرم هذا أو نهى عنه
فيقول الله: كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه.

قال أو يقول:

إن الله أحل هذا وأمر به، فيقول: كذبت لم أحله ولم أمر به.

وذكر ابن وهب وعتيق بن يعقوب أنهما سمعا مالك بن أنس يقول:
لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحداً
اقتدى به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام.

ما كانوا يجترئون على ذلك.

وإنما كانوا يقولون: نكره هذا.

ونرى هذا حسناً.

ونتقي هذا، ولا نرى هذا.

وزاد عتيق بن يعقوب، ولا يقولون حلال وحرام.
أما سمعت قول الله عز وجل: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالَ قُلْ ءَآلِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}.

الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله: قال أبو عمر: معنى قول مالك هذا إن ما أخذ من العلم رأياً واستحساناً لم نقل فيه حلال ولا حرام والله أعلم. اهـ. محل الغرض منه. وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسيره، في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِّتِّكُمْ لِكَذِبٍ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ}، ما نصه:

أسند الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول: حلال ولا حرام ولكن كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبون.
وقال ابن وهب:

قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام. ولكن يقولون: إياكم وكذا وكذا. ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا أن التحليل والتحرير إنما هو لله عز وجل وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يكون الباريء تعالى بذلك عنه.

وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول:
إني أكره كذا.

وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى. اهـ. محل الغرض منه.

وإذا كان مالك وإبراهيم النخعي وغيرهما من أكابر أهل العلم لا يتجرؤون أن يقولوا في شيء من مسائل الاجتهاد والرأي: هذا حلال أو حرام.

فما ظنك بغيرهم من المقلدين الذين لم يستضيئوا بشيء من نور الوحي؟

فتجرؤهم على التحريم والتحليل بلا مستند من الكتاب إنما نشأ لهم من الجهل بكتاب الله وسنة رسوله، وآثار السلف الصالح. وأية يونس المتقدمة صريحة فيما ذكرنا صراحة تغني عن كل ما سواها.

لأنه تعالى لما قال: {فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالَ} أتبع ذلك بقوله {قُلْ ءَآلِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}.

ولم يجعل واسطة بين إذنه في ذلك وبين الافتراء عليه.

فمن كان عنده إذن من الله بتحريم هذا أو تحلياً فليعتمد على إذن الله في ذلك.

ومن لم يكن عنده إذن من الله في ذلك فليحذر من الافتراء على الله.

إذ لا واسطة بين الأمرين.

ومعلوم أن العبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها.

فالذين يقولون من الجهلة المقلدين: هذا حلال وهذا حرام، وهذا حكم الله، ظناً منهم أن أقوال الإمام الذي قلدهه تقوم مقام الكتاب والسنة وتغني عنهما.

وإن ترك الكتاب والسنة والاكتفاء بأقوال من قلدهه أسلم لدينه أعمتهم ظلمات الجهل المتركمة عن الحقائق حتى صاروا يقولون هذا.

فهم كما ترى، مع أن الإمام الذي قلدهه، ما كان يتجرأ على مثل الذي تجرؤوا عليه، لأن علمه يمنعه من ذلك.

والله جل وعلا يقول: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

التنبيه الرابع

اعلم أن مما لا بد منه معرفة، الفرق بين الاتباع والتقليد، وأن محل الاتباع لا يجوز التقليد فيه بحال.

وإيضاح ذلك: أن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو إجماع المسلمين، لا يجوز فيه التقليد بحال.

لأن كل اجتهاد يخالف النص، فهو اجتهاد باطل، ولا تقليد إلا في محل الاجتهاد.

لأن نصوص الكتاب والسنة، حاکمة على كل المجتهدين، فليس لأحد منهم مخالفتها كائناً من كان.

ولا يجوز التقليد فيما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً إذ لا أسوة في غير الحق.

فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط.

ولا اجتهاد، ولا تقليد فيما دل عليه نص، من كتاب أو سنة، سالم من المعارض.

والفرق بين التقليد والاتباع أمر معروف عند أهل العلم، لا يكاد ينازع في صحة معناه أحد من أهل العلم.

وقد قدمنا كلام ابن خويند منداد الذي نقله عنه ابن عبد البر في جامعه.

وهو قوله: التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه في الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه حجة.

وقال في موضع آخر من كتابه:
كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك
فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح.
وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه والاتباع في
الدين مسوغ والتقليد ممنوع. اهـ.
وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين:
وقد فرق الإمام أحمد رحمه الله بين التقليد والاتباع.
فقال أبو داود:
سمعتة يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله
عليه وسلم وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير. انتهى
محل الغرض منه.
قال مقيده عفا الله عنه، وغفر له: أما كون العمل بالوحي اتباعاً لا
تقليداً فهو أمر قطعي.
والآيات الدالة على تسميته اتباعاً كثيرة جداً:
كقوله تعالى: { أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ }
وقوله تعالى: { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ }.
وقوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِّن
رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
وقوله تعالى: { قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءٍ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا
مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }
وقوله تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ وَفَيْضٌ لِّقَوْمٍ لَّعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ }.
وقوله تعالى: { أَتَّبِعُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُشْرِكِينَ }.
وقوله تعالى: { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي
وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ }.
والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.
فالعمل بالوحي، هو الاتباع كما دلت عليه الآيات.
ومن المعلوم الذي لا شك فيه، أن اتباع الوحي الأمور به في
الآيات لا يصح اجتهاد يخالفه من الوجوه، ولا يجوز التقليد في شيء
يخالفه.
فاتضح من هذا الفرق بين الاتباع والتقليد، وأن مواضع الاتباع
ليست محلاً أصلاً للاجتهاد ولا للتقليد.
فنصوص الوحي الصحيحة الواضحة الدلالة السالمة من المعارض
لا اجتهاد ولا تقليد معها البتة.

لأن اتباعها والإذعان لها فرض على كل أحد كائناً من كان كما لا يخفى.

وبهذا تعلم أن شروط المجتهد التي يشترطها الأصوليون إنما تشترط في الاجتهاد.

وموضع الاتباع ليس محل اجتهاد.

فجعل شروط المجتهد في المتبع مع تباين الاجتهاد والاتباع وتباين مواضعهما خلط وخبط، كما ترى.

والتحقيق أن اتباع الوحي لا يشترط فيه إلا علمه بما يعمل به من ذلك الوحي الذي يتبعه.

وأنه يصح علم حديث والعمل به، وعلم آية والعمل بها.

ولا يتوقف ذلك على تحصيل جميع شروط الاجتهاد.

فيلزم المكلف أن يتعلم ما يحتاج إليه من الكتاب والسنة، ويعمل بكل ما علم من ذلك، كما كان عليه أول هذه الأمة، من القرون المشهود لها بالخير.

التنبيه الخامس

اعلم أنه لا يخفى علينا أن المقلدين التقليد الأعمى المذكور، يقولون:

هذا الذي تدعوننا إليه وتأمروننا به من العمل بالكتاب والسنة، وتقديمهما على آراء الرجال من التكليف بما لا يطاق.

لأننا لا قدرة لنا على معرفة الكتاب والسنة حتى نعمل بهما.

ولا يمكننا معرفة شيء من الشرع إلا عن طريق الإمام الذي نقلده.

لأننا لم نتعلم نحن ولا آباؤنا شيئاً غير ذلك.

فإذا لم نقلد إمامنا بقينا في حيرة لا نعلم شيئاً من أحكام عبادتنا ولا معاملاتنا، وتعطلت بيننا الأحكام إذ لا نعرف قضاء ولا فتوى ولا غير ذلك من الأحكام إلا عن طريق مذهب إمامنا.

لأن أحكامه مدونة عندنا وهي التي نتعلمها ونتدارسها دون غيرها من الكتاب أو السنة وأقوال الصحابة ومذاهب الأئمة الآخرين.

ونحن نقول:

والله لقد ضيقتم واسعاً. وادعيتم العجز، وعدم القدرة في أمر سهل.

ولا شك أن الأحوال الراهنة للمقلدين الأعمى، للمذاهب المدونة تقتضي صعوبة شديدة جداً في طريق التحول من التقليد الأعمى إلى الاستضاءة بنور الوحي.

وذلك إنما نشأ من شدة التفريط في تعلم الكتاب والسنة والإعراض عنهما إعراضاً كلياً يتوارثه الأبناء عن الآباء، والآباء عن الأجداد.

فالداء المستحکم من مئات السنين لا بد لعلاجه من زمن طويل .
ونحن لا نقول: إن الجاهل بالكتاب والسنة يعمل بهما باجتهاده .
بل نعوذ بالله من أن نقول ذلك .
ولكننا نقول: إن الكتاب والسنة يجب تعلمهما، ولا يجوز الإعراض
عنهما وأن كل ما علمه المكلف منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم
صحيح وجب عليه العمل به .
فالبلية العظمى إنما نشأت من توارث الإعراض عنهما إعراضاً
كلياً اكتفاء عنهما بغيرهما .
وهذا من أعظم المنكر وأشنع الباطل .
فالذي ندعو إليه هو المبادرة بالرجوع إليهما بتعلمهما أولاً ثم
العمل بهما والتوبة إلى الله من الإعراض عنهما .
ودعوي أن تعلمهما غير مقدور عليه، لا يشك في بطلانها عاقل،
ونعيذ أنفسنا وإخواننا بالله أن يدعوا على أنفسهم أن على قلوبهم
أكنة، وفي آذانهم وقراً يمنعهم من فهم كتاب الله .
لأن ذلك قول الكفار لا قول المسلمين قال الله تعالي { حَقَّنِزِيلٌ
مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا قَاغْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ قَالُوا قُلُوبُنَا
فِي أَكْثَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
وَ عَمَلْنَا إِنَّا عَمِلُونَ } .
فاحذري يا أخي وارحم نفسك أن تقول مثل قول هؤلاء الكفرة وكنت
تسمع ربك يقول: { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ } ،
ويقول: { قَائِمًا يَسِّرْتَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } .
ويقول { كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبُّوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ } .
فلا تخرج نفسك من عموم أولي الألباب الذين هم أصحاب العقول،
لأنك إن فعلت ذلك اعترفت على نفسك أنك لست من جملة
العقلاء .
وعلى كل حال فلا يخلو المقلدون، التقليد الأعمى، من أحد أمرين:
أحدهما: ألا يلتفتوا إلى نصح ناصح .
بل يستمرون على تقليدهم الأعمى، والإعراض عن نور الوحي
عمداً .
وتقديم رأي الرجال عليه .
وهذا القسم منهم لا نعلم له عذراً في كتاب الله ولا سنة رسوله .
ولا في قول أحد من الصحابة، ولا أحد من القرون المشهود لهم
بالخير .
لأن حقيقة ما هم عليه، هو الإعراض عما أنزل الله عمداً مع
سهولة تعلم القدر المحتاج إليه منه، والاستغناء عنه بأقوال الأئمة .

ومن كان هذا شأنه وهو تام العقل والفهم قادر على التعلم فعدم
عذره كما ترى.
الأمر الثاني: هو أن يندم المقلدون على ما كانوا عليه من التفريط
في تعلم الوحي، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله
عليه وسلم.
ويبادروا إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ويشرعوا في ذلك بجد.
تائبين مما كانوا عليه من التفريط قبل ذلك، وهذا القسم على
هدى من الله.
وهو الذي ندعو إخواننا إليه.

التنبيه السادس

لا خلاف بين أهل العلم، في أن الضرورة لها أحوال خاصة
تستوجب أحكاماً غير أحكام الاختيار.
فكل مسلم ألجأته الضرورة إلى شيء إلجاءً صحيحاً حقيقياً، فهو
في سعة من أمره فيه.
وقد استثنى الله جل وعلا، حالة الاضطرار في خمس آيات من
كتابه، ذكر فيها المحرمات الأربع التي هي من أغلظ المحرمات،
تحريماً وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.
فإن الله تعالى كلما ذكر تحريمها استثنى منها حالة الضرورة،
فأخرجها من حكم التحريم.

قال تعالى في سورة الأنعام:

{قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ
يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ طُطِرَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وقال في الأنعام أيضاً:

{وَمَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا طُطِرْتُمْ إِلَيْهِ}.

وقال تعالى في النحل:

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ لِمَيْتَةً وَ لِدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
فَمَنْ طُطِرَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وقال تعالى في البقرة:

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ لِمَيْتَةً وَ لِدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ
فَمَنْ طُطِرَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وقال تعالى في المائدة:

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ لِمَيْتَةً وَ لِدَّمٌ وَ لَحْمٌ لِحَنْزِيرٍ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
إِلَى قَوْلِهِ: {فَمَنْ طُطِرَ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وبهذا تعلم أن المضطر للتقليد الأعمى اضطراراً حقيقياً، بحيث يكون لا قدرة له ألبتة، على غيره مع عدم التفريط لكونه لا قدرة له أصلاً على الفهم.
أو له قدرة على الفهم وقد عاقته عوائق قاهرة عن التعلم. أو هو في أثناء التعلم ولكنه يتعلم تدريجاً لأنه لا يقدر على تعلم كل ما يحتاجه في وقت واحد.
أو لم يجد كفتاً يتعلم منه ونحو ذلك فهو معذور في التقليد المذكور للضرورة.
لأنه لا مندوحة له عنه.
أما القادر على التعلم المفرط فيه.
والمقدم آراء الرجال على ما علم من الوحي.
فهذا الذي ليس بمعذور.

التبیه السابع
اعلم أن موقفنا من الأئمة رحمهم الله من الأربعة وغيرهم. هو موقف سائر المسلمين المنصفين منهم.
وهو موالاتهم، ومحبتهم، وتعظيمهم، وإجلالهم، والثناء عليهم، بما هم عليه من العلم والتقوى، واتباعهم في العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على رأيهم وتعلم أقوالهم للاستعانة بها على الحق، وترك ما خالف الكتاب والسنة منها.
وأما المسائل التي لا نص فيها فالصواب النظر في اجتهادهم فيها. وقد يكون اتباع اجتهادهم أصوب من اجتهادنا لأنفسنا. لأنهم أكثر علماً وتقوى منا.
ولكن علينا أن ننظر ونحتاط لأنفسنا في أقرب الأقوال إلى رضى الله وأحوطها وأبعدها من الاشتباه.
كما قال صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وقال: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».
وحقيقة القول الفصل في الأئمة رحمهم الله أنهم من خيار علماء المسلمين، وأنهم ليسوا معصومين من الخطأ، فكل ما أصابوا فيه فلهم فيه أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وما أخطأوا فيه فهم مأجورون فيه باجتهادهم معذورون في خطئهم فهم مأجورون على كل حال، لا يلحقهم ذم ولا عيب ولا نقص في ذلك.
ولكن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حاکمان عليهم وعلى أقوالهم كما لا يخفى. فلا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

فلا تك ممن يذمهم وينتقصهم ولا ممن يعتقد أقوالهم مغنية عن كتاب الله وسنة رسوله أو مقدمة عليهما.

التنبيه الثامن
اعلم أن كلاً من الأئمة أخذت عليه مسائل. قال بعض العلماء: إنه خالف فيها السنة.

وسنذكر طرفاً من ذلك هنا إن شاء الله.
أما الإمام أبو حنيفة رحمه الله فهو أكثر الأئمة في ذلك، لأنه أكثرهم رأياً.
ولكثرة المسائل التي حصل فيها القيل والقال من ذلك لا نحتاج إلى بسط تفصيلها.

وبعض المسائل التي قيل فيها ذلك يظهر أنه لم تبلغه السنة فيها، وبعضها قد بلغت السنة فيها، ولكنه تركها لشيء آخر ظنه أرجح منها.

كثره العمل لحديث القضاء بالشاهد واليمين في الأموال.
وحديث «تغريب الزاني البكر» لأنه ترك العمل بذلك ونحوه احتراماً للنصوص القرآنية في ظنه.
لأنه يعتقد أن الزيادة على النص نسخ وأن القضاء بالشاهد واليمين نسخ. لقوله تعالى: { وَ بَيَّنَّشْهُدُوا شَهِيدِينَ مِّن رَّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ مُرَاتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ }.
فاحترم النص القرآني المتواتر، فلم يرض نسخه بخبر أحاد سنده دون سنده.

لأن نسخ المتواتر بالآحاد عنده، رفع للأقوى بالأضعف، وذلك لا يصح.

وكذلك حديث تغريب الزاني البكر فهو عنده زيادة بأسخة لقوله تعالى: { الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي وَ جَلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } والمتواتر لا ينسخ بالآحاد.

فتركه العمل بهذا النوع من الأحاديث بناء على مقدمتين:

إحدهما: أن الزيادة على النص نسخ.

والثانية: أن المتواتر لا ينسخ بالآحاد.

وخالفه في المقدمة الأولى جمهور العلماء.

ووافقوه في الثانية.

والذي يظهر لنا ونعتقد اعتقاداً جازماً أن كلتا المقدمتين ليست

بصحيحة.

أما الزيادة فيجب فيها التفصيل.

فإن كانت أثبتت حكماً نفاه النص أو نفت حكماً أثبتته النص فهي

نسخ.

وإن كانت لم تتعرض للنص بنفي ولا إثبات بل زادت شيئاً سكت عنه النص فلا يمكن أن تكون نسخاً لأنها إنما رفعت الإباحة العقلية التي هي البراءة الأصلية.

ورفعها ليس نسخاً إجماعاً.
وأما نسخ المتواتر بالآحاد.
فالتحقيق الذي لا شك فيه أنه لا مانع منه ولا محذور فيه، ولا وجه
لمنعه ألبتة، وإن خالف في ذلك جمهور أهل الأصول.
لأن أخبار الآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عن المتواتر لا وجه لردها،
ولا تعارض ألبتة بينها وبين المتواتر إذ لا تناقض بين خبرين اختلف
زمنهما، لجواز صدق كل منهما في وقته.
فلو أخبرك مثلاً عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب، بأن أخاك
الغائب لم يزل غائباً ولم يأت منزله.
لأنهم كانوا بمنزله وليس بموجود، ثم أخبرك بعد ذلك رجل واحد
بأن أخاك موجود في منزله الآن.
فهل يسوغ لك أن تقول له كذبت، لأنني أخبرني عدد كثير قبلك أنه
لم يأت؟
ولو قلت له ذلك لقال لك هم في وقت إخبارهم لك صادقون،
ولكن أخاك جاء بعد ذلك.
فالمتواتر في وقت نزوله صادق.
وخبر الآحاد الوارد بعده صادق أيضاً.
لأنه أفاد تجدد شيء لم يكن.
فحصر المحرمات مثلاً في الأربع المذكورة في قوله تعالى: {قُلْ
لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
مَيْتَةً}. صادق في ذلك الوقت.
لا يوجد محرم على طاعم بطعمه إلا تلك المحرمات الأربع.
فلا تحرم في ذلك الوقت الحمر الأهلية ولا ذو الناب من السباع ولا
الخمير ولا غير ذلك.
فإذا جاء بعد آحاد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم: حرم
لحوم الحمر الأهلية بخير، فهل يسوغ لقائل أن يقول:
هذا الخبر الصحيح مردود لأنه يعارض حصر المحرمات في الأربع
المذكورة في آية: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا}؟
ولو قال ذلك لقليل له:
هذا الخبر الصحيح لا تناقضه الآية، لأنه إنما أفاد حكماً جديداً طارئاً
لم يكن مشروعاً من قبل.
وأحكام الشريعة تتجدد شيئاً فشيئاً.
والآية لم تدل على استمرار الحصر المذكور فيها.
فتبين أن زيادة حكم طارئ لا تناقض بينها وبين ما كان قبلها.
وإيضاح هذا أن نسخ المتواتر بالآحاد إنما رفع استمرار حكم
المتواتر ودلالة المتواتر على استمرار حكمه ليست قطعية حتى
يمنع نسخها بأخبار الآحاد الصحيحة.

وقد قدمنا إيضاح هذا في سورة الأنعام.
وقصدنا مطلق المثل لما يقال: إن الإمام أبا حنيفة رحمه الله
خالف فيه السنة برأيه.
وغيرنا أن نبين أنه رحمه الله لم يخالف شيئاً من ذلك، إلا لشيء
اعتقده مسوغاً لذلك.
وأنه لا يترك السنة إلا لشيء يراه مستوجباً لذلك شرعاً.
ومما يبين ذلك أنه كان يقدم ضعيف الحديث على الرأي.
قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين ما نصه:
وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله مجتمعون على أن مذهب أبي حنيفة
أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأي.
وعلى ذلك بنى مذهبه كما قدم حديث القهقهة مع ضعفه على
القياس والرأي.
وقدم حديث الوضوء بنبذ التمر في السفر مع ضعفه على الرأي
والقياس.
ومنع قطع يد السارق لسرقة أقل من عشرة دراهم، والحديث فيه
ضعيف.
وجعل أكثر الحيض عشرة أيام والحديث فيه ضعيف.
وشرط في إقامة الجمعة المصراً، والحديث فيه كذلك.
وترك القياس المحض في مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة.
فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة قوله، وقول الإمام أحمد:
وليس المراد بالحديث الضعيف في اصطلاح السلف هو الضعف
في اصطلاح المتأخرين.
بل ما يسميه المتأخرون حسناً قد يسميه المتقدمون ضعيفاً اهـ.
محل الغرض منه.
ومن أمثلة ما ذكر أن أبا حنيفة رحمه الله خالف فيها السنة لزوم
الطمأنينة في الصلاة وتعين تكبيرة الإحرام في الدخول فيها
والسلام للخروج منها.
وقراءة الفاتحة فيها والنية في الوضوء والغسل إلى غير ذلك من
مسائل كثيرة.
ولا يتسع المقام هنا لذكر ما استدلل به أبو حنيفة لذلك ومناقشة
الأدلة.
بل المقصود بيان أن الأئمة لا يخلو أحد منهم من أن يؤخذ عليه
شيء خالف فيه سنة وأنهم لم يخالفوها إلا لشيء سوغ لهم ذلك.
وعند المناقشة الدقيقة قد يظهر أن الحق قد يكون معهم وقد
يكون الأمر بخلاف ذلك.
وعلى كل حال فهم ماجورون ومعدورون كما تقدم إيضاحه.
وقد أخذ بعض العلماء على مالك رحمه الله أشياء قال:

إنه خالف فيها السنة قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في
جامعه:

وقد ذكر يحيى بن سلام قال: سمعت عبد الله بن غانم في مجلس
إبراهيم بن الأغلب يحدث عن الليث بن سعد أنه قال: أحصيت
على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي صلى
الله عليه وسلم مما قال مالك فيها برأيه، قال: ولقد كتبت إليه في
ذلك. انتهى محل الغرض منه.

ومعلوم أن مثل كلام الليث هذا عن مالك لا أثر له، لأنه لم يعين
المسائل المذكورة ولا أدلتها.
فيجوز أن يكون الصواب فيها مع مالك لأدلة خفيت على الليث،
فليس خفاؤها على مالك بأولى من خفائها على الليث.
ولا شك أن مذهب مالك المدون فيه فروع تخالف بعض نصوص
الوحي. والظاهر أن بعضها لم يبلغه رحمه الله ولو بلغه لعمل به.
وأن بعضها بلغه وترك العمل به لشيء آخر يعتقده دليلاً أقوى منه.
ومن أمثلة ما لم يبلغه النص فيه صيام ست من شوال بعد صوم
رمضان.

قال رحمه الله في الموطأ ما نصه: إني لم أر أحداً من أهل العلم
والفقه يصومها ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف.
وإن أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته.

وأن يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء، ولو رأوا في
ذلك رخصة عند أهل العلم، ورأوهم يعلمون ذلك. اهـ منه بلفظه.
وفيه تصريح مالك رحمه الله بأنه لم يبلغه صيام ستة من شوال
عن أحد من السلف، وهو صريح في أنه لم يبلغه عن النبي صلى
الله عليه وسلم.

ولا شك أنه لو بلغه الترغيب فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم
لكان يصومها ويأمر بصومها، فضلاً عن أن يقول بكراهتها.
وهو لا يشك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرف وأرحم بالامة
منه.

لأن الله وصفه صلى الله عليه وسلم في القرآن بأنه رؤوف رحيم.
فلو كان صوم السنة يلزمه المحذور الذي كرهها مالك من أجله لما
رغب فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولراعى المحذور الذي
راعاها مالك.

ولكنه صلى الله عليه وسلم، ألغى المحذور المذكور وأهدره،
لعلمه بأن شهر رمضان أشهر من أن يلتبس بشيء من شوال.
كما أن النوافل المرغب فيها قبل الصلوات المكتوبة وبعدها لم
يكرهها أحد من أهل العلم خشية أن يلحقها الجهلة بالمكتوبات
لشهرة المكتوبات الخمس وعدم التباسها بغيرها.

وعلى كل حال، فإنه ليس لإمام من الأئمة أن يقول هذا الأمر الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه لخشية أن يظنه الجاهل من جنس الواجب.

وصيام الستة المذكورة، وترغيب النبي صلى الله عليه وسلم فيه ثابت عنه.

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه:

حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وعلي بن حجر جميعاً عن إسماعيل، قال ابن أيوب حدثنا إسماعيل بن جعفر أخبرني سعد بن سعيد بن قيس عن عمر بن ثابت بن الحارث الخزرجي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر» انتهى منه بلفظه.

وفيه التصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بالترغيب في صوم الستة المذكورة فالقول بكراهتها من غير مستند من أدلة الوحي خشية إلحاق الجاهل لها برمضان، لا يليق بجلالة مالك وعلمه وورعه، لكن الحديث لم يبلغه كما هو صريح كلامه نفسه رحمه الله في قوله: لم يبلغني ذلك عن أحد من السلف، ولو بلغه الحديث لعمل به.

لأنه رحمه الله من أكثر الناس اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحرصهم على العمل بسنته.

والحديث المذكور رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي، وصوم السنة المذكور رواه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحاب منهم ثوبان وجابر وابن عباس وأبو هريرة والبراء بن عازب كما بينه صاحب نيل الأوطار.

وعلى كل حال فالحديث صحيح ويكفي في ذلك إسناد مسلم المذكور.

ولا عبرة بكلام من تكلم في سعد بن سعيد لتوثيق بعض أهل العلم له واعتماد مسلم عليه في صحيحه.

ومن أمثلة ما لم تبلغ مالكا رحمه الله فيه السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفراد صوم يوم الجمعة، فقد قال رحمه الله في الموطأ ما نصه:

لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقهاء، ومن يقتدى به ينهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن.

وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه.

وأراه كان يتحراه. انتهى منه بلفظه.

وفيه تصريحه رحمه الله بأنه لم يسمع أحداً من أهل العلم ينهى عن صوم الجمعة.

وأن ذلك حسن عنده، وأنه رأى بعض أهل العلم يتحرى يوم الجمعة ليصومه.

وهذا تصريح منه رحمه الله بأنه لم يبلغه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الجمعة وحده، وأمره من صامه أن يصوم معه يوماً غيره وإلا أفطر إن ابتداء صيامه نائياً إفراده. ولو بلغت السنة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمل بها وترك العمل بغيرها.

لأن النهي عن صوم يوم الجمعة وحده ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال البخاري رحمه الله في صحيحه:

حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن عبيد الحميد بن جبير بن شيبه عن محمد بن عباد، قال سألت جابراً رضي الله عنه. أنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم الجمعة؟ قال: نعم. زاد غير أبي عاصم يعني أن ينفرد بصومه.

حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا يصوم أحدكم يوم الجمعة إلا يوماً قبله أو بعده».

حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة ح وحدثني محمد حدثنا غندر حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي عن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها «أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال: أصمت أمس؟ قالت: لا، قال: تريد أن تصومي غداً؟ قالت لا. قال: فأفطري».

وقال حماد بن الجعد سمع قتادة حدثني أبو أيوب أن جويرية حدثته فأمرها، فأفطرت. انتهى من صحيح البخاري بلفظه.

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه:

حدثنا عمرو الناقد حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الحميد بن جبير عن محمد بن عباد بن جعفر «سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو يطوف بالبيت أنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم الجمعة؟ فقال: نعم، ورب هذا البيت».

وقال مسلم أيضاً: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبه حدثنا حفص وأبو معاوية عن الأعمش ح وحدثنا يحيى بن يحيى واللفظ له أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا يصم أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم قبله أو يصوم بعده».

وفي لفظ في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم» هذا لفظ مسلم في صحيحه. ولا شك أن هذه الأحاديث لو بلغت مالكا ما خالفها، فهو معذور في كونها لم تبلغه.

وقال النووي في شرح مسلم: وأما قول مالك في الموطأ: لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن به يقتدى نهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن.

وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه وأراه كان يتحراه. فهذا الذي قاله هو الذي رآه.

وقد رأى غيره خلاف ما رأى هو.

والسنة مقدمة على ما رآه هو وغيره.

وقد ثبت النهي عن صوم يوم الجمعة، فيتعين القول به.

ومالك معذور، فإنه لم يبلغه.

قال الداودي من أصحاب مالك: لم يبلغ مالكا هذا الحديث ولو بلغه لم يخالفه. انتهى منه.

وهذا هو الحق الذي لا شك فيه.

لأن مالكا من أروع العلماء وأكثر الناس اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدعها وهو عالم بها.

وقوله في هذا الحديث: «إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم». أي كأن ينذر أحد صوم اليوم الذي يشفي الله فيه مريضه، فوافق ذلك يوم الجمعة.

لأن صومه له لأجل النذر، الذي لم يقصده بأصله تعيين يوم الجمعة.

وإنما النهي فيمن قصد بصومه نفس يوم الجمعة دون غيره.

والغرض عندنا إنما هو المثال لبعض الأحكام التي لم تبلغ مالكا فيها السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بلغته لعمل بها.

ومعلوم أن هنالك بعضاً من النصوص ترك مالك العمل به مع أنه بلغه، لأنه يعتقد أن ما ترك النص من أجله أرجح من النص.

وهذا يحتاج فيه إلى مناقشات دقيقة بين الأدلة، فقد يكون الحق في ذلك مع هذا الإمام تارة ومع غيره أخرى.

فقد ترك مالك العمل بحديث خيار المجلس مع أنه حديث متفق عليه، وقد بلغ مالكا.

وقد حلف عبد الحميد الصائغ من المالكية بالمشي إلى مكة على أنه لا يفتي بثلاث. قالها مالك.

ومراده بالثلاث المذكورة عدم القول بخيار المجلس هذا مع صحة الحديث فيه.

وجنسية القمح والشعير مع صحة الأحاديث الدالة على أنهما جنسان.

والتدمية البيضاء، ولا شك أن مالكا بلغه حديث خيار المجلس هذا. فقد روي في الموطأ عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار».

قال مالك: وليس لهذا عندنا حد معروف، ولا أمر معمول به فيه. انتهى منه بلفظه.

مع أن مالكا لم يعمل بهذا الحديث الصحيح: وأشار في الموطأ إلى بعض الأسباب التي منعت من العمل به في قوله:

وليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به فيه، لأن خيار المجلس لم يحدد بحد معروف.

فصار القول به مانعا من انعقاد البيع إلى حد غير معروف. وقد يكون المتعاقدان في سفينة في البحر لا يمكنهم التفرق بالأبدان.

وقد يكونان مسجونين في محل لا يمكنهما التفرق فيه. وقد حمل مالك التفرق المذكور في الحديث على التفرق في الكلام.

وصيغة العقد قال:

وقد أطلق التفرق على التفرق في الكلام دون الأبدان في قوله تعالى: {وَإِنْ تَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كَلِمًا مِّنْ سَعَتِهِ} فالتفرق في الآية إنما هو بالتكلم بصيغة الطلاق لا بالأبدان.

وقوله تعالى: {وَمَا تَفَرَّقَ لِّذَيْنِ أُوتُوا لِكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ لُبَّتُهُ} فالتفرق في الآية تفرق بالكلام والاعتقاد. فلا يشترط أن يكون بالأبدان:

وحجج من احتج لمالك في عدم أخذه بحديث خيار المجلس، هذا كثيرة معروفة.

منها ما هو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ}، وقوله: {أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}، وقوله: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ}.

ومنها ما هو بغير ذلك.

وليس غرضنا هنا بسط الحجج ومناقشتها، وإنما غرضنا المثال.

لأن الإمام قد يترك نصاً بلغه لاعتقاد أن ما ترك من أجله النص أرجح من نفس النص، وأنه يجب على المسلم مراعاة المخرج والنجاة لنفسه فينظر في الأدلة، ويعمل بأقواها وأقربها إلى رضى الله.

كما حلف عبد الحميد الصائغ بالمشي إلى مكة، لا يفتي بقول مالك في هذا.

مع أنه عالم مالكي، لأنه رأى الأدلة واضحة وضوحاً لا لبس فيه، في أن المراد بالتفرق التفرق بالأبدان.

وقد صرح بذلك جماعة من الصحابة منهم ابن عمر راوي الحديث، ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة.

ولا شك أن المنصف إذا تأمل تأملاً صادقاً حالياً من التعصب عرف أن الحق هو ثبوت خيار المجلس.

وإن المراد بالتفرق التفرق في الأبدان لا بالكلام.

لأن معنى التفرق بالكلام هو حصول الإيجاب من البائع والقبول من المشتري.

وكل عاقل يعلم أن الخيار حاصل لكل من البائع والمشتري ضرورة قبل حصول الإيجاب والقبول.

فحمل كلام النبي صلى الله عليه وسلم على هذا، حمل له على تحصيل حاصل، وهو كما ترى.

مع أن حمل الكلام على هذا المعنى يستلزم أن المراد بالمتبايعين في الحديث المتساومان، لأنه لا يصدق عليهما اسم المتبايعين حقيقة إلا بعد حصول الإيجاب والقبول.

وحمل المتبايعين في كلام النبي صلى الله عليه وسلم على المتساومين اللذين لم ينعقد بينهما بيع خلاف الظاهر أيضاً كما

ترى.

وأما كون القمح والشعير جنساً واحداً، فقد استدل له مالك ببعض الآثار التي ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

قال في الموطأ: إنه بلغه أن سليمان بن يسار قال: فني علف حمار سعد بن أبي وقاص فقال لغلامه: خذ من حنطة أهلك فاتبع

بها شعيراً، ولا تأخذ إلا مثله. اهـ منه بلفظه.

وفي الموطأ أيضاً عن نافع عن سليمان بن يسار أنه أخبره أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فني علف دابته، فقال لغلامه:

خذ من حنطة أهلك فاتبع بها شعيراً ولا تأخذ إلا مثله. اهـ منه بلفظه.

وفي الموطأ أيضاً: أن مالكا بلغه عن القاسم بن محمد عن بن معيقب الدوسي مثل ذلك. قال مالك: وهو الأمر عندنا اهـ. منه

بلفظه.

فهذه الآثار هي عمدة مالك رحمه الله في كون القمح والشعير جنساً واحداً.
وعضد ذلك بتقارب منفعتهما، والتحقيق الذي لا شك فيه أن القمح والشعير جنسان، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
ولا تصح معارضتها ألبتة بمثل هذه الآثار المروية عن ذكر. وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
«التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه» انتهى منه بلفظه.
وهو صريح بأن القمح والشعير جنسان مختلفان، كاختلافهما مع التمر والملح.
وأن التفاضل جائز مع اختلاف الجنس إن كان يداً بيد، وروى مسلم في صحيحه والإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد» اهـ منه بلفظه.
وللنسائي وابن ماجه وأبي داود نحوه، وفي آخره: وأمرنا أن نبيع البر بالشعير والشعير بالبر يداً بيد كيف شئنا.
قال المجد في المنتقى: لما ساق هذا الحديث ما نصه: وهو صريح في كون البر والشعير جنسين، وما قاله صحيح كما ترى.
والأحاديث بمثل هذا كثيرة، وقد قدمنا طرفاً منها في سورة البقرة والمقصود هنا بيان صراحة الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن القمح والشعير جنسان لا جنس واحد، وأنهما لا يجوز ترك العمل بها مع صحتها ووضوحها، ولا أن يقدم عليها أثر موقوف على سعد بن أبي وقاص ولا أثر موقوف على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، ولا أثر موقوف على ابن معيقيب.
واعلم أنه لا يصح الاستدلال لكون القمح والشعير جنساً واحداً بحديث معمر بن عبد الله الثابت في صحيح مسلم وغيره، قال: كنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «الطعام بالطعام مثلاً بمثل» الحديث.
وذلك لأمرين: أحدهما أن معمر المذكور قال في آخر الحديث، وكان طعامهم يومئذ الشعير.
فقد عين أن عرفهم المقارن للخطاب يخصص الطعام المذكور بالشعير.

والمقرر في أصول مالك: أن العرف المقارن للخطاب من المخصصات المنفصلة التي يخصص بها العام قال في مراقبي السعود في ذلك: والعرف حيث قارن الخطاباً ودع ضمير البعض والأسباب

الأمر الثاني: إن الاستدلال بالحديث المذكور على فرض اعتبار عمومته، وعدم تخصيصه بالعرف المذكور، يقتضي أن الطعام كله جنس واحد فيدخل التمر والملح لصدق الطعام عليهما. وهذا لا قائل به كما ترى.

فالظاهر أن الإمام مالكا رحمه الله ومن وافقه من أهل العلم، لم تبلغهم هذه الأحاديث الصحيحة المصرحة، بأن القمح والشعير والتمر والملح أجناس.

وأن القمح يباع بالشعير كيف شاء المتبايعان إن كان يداً بيد. وأما التدمية البيضاء فقول مالك فيها يظهر لنا قوته واتجاهه، وإن خالف في ذلك بعض أصحابه وأكثر أهل العلم. وقد بين وجه قول مالك فيها ابن عبد البر وابن العربي وغيرهما. والمسائل التي قال بعض أهل العلم إن مالكا خالف فيها السنة المعروفة منها ما ذكرنا.

ومنها مسألة سجود الشكر وسجدات التلاوة في المفصل. وعدم الجهر بآمين، وعدم رفع اليدين عند الركوع والرفع منه، وعدم قول الإمام: ربنا ولك الحمد.

وعدم ضفر رأس المرأة الميتة ثلاث ضفائر. وترك السجدة الثانية في الحج وغير ذلك من المسائل. وقد قدمنا أن بعض ما ترك مالك من النصوص قد بلغته فيه السنة ولكنه رأى غيرها أرجح منها، وأن بعضها لم يبلغه، وأن الحق قد يكون معه في بعض المسائل التي أخذت عليه.

وقد يكون مع غيره، كما قال مالك نفسه رحمه الله: كل كلام فيه مقبول ومردود، إلا كلام صاحب هذا القبر. وهو تارة يقدم دليل القرآن المطلق أو العام على السنة التي هي أخبار آحاد.

لأن القرآن أقوى سنداً وإن كانت السنة أظهر دلالة، ولأجل هذا لم يبح ميتة الجراد بدون ذكاة لأنه يقدم عموم {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ لِمَيِّتَةٌ}. حديث «أجلت لنا ميتتان ودمان» الحديث، وقدم عموم قوله تعالى {لُعُوا رَبَّكُمْ تَصْرُغًا وَخُفِيَةً}. على الأحاديث الواردة بالجهر بآمين لأن التأمين دعاء، والدعاء مأمور بإخفائه في الآية المذكورة.

فالأية أقوى سنداً وأحاديث الجهر بالتأمين أظهر دلالة في محل النزاع. ومن المعلوم أن أكثر أهل العلم يقدمون السنة في نحو هذا.

وقد قدم مالك رحمه الله دليل القرآن فيما ذكرنا كما قدمه أيضاً في الثانية من سجدي الحج لأن نص الآية الكريمة فيها كالصريح في أن المراد سجود الصلاة، لأن الله يقول فيها. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا رُكَّعًا وَسُجُودًا وَعَبْدُورَبِّكُمْ}. فذكر الركوع مع السجود يدل على أن المراد سجود الصلاة. والأمر بالصلاة في القرآن لا يستلزم سجود التلاوة كقوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَحَرِّمِ}.

ولذلك لا يسجد عند قوله تعالى في آخر الحجر {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}.

قالوا لأن معنى قوله: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} أي صل لربك متلبساً بحمده، وكن من الساجدين في صلاتك. ولا شك أن قوله تعالى في ثانياة الحج {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا رُكَّعًا وَسُجُودًا} أصح في إرادة سجود الصلاة من قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}.

ثم بعد هذا كله فإننا نكرر أن الأئمة رحمهم الله لا يلحقهم نقص ولا عيب فيما أخذ عليهم، لأنهم رحمهم الله بذلوا وسعهم في تعلم ما جاء عن الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ثم اجتهدوا بحسب طاقتهم، فالمصيب منهم له أجر اجتهاده وإصابته، والمخطيء منهم مأجور في اجتهاده معذور في خطئه، ولا يسعنا هنا مناقشة الأدلة فيما أخذ عليهم رحمهم الله، وإنما قصدنا مع الاعتراف بعظم منزلتهم أن نبين أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يجب تقديمهما على أقوالهم، لأنهم غير معصومين من الخطأ، وأن مذاهبهم المدونة لا يصح ولا يجوز الاستغناء بها عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن على كل مسلم قادر على التعليم أن يتعلم الكتاب والسنة، ومعرفة مذاهب الأئمة تعيينه على ذلك، والنظر فيما استدل به كل منهم يعينه على معرفة أرجح الأقوال وأقربها إلى رضى الله.

وكذلك الشافعي وأحمد رحمهما الله، فإن كل واحد منهما لا يخلو من شيء قد أخذ عليه، ومرادنا هنا التمثيل لذلك، وأن الوحي مقدم على أقوالهم جميعاً، وليس قصدنا الإكثار من ذلك. وهذه أمثلة بالمطلوب وكان الشيخ رحمه الله أرجأ إيرادها فنذكرها على ما هو ظاهر من المذهبين ونرجو أن تكون موافقة لما أراد. وبالله التوفيق.

فمما هو في مذهب أحمد رحمه الله صوم يوم الشك وهو يوم
الثلثين من الشعبان حينما يشك فيه هل هو تمام شعبان أو أول
رمضان. وذلك حينما تكون السماء مغيمة خشية أن يظهر الهلال
خلف الغيم أو القتر.
ولا يكون يوم شك إذا كانت السماء صحواً لأنه إذا رؤي الهلال فهو
من رمضان وإلا فهو من شعبان.
فمذهب أحمد هو صوم هذا اليوم المشكوك فيه احتياطاً لرمضان،
وهو نص المعنى إلا أنه ذكر عن أحمد روايات أخر. ولكن صومه هو
المقدم في المذهب. ولكنه مخالف لصريح النص في قوله صلى
الله عليه وسلم في ذلك: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد
عصى أبا القاسم» صلى الله عليه وسلم.
قال في بلوغ المرام: ذكره البخاري تعليقاً ووصله، قال في سبل
السلام: واعلم أن يوم الشك هو يوم الثلاثين من شعبان إذا لم ير
الهلال في ليلة بغيم ساتر، أو نحوه فيجوز كونه من رمضان وكونه
من شعبان.
والحديث وما في معناه يدل على تحريم صومه. اهـ. يعني بما في
معناه قوله صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته
فإن غم عليكم فاقدروا له ثلاثين». متفق عليه، ولمسلم «فإن غم
عليكم فاقدروا له ثلاثين» وللبخاري «فأكملوا العدة ثلاثين».
وشبهه أحمد في قوله صلى الله عليه وسلم «فاقدروا له» بمعنى
فضيقوا عليه كما في قوله تعالى: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ
مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} ولكن هذا معارض للنص الصريح في معنى
«فاقدروا له ثلاثين» وقوله «فأكملوا العدة ثلاثين» أي سواء في
شعبان أو في تمام رمضان عند الفطر.
ولم يقل بصومه من الأئمة إلا أحمد رحمه الله.
ومما هو عند الشافعي قوله بنقض الوضوء من مجرد لمس المرأة
الأجنبية بدون حائل مع ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في
أحاديث عائشة رضي الله عنها «كنت أنام معترضة في القبلة
ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي فإذا سجد غمزني
رجلي فأقبضها فإذا قام مددتها».
وقد أجابوا عن ذلك باحتمال سترها بحائل فجاء قولها «افتقدت
رسول الله ذات ليلة فقمتم أطلبه والحجرات ليس فيه آنذاك
السرج حتى وقعت كفي على بطن قدمه وهو ساجد يقول: سبح
قدوس رب الملائكة والروح فقلت: والله إنك لفي واد وأنا في
واد».

فلما قام للركعة الثانية طنته ذهب عند بعض نساءه فاغتسل ثم جاء يصلي عندها فقامت وأدخلت يدها في شعر رأسه تتحسس هل اغتسل أم لا.. إلخ.

ولهم أجوبة على كل ذلك ولكنها لا تنهض مع هذه النصوص الصريحة.

وشبهة الشافعي في ذلك في معنى: لإمستم النساء من قوله تعالى: {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا}. ولم يقل بنقض الوضوء به من الأئمة إلا الشافعي رحمه الله.

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أنه لا يتأتى من أحد أئمة المسلمين أن يخالف نصاً صريحاً من كتاب أو سنة، بدون أن تكون لديه شبهة معارضة بنص آخر، أو عدم بلوغ النص إليه، أو عدم صحته عنده أو غير ذلك مما هو معروف في هذا المقام. وإنما أوردنا هذين المثالين تنمة للبحث ولمجرد المثال.

التنبيه التاسع

اعلم أن كل من يرى أنه لا بد له من تقليد الإمام في كل شيء بدعوى أنه لا يقدر على الاستدلال بكتاب ولا سنة، ولا قول أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا أحد غير ذلك الإمام.

يجب عليه أن يتنبه تنبهاً تاماً للفرق بين أقوال ذلك الإمام التي خالها حقاً، وبين ما ألحق بعده على قواعد مذهبه، وما زاده المتأخرون وقتاً بعد وقت من أنواع الاستحسان التي لا أساس لها في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ولو علم الإمام بالحاقهم بمذهبه، لتبرأ منها، وأنكر على ملحقها، فنسبة جميع ذلك للإمام من الباطل الواضح.

ويزيده بطلاناً نسبتته إلى الله ورسوله، بدعوى أنه شرع ذلك على لسان رسوله، ونحو هذا كثير في المختصرات في المذاهب وكتب المتأخرين منهم.

ومن أمثله في مذهب مالك قول خليل المالكي في مختصره الذي قال فيه مبيناً لما به الفتوى: كأقل الطهر يعني أن قل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوماً.

والذين يعتقدون مذهب مالك يعتقدون أن مالكا يقول: بأن أقل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوماً.

وهذا لم يقله مالك أبداً ولم يفت به ولم يروه عنه أحد من أصحابه. والذي كان يقوله مالك: إن أقل الطهر ثمانية أيام أو عشرة أيام. وهو الذي نقله عنه أجلاء أهل مذهبه كابي محمد بن أبي زيد في رسالته رحمه الله.

والقول بأن أقل الطهر خمسة عشر هو قول ابن مسلمة واعتمده صاحب التلقين، وجعله ابن شاش المشهور أي مشهور مذهب مالك.

مع أن مالكا لم يقله ولم يعلم به، وأمثال هذا كثيرة جداً في مذهب مالك وغيره.

ومثال استحسان المتأخرين ما لم يقله الإمام مما لا شك أنه لو بلغ الإمام لم يقبله قول الخطاب في شرحه لقول خليل في مختصره في الصوم: وعاشوراء وتاسوعاء. ما نصه: قال الشيخ زروق في شرح القرطبية: صيام المولد كرهه بعض من قرب عصره ممن صلح علمه وورعه.

قال إنه من أعياد المسلمين فينبغي ألا يصام فيه، وكان شيخنا أبو عبد الله القوري يذكر ذلك كثيراً ويستحسنه. انتهى.

قلت: لعله يعني ابن عباد. فقد قال في رسائله الكبرى ما نصه: وأما المولد فالذي يظهر لي أنه عيد من أعياد المسلمين وموسم من مواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشمع وإمتاع البصر والسمع والتزيين بلبس فاخر الثياب وركوب فاره الدواب، أمر مباح لا ينكر على أحد قياساً على غيره من أوقات الفرح.

والحكم بكون هذه الأشياء بدعة في هذا الوقت الذي ظهر فيه سر الوجود وارتفع فيه علم الشهود وانقشع فيه ظلام الكفر والجحود، وادعاء أن هذا الزمان ليس من المواسم المشروعة لأهل الإيمان ومقارنة ذلك بالنيروز والمهرجان أمر مستثقل تشمئز منه القلوب السليمة وتدفعه الآراء المستقيمة.

ولقد كنت فيما خلا من الزمان خرجت في يوم مولد إلى ساحل البحر، فاتفق أن وجدت هناك سيدي الحاج بن عاشر رحمه الله وجماعة من أصحابه وقد أخرج بعضهم طعاماً مختلفاً ليأكلوه هنالك.

فلما قدموه لذلك أرادوا مني مشاركتهم في الأكل، وكنت إذ ذاك صائماً فقلت لهم: إني صائم.

فنظر إلى سيدي الحاج نظرة منكرة، وقال لي ما معناه: إن هذا اليوم يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصيام بمنزلة العيد. فتأملت كلامه فوجدته حقاً، وكأنني كنت نائماً فأيقظني. انتهى بلفظه.

فهذا الكلام الذي يقتضي قبح صوم يوم المولد وجعله كيوم العيد من غير استناد إلى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا قول أحد من أصحابه ولا من تابعيه.

ولم يقل به أحد من الأئمة الأربعة ولا من فقهاء الأمصار المعروفين الذي أدخله بعض المتأخرين في مذهب مالك، ومالك بريء منه براءة الشمس من اللمس، ولم يجر على أصول مذهبه، لأن علة تحريم صوم يوم العيد والفتور عنده أن الله تعالى يكلف عباده في كل سنة عبادتين عظيمتين والأمر بهما عام لكل من يستطيعهما، وإحداهما تجب في العمر مرة واحدة وهي الحج. والثانية تجب كل سنة في شهر رمضان منها، وهي الصوم، فإذا انتهت عبادة الحج أو عبادة الصوم ألزم الله الناس كلهم أن يكونوا في ضيافته يوم النحر ويوم عيد الفطر. فمن صام في أحد اليومين أعرض عن ضيافة الله، والإعراض عن ضيافته تعالى لا يجوز.

فإلحاق يوم المولد بيوم العيد إلحاق لا أساس له، لأنه إلحاق ليس بجامع بينهما ولا نفي فارق ولا إلحاق البتة إلا بجامع أو نفي فارق. وكل من لم يطمس الله بصيرته يعلم أن الحق الذي لا شك فيه هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. ومعلوم أن جعل يوم المولد كيوم العيد في منع الصوم لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا أحد من الأئمة الأربعة.

فهو تشريع لاستقباح قربة الصوم ومنعها في يوم المولد من غير استناد إلى وحي ولا قياس صحيح ولا قول أحد ممن يقتدى به. ومما لا نزاع فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله الله رحمة للعالمين كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} ورسالته صلى الله عليه وسلم هي أعظم نعمة على الخلق كما بينه علماء التفسير في الكلام على قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا}، والخير كل الخير في اتباعه صلوات الله وسلامه عليه، والشر كل الشر في تشريع ما لم يشرعه والتقول عليه بما لم يقله.

فالمقلدون لمالك مثل هذا التقليد الأعمى يعتقدون أن هذا الكلام الذي ذكره الخطاب عن زروق وابن عباد وابن عاشر، أنه هو مذهب مالك وأنه من شرع الله ودينه، وأنه ما دام من مذهب مالك، فاللازم تقديمه على الكتاب والسنة لأنهما لا يجوز العمل إلا للمجتهد المطلق.

وهذا مثال من بلايا التقليد الأعمى وعظائمه. ولا يخفى أن ادعاء أن وجود نعم الله كمولد النبي صلى الله عليه وسلم يدل على استقباح طاعة الله بالصوم في أوقات وجود تلك النعم ظاهر الفساد، لأن المناسب لنعم الله هو طاعته بأنواع الطاعات كالصوم.

ولذا تجد الناس يندرون لله صوم اليوم الذي ينعم الله عليهم فيه بشفاء المريض أو إتيان الغائب، وهذا أمر معروف وهو المعقول لا عكسه.

ومما يوضح هذا أن إنزال القرآن العظيم هو أعظم نعمة على البشر.

ولأجل ذلك علمهم الله حمدته تعالى على هذه النعمة العظمى في أول سورة الكهف في قوله تعالى { لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدِهِ لِكِتَابٍ }.

وقد بين تعالى أنه أنزل هذه النعمة في شهر رمضان، فكان نزول هذه النعمة في شهر رمضان مقتضياً لصومه لا لجعل أيامه أعياداً يستقبح صومها، لأن الله تعالى قال { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ }.

وهذا هو أعظم النعم، وقد رتب على هذا بالفاء قوله بعده، { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } فافهم.

والمقصود بهذا المثال النصيحة للذين لم يقدرُوا على غير هذا التقليد الأعمى ليبحثوا في كتب المذهب وأمهاته عن أقوال الإمام وكبار أصحابه ليفرقوا بينها وبين أنواع الاستحسان التي لا مستند لها، التي يدخلها المتأخرون وقتاً بعد وقت وهي ظاهرة الفساد عند من رزقه الله علماً يكتب الله وسنة رسوله.

ومما لا شك فيه أن أقوال مالك وكبراء أصحابه مثلاً، أخرى بالصواب في الجملة من استحسان ابن عباد وابن عاشر وأمثالهما. التنبيه العاشر

اعلم أن الدعوى التي اتفق عليها متأخرو الأصوليين التي تتضمن حكمهم على خالق السماوات والأرض جل وعلا لا يجوز لمسلم تريد الحق والإنصاف أن يعتقدها، ولا أن يصدقهم فيها لظهور عدم صحتها ومخالفتها للنص، والحكم فيها على الله بلا مستند، وهو جل وعلا الذي يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

وهذه الدعوى المذكورة هي المترتبة مما يأتي، وهو أن الاجتهاد قد انقرض في الدنيا وانسد بابه.

وأن الله تعالى محكوم عليه بأن لا يخلق مجتهداً ولا يعلم أحداً من خلقه علماً يمكن أن يكون به مجتهداً إلى ظهور المهدي المنتظر.

وأنه لا يجوز لأحد أن يعمل بكتاب ولا سنة ولا أن يقلد أحداً كائناً من كان غير الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة، كما نص

على هذه الدعوى حاكياً إجماعهم عليها صاحب مراقبي السعود في قوله:

والمجمع اليوم عليه الأربعة وقفوا غيرها الجميع منعه حتى يجيء الفاطم المجدد دين الهدى لأنه مجتهد

ومراده بالفاطمي المهدي المنتظر لأنه شريف.
وقوله: حتى يجيء. حرف غاية، والمغيبه، منع تقليد أحد غير
الأربعة المذكور في قوله: وقفوا غيرها الجميع منعه.
وهذا صريح في أنهم حاكمون على الله القدير العليم، بأنه لا يخلق
مجتهداً قبل وجود المهدي المنتظر، وهذا الذي قاله صاحب مراقي
السعود هو المقرر في كتب المتأخرين من الأصوليين من أهل
المذاهب المدونة.

وهذا الحكم على الله الذي كل يوم هو في شأن بأنه لا يخلق
مجتهداً قبل المهدي من مدة انقراض الاجتهاد المزعوم هو يا أخي
كما ترى.

ولا شك أنك إن لم يعمك التعصب المذهبي تقطع أنه لا مستند له،
وهذا الذي ذكره صاحب مراقي السعود قد صرح بما يناقضه في
قوله قبله: والأرض لم عن قائم مجتهد تخلو إلى تزلزل القواعد

وهذا النقيض الأخير هو الصحيح الموافق للحق.
لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه في الصحيحين
وغيرهما أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا
يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله» الحديث. وهو حديث
مشهور متفق عليه لا نزاع في صحته.

ولا شك في أن هذه الطائفة التي صرح النبي صلى الله عليه
وسلم: بأنها لا تزال ظاهرة على الحق حتى يأتي أمر الله أنها
طائفة على كتاب الله، وسنة رسوله، وليست ألبتة من المقلدين
التقليد الأعمى.

لأن الحق هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب
والسنة كما قال تعالى في سورة النساء: {يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ
الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ} وقال في الأنعام: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ
وَهُوَ الْحَقُّ}. وقال في النمل: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ
لِمُتَّبِعِينَ} وقال في يونس: {يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ} والآيات بمثل ذلك كثيرة. فدعوى أن الأرض لم يبق فيها
مجتهد ألبتة، وأن ذلك مستمر إلى ظهور المهدي المنتظر مناقضة
لهذا الحديث الثابت ثبوتاً لا مطعن فيه، عن النبي صلى الله عليه
وسلم.

ومما لا نزاع فيه أن كل ما يناقض الحق فهو ضلال، لأن الله جل
وعلا يقول: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَ تُضِرُّونَ}. والعلم
عند الله تعالى.

التنبيه الحادي عشر

اعلم يا أخي أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذي عم جل من في المعمورة من المسلمين من أعظم المآسي والمصائب، والدواهي التي دعت المسلمين من مدة قرون عديدة. ولا شك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون في واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافي لأصل الإسلام. لأن الكفار إنما احتاجوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكري عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك في دين الإسلام. ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويعملون بما فيها لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم. ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم والتحصن بسنته. ولذلك وجد الغزو الفكري طريقاً إلى قلوب الناشئة من المسلمين.

ولو كان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلاً ولا شك أن كل منصف يعلم أن كلام الناس، ولو بلغوا ما بلغوا من العلم والفضل، لا يمكن أن يقوم مقام كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. وبالجملة فمما لا شك فيه أن هذا الغزو الفكري الذي قضى على كيان المسلمين، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم، لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحوراً في غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة، وكون الغزو الفكري المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كما هو معلوم.

{ إِنَّ الَّذِينَ رَأَوْا عَلَيَّ أَدْبَرَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنِّي أَسْرَأُ لَهُمْ * ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُم لَمَلَائِكَةٌ يَصْرُبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ يُبْغَوْنَ مَا اسْتَحَطَّ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ * أَمْ حَسِبْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْعَابَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْبَتْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ لِمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَنَّكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصُرُوا لَئِنَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسِيحِطَ أَعْمَلُهُمْ * يَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِئُوا أَعْمَالَكُمْ *
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا أَعْلُونَ وَاللَّهُ
 مَعَكُمْ وَلَن يَتَرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا لِحَيَوَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِن
 تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ * وَإِن
 يَسْأَلِكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْعَابُكُمْ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
 تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا
 يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ لِعَنِيبٌ وَأَنْتُمْ لُفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ
 قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّةً لَّكُمْ }

قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ رُتِدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
 الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ
 كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ لِمَلِيكَةٍ يَصْرِفُونَ وُجُوهَهُمْ
 وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ
 أَعْمَالَهُمْ } . الظاهر أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين
 لهم الهدى، قوم كفروا بعد إيمانهم.

وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد
 صلى الله عليه وسلم، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف
 في كتبهم كفروا به.

وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن
 عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته
 صلى الله عليه وسلم ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم.
 وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة:
 { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ
 يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ
 فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } لأن قوله:

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا } مبين معنى قوله: { مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
 الْهُدَىٰ }، وقوله { كَفَرُوا بِهِ } مبين معنى قوله: { رُتِدُوا عَلَىٰ
 أَدْبَارِهِمْ }.

وقال بعض العلماء: نزلت الآية المذكورة في المنافقين.
 وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن سبب ارتداد هؤلاء
 القوم من بعد ما تبين لهم الهدى، هو إغواء الشيطان لهم كما قال
 تعالى مشيراً إلى علة ذلك { الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ } أي زين لهم
 الكفر والارتداد عن الدين، وأملى لهم أي مد لهم في الأمل
 ووعدهم طول العمر.

قال الزمخشري: سول سهل لهم ركوب العظام من السول، وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً.

وأملى لهم ومد لهم في الآمال والأمانى. انتهى.
وإيضاح هذا أن هؤلاء المرتدين على أديارهم من بعد ما تبين لهم الهدى وقع لهم ذلك بسبب أن الشيطان سول لهم ذلك أي سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومناهم فصول الأعمار.
لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي.
وفي هذا الحرف قراءتان سبعيتان: قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو، وأملى لهم بفتح الهمزة واللام بعدها ألف وهو فعل ماض مبني للفاعل، وفاعله ضمير يعود إلى الشيطان.
وأصل الإملاء الإمهال والمد في الأجل، ومنه قوله تعالى: {وَأْمَلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}، وقوله تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلَّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّانفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلَّى لَهُمْ لِيَزْدَاُوا إِثْمًا}.
ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار، كما قال تعالى: {يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ إِلَّا غُرُورًا}.
وقال تعالى: {وَوَعَدْنَاهُمْ لَاجِلَ عُثُورِهِمْ أَنِّي إِذَا أَهْبَطْنَا سَنَكْفِيكَمُ الْعَيْنَ وَنَحْنُ مُسْتَبْرِقُونَ} إلى قولك {وَعَدُّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ إِلَّا غُرُورًا}.
وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل في قوله {وَأْمَلَى لَهُمْ} على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى.
والمعنى: الشيطان {سَوَّلَ لَهُمْ} أي سهل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله جل وعلا أملى لهم: أي أمهلهم إمهال استدراج.

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله كقوله تعالى في تزيين الشيطان لهم {وَإِذْ زَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ}. وقوله تعالى، {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَهَوَوْا لِأَيْدِيهِمْ لِيَوْمِ عَذَابِ أَلِيمٍ}، وقوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ لِْحَقٍّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ}. إلى غير ذلك من الآيات.
وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجاً: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّن حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأْمَلَى لَهُمُ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}. وقوله تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلَّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّانفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلَّى لَهُمْ لِيَزْدَاُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} وقوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} وقوله تعالى: {فَلَمَّا تَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} وقوله تعالى: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا مِنَ الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ}

فَأَخَذْتَهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ}. وقوله تعالى {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِي وَسَارِعَ لَهُمْ فِي لِحْيَتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}
والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وجده من السبعة وأملي لهم بضم
الهمزة وكسر اللام بعدها ياء مفتوحة بصيغة الماضي الميني
للمفعول والفاعل المحذوف فيه الوجهان المذكوران أنفاً في
فاعل، وأملي لهم على قراءة الجمهور بالبناء للفاعل.

وقد ذكرنا قريباً ما يشهد لكل منهما من القرآن كقوله تعالى في
إملاء الشيطان لهم {يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا
عُرُوراً} وقوله في إملاء الله لهم: {وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}
كما تقدم قريباً، والإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة
{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ
الْأَمْرِ} راجعة إلى قوله تعالى، {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلِي لَهُمْ}.
أي ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم {قَالُوا
لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}.
وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه
مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون.

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل الله في
معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل، أنه كافر
بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمْ
لِيَمْلِكَنَّ يَصْرُبُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَذْبُرْهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ تَبِعُوا مَا آسَخَطَ
اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}.

وقد قدمنا ما يوضح ذلك من القرآن في سورة شورى في الكلام
على قوله تعالى: {وَمَا كُتِلِفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}
وفي مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك.

وبينا في سورة شورى أيضاً شدة كراهة الكفار لما نزل الله، وبيننا
ذلك بالآيات القرآنية في الكلام على قوله تعالى {كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}.

وقد قدمنا مراراً أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة والله يعلم {إِسْرَارَهُمْ} قرأه
نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم أسرارهم
بفتح الهمزة جمع سر.

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم إسرارهم بكسر الهمزة
مصدر أسر كقوله: {وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا}. وقد قالوا لهم ذلك
سراً فأفشاه الله العالم بكل ما يسرون وما يعلنون.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمْ لِمَلَائِكَتِهِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } أي: فكيف يكون حال هؤلاء إذا توفتهم الملائكة؟

أي قبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم في حال كونهم ضارين وجوههم وأدبارهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الملائكة، يتوفون الكفار وهم يضربون وجوههم وأدبارهم جاء موضحاً في مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنفال: { وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَلَائِكَتِهِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } وقوله في الأنعام: { وَلَوْ تَرَى إِذِ الْبَاطِلُ مُؤْتَى فِي عَمَزَاتِ لَمَوْتٍ وَ لِمَلَائِكَتِهِ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَوْخُوا أَنْفُسِكُمْ لِيَوْمٍ تُجْرُونَ عَذَابَ أَلِيمٍ }.

فقوله: { بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ } أي بالضرب المذكور. والإشارة في قوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ تَبِعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ } راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي أعني قوله { يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ }.

أي ذلك بضرب وقت الموت واقع بسبب { بِأَنَّهُمْ تَبِعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ } أي أغضبه من الكفر به، وطاعة الكفار الكارهين لما نزل. والإسقاط استجلاب السخط، وهو الغضب هنا. وقوله: وكرهوا رضوانه لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كره رضوان الله.

لأن رضوانه تعالى ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل، كراهة رضوانه لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه، فهو ككارهه.

وقوله: فأحبط أعمالهم أي أبطلها، لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة. وقد أوضحنا المقام في ذلك إيضاحاً تاماً في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا }.

وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ دُونِ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً }.

واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد قال بعض العلماء: إنها نزلت في المنافقين.

وقال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، وأن المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، وهو عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك. وبعضهم يقول: إن الذين اتبعوا ما أسخط الله، هم اليهود حين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما عرفوه وكرهوا رضوانه، وهو الإيمان به صلى الله عليه وسلم.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله.

مسألة

اعلم أن كل مسلم، يجب عليه في هذا الزمان، تأمل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد.

لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد.

لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو هذا القرآن وما بينه به النبي صلى الله عليه وسلم من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في الأمر كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم.

وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم. فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر. قوله تعالى: {وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}. اللام في قوله: لنبلونكم موطنه لقسم محذوف.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة عن عاصم بالنون الدالة على العظمة في الأفعال الثلاثة أعني لنبلونكم، ونعلم، ونبلو. وقرأه شعبة عن عاصم بالمشناة التحتية.

وضمير الفاعل يعود إلى الله وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله جل وعلا يبلو الناس أي يختبرهم بالتكاليف، كبذل الأنفس والأموال في الجهاد ليطمئن بذلك صادقهم من كاذبهم، ومؤمنهم من كافرهم. جاء موضحاً في آيات أخرى.

كقوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ لِبَاسَاءٌ وَالصَّرَاةُ وَرُزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ؟}

وقوله تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ لِلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}.

وقوله تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }.

وقوله تعالى { أَمْ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ لَقَدْ فْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ }.

وقوله تعالى { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ }.

وقد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: { وَمَا جَعَلْنَا لِقِيبَلَةٍ لِيَكُنَّ مِنْهَا حَرَامٌ وَلَا حَرَامٌ لِلنَّاسِ لِغَيْرِهَا وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ }.

فقلنا في ذلك ما نصه:

ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه سبحانه وتعالى، عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون.

وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا: { وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }.

فقوله: والله عليم بذات الصدور بعد قوله: ليبتلي، دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار. وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه.

ومعنى إلا لنعلم أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى، فهو عالم بكل ما سيكون، كما لا يخفى. اهـ.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: (وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة، ونبلو أخباركم نخبرها ونظهرها) انتهى محل الغرض منه.

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: (ولنبونكم أيها المؤمنون بالقتل وجهاد أعداء الله حتى نعلم المجاهدين منكم يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد. في

الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه فيظهر ذلك لهم ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه وأهل الإيمان من أهل النفاق ونبلو أختياركم فنعرف الصادق منكم من الكاذب). انتهى محل الغرض منه بلفظه. وما ذكره من أن المراد بقوله: حتى نعلم المجاهدين الآية، حتى يعلم حزبنا.

وأولياؤنا المجاهدين منكم والصابرين له وجه، وقد يرشد له قوله تعالى: { وَتَبَلَّوْا أَخْبَرَكُمْ } أي نظهرها ونبرزها للناس. وقوله تعالى: { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَدْرَأَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } لأن المراد يميز الخبيث من الطيب ظهور ذلك للناس.

ولذا قال { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ } فتعلموا ما ينطوي عليه الخبيث والطيب، ولكن الله عرفكم بذلك بالاختبار والابتلاء الذي تظهر بسببه طوايا الناس من خبث وطيب.

والقول الأول وجه أيضاً، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ }. الظاهر أن صدوا في هذه الآية متعدية، والمفعول محذوف، أي كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله فهم ضالون مضلون.

وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى { فَلَنُحِيتَهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ }. أن التأسيس مقدم على التوكيد كما هو مقرر في الأصول.

وصدوا هنا، إن قدرت لازمة فمعنى الصدود الكفر، فتكون كالتوكيد لقوله كفروا.

وإن قدرت متعدية كان ذلك تأسيساً.

لأن قوله: كفروا يدل على كفرهم في أنفسهم.

وقوله: وصدوا على أنه متعد يدل على أنهم حملوا غيرهم على الكفر وصدوه عن الحق، وهذا أرجح مما قبله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَشَاقُّوا الرَّسُولَ } أي خالفوا محمداً صلى الله عليه وسلم مخالفة شديدة.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين أحدهما أن الذين كفروا

وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوه صلى الله عليه وسلم لن يضروا الله بكفرهم شيئاً، لأنه غني لذاته الغنى المطلق.

والثاني أنهم إنما يضرون بذلك أنفسهم، لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم، كما قال تعالى: { وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ }. وهذا

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله.

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى الله عن خلقه، وعدم
تضرره بمعصيتهم، قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ}.

وقوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ}.
وقوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُورًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}.

وقوله تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ لَغَنِيٌّ لَّهُ مَا فِي
السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}

وقوله تعالى: {فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَبِئْسَ عَنِ اللَّهِ وَإِلَهُ عَنِ حَمِيدٌ}.
وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ لِقُرَآءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ لَغَنِيٌّ
لِحَمِيدٌ} إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على الثاني وهو إحباط أعمالهم بالكفر أي
إبطالها به قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ
هَبَاءً مَّنْثُورًا}.

وقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ سُتِدَّتْ بِهِ
الرَّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الطَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَائِبًا}.

وقوله تعالى: {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.
قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}.

قد قدمنا كثيراً جداً من الآيات المماثلة له قريباً في جملة كلامنا
الطويل على قوله تعالى {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْءَانٍ}. قوله تعالى:
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ
يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من مات
على الكفر لن يغفر الله له، لأن النار وجبت له بموته على الكفر،
جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله.

كقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ
أَحَدِهِمْ مِّلٌّ إِلَّا رِضٌ ذَهَبًا وَلَوْ قُتِلُوا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا
لَهُمْ مَنْ نَصِرِينَ}.

وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ
اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ لِعَذَابٍ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}.

وقوله تعالى: {وَلَا لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا}.

وقوله تعالى {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُوتْ وَهُوَ كَافِرٌ قَدْ أُولَٰئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَلِدُونَ}. قوله تعالى: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَلِكُمْ}. قرأ هذا الحرف عامة
السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم إلى السلم بفتح السين.
وقرأ حمزة وشعبة إلى السلم بكسر السين.
وقوله تعالى: {فَلَا تَهِنُوا} أي لا تضعفوا وتذلوا، ومنه قوله تعالى:
{فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}.
وقوله تعالى: {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} أي مضعف
كيدهم، وقول زهير بن أبي سلمى: وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت
فأصبح الحبل منها واهناً خلقاً

وقوله تعالى: {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} جملة حالية فلا تضعفوا عن قتال
الكفار وتدعوا إلى السلم، أي تبتدؤوا بطلب السلم أي الصلح
والمهادنة وأنتم الأعلون. أي والحال أنكم أنتم الأعلون أي
الأقهارون والأغلبون لأعدائكم، ولأنكم ترجون من الله من النصر
والتواب ما لا يرجون.
وهذا التفسير في قوله {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} هو الصواب
وتدل عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى بعده {وَاللَّهُ مَعَكُمْ}
لأن من كان الله معه هو الأعلى وهو الغالب وهو القاهر المنصور
الموعد بالتواب.
فهو جدير بأن لا يضعف عن مقاومة الكفار ولا يبدأهم بطلب الصلح
والمهادنة.

وكقوله تعالى: {وَإِنَّ جُنَدًا لَهُمْ يُغْلِبُونَ}، وقوله تعالى: {إِنَّا
لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، وقوله {وَكَانَ حَقًّا
عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} وقوله تعالى {قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ}. ومما يوضح معني آية القتال هذه قوله
تعالى: {وَلَا تَهِنُوا فِي اتِّعَازٍ لِقَوْمٍ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ
كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}، لأن قوله تعالى
{وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} من النصر الذي وعدكم الله به
والغلبة وجزيل الثواب.
وذلك كقوله هنا {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} وقوله: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ} أي
بالنصر والإعانة والتواب.

واعلم أن آية القتال هذه لا تعارض بينها وبين آية الأنفال حتى يقال
إن إحداها ناسخة للأخرى، بل هما محكمتان وكل واحدة منهما
منزلة على حال غير الحال التي نزلت عليه الأخرى.
فالنهي في آية القتال هذه في قوله تعالى: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى
السَّلْمِ} إنما هو عن الابتداء بطلب السلم.

والأمر بالجنوح إلى السلم في آية الأنفال محله فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب السلم والجنوح لها، كما هو صريح قوله تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ وَجَّحْنَا لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَاللَّهُ مَعَكُمْ} قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} وهذا الذي ذكرنا في معنى هذه الآية أولى وأصوب مما فسرها به ابن كثير رحمه الله. وهو أن المعنى: لا تدعوا إلى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلى أي في حال قوتكم وقدرتكم على الجهاد.

أي، وإما إن كنتم في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم أي الصلح والمهادنة، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي: السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالِكُمْ} أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئاً من ثواب الأعمال جاء موضعاً في آيات أخر كقوله تعالى {وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً} أي لا ينقصكم من ثوابها شيئاً.

وقوله تعالى: {وَنَصَّعُ لِمُؤَزِّينَ لِقِسْطٍ لِيَوْمِ لِقِيْمَةٍ فَلَا تُظَلَّمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}.

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَنْ يَتَرَكُمُ} أصله من الوتر، وهو الفرد.

فأصل قوله: لن يترككم لن يفردكم وبجردكم من أعمالكم بل يوفيكم إياها. قوله تعالى: {وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ}. هذه الأجور التي وعد الله بها من أمن واتقى جاءت مبينة في آيات كثيرة كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالِكُمْ}. في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير منها أن المعنى: ولا يسألكم النبي صلى الله عليه وسلم أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ}. وقوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}.

وقوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة هود في الكلام علي قوله تعالى {وَيَقُومُ} لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله {وذكرنا بعض ذلك في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي}. قوله تعالى: {نَفْسِهِ وَاللَّهُ لَعَنِي وَأَنْتُمْ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له قريبا في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}. قوله تعالى: {لِفُقَرَاءٍ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا}.

تم بحمد الله تفسير سورة محمد

تفسير سورة الفتح

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُمْتِنَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ قَوْلًا عَظِيمًا * وَيُعَدِّبُ الْمُتَفَقِينَ وَ الْمُتَفَقِتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَةِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَا شُهَدَاءَ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنْ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَن يَكْفُرْ لِيَكْفُرْ لِنَا سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ

الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زَيْنَ دَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ طَنَنْتُمْ
ظَنَ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَ مَن لَّمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَآبَا
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا * وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَن
يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * سَيَقُولُ
لِمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَعَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُوبًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ
أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ قُل لَّن نَتَّبِعُوكَ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ
فَيَسْأَلُونَ لَوْلَا نَجَّسْذُوتَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُل
لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِنَّدَعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدِ
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن
تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَىٰ الْأَعْمَىٰ
حَرْجٌ وَ لَا عَلَىٰ الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَ لَا عَلَىٰ لِمْرِيضٍ حَرْجٌ وَ مَن يُطِعِ اللَّهَ
وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ
عَذَابًا أَلِيمًا * لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ
الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا
قَرِيبًا * وَ مَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَ عَدَّكُمْ
اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَجَعَلَ لَكُم هَذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنكُمْ
وَ لَتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَ أُخْرَى لَمْ
تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا *
وَ لَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلُّوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَ لَا نَصِيرًا
* سِنَّةَ اللَّهِ لَتَى قَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلُ وَ لَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا * وَ هُوَ
الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ
أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ لَهْدَىٰ مَعَكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَجْلَهُ وَ لَوْلَا
رَجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ
مِّنْهُمْ مَّعْرَةً بَعِيرٌ عَلِمَ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَرَىٰ لَوْلَا
لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
قُلُوبِهِمْ لَحْمِيَّةَ حَمِيَّةٍ لِّجَاهِلِيَّةٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلَزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَ كَلِمًا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَ كَانَ
اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْأَرْوَابَ بِالْحَقِّ
لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخَلَّفِينَ رُءُوسَكُمْ
وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَفُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا
قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا

قوله تعالى:

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}. التحقيق الذي عليه الجمهور أن المراد
بهذا الفتح صلح الحديبية، لأنه فتح عظيم.

وأيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا بالكفار فيدعوهم إلى الإسلام وبينوا لهم محاسنه. فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام. ومما يوضح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة عام ست كانوا ألفاً وأربعمائة. ولما أراد النبي صلى الله عليه وسلم غزو مكة حين نقض الكفار العهد، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان. وكان معه عشرة آلاف مقاتل، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح لكونه سبباً لقوة المسلمين وكثرة عددهم. وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكة، وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم.

وإنما قلنا ذلك لأن أكثر أهل العلم على ما قلنا. ولأن ظاهر القرآن يدل عليه لأن سورة الفتح هذه نزلت بعد صلح الحديبية في طريقه صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة. ولفظ الماضي في قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا} يدل على أن ذلك الفتح قد مضى، فدعوى أنه فتح مكة ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب سنتين خلاف الظاهر.

والآية التي في فتح مكة دلت على الاستقبال لا على الماضي، وهي قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}. وقد أوضحنا في كتابنا دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب معنى اللام في قوله: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ}. قوله تعالى: {لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد دلت عليه آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: {وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ رَادَّتْهُمْ إِيمَانًا}. وقوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}، وقوله تعالى: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ آمَنُوا لِكِتَابِ وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} إلى غير ذلك من الآيات. وقد أوضحناه مراراً.

والحق الذي لا شك فيه. أن الإيمان يزيد وينقص، كما عليه أهل السنة والجماعة، وقد دل عليه الوحي من الكتاب والسنة كما تقدم. قوله تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودٌ أَلْسَمُوتٍ وَالْأَرْضِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن له جنود السماوات والأرض وبين في المدثر أن جنوده هذه لا يعلمها إلا هو، وذلك في قوله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}. قوله تعالى: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قَوْزًا عَظِيمًا وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوءِ}. أظهر الأقوال وأصحها في الآية أن اللام في قوله: {لِيُدْخِلَ} متعلقة

بقوله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}.

وأيضاح المعنى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ} أي السكون والطمأنينة إلى الحق، في قلوب المؤمنين، ليزدادوا بذلك إيماناً لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق، وازدياد الإيمان جنات تجري من تحتها الأنهار.

ومفهوم المخالفة في قوله: {فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} أن قلوب غير المؤمنين ليست كذلك وهو كذلك ولذا كان جزاؤهم مخالفاً لجزاء المؤمنين كما صرح تعالى بذلك في قوله: {وَيُعَذِّبُ الْمُتَّفِقِينَ وَ الْمُتَّفِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الطَّائِفِينَ بِاللَّهِ ظَنًّا أَلَسَّوْا}. وأيضاح المعنى أنه تعالى وفق المؤمنين بإنزال السكينة، وازدياد الإيمان وأشقى غيرهم من المشركين والمنافقين فلم يوفقهم بذلك ليجازي كلا بمقتضى عمله.

وهذه الآية شبيهة في المعنى بقوله تعالى في آخر الأحزاب: {وَخَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا كَيْعَبَ اللَّهُ الْمُتَّفِقِينَ وَ الْمُتَّفِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ}. قوله تعالى: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}. بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه يجازي المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات وهي غضبه، ولعنته، ونار جهنم.

وقد بين في بعض الآيات بعض نتائج هذه الأشياء الثلاثة، كقوله في الغضب: {وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ عَصِييَ فَقَدْ هَوَى}. وقوله في اللعنة، {وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنْ تَجِدْ لَهُ تَصِيرًا} وقوله في نار جهنم: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنِ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ}. قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}. بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً ومبشراً ونذيراً. وقد بين تعالى أنه يبعثه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شاهداً على أمته، وأنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين. قال تعالى في شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ}.

فأية النساء وآية النحل المذكورتان الدالتان على شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته تبيان آية الفتح هذه.

وما ذكرنا من أنه مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين أوضحه في قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِئُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لِّدَاءٍ}.

وقد أوضحنا هذا في أول سورة الكهف، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة، ذكره وزيادة في سورة الأحزاب في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}.

وقوله هنا: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا} حال مقدره. وقوله: مبشراً ونذيراً كلاهما حال معطوف على حال. قوله تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا}. أمر الله جل وعلا نبيه أن يقول للمنافقين الذين تخلفوا عنه واعتذروا بأعذار كاذبة: {فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا} أي لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به فلا نافع إلا هو ولا ضار إلا هو تعالى، ولا يقدر أحد على دفع ضراره ولا منع نفعه إلا هو. وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة. ما جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأحزاب {قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}.

وقوله تعالى في آخر يونس {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ}. وقوله في الأنعام: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. وقوله تعالى في النساء {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ لَمْسِيحَ بْنِ مَرْيَمَ وَآمَةَ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}. وقوله تعالى في فاطر: {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ}.

وقوله تعالى في الملك {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}. وقد ذكرنا بعض الآيات الدالة على هذا في أول سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ}. وفي سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى: {قُلْ إِنْ فُتِّرْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}. قوله تعالى: {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين. والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس. وقد ذكر جل وعلا إنزاله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين في براءة في قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} وذكر إنزال سكينته على رسوله في قوله في براءة: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ}.

المعاونة والتقوية، وقال بعض العلماء: {فَآزَرَهُ} أي ساواه في الطول، وبكل واحد من المعنيين فسر قول امرئ القيس: بمحنة قد أزر الصال نبتها مجر جيوش غانمين وخب

وأما على قراءة ابن ذكوان {فَآزَرَهُ} بلا ألف، فالمعنى شد أزره أي قواه.

ومنه قوله تعالى عن موسى {وَ جَعَل لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِيْهٖرُونَ أَخِذْ سُلْدُودًا بِهٖ أَرْزِيْ}. وقوله، {وَ سَلَّتْغَلْظًا} أي صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان رقيقاً، وقوله: {وَ سَلَّتَوَى} أي استتم وتكامل على سوقه أي على قصبه.

وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم يكونون في مبدأ أمرهم في قلة وضعف، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون. جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله {وَ اذْكُرُوا اذْ اَنْتُمْ قَلِيْلٌ مُّسْتَضْعَفُوْنَ فِى الْاَرْضِ تَخَافُوْنَ اَنْ يَّتَخَطَّكُمْ النَّاسُ فَاَواكُمُ وَاَيَّدَكُم بِنَصْرِهٖ}.

وقوله تعالى {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ بِيَدْرِ وَاَنْتُمْ اذِلَّةٌ} وقوله تعالى {لِيَوْمَ يَأْتِسَ لِذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ دِيْنِكُمْ فَلَآ تَخْشَوْهُمْ وَ خَشُوْنَ}. إلى غير ذلك من الآيات.

تم بحمد الله تفسير سورة الفتح

تفسير سورة الحجرات

{يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تُقَدِّمُوْا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَرِسُوْلِهٖ وَ يَقُوْا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ * يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تَرْفَعُوْا اَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوْا لَهٗ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ اَنْ تَحْبَطَ اَعْمَالُكُمْ وَاَنْتُمْ لَا تَشْعُرُوْنَ * اِنَّ الَّذِيْنَ يَغْضُوْنَ اَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رِسُوْلِ اللّٰهِ اُولٰٓئِكَ الَّذِيْنَ مُتَّخَنَ اللّٰهُ قُلُوْبَهُمْ لِلتَّقْوٰى لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَّاجْرٌ عَظِيْمٌ * اِنَّ الَّذِيْنَ يُنَادُوْنَكَ مِنْ وَّرَآءِ لِحُجْرَتِكَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ * وَلَوْ اَنْهَمُ صَبَرُوْا حَتّٰى تَخْرُجَ اِلَيْهِمْ لَكَانَ حَبِيْرًا لَهُمْ وَ اللّٰهُ عَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ}

قوله تعالى: {يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تُقَدِّمُوْا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَرِسُوْلِهٖ وَ يَقُوْا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: لا تقدموا فيه لعلماء التفسير ثلاثة أوجه: الأول منها وهو أصحها وأظهرها أنه مضارع قدم اللازمة بمعنى تقدم. ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب بكسر الدال فيهما، وهو اسم فاعل قدم بمعنى تقدم.

وبدل لهذا الوجه قراءة يعقوب من الثلاثة الذين هم تمام العشرة لا تقدموا بفتح التاء والذال المشددة وأصله لا تتقدموا فحذفت إحدى التائين.

الوجه الثاني: أنه مضارع قدم المتعدي، والمفعول محذوف لإرادة التعميم أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله ورسوله بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدروا فيه عن أمر الله ورسوله. الوجه الثالث: أنه مضارع قدم المتعدية ولكنها أجريت مجرى اللازم، وقطع النظر عن وقوعها على مفعولها، لأن المراد هو أصل الفعل دون وقوعه على مفعوله. ونظير ذلك قوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ } أي هو المتصف بالإحياء والإماتة، ولا يراد في ذلك وقوعهما على مفعول. وكقوله تعالى: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } لأن المراد، أن المتصفين بالعلم لا يستوون مع غير المتصفين به. ولا يراد هنا وقوع العلم على مفعول، وكذلك على هذا القول: لا تقدموا، لا تكونوا من المتصفين بالتقديم.

وقد قدمنا في كلامنا الطويل على آية: { أَقْلًا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْآنٍ } أن لفظة بين يديه معناها أمامه، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك. والمعنى لا تتقدموا أمام الله ورسوله: فتقولوا في شيء بغير علم ولا إذن من الله، وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك دخولاً أولاً تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله، لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله.

وقد أوضحنا هذه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة شوري في الكلام على قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ } وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: { وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا لِقُرْآنٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَاقْبُوا لِلَّهِ } أي بامثال أمره واجتناب نهيه.

وقوله { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } فهو سميع لكل ما تقولون من التقديم بين يديه وغيره، عليم بكل ما تفعلون من التقديم بين يديه وغيره. قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } . سبب نزول هذه الآية الكريمة، أنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد تميم، أشار عليه أبو

بكر رضي الله عنه أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس، وأشار عليه عمر أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس، وأشار عليه عمر أن يؤمر عليهم الأقرع بن حابس بن عقال.

فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فارتفعت أصواتهما فأنزل الله: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} ذكره البخاري في صحيحه وغيره.

وهذه الآية الكريمة علم الله فيها المؤمنين أن يعظموا النبي صلى الله عليه وسلم ويحترموا ويوقروه، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، أي ينادونه باسمه: يا محمد، يا أحمد، كما ينادي بعضهم بعضاً. وإنما أمروا أن يخاطبوه خطاباً يليق بمقامه ليس كخطاب بعضهم لبعض، كأن يقولوا يا نبي الله أو يا رسول الله ونحو ذلك. وقوله: {أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ} أي لا تفعلوا ذلك لئلا تحبط أعمالكم، أو ينهاكم عن ذلك كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون أي لا تعلمون بذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من لزوم توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتكريمه واحترامه جاء مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى: {لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} على القول بأن الضمير في تعزروه وتوقروه للنبي صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} كما تقدم وقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ}. وقوله هنا: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} أي لا تنادوه باسمه: يا محمد. وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ} {يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ} {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله {وَقُلْنَا يَا آدَمُ} {وَقَوْلُهُ: {وَتَدِينُهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ} وقوله: {قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}. قيل {يَنْوُحُ هَبْطٌ بِسَلْمٍ مَنَّا}. وقوله: {قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّي طَاطِقَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ} وقوله: {إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَقِّئُكَ} وقوله: {يَدَاؤُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً}.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}. وقوله: {وَأَمَّا نُرٌّ عَلَى مُحَمَّدٍ}. وقوله: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ}.

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه صلى الله عليه وسلم بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي

أخلصها لها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَوْصِيَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ مُتَّحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}. وقال بعض العلماء في قوله: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} أي لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض. قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية ما نصه: وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها. انتهى محل الغرض منه. وظاهر هذه الآية الكريمة أن الإنسان قد يحبط عمله وهو لا يشعر، وقد قال القرطبي: إنه لا يحبط عمله بغير شعوره وظاهر الآية يرد عليه.

وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، ما نصه: وقوله عز وجل: {أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض» اهـ محل الغرض منه بلفظه. ومعلوم أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كحرمة في أيام حياته، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره صلى الله عليه وسلم وهم في صخب ولغط. وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر.

وقد شدد عمر رضي الله عنه النكير على رجلين رفعاً أصواتهما في مسجده صلى الله عليه وسلم، وقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

مسألتان

الأولى: اعلم أن عدم احترام النبي صلى الله عليه وسلم المشعر بالغض منه أو تنقيصه صلى الله عليه وسلم والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله.

وقد قال تعالى في الذين استهزءوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: {وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ

لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ
تَسْتَهْزِءُونَ وَلَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}.

المسألة الثانية

وهي من أهم المسائل، اعلم أنه يجب على كل إنسان أن يميز بين
حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته، التي لا يجوز
صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه كحق النبي صلى الله عليه وسلم،
ليضع كل شيء في موضعه، على ضوء ما جاء به النبي صلى الله
عليه وسلم في هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة.
وإذا عرفت ذلك فاعلم: أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من
خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر
على كشفها إلا الله.

فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز
إلا لله وحده، لأنه من خصائص الربوبية فصرف ذلك الحق لله
وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله صلى الله
عليه وسلم ومرضاته وهو عين التوقير والتعظيم للنبي صلى الله
عليه وسلم لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والافتداء به
في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جل وعلا.
وقد بين جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه، أن التجاء المضطر من
عباده إليه وحده، في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته
تعالى.

من أصرح ذلك الآيات التي في سورة النمل أعني قوله تعالى:
{ قُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ وَسَلَامِ عَلَيَّ عِبَادِهِ الَّذِينَ طُطِقُوا } إلى قوله:
{ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }.

فإنه جل وعلا قال في هذه الآيات الكريمات العظيمات: { قُلْ
لِحَمْدِ اللَّهِ وَسَلَامِ عَلَيَّ عِبَادِهِ الَّذِينَ طُطِقُوا ءَإِلَهُ خَيْرٌ أَمَّا
يُشْرِكُونَ }.

ثم بين خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده فقال: { أَمَّنْ
خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
حَدَائِقَ دٰتٍ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَإِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ
قَوْمٌ يَعْدِلُونَ }.

فهذه المذكورات التي هي خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء
من السماء وإنبات الحدائق ذات البهجة، التي لا يقدر على إنبات
شجرها إلا الله، من خصائص ربوبية الله، ولذا قال تعالى بعدها
{ ءَإِلَهُ مَعَ اللَّهِ } يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء
من السماء وإنبات الحدائق به، والجواب لا. لأنه لا إله إلا الله
وحده.

ثم قال تعالى: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

فهذه المذكورات أيضاً، التي هي جعل الأرض قراراً، وجعل الأنهار خلالها، وجعل الجبال الرواسي فيها، وجعل الحاجز بين البحرين من خصائص ربوبيته جل وعلا، ولذا قال بعد ذكرها أليه مع الله؟ والجواب لا.

فلاعتراف لله جل وعلا بأن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات ونحو ذلك مما ذكر في الآيات من خصائص ربوبيته جل وعلا هو الحق، وهو من طاعة الله ورسوله، ومن تعظيم الله وتعظيم رسوله بالافتداء به صلى الله عليه وسلم في تعظيم الله. ثم قال تعالى وهو محل الشاهد {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ}.

فهذه المذكورات التي هي إجابة المضطر إذا دعا، وكشف السوء وجعل الناس خلفاء في الأرض من خصائص ربوبيته جل وعلا، ولذا قال بعدها أليه مع الله قليلاً ما تذكرون.

فتأمل قوله تعالى: {أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ} مع قوله: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجؤوا ودعوا وكشف السوء عن المكروبين، لا فرق في كونه من خصائص الربوبية، بينه وبين خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء وإنبات النبات، ونصب الجبال وإجراء الأنهار، لأنه جل وعلا ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد، وأتبع جميعه بقوله: {أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ}.

فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله توجه إليه الإنكار السماوي الذي هو في ضمن قوله: {أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ} فلا فرق البتة بين تلك المذكورات في كونها كلها من خصائص الربوبية. ثم قال تعالى: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَبِّرَةٍ وَبِالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

فهذه المذكورات التي هي هدي الناس في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح بشراً، أي مبشرات، بين يدي رحمته التي هي المطر، من خصائص ربوبيته جل وعلا.

ولذا قال تعالى: {أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ}، ثم نزه جل وعلا نفسه عن أن يكون معه إله يستحق شيئاً مما ذكر فقال جل وعلا: {تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

ثم قال تعالى: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

فهذه المذكورات التي هي بدء خلق الناس وإعادته يوم البعث، ورزقه للناس من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإنبات النيات، من خصائص ربوبيته جل وعلا ولذا قال بعدها {أَعَلَّهُ مَعَ اللَّهِ}.

ثم عَجَزَ جل وعلا كل من يدعي شيئاً من ذلك كله لغير الله، فقال أمراً نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

وقد اتضح من هذه الآيات القرآنية، أن إجابة المضطرين الداعين، وكشف السوء عن المكروبين، من خصائص الربوبية كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء، وإنبات النبات، والحجز بين البحرين إلى آخر ما ذكر.

وكون إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الربوبية، كما أوضحه تعالى في هذه الآيات من سورة النمل جاء موضعاً في آيات أخر، كقوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} وقوله تعالى: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله تعالى: {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ}.

فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية ونعتقد ما تضمنته ونعمل به لنكون بذلك مطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم معظمين لله ولرسوله، لأن أعظم أنواع تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو اتباعه والاقتراء به، في إخلاص العبادة لله جل وعلا وحده.

فإخلاص العبادة له جل وعلا وحده، هو الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم وبأمر به وقد قال تعالى: {وَمَا أُمُّوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ} إلى قوله: {قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِيَ عَابِدُوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ}.

واعلم أن الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعلمون علماً يقيناً أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب، من خصائص الربوبية وكانوا إذا دهمتهم الكروب، كإحاطة الأمواج بهم في البحر، في وقت العواصف يخلصون

الدعاء لله وحده، لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشراف.

وقد بين الله جل وعلا هذا في آيات من كتابه كقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ يَرْيحُ طَيْبَةً وَفِرْحُولًا يَهَا جَاءَ نَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ لَمَوْجٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أَحْيَطُ بِهِمْ دَعَاؤُا إِلَهًا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بَعِيرٍ لِحَقِّ}.
وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَنَهَارٍ وَتَدْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنِ أَنْجَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} فَلَهُ لَقَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ}. الآية

وقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِتَاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}.
وقوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمْ لُصْرٌ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَقَامِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ تَبِيعًا}.

وقوله تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاؤُا إِلَهًا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}.

وقوله تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَاؤُا إِلَهًا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ}.

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمْ لُصْرٌ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أنه لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فاراً منه إلى بلاد الحبشة فركب في البحر متوجهاً إلى الحبشة فجاءتهم ريح عاصف.

فقال القوم بعضهم لبعض إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره. اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد صلى الله عليه وسلم فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه. انتهى.

وقد قدمنا هناك أن بعض المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من هؤلاء الكفار المذكورين لأنهم في وقت الشدائد يلجؤون لغير الله

طالبين منه ما يطلب المؤمنون من الله، وبما ذكر تعلم أن ما انتشر في أقطار الدنيا من الالتجاء في أوقات الكروب والشدائد إلى غير الله جل وعلا كما يفعلون ذلك قرب قبر النبي صلى الله عليه وسلم وعند قبور من يعتقدون فيهم الصلاح زاعمين أن ذلك من دين الله ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ومحبة الصالحين كله من أعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمت الله وحرمت رسوله.

لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره ممن يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله وسخط النبي صلى الله عليه وسلم وسخط كل متبع له بالحق.

ومعلوم أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يأمر بذلك هو ولا أحد من أصحابه، وهو ممنوع في شريعة كل نبي من الأنبياء، والله جل وعلا يقول: { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُوبَ إِلَهُهُ لِكِتَابٍ وَاحِدًا وَاحِدًا ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ لِكِتَابٍ وَاحِدًا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِمَلَكَةٍ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }.

بل الذي كان يأمر به صلى الله عليه وسلم هو ما يأمره الله بالأمر به في قوله تعالى { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }.

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلاً متديناً في زعمه مدعياً حب النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وهو يعظم النبي صلى الله عليه وسلم ويمدحه بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأنزل الماء من السماء وأنبت به الحقائق ذات البهجة، وأنه صلى الله عليه وسلم هو الذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إلى آخر ما تضمنته الآيات المتقدمة، فإن ذلك العاقل لا يشك في أن ذلك المادح المعظم في زعمه من أعداء الله ورسوله المتعدين لحدود الله.

وقد علمت من الآيات المحكمات أنه لا فرق بين ذلك وبين إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين.

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومة الجهل وأن نعظم ربنا بامثال أمره واجتناب نهيه، وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا صلى الله عليه وسلم باتباعه والافتداء به في تعظيم الله والإخلاص له والافتداء به في كل ما جاء به.

وَأَلَّا نَخَالِفَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نَعْصِيهِ، وَأَلَّا نَفْعَلَ شَيْئًا يَشْعُرُ بِعَدَمِ التَّعْظِيمِ وَالاحْتِرَامِ، كَرَفْعِ الْأَصْوَاتِ قَرِبَ قَبْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم، وقصدنا النصيحة والشفقة لإخواننا المسلمين ليعملوا بكتاب الله، ويعظموا نبيه صلى الله عليه وسلم تعظيم الموافق لما جاء به صلى الله عليه وسلم ويتركوا ما يسميه الجهلة محبة وتعظيماً وهو في الحقيقة احتقار وازدراء وانتهاك لحرمة الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم {لَيْسَ بِأَمْنِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ لِكِتَابٍ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا تَصِيرَ أَوْ مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ تَقِيرًا}.

واعلم أيضاً رحمك الله: أنه لا فرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب، وبين تحصيل المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله، كالحصول على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير.

فإن التجاء العبد إلى ربه في ذلك أيضاً من خصائص ربوبيته جل وعلا كما قال تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} وقال تعالى: {وَلَبَّتُوهَا غَنَاءٌ} {وَلَبَّتُوهَا غَنَاءٌ} وقال تعالى: {يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَوَرَةَ} وقال تعالى: {وَجَعَلْ لَكُم مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ نَبِيًّا وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ اللَّطِيبَاتِ} وقال تعالى: {وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث «إذا سألت فاسأل الله».

وقد أتى الله جل وعلا على نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالتجائهم إليه وقت الكرب يوم بدر في قوله: {إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ وَاسْتَجَابَ لَكُمْ}. فبينما صلى الله عليه وسلم كان هو وأصحابه إذا أصابهم أمر أو كرب التجؤوا إلى الله وأخلصوا له الدعاء. فعلينا أن نتبع ولا نبتدع.

تنبيه

اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمل في معنى العبادة، وهي تشمل جميع ما أمر الله أن يتقرب إليه به من جميع القربات فيخلص تقربه بذلك إلى الله ولا يصرف شيئاً منه لغير الله كائناً ما كان.

والظاهر أن ذلك يشمل هيئات العبادة فلا ينبغي للمسلم عليه صلى الله عليه وسلم أن يضع يده اليمنى على اليسرى كهياة المصلي، لأن هياة الصلاة داخلية في جملتها فينبغي أن تكون خالصة لله، كما كان صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه يخلصون العبادات وهيئاتها لله وحده.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ تَدْمِينًا* وَ اَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولٌ

اللَّهُ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
 الْأَيْمَانَ وَرَبَّيْتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَإَعْصِيَانَهُ
 أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ * فَضَلَّ مَنِ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *
 وَإِن طَائِفَتَانِ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَجْتَبَا قَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَعَثَ
 إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَتِلُوا لِتَبِغِي حَتَّى تَبْغِيَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ
 فَإِن قَاءَتْ قَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ قَاصِلِحُوا بَيْنَ أَخْوَابِكُمْ وَتَّقُوا
 اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْخَرُوا قَوْمًا مِّن قَوْمٍ
 عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
 مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بِنِسْرِ الْأَسْمَاءِ
 لَفُسُوقٌ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا جُتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا
 تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضِكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ
 مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا
 خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا إِنَّ
 أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا
 قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ
 وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ ءَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
 وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *
 قُلِ اتَّعَلَّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمْشُونَ عَلَيْكَ أُنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا
 تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم يَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
 بِمَا تَعْمَلُونَ {

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن
 تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ تَدْمِينٌ } . نزلت هذه
 الآية الكريمة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقد أرسله النبي
 صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق
 من خزاعة ليأتيهم بصدقات أموالهم فلما سمعوا به تلقوه فرحاً
 به، فخاف منهم وظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى نبي صلى الله
 عليه وسلم وزعم له أنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتله، فقدم وفد
 منهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بكذب الوليد فأنزل
 الله هذه الآية.

وهي تدل على عدم تصديق الفاسق في خبره.
 وصرح تعالى في موضع آخر بالنهي عن قبول شهادة الفاسق،
 وذلك في قوله: { وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ

لُقِسْفُونَ} ولا خلاف بين العلماء في رد شهادة الفاسق وعدم قبول خبره.

وقد دلت هذه الآية من سورة الحجرات على أمرين:
الأول منهما: أن الفاسق إن جاء نبياً يمكن معرفة حقيقته، وهل ما
قاله فيه الفاسق حق أو كذب فإنه يجب فيه التثبت.
والثاني: هو ما استدل عليه بها أهل الأصول من قبول خبر العدل
لأن قوله تعالى: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} يدل بدليل خطابه،
أعني مفهوم مخالفته أن الجائي نبياً إن كان غير فاسق بل عدلاً لا
يلزم التبين في نبئه على قراءة: فتبينوا. ولا التثبت على قراءة:
فتثبتوا، وهو كذلك.

وأما شهادة الفاسق فهي مردودة كما دلت عليه آية النور
المذكورة آنفاً.

وقد قدمنا معنى الفسق وأنواعه في مواضع متعددة من هذا
الكتاب المبارك.

وقوله {أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا} أي لئلا تصيبوا قوماً، أو كراهة أن تصيبوا
قوماً بجهالة، أي لظنكم النبأ الذي جاء به الفاسق حقاً فتصبحوا
على ما فعلتم من إصابتكم للقوم المذكورين نادمين لظهور كذب
الفاسق فيما أنبا به عنهم، لأنهم لو لم يتبينوا في نبأ الوليد عن بني
المصطلق لعاملوهم معاملة المرتدين؟ ولو فعلوا ذلك لندموا.
وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: فتبينوا بالباء
التحتية الموحدة بعدها مثناة تحتية مشددة ثم نون. وقرأه حمزه
والكسائي: فتثبتوا بالثاء المثناة بعدها ياء تحتية موحدة مشددة ثم
تاء مثناة فوقية.

والأول من التبين، والثاني من التثبت.
ومعنى القراءتين واحد، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر
الحقيقة فيما أنبا به الفاسق. قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
الْأَيْمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَإِلْعَاصِيَانَ}. وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو
الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر
والفسوق والعصيان، جاء موضعاً في آيات كثيرة مصرح فيها بأنهم
تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كقوله تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ
فَهُوَ لِمُهْتَدٍ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا}.
وقوله تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ لِمُهْتَدٍ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ
أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ}.
وقوله تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ لِمُهْتَدٍ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ}.

وقوله تعالى: { وَتَنفَسْ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } والآيات
 بمثل هذا كثيرة معلومة، نرجو الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا
 يضلنا. قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }. هذه الأخوة التي أثبت
 الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة للمؤمنين بعضهم لبعض هي
 أخوة الدين لا النسب.

وقد بين تعالى أن الأخوة تكون في الدين في قوله تعالى { فَإِن لَّمْ
 تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }.

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى:
 { إِنَّ هَذَا لَفُضْوَانٌ لِّمَنْ يَّهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ }، أن الأخوة الدينية أعظم
 وأقوى من الأخوة النسبية، وبيننا أدلة ذلك من الكتاب والسنة،
 فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
 يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن
 نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ }. قوله: { لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ }
 أي لا يستخفوا ولا يستهزؤوا بهم، والعرب تقول: سخر منه بكسر
 الخاء، يسخر بفتح الخاء على القياس، إذا استهزأ به واستخف.
 وقد نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن السخرية من
 الناس، مبيناً أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساخر.
 ومن أقبح القبيح استخفاف الدنيا الأردل بالأكرم الأفضل،
 واستهزأؤه به.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن السخرية جاء ذم
 فاعله وعقوبته عند الله في غير هذا الموضع، كقوله تعالى:
 { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا
 يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ }.

وقد بين تعالى أن الكفار المترفين في الدنيا كانوا يسخرون من
 ضعاف المؤمنين في دار الدنيا، وأن أولئك يسخرون من الكفار
 يوم القيامة، كما قال تعالى: { يُزَيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِحْيَتَهُمُ الدُّنْيَا
 وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَ الَّذِينَ يُقَوُّوا قُلُوبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }
 وقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ
 وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ } إلى قوله تعالى: { وَ لِيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ نُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا
 كَانُوا يَفْعَلُونَ }.

فلا ينبغي لمن رأى مسلماً في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر
 والضعف أن يسخر منه لهذه الآيات التي ذكرنا. قوله تعالى: { وَلَا
 تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ }. أي لا يلمز أحدكم أخاه كما تقدم إيضاحه في
 سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا لَفُضْوَانٌ
 يَّهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ }.

وقد أُوْعِدَ اللهُ جُلُوعًا وعلا الذين يلمزون الناس في قوله تعالى: { وَيَلُّ لَكُلُّ هُمْرَةٍ لَمْرَةٍ }، والهمزة كثير الهمز للناس، واللمزة كثير اللمز.

قال بعض العلماء: الهمز يكون بالفعل كالغمز بالعين احتقاراً وازدراء، واللمز باللسان، وتدخل فيه الغيبة. وقد صرح الله تعالى بالنهي عن ذلك في قوله: { وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا } ونفي عنه غاية التنفير في قوله تعالى: { أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ } فيجب على المسلم أن يتباعد كل التباعد من الوقوع في عرض أخيه. قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى } ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه خلق الناس من ذكر وأنثى، ولم يبين هنا كيفية خلقه للذكر والأنثى المذكورين ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتاب الله. فبين أنه خلق ذلك الذكر الذي هو آدم من تراب، وقد بين الأطوار التي مر بها ذلك التراب، كصيرورته طيناً لازباً وحمأ مسنوناً وصلصالاً كالفخار. وبين أنه خلق تلك الأنثى التي هي حواء من ذلك الذكر الذي هو آدم فقال في سورة النساء: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً } وقال تعالى في الأعراف: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } وقال تعالى: في الزمر: { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا }. وقد قدمنا أنه خلق نوع الإنسان على أربعة أنواع مختلفة: الأول منها: خلقه لا من أنثى ولا من ذكر وهو آدم عليه السلام. والثاني: خلقه من ذكر بدون أنثى وهو حواء. والثالث: خلقه من أنثى بدون ذكر وهو عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. والرابع: خلقه من ذكر وأنثى وهو سائر الآدميين، وهذا يدل على كمال قدرته جل وعلا.

مسألة

قد دلت هذه الآيات القرآنية المذكورة على أن المرأة الأولى كان وجودها الأول مستنداً إلى وجود الرجل وفرعاً عنه. وهذا أمر كوني قدرني من الله، أنشأ المرأة في إيجادها الأول عليه. وقد جاء الشرع الكريم المنزل من الله ليعمل به في أرضه، بمراعاة هذا الأمر الكوني القدرني في حياة المرأة في جميع النواحي.

فجعل الرجل قائماً عليها وجعلها مستندة إليه في جميع شؤونها كما قال تعالى: { الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ }.

فمحاولة استواء المرأة مع الرجل في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن تتحقق لأن الفوارق بين النوعين كوناً وقدرًا أولاً، وشرعاً منزلاً ثانياً، تمنع من ذلك منعاً باتاً.

ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى، صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر.

ولا شك أن سبب هذا اللعن هو محاولة من أراد التشبه منهم بالآخر، لتحطيم هذه الفوارق التي لا يمكن أن تتحطم. وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال».

وقد قدمنا هذا الحديث بسنده في سورة بني إسرائيل، وبيننا هناك أن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في كتاب الله، فلو كانت الفوارق بين الذكر والأنثى يمكن تحطيمها وإزالتها لم يستوجب من أراد ذلك اللعن من الله ورسوله. ولأجل تلك الفوارق العظيمة الكونية القدرية بين الذكر والأنثى، فرق الله جل وعلا بينهما في الطلاق، فجعله بيد الرجل دون المرأة، وفي الميراث، وفي نسبة الأولاد إليه.

وفي تعدد الزوجات دون الأزواج: صرح بأن شهادة امرأتين بمنزلة شهادة رجل واحد في قوله تعالى: { فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَهُرَاتَانِ }، فالله الذي خلقهما لا شك أنه أعلم بحقيقتهما، وقد صرح في كتابه بقيام الرجل مقام امرأتين في الشهادة.

وقد قال تعالى: { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى } إذا قِسْمَةُ ضَيْرَى { أي غير عادلة لعدم استواء النصيبين لفضل الذكر على الأنثى.

ولذلك: وقعت امرأة عمران في مشكلة لما ولدت مريم، كما قال تعالى عنها: { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ }.

فامرأة عمران تقول: { وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى }، وهي صادقة في ذلك بلا شك.

والكفرة وأتباعهم يقولون: إن الذكر والأنثى سواء. ولا شك عند كل عاقل في صدق هذه السالبة وكذب هذه الموجبة.

وقد أوضحنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا لِقُرْآنٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } وجه الحكمة في جعل الطلاق بيد الرجل وتفضيل الذكر على الأنثى في الميراث وتعدد الزوجات، وكون الولد ينسب إلى الرجل، وذكرنا طرفاً من ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى { وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ }.

دَرَجَةٌ} وبيننا أن الفوارق الطبيعية بينهما كون الذكورة شرفاً
 وكمالاً وقوة طبيعية خلقية، وكون الأنوثة بعكس ذلك.
 وبيننا أن العقلاء جميعاً مطبقون على الاعتراف بذلك، وأن من
 أوضح الأدلة التي بينها القرآن على ذلك اتفاق العقلاء على أن
 الأنثى من حين نشأتها تجلى بأنواع الزينة من حلي وحلل، وذلك
 لجبر النقص الجبلي الخلقي الذي هو الأنوثة كما قال الشاعر: وما
 الحلبي إلا زينة من نقيصة يتم من حسن إذا الحسن قصراً

وقد بينا أن الله تعالى أوضح هذا بقوله: {أَوَمَنْ يُنثَىٰ فِي لِحْيَةٍ
 وَهُوَ فِي لِحْصَامٍ غَيْرٌ مُّبِينٌ}، فأنكر على الكفار أنهم مع ادعاء
 الولد له تعالى جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما خلقة وجبله وهو
 الأنثى.

ولذلك نشأت في الحلية من صغرها، لتغطية النقص الذي هو
 الأنوثة وجبره بالزينة، فهو في الخصام غير مبين.
 لأن الأنثى لضعفها الخلقي الطبيعي لا تقدر أن تبين في الخصام
 إبانة الفحول الذكور، إذا اهتضمت وظلمت لضعفها الطبيعي.
 وإنكار الله تعالى على الكفار أنهم مع ادعائهم له الولد جعلوا له
 أنقص الولدين وأضعفهما كثير في القرآن كقوله تعالى: {أَصْطَفَىٰ
 لِبَنَاتٍ عَلَىٰ لِبَنِينَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} وقوله: {أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ
 بِلَبَنِينَ وَتُؤْتُوا لِبَنَاتِكُمْ إِنْ نَاءً إِنْ كُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} وقوله
 تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}
 والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما الذكر فإنه لا ينشأ في الحلية، لأن كمال ذكوره وشرفها
 وقوتها الطبيعية التي لا تحتاج معه إلى التزين بالحلية التي تحتاج
 إليه الأنثى، لكماله بذكوره ونقصها بأنوثتها.
 ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن الذكر والأنثى إذا تعاشرا المعاشرة
 البشرية الطبيعية التي لا بقاء للبشر دونها، فإن المرأة تتأثر بذلك
 تأثراً طبعياً كونياً قدرياً مانعاً لها من مزاوله الأعمال كالحمل
 والنفاس وما ينشأ عن ذلك من الضعف والمرض والألم.
 بخلاف الرجل فإنه لا يتأثر بشيء من ذلك، ومع هذه الفوارق لا
 يتجرأ على القول بمساواتهما في جميع الميادين إلا مكابر في
 المحسوس، فلا يدعو إلى المساواة بينهما إلا من أعمى الله
 بصيرته.

وقد قدمنا في الموضوعين اللذين أشرنا لهما من هذا الكتاب
 المبارك ما يكفي المنصف، فأعني عن إعادته هنا. قوله تعالى:
 {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا}. لما كان قوله تعالى: {إِنَّا
 خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ} يدل على استواء الناس في الأصل، لأن

أباهم واحد وأمهم واحدة وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر
بالأنساب وتناول بعض الناس على بعض، بين تعالى أنه جعلهم
شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا أي يعرف بعضهم بعضاً، ويتميز
بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتناول
عليه.

وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما
يكون بسبب آخر غير الأنساب.
وقد بين الله ذلك هنا بقوله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ} فاتضح
من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من
الانتساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال: فقد رفع الإسلام
سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول: أبي الإسلام لا أب
لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية، تدل على أن دين الإسلام سماوي صحيح، لا
نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما
المعتبر فيه تقوى الله جل وعلا وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم
أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب.
والشعوب جمع شعب، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست
التي عليها العرب وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن،
والفخذ، والفصيلة.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع
البطون، والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل.
خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم
فخذ، والعباس فصيلة.

وسميت الشعوب، لأن القبائل تتشعب منها. اهـ.
ولم يذكر من هذه الست في القرآن إلا ثلاث الشعوب، والقبائل
كما في هذه الآية، والفصيلة في المعارج في قوله: {وَفَصِيلَتِهِ
لِئْتِي تُؤْوِيهِ} وقد قدمنا ما دلت عليه هذه الآيات موضعاً في سورة
بنِي إِسْرَائِيلَ في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لِقُرْءَانٍ يَهْدِي
لِئْتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

واعلم أن العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض كإطلاق
البطن على القبيلة في قول الشاعر:
وإن كلاباً هذه عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر

كما قدمناه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ}. قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُومٌ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الأعراب وهم أهل البادية من العرب قالوا آمنا، وأن الله جل وعلا أمر نبيه أن يقول لهم: {لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا}، وهذا يدل على نفي الإيمان عنهم وثبوت الإسلام لهم.

وذلك يستلزم أن الإيمان أخص من الإسلام لأن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

وقد قدمنا مراراً أن مسمى الإيمان الشرعي الصحيح، والإسلام الشرعي الصحيح هو استسلام القلب بالاعتقاد واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل، فمؤداهما واحد كما يدل له قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

وإذا كان ذلك كذلك فإنه يحتاج إلى بيان وجه الفرق بين الإيمان والإسلام في هذه الآية الكريمة، لأن الله نفي عنهم الإيمان دون الإسلام، ولذلك وجهان معروفان عند العلماء أظهرهما عندي أن الإيمان المنفي عنهم في هذه الآية هو مسماه الشرعي الصحيح، والإسلام المثبت لهم فيها هو الإسلام اللغوي الذي هو الاستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب.

وإنما ساغ إطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الإسلام مع أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية على الصحيح، لأن الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر. وأن تواكل كل السرائر إلى الله. فانقياد الجوارح في الظاهر بالعمل واللسان بالإقرار يكتفي به شرعاً، وإن كان القلب منطوياً على الكفر.

ولهذا ساغ إرادة الحقيقة اللغوية في قوله: {وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا}، لأن انقياد اللسان والجوارح في الظاهر إسلام لغوي مكتفى به شرعاً عن التنقيب عن القلب.

وكل انقياد واستسلام وإذعان يسمى إسلاماً لغة. ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل العدوي مسلم جاهلية:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلاً
دحاها فلما استوت شدها جميعاً وأرسي عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هي سقيت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الريح تصرف حالاً فحالا

فالمراد بالإسلام في هذه الآيات: الاستسلام والانقياد، وإذا حمل الإسلام في قوله: {وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْلَمْنَا} أنقذنا واستسلمنا بالألسنة والجوارح. فلا إشكال في الآية. وعلى هذا القول فالأعراب المذكورون منافقون، لأنهم مسلمون في الظاهر، وهم كفار في الباطن. الوجه الثاني: أن المراد بنفي الإيمان في قوله: {لَمْ تُؤْمِنُوا} نفي كمال الإيمان، لا نفيه من أصله. وعليه فلا إشكال أيضاً، لأنهم مسلمون مع أن إيمانهم غير تام، وهذا لا إشكال فيه عند أهل السنة والجماعة القائلين بأن الإيمان يزيد وينقص.

وإنما استظهرنا الوجه الأول، وهو أن المراد الإسلام معناه اللغوي دون الشرعي، وأن الأعراب المذكورين كفار في الباطن وإن أسلموا في الظاهر، لأن قوله جل وعلا: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ} يدل على ذلك دلالة كما ترى، لأن قوله: {يَدْخُلِ} فعل في سياق النفي وهو من صيغ العموم كما أوضحناه مراراً، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود: ونحو لا شربت أو إن شربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا

فقوله: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ}: في معنى لا دخول للإيمان في قلوبكم. والذين قالوا بالثاني. قالوا: إن المراد بنفي دخوله نفي كماله، والأول أظهر كما ترى. وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ}: المراد به بعض الأعراب، وقد استظهرنا أنهم منافقون لدلالة القرآن على ذلك، وهم من جنس الأعراب الذين قال الله فيهم: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الْدَّوَائِرَ}، وإنما قلنا إن المراد بعض الأعراب في هذه الآية، لأن الله بين في موضع آخر أن منهم من ليس كذلك، وذلك في قوله تعالى {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا لِلَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ}.

قوله تعالى: {قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. لما قال هؤلاء الأعراب: أمانة، وأمر الله نبيه أن يكذبهم في قوله: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا} وقوله: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ} أمر نبيهم أن يقول لهم بصيغة الإنكار: {أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} وذلك بادعائكم أنكم مؤمنون والله

لا يخفى عليه شيء من حالكم، وهو عالم بأنكم لم تؤمنوا وعالم بكل ما في السموات والأرض وعالم بكل شيء.
وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تقييح تزكية النفس بالكذب جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكَّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشَوْنَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

تم بحمد الله تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

{وَلَقُرْءَانَ لَمَجِيدٍ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَوَدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ بِأَمْرٍ مَرِيجٌ * أَقَلَّمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَبْنَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَسَقَتِ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدٌ * أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا نُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وقوله تعالى: {وَلَقُرْءَانَ لَمَجِيدٍ}. المقسم عليه في الآية محذوف، والظاهر أنه كالمقسم عليه المحذوف في سورة حر، وقد أوضحناه في الكلام عليها. وقوله تعالى هنا: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} قد قدمنا في سورة حر أن من المقسم عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق وأن رسالته حق، كما دل عليه قوله في حر: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} وقد دل على ذلك قوله هنا: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، وقد قدمنا في

حَرَّ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ تَكْذِيبَ الْكُفَّارِ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، وَيُدْخِلُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ هُنَا: {فَقَالَ لِكُفْرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا}، وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي حَرِّ، بِقَوْلِهِ: {وَ لِقُرْآنٍ ذِي الْذِكْرِ}، وَفِي وَ بِقَوْلِهِ: {وَ لِقُرْآنٍ لِمَجِيدٍ} مَحْذُوفٌ وَهُوَ تَكْذِيبُ الْكُفَّارِ فِي إِنْكَارِهِمْ رِسَالَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، وَإِنْكَارِهِمْ كَوْنَ الْمَعْبُودِ وَاحِدًا، وَقَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ حَرِّ، وَذَكَرْنَا هُنَا أَنَّ كَوْنَ الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ وَ هَذِهِ الْمَحْذُوفُ يَدْخُلُ فِيهِ إِنْكَارُهُمْ لِرِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ} وَتَكْذِيبِهِمْ فِي إِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: {فَقَالَ لِكُفْرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} وَبَيْنَا وَجْهَ إِضْحَاحِ ذَلِكَ بِالْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ هُنَا وَغَيْرِهَا، فَاعْنَى ذَلِكَ عَنِ إِعَادَتِهِ هُنَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}.
 الهمزة في قوله: {أَقْلَمُ} تتعلق بمحذوف، والفاء عاطفة عليه، كما قدمنا مراراً أنه أظهر الوجهين، وأنه أشار إليه في الخلاصة بقوله: * وحذف متبوع يدا هنا استبح *

والتقدير: أَعْرَضُوا عَنِ آيَاتِ اللَّهِ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ. أَي لَيْسَ فِيهَا مِنْ شَقُوقٍ وَلَا تَصَدْعٍ وَلَا تَفْطَرٍ، وَمَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ تَعْظِيمِ شَأْنِ كَيْفِيَةِ بِنَائِهِ تَعَالَى لِلسَّمَاءِ وَتَزْيِينِهِ لَهَا وَكَوْنِهَا لَا تَصَدْعُ وَلَا شَقُوقٍ فِيهَا جَاءَ كُلُّهُ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا فِي بِنَائِهِ لِلسَّمَاءِ: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ لِّلسَّمَاءِ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَ لِّلسَّمَاءِ بَيَّنَّاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمْ سَبْعًا سِدَادًا}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لِذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَوَيَّا كُنَّا عَن لِّخْلِقِ غَفْلِينَ}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ الرَّعدِ: {اللَّهُ لِذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ سَوَّاهَا عَلَى عَرْشٍ}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي لِقْمَانَ: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي تَزْيِينِهِ لِلسَّمَاءِ {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكُوكِبِ}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ}. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي حِفْظِهِ لِلسَّمَاءِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهَا فُرُوجٌ أَي شَقُوقٌ: {فَوَاجِعٍ لِّبَصَرِ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}، وَالْفُطُورُ وَالْفُرُوجُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ الشَّقُوقُ وَالصَّدُوعُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَن آيَاتِهَا

مُعْرَضُونَ}، أما إذا كان يوم القيامة فإن السماء تتشقق وتتفطر،
وتكون فيها الفروج كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ
بِالْغَمِّمِ}. وقال تعالى: {فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً}.
وقال تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ لَوَاقِعَةٌ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ}. وقال
تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}، وقال تعالى: {إِذَا
السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ}، وقال تعالى: {يَوْمًا يَحْعَلُ لَوْلَدَنَ شَيْبًا السَّمَاءُ
مُنْقَطِرٌ بِهِ}. وقال تعالى: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ
فُرِجَتْ}. قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْتَهَا وَالْقِيَامَةَ فِيهَا رُؤْسِي وَأَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ بَصِيرَةً وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}. ذكر جل
وعلا في هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض وألقى فيها الجبال
الرواسي وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد
منيب، وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات
كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: {وَهُوَ لِذِي مَدِّ الْأَرْضِ وَجَعَلَ
فِيهَا رَوَابِئِي وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ أُتَيْنِ} إلى
قوله: {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، وكقوله: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا وَالْقِيَامَةَ فِي الْأَرْضِ رَوَابِئِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبِتُّ فِيهَا مِنْ كُلِّ
دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقٌ
اللَّهُ قَارُونِي مَادًّا خَلَقَ لِذِينَ مِنْ دُونِهِ} والآيات بمثل هذا كثيرة
معلومة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {كُلُّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} أي
من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقوله: {تَبَصِيرَةً} أي
قدرنا الأرض وألقينا فيها الرواسي وأنبتنا فيها أصناف النبات
الحسنة لأجل أن نبصر عبادنا كمال قدرتنا على البعث وعلي كل
شيء وعلي استحقاقنا للعبادة دون غيرنا. قوله تعالى: {وَأَحْيَيْنَا بِهِ
بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ لُخْرُوجٌ}. قوله: كذلك الخروج، معناه أن الله
تبارك وتعالى: يبين أن إحياء الأرض بعد موتها بإنبات النبات فيها
بعد انعدامه واضمحلاله، دليل على بعث الناس بعد الموت بعد
كونهم تراباً وعظاماً. فقوله: كذلك الخروج يعني أن خروج الناس
أحياء من قبورهم بعد الموت كخروج النبات من الأرض بعد عدمه،
بجامع استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم، وهذا أحد براهين البعث
التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن، وقد قدمنا الآيات
الموضحة لذلك في صدر سورة البقرة وأول النحل وأول الجاثية،
وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {كُلُّ كَذَّبٍ أَلْرُّسُلِ فَحَقَّ
وَعِيدٌ}. هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق عليه
العذاب، أي يتحتم وبشيت في حقه ثبوتاً لا يصح معه تخلفه عنه،
وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله يصح
أن يخلف وعيده، لأنه قال: إنه لا يخلف وعده ولم يقل إنه لا يخلف

وعيده، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:
وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز مواعيدي

لا يصح بحال، لأن وعيده تعالى للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسول كما دل عليه قوله هنا: {كُلُّ كَذَّبٍ أَلْرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ}. وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة كقوله: سها فسجد. أي لعله سهوه وسرق فقطعت يده أي لعله سرقته، ومنه قوله تعالى {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ وَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}، فتكذيبهم الرسول علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ لِقَوْلٍ لَدَيَّ}، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم.

وقوله تعالى في سورة حر {إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ أَلْرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٍ}. وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب، لأن الله تعالى أوضح ذلك في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين، ولا إشكال في ذلك، وقد أوضحنا هذا في كتابنا دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {قَالَ أَلْتَأْتُواكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}. قوله تعالى: {أَفَعَيَّبْنَا بِلَخْلِقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}. هذه الآية الكريمة من براهين البعث، لأن من لم يعي بخلق الناس ولم يعجز عن إيجادهم الأول لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى، لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدع والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}. وقوله تعالى: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} وقوله: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد أوضحنا الآيات الدالة على براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليها بها في القرآن، كخلق الناس أولاً، وخلق السماوات والأرض وما فيهما وإحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، في البقرة والنحل والحج والجنات وغير ذلك، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة. قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في

أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

{إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ* مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ* وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ* وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ* وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ* لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ لِيَوْمٍ حَدِيدٌ* وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ* أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ* مَّنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ* لِيَذِيَ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَالْقِيَةُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ* قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ* قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُمُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ* مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْبَعِيدِ* يَوْمَ تَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ مُتَلَاتٍ وَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ* وَأَزَلَّتْ رَجْمَتُ اللَّهِ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَؤُودُونَ لِكُلِّ أَوَابٍ حَفِيظٍ* مِّنْ حَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ* فَحَلَّوْهَا بِسَلْمٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُلُودِ* لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}

قوله تعالى: {إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}. قوله إذ: منصوب بقوله: أقرب، أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان جميع ما يصدر منه، والمراد أن الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، في وقت كتابة الحفظة أعماله لا حاجة له لكتب الأعمال، لأنه عالم بها لا يخفى عليه منها شيء، وإنما أمر بكتابة الحفظة للأعمال لحكم أخرى كإقامة الحجة على العبد يوم القيامة، كما أوضحه بقوله: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا قُرْأَ كَتَبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ لِيَوْمٍ عَلَيْكَ حَسِيبًا}، ومفعول التلقي في الفعل الذي هو يتلقى، والوصف الذي هو المتلقيان محذوف تقديره، إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه.

قال الزمخشري: والتلقي التلقن بالحفظ والكتابة اهـ منه، والمعنى واضح لأن الملك يتلقى عمل الإنسان عند صدوره منه فيكتبه عليه، والمتلقيان هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان، وقد دلت الآية الكريمة على أن مقعد أحدهما عن يمينه ومقعد الآخر عن شماله.

والقعيد: قال بعضهم: معناه القاعد، والأظهر أن معناه المقاعد، وقد يكثر في العربية إطلاق الفعل وإرادة المفاعل، كالجلس بمعنى المجالس، والأكيل بمعنى الماكل، والنديم بمعنى المنادم،

وقال بعضهم: القعيد هنا هو الملازم، وكل ملازم دائماً أو غالباً يقال له قعيد، ومنه قول متمم بن نويرة التميمي:
قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكئي قرح الفؤاد فيجعا

والمعنى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهو أسلوب عربي معروف، وأنشد له سيبويه في كتابه قول عمرو بن أحمر الباهلي:
رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوى رمان

وقول قيس بن الخطيم الأنصاري:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

وقول ضبائي بن الحارث البرجمي:
فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

فقول ابن أحمر: كنت منه ووالدي بريئاً أي كنت بريئاً منه وكان والدي بريئاً منه.

وقول ابن الخطيم: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض: أي نحن راضون وأنت راض.

وقول ضبائي بن الحارث: فإني وقيار بها لغريب: يعني إني لغريب وقيار غريب، وهذا أسلوب عربي معروف، ودعوى أن قوله في الآية: {قَعِيدٌ} هي الأولى أخرت وحذفت الثانية لدلالاتها عليها لا دليل عليه، ولا حاجة إليه كما ترى، لأن المحذوف إذا صحت الدلالة عليه بالأخير فلا حاجة إلى أن هذا الأخير أصله هو الأول، ولا دليل عليه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ} أي ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام إلا لديه، أي إلا والحال أن عنده رقيباً. أي ملكاً مراقباً لأعماله حافظاً لها شاهداً عليها لا يفوته منها شيء. عتيد: أي حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما يقول من خير وشر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإنسان عليه حفظة من الملائكة يكتبون أعماله، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله. كقوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ} وقوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}. وقوله تعالى: {وَوَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلَّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا لِيَوْمٍ تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى {كَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ}.

وفي سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}، وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن القعيد الذي هو عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، وأن صاحب الحسنات أمين على صاحب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمهله ولا تكتبها عليه لعله يتوب أو يستغفر؟ وبعضهم يقول: يمهله سبع ساعات. والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

اعلم أن العلماء اختلفوا في عمل العبد الجائر الذي لا ثواب ولا عقاب عليه، هل تكتبه الحفظة عليه أولاً؟ فقال بعضهم: يكتب عليه كل شيء حتى الأئين في المرض، وهذا هو ظاهر قوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}. لأن قوله: من قول نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة من، فهي نص صريح في العموم. وقال بعض العلماء: لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب، وكلهم مجمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب فالذين يقولون: لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب، والذين يقولون يكتب الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون لا يكتب أصلاً، وبعضهم يقولون: يكتب أولاً ثم يمحي. وزعم بعضهم أن محو ذلك، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ}.

والذين قالوا: لا يكتب ما لا جزاء فيه. قالوا: إن في الآية نعتاً محذوفاً سَوَّغَ حذفه العلم به، لأن كل الناس يعلمون أن الجائر لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف، ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء، وقد قدمنا أن حذف النعت إذا دل عليه أسلوب عربي معروف، وقد منّا أن منه قوله تعالى: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} أي كل سفينة صحيحة لا عيب فيها بدليل قوله {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} وقوله تعالى: {تَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ يُقِيمَةَ}: أي قربة ظالمة بدليل قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي لِقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}، وأن من شواهد قول المرقش الأكبر: ورب أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وجيد

أي لها فرع فاحم وجيد طويل. وقول عبيد بن الأبرص: من قوله قول ومن فعله فعل ومن نائله نائل

أي قول فصل، وفعل جميل، ونائل جزل. قوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي عَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ لِيَوْمٍ حَدِيدٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: {بَلْ لَّارِكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ}. قوله تعالى: {يَوْمَ تَقُولُ لِحَبِئْتِمِ هَلْ مِتَلَّاتٍ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ}. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع وشعبة عن عاصم {يَوْمَ تَقُولُ} بالنون الدالة على العظمة. وقرأه نافع وشعبة {يَوْمَ يَقُولُ} بالياء، وعلى قراءتهما فالفاعل ضمير يعود إلى الله، واعلم أن الاستفهام في قوله {هَلْ مِن مَّزِيدٍ} فيه للعلماء قولان معروفان. الأول: أن الاستفهام إنكاري كقوله تعالى: {هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا لِقَوْمٍ أَلْظِلْمُونَ} أي ما يهلك إلا القوم الظالمون، وعلى هذا، فمعنى {هَلْ مِن مَّزِيدٍ} لا محل للزيادة لشدة امتلاء النار، واستدل بعضهم لهذا الوجه بآيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَلَكِنَّ حَقَّ لِقَوْلٍ مِنِّي} وقوله تعالى: {وَوَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِّنْ لَّحْنَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} قال: فالحق والحق أقول لأملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: {لَقَدْ حَقَّ لِقَوْلٍ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ}، لأن إقسامه تعالى في هذه الآية المدلول عليه بلام التوطئة في لأملان على أنه يملأ جهنم من الجنة والناس، دليل على أنها لا بد أن تمتلئ، ولذا قالوا: إن معنى هل من مزيد، لا مزيد، لأنني قد امتلأت فليس في محل للمزيد، وأما القول الآخر، فهو أن المراد بالاستفهام في قول النار: هل من مزيد؟ هو طلبها للزيادة، وأنها لا تزال كذلك حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط أي كفاني قد امتلأت، وهذا الأخير هو الأصح، ولما ثبت في الصحيحين، وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن جهنم لا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط»، لأن في هذا الحديث المتفق عليه التصريح بقولها قط قط، أي كفاني قد امتلأت، وأن قولها قبل ذلك هل من مزيد لطلب الزيادة، وهذا الحديث الصحيح من أحاديث الصفات، وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة الأعراف والقتال. واعلم أن قول النار في هذه الآية: هل من مزيد، قول حقيقي ينطقها الله به، فزعم بعض أهل العلم أنه كقول الحوض: امتلأ الحوض فقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وأن المراد بقولها ذلك هو ما يفهم من حالها خلاف التحقيق وقد أوضحنا ذلك بأدلته في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى:

{إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا}. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَأَزَلَّتْ لِحْنَةُ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ}. قوله: أزلفت أي قربت. وقوله غير بعيد: فيه معنى التوكيد لقوله: أزلفت سواء أعربت غير بعيد بأنها حال أو ظرف، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إزلاف الجنة للمتقين جاء في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى: {وَإِذَا لِحَجِيمٍ سُعِّرْتُوا وَإِذَا لِحْنَةُ أَرْلَقَتْ}، وقوله تعالى: {وَأَزَلَّتْ لِحْنَةُ لِّلْمُتَّقِينَ وَزَبْرَتِ لِحَجِيمٍ لِّلْعَاوِينَ}. قال البغوي رحمه الله في تفسير هذه الآية: غير بعيد ينظرون إليها قبل أن يدخلوها. قوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}. قوله: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا} قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}. قال بعض العلماء: المزيد النظر إلي وجه الله الكريم، ويستأنس لذلك بقوله تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ}، لأن الحسنى الجنة، والزيادة النظر، والعلم عند الله تعالى.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي بِلْدٍ هَلٍ مِّن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * وَطَبِيرٌ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِن لَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ * وَسَبِّحْهُ يَوْمَ يُتَادِرُ الْأُمْتَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمٌ لِّخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا لَمَصِيرٌ * يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدٍ}

قوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى {فَأَهْلَكْنَا أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأُولِينَ}. قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} وبيننا هناك أن الله أوضح ذلك في فصلت في قوله تعالى: {قُلْ أَتُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ إِلَى قَوْلِهِ - {فَقَصَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}. وأوضحنا ذلك في سورة فصلت واللغوب: التعب والإعياء من العمل. قوله تعالى: {وَطَبِيرٌ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله الكفار والتسبيح بحمده جل وعلا أطراف النهار، قد ذكره الله في غير هذا الموضوع كقوله تعالى في أخريات طه: {وَ طَبَّرَ عَلٰى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَآتَاءِ لَيْلٍ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}، وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر بالمأمور به، والصلاة داخله في التسبيح المذكور كما قدمنا إيضاح ذلك، وذكرنا فيه حديث نعيم بن همار في آخر الحجر في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنتَ بِنَاغٍ وَمَا كُنَّا نَسْمَعُ لَكَ شَيْئًا لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ آبَاءَنَا وَمَنْ آوَيْنَا وَإِنَّا لَنَاصِرُونَ}، وبيننا هنالك أن الله أمر بالاستعانة بالصبر وبالصلاة كما قال تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَآتَاءِ لَيْلٍ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}، وقوله تعالى: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمٌ لِّخُرُوجٍ}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}. قوله تعالى: {يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}. قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: تشقق بتشديد الشين بإدغام إحدى التاءين فيها، وقرأ الباقون بتخفيف الشين لحذف إحدى التاءين، وقوله تعالى: {سِرَاعًا}: جمع سريع، وهو حال من الضمير المجرور في قوله: {عَنْهُمْ} أي تشقق الأرض عنهم في حال كونهم مسرعين إلى الداعي وهو الملك الذي ينفخ في الصور، ويدعو الناس إلى الحساب والجزاء، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الناس يوم البعث يخرجون من قبورهم مسرعين إلى المحشر قاصدين نحو الداعي، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُحُوبٍ يُوَفَّضُونَ}، وقوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}. وقوله: {يَنسِلُونَ} أي يسرعون، وقوله تعالى: {يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ}، فقوله {مُّهْطِعِينَ}: أي مسرعين مادي أعناقهم على الأصح، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة يس، في الكلام على قوله: {فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}.

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}. قوله تعالى: {فَدَكَّرْ بِلُقْمَانَ مَن يَخَافُ وَعَيْدٍ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة فاطر في الكلام على

قوله تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}.

تم بحمد الله تفسير سورة ق



{وَالذَّرِيَّتِ دَرُورًا * وَالْحَمِلَتِ وَقْرًا * وَالْجَرِيَّتِ بُسْرًا *
وَالْمُقَسَّمَتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَدِيقٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعُ *
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَن
أَفَكَ * قُتِلَ لِحَرُصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَهْوُونَ * يَسْأَلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * دُوقُوا فَنَسْتَكُم هَذَا
لِذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ
مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ
مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ
وَ لِمَحْرُومٍ }

قوله تعالى: {وَالذَّرِيَّتِ دَرُورًا وَالْحَمِلَتِ وَقْرًا وَالْجَرِيَّتِ بُسْرًا} أكثر أهل العلم، على أن المراد بالذاريات الرياح. وهو الحق إن شاء الله، ويدل عليه أن الذرو صفة مشهورة من صفات الرياح. ومنه قوله تعالى {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ}، ومعنى تذروه: ترفعه وتفرقه، فهي تذرو التراب والمطر وغيرهما، ومنه قول ذي الرمة: ومنهل آجن قفر محاضره تذرو الرياح على جماته البعرا

ولا يخفى سقوط قول من قال: إن الذاريات النساء. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَالْحَمِلَتِ وَقْرًا} أكثر أهل العلم على أن المراد بالحاملات وقرأ: السحاب. أي المزن تحمل وقرأ ثقلاً من الماء.

ويدل لهذا القول تصريح الله جل وعلا بوصف السحاب بالثقال، وهو جمع ثقيلة، وذلك لثقل السحابة بوقر الماء الذي تحمله كقوله تعالى: {وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ}، وهو جمع سحابة ثقيلة، وقوله تعالى {حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَتْهُ لِبَدٍ مَّيِّتٍ}.

وقال بعضهم: المراد بالحاملات وقرأ: السفن تحمل الأثقال من الناس وأمتعتهم، ولو قال قائل: إن الحاملات وقرأ الرياح أيضاً كان وجهه ظاهراً.

ودلالة بعض الآيات عليه واضحة، لأن الله تعالى صرح بأن الرياح تحمل السحاب الثقال بالماء، وإذا كانت الرياح هي التي تحمل

السحاب إلى حيث شاء الله، فنسبة حمل ذلك الوقر إليها أظهر من نسبته إلى السحاب التي هي محمولة للرياح، وذلك في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِيَلْدَ مَيْتًا }.

فقوله تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا } : أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً، فالإقلال الحمل، وهو مسند إلى الريح. ودلالة هذا على أن الحاملات وقرأ هي الرياح ظاهرة كما ترى، ويصح شمول الآية لجميع ذلك.

وقد قدمنا مراراً أنه هو الأجود في مثل ذلك، وبيننا كلام أهل الأصول فيه، وكلامهم في حمل المشترك على معنیه أو معانيه، في أول سورة النور وغيرها.

والقول بأن الحاملات وقرأ: هي حوامل الأجنة من الإناث، ظاهر السقوط، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا } أكثر أهل العلم على أن المراد بالجاريات يسراً: السفن تجري في البحر يسراً أي جرياً ذا يسر أي سهولة.

والأظهر أن هذا المصدر المنكر حال كما قدمنا نحوه مراراً: أي فالجاريات في حال كونها ميسرة مسخراً لها البحر، ويدل لهذا القول كثرة إطلاق الوصف بالجري على السفن كقوله تعالى:

{ وَمِنْ آيَاتِهِ لِيَجْوَازَ فِي الْبَحْرِ }، وقوله: { إِنَّا لَمَّا طَعْنَا لَمَاءَ جَمَلِنَا فِي لَيْلٍ نَجْزِي السَّيْرَ }، وقوله تعالى: { وَاللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِي لَكُمْ فِيهِ بِأَمْرِهِ } إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل الجاريات الرياح. وقيل غير ذلك.

وقوله تعالى: { فَلَمَّقَسَمْتَ أُمْرًا } : هي الملائكة يرسلها الله في شؤون وأمور مختلفة، ولذا عبر عنها بالمقسمات، ويدل لهذا قوله تعالى: { فَلَمَّدَبَّرْتَ أُمْرًا }، فمنهم من يرسل لتسخير المطر

والرياح، ومنهم من يرسل لكتابة الأعمال، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم، كما وقع لقوم صالح. والتحقيق أن قوله: أمراً مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع.

وقد أوضحنا أمثلة ذلك في القرآن العظيم، وفي كلام العرب مع تنكير المفرد كما هنا، وتعريفه وإضافته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً }، والمقسم عليه بهذه الأقسام هو قوله: { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقُونَ } الَّذِينَ لَوَاقِعُ، والموجب لهذا التوكيد هو شدة إنكار الكفار للبعث والجزاء.

وقوله: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ} ما، فيه موصولة والعائد إلى الصلة محذوف، والوصف بمعنى المصدر أي إن الذي توعدونه من الجزاء والحساب لصدق لا كذب فيه.

وقال بعض العلماء: ما، مصدرية، أي إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق.

وقال بعضهم: إن صيغة اسم الفاعل في لصادق بمعنى اسم المفعول. أي إن الوعد أو الموعود به لمصدق فيه لا مكذوب به، ونظير ذلك قوله تعالى: {فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ} أي مرضية. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من صدق ما يوعدونه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ لِمِعَادٍ}. وقوله: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ}. وقوله تعالى: {لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَازِبَةٌ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والمراد بالدين هنا الجزاء، أي وإن الجزاء يوم القيامة لواقع لا محالة كما قال تعالى {يَوْمَئِذٍ يُؤْقِرُ لِكُلِّ سَاقٍ عَلَىٰ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنْ حَسَنَةٍ} جزاءهم بالعدل والإنصاف، وكقوله تعالى: {وَأَن سَعَيْتُمْ سَوَافٍ يَّرْسُمََّ يُجْرَاهُ لِحَزَاءٍ الْأَوْقَىٰ}.

وقد نزه الله نفسه عن كونه خلق الخلق لا لبعث وجزاء، وبين أن ذلك ظن الكفار، وهددهم على ذلك الظن السيئ بالويل من النار، قال تعالى منكرًا على من ظن عدم البعث والجزاء، ومنزهاً نفسه عن أنه خلقهم عبثاً لا لبعث وجزاء: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}.

وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}، في قوله في آية ذات لِحُبِّكُم لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفِيؤُوكَ عَنْهُ مِنْ أَفِكَ}. قوله تعالى: {ذَاتِ لِحُبِّك} فيه للعلماء أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً، فذهب بعض أهل العلم، إلى أن الحبك جمع حبيكة أو حباك، وعليه فالمعنى ذات الحبك أي ذات الطرائق، فما يبدو على سطح الماء الساكن أو الرمل من الطرائق إذا ضربته الريح هو الحبك، وهو جمع حبيكة أو حباك، قالوا: ولبعد السماء لا ترى طرائقها المعبر عنها بالحبك، ومن هذا المعنى قول زهير:

مكلك بأصول النجم تنسجه ريح خريق بضاحي مائة حبك

وقول الراجز: كأنما جللها الحواك طنفسه في وشيها حباك

وممن نقل عنه هذا القول الكلبي والضحاك.

وقال بعض أهل العلم: ذات الحبك أي ذات الخلق الحسن المحكم، وممن قال به ابن عباس وعكرمة وقيادة. وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى: { لِيَذِي خَلْقٍ سَنَعٍ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَؤُتٍ وَرَاجِعٍ لِّبَصَرٍ هَلُ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ } إلى غير ذلك من الآيات. وعلى هذا القول فالحبك مصدر، لأن كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه، تقول فيه العرب: حبكه حبكاً بالفتح على القياس. والحبك بضمين بمعناه.

وقال بعض العلماء: ذات الحبك: أي الزينة. وممن روي عنه هذا سعيد بن جبير والحسن، وعلى هذا القول، فالآية كقوله: { وَلَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي بَدَأْنَا بِمَصْبِيحٍ }، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في { وفي الكلام على قوله: { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا } }. وقال بعض العلماء: ذات الحبك أي ذات الشدة، وهذا القول يدل له قوله تعالى: { وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا } . والعرب تسمى شدة الخلق حبكاً، ومنه قيل للفرس الشديد الخلق: محبوبك. ومنه قول امرئ القيس. قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوبك ممر

والآية تشمل الجميع، فكل الأقوال حق والمقسم عليه في هذه الآية هو قوله تعالى { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ } أي إنكم أيها الكفار لفي قول مختلف في شأن النبي صلى الله عليه وسلم وشأن القرآن، لأن بعضهم يقول: هو شعر، وبعضهم يقول: سحر، وبعضهم يقول: كهانة، وبعضهم يقول: أساطير الأولين، وقول من قال في قول مختلف أي لأن بعضهم مصدق، وبعضهم مكذب خلاف التحقيق.

ويدل على أن الاختلاف إنما هو بين المكذبين دون المصدقين. قوله تعالى في { بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ } أي مختلط. وقال بعضهم: مختلف، والمعنى واحد. وقوله تعالى: { يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكَ } أظهر الأقوال فيه عندي ولا ينبغي العدول عنه في نظري، أن لفظة عن في الآية سببية كقوله تعالى: { وَمَا تَحْنُ بِتَارِكِ آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ } أي بسبب قولك، ومن أجله، والضمير المجرور بعن راجع إلى القول المختلف، والمعنى يؤفك أي يصرف عن الإيمان بالله ورسوله عنه، أي عن ذلك القول المختلف أي بسببه من أفك أي من سبقت له الشقاوة في الأزل،

فحرم الهدى وأفك عنه، لأن هذا القول المختلف يكذب يعضه بعضاً ويناقضه.

ومن أوضح الأدلة على كذب القول وبطلانه اختلافه وتناقضه كما لا يخفى، فهذا القول المختلف الذي يحاول كفار مكة أن يصدوا به الناس عن الإسلام، الذي يقول فيه بعضهم: إن الرسول ساحر، وبعضهم يقول شاعر، وبعضهم يقول: كذاب. ظاهر البطلان لتناقضه وتكذيب بعضه لبعض، فلا يصرف عن الإسلام بسببه إلا من صرف، أي صرفه الله عن الحق لشقاوته في الأزل فمن لم يكتب عليه في سابق علم الله الشقاوة والكفر لا يصرفه عن الحق قول ظاهر الكذب والبطلان لتناقضه.

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {قَاتِكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفِتْنَيْنِ إِنَّ مَنْ هُوَ صَالٍ لِحَجِيمٍ}. ومعنى هذه الآية أن دين الكفار، الذي هو الشرك بالله وعبادة الأوثان، مع حرصهم على صد الناس عن دين الإسلام إليه ما هم بفاتنين، أي ليسوا بمضلين عليه أحداً لظهور فساده وبطلانه إلا من هو صال الحجيم، أي إلا من قدر الله عليه الشقاوة وأنه من أهل النار في سابق علمه، هذا هو الظاهر لنا في معنى هذه الآية الكريمة.

وأكثر المفسرين على أن الضمير في قوله: {يُؤْفَكُ عَنْهُ} راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن، أي يصرف عن الإيمان بالنبي أو القرآن، من أفك أي صرف عن الحق، وحرّم الهدى لشدة ظهور الحق في صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن منزل من الله، وهذا خلاف ظاهر السياق كما ترى. وقول من قال: يؤفك عنه. أي يصرف عن القول المختلف الباطل من أفك، أي من صرف عن الباطل إلى الحق لا يخفى بعده وسقوطه.

والذين قالوا: هذا القول يزعمون أن الإفك يطلق على الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الباطل إلى الحق، ويبعد هذا أن القرآن لم يرد فيه الإفك مراد به إلا الصرف عن الخير إلى الشر دون عكسه. قوله تعالى: {إِنَّ لِمُتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ}. لا يخفى على من عنده علم بأصول الفقه أن هذه الآية الكريمة فيها الدلالة المعروفة عند أهل الأصول بدلالة الإيماء والتنبية على أن سبب نيل هذه الجنات والعيون هو تقوى الله والسبب الشرعي هو العلة الشرعية على الأصح، وكون التقوى سبب دخول الجنات الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} وقد قدمنا

الآيات الموضحة لذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ}.

{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَقْلًا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * قَوْرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَرَأَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحَفْ وَبَشِّرْهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ مَرَاتُهُ فِي صُرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانِهِ وَقَالَ سَجِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْتُهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي لَيْمٍ وَهُوَ مَلِيمٌ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَدْرِي مَن سُبِّئَ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ * وَفِي تَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنَ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا سَلِطْنَا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيفِينَ * وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَهْدِيُّونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُوحِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفُؤًا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ * وَذَكَرَ فَإِنِ الدَّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }

قوله تعالى: { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَقْلًا تُبْصِرُونَ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الجاثية. قوله تعالى: { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ } . اختلف العلماء في المراد بكون رزق الناس في السماء، فذهبت جماعة من أهل العلم، أن المراد أن جميع أرزاقهم منشؤها من المطر وهو نازل من السماء، ويكثر في القرآن إطلاق اسم الرزق على المطر، لهذا المعنى كقوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا } .

وقوله تعالى: { وَوَحْيًا لَّيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِّن رِّزْقٍ } .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة المؤمن .
 وإنزاله تعالى الرزق من السماء بإنزال المطر من أعظم آياته
 الدالة على عظمته وأنه المعبود وحده، ومن أعظم نعمه على
 خلقه في الدنيا، ولذلك كثر الامتنان به في القرآن على الخلق.
 وقال بعض أهل العلم: معنى قوله: { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ } أن
 أرزاقكم مقدره مكتوبة، والله جلُّ وعلا يدير أمر الأرض من
 السماء، كما قال تعالى: { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ
 يَعْرُجُ إِلَيْهِ }؛ قوله تعالى: { وَمَا تُوعَدُونَ }، ما، في محل رفع عطف
 على قوله: { رِزْقُكُمْ }، والمراد بما يوعدون، قال بعض أهل العلم:
 الجنة، لأن الجنة فوق السماوات، فأطلاق كونها في السماء إطلاق
 عربي صحيح، لأن العرب تطلق السماء على كل ما علاك كما قيل:
 وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

ولما حكى النابغة الجعدي شعره المشهور، قال فيه: بلغنا السماء
 مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له صلى الله عليه وسلم «إلى أين يا أبي ليلي: قال: إلى
 الجنة، قال: نعم إن شاء الله». .
 وقال بعض أهل العلم: وما توعدون من الخير والشر كله مقدر في
 السماء، كما بيناه في القول الثاني في المراد بالرزق في الآية،
 وهذا المعنى فيما يوعدون به أنسب لهذا القول الثاني في معنى
 الرزق.

وقد وردت قصص تدل على أنه هو الذي يتبادر إلى ذهن السامع،
 فمن ذلك ما ذكره غير واحد عن سفيان الثوري أنه قال: قرأ واصل
 الأحدب هذه الآية { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ } فقال: ألا
 أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فدخل خربة يمكث
 ثلاثاً لا يصيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة
 من رطب، وكان له أخ أحسن منه نية، فدخل معه فصارتا
 دوختين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت.
 ومن ذلك أيضاً: ما ذكره الزمخشري في تفسير هذه الآية قال:
 وعن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على
 قعود له، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين
 قبلت؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. فقال: اتل علي
 فتلوت: والذاريات فلما بلغت قوله تعالى: { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ }
 قال: حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر،
 وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد
 طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت، فإذا أنا

بالأعرابي قد نحل أصغر فسلم علي واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت {قَوْرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مَثَلٍ مَّا أَتَّكُمْ تَنْطِقُونَ} فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى الجؤوه إلى اليمين، قائلاً ثلاثاً، وخرجت معها نفسه. انتهى. قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ لِمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا}. إلى آخر القصة. قد قدمنا إيضاحه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى {وَتَبَّتْهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}.

وفي سورة هود في القصة المذكورة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ لِعَذَابِ الْآلِيمِ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: {وَأَنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مُّقِيمٌ}، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ لِعَقِيمٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرْصَرًا}: قوله تعالى: {فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ وَاسْتَحَبُّوا لِعَمَى عَلَى لَهْدَى فَاخَذْتَهُمُ صَاعِقَةٌ لِعَذَابِ لَهُونَ}. قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة و في الكلام على قوله تعالى: {أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا}.

تنبيه

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة {بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ}، ليس من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم، لأن قوله {بِأَيْدٍ} ليس جمع يد: وإنما الأيد القوة، فوزن قوله هنا بأيدي فعل، ووزن الأيدي أفعال، فالهمزة في قوله: {بِأَيْدٍ} في مكان الفاء والياء في مكان العين، والبدال في مكان اللام. ولو كان قوله تعالى: {بِأَيْدٍ} جمع يد لكان وزنه أفعالاً، فتكون الهمزة زائدة والياء في مكان الفاء، والبدال في مكان العين والياء المحذوفة لكونه منقوصاً هي اللام.

والأيد، والآد في لغة العرب بمعنى القوة، ورجل أيد قوي، ومنه قوله تعالى {وَأَيَّدْتُهُ بِرُوحِ لُقْدُسٍ} أي قويناه به، فمن ظن أنها جمع يد في هذه الآية فقد غلط فاحشاً، والمعنى: والسماء بنيناها بقوة. قوله تعالى: {كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما أتى نبي قوماً إلا قالوا ساحر أو مجنون، ثم قال: {أَتَوَاصَوْا بِهِ}، ثم أضرب عن توأصيههم بذلك

إضراب إبطال، لأنهم لم يجمعوا في زمن حتى يتواصوا فقال: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ} أي الموجب الذي جمعهم على اتفاقهم جميعاً على تكذيب الرسل ونسبتهم للسحر والجنون، واتحاد في الطغيان الذي هو مجاوزة الحد في الكفر. وهذا يدل على أنهم إنما اتفقوا لأن قلوب بعضهم تشبه قلوب بعض في الكفر والطغيان، فتشابهت مقالاتهم للرسل لأجل تشابه قلوبهم.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة البقرة: {كَذٰلِكَ قَالَ لِذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشٰبَهْتُمْ قُلُوْبُهُمْ}. قوله تعالى: {فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ فَمَا اَنْتَ بِمَلُومٌ}. نفيه جل وعلا في هذه الآية الكريمة للوم عن نبيه صلى الله عليه وسلم، يدل على أنه أدى الأمانة ونصح للأمة. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى { لِيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنََكُمْ وَاَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْاِسْلَامَ دِيْنًا }.

وقوله تعالى: {فَاِيْمًا عَلَيكَ لَبَّغُ وَعَلَيْنَا لِحِسَابٌ}، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة معلومة. قوله تعالى: {وَدَكَرْ قَانَ الَّذِيْ تَنَفَعُ الْمُؤْمِنِيْنَ}. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يجعل الله شيئاً لحكم متعددة، فيذكر بعض حكمه في بعض المواضع، فإننا نذكر بقية حكمه، والآيات الدالة عليها، وقد قدمنا أمثلة ذلك.

ومن ذلك القبيل هذه الآية الكريمة، فإنها تضمنت واحدة من حكم التذكير وهي رجاء انتفاع المذكر به، لأن تعالى قال هنا: {وَدَكَرْ}، ورتب عليه قوله: {قَانَ الَّذِيْ تَنَفَعُ الْمُؤْمِنِيْنَ}. ومن حكم ذلك أيضاً خروج المذكر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جمع الله هاتين الحكمتين في قوله {قَالُوْا مَعْذِرَةٌ اِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ}.

ومن حكم ذلك أيضاً النيابة عن الرسل في إقامة حجة الله على خلقه في أرضه لأن الله تعالى يقول {رُّسُلًا مُّبَشِّرِيْنَ وَمُنذِرِيْنَ لِيَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلٰى اِلٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}.

وقد بين هذه الحجة في آخر طه في قوله {وَلَوْ اَنَّا اَهْلَكْنَاهُمْ بِعَدَابِ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوْا رَبَّنَا لَوْلَا اَرْسَلْتَ اِلَيْنَا رَسُوْلًا فَنَتَّبِعَ اٰيٰتِكَ}. وأشار لها في القصص في قوله {وَلَوْلَا اَنْ تُصِيْبَهُمْ مُّصِيْبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ اَيْدِيَهُمْ فَيَقُوْلُوْا رَبَّنَا لَوْلَا اَرْسَلْتَ اِلَيْنَا رَسُوْلًا فَنَتَّبِعَ اٰيٰتِكَ وَنَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ}.

وقد قدمنا هذه الحكم في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى {عَلَيْكُمْ اَنْفُسِكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مِّنْ صَلِّ اِذَا هُنَّ ذِيْمَةٌ}. قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ لِحِيْنَ وَاِلَآنِسَ اِلَّا لِيَعْبُدُوْنَ}. اختلف العلماء

في معنى قوله {لِيَعْبُدُونِ}، فقال بعضهم المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم وبعضيني الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم كما يدل عليه قوله تعالى: {قَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لِّيَسُؤَ بِهَا كَافِرِينَ}، وهذا القول نقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان.

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق فيها المجموع وأراد بعضهم.

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، ومن أوضحها قراءة حمزة والكسائي: فإن قتلوكم فاقتلوهم، من القتل لا من القتال، وقد بينا هذا في مواضع متعددة، وذكرنا أن من شواهد العربية قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا من يدِّي ورقاء عن رأس خالد

فتراه نسب الضرب لبني عبس مع تصريحه أن الضارب الذي نبا بيده السيف عن رأس خالد يعني ابن جعفر الكلابي، هو ورقاء يعني ابن زهير العبسي.

وقد قدمنا في الحجرات أن من ذلك قوله تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لِمَ تُؤْمِنُونَ} بدليل قوله: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} - إلى قوله - {سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنِ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

وقال بعض العلماء: معنى قوله: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: أي «إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً أو كرهاً»، لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره، ويدل له قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، والسجود والعبادة كلاهما خضوع وتذلل لله جل وعلا، وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعاً وبعضهم يفعل كرهاً.

وعن مجاهد أنه قال: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: أي إلا ليعرفوني. وإستدل بعضهم لهذا القول بقوله: {وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ} ونحو ذلك من الآيات. وهو كثير في القرآن، وقد أوضحنا كثرته فيه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى {إِنَّ هَذَا لَقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

وقال بعض أهل العلم: وهو مروى عن مجاهد أيضاً معنى قوله: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: أي إلا لأمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره، وعلى هذا القول: إرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: {لِيَعْبُدُونِ} إرادة دينية شرعية وهي

الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله لا إرادة كونية قدرية، لأنها لو كانت كذلك لعبدوه جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } إلى آخر السورة.

قال مفيدة عفا الله عنه وغفر له: التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة { إِلَّا لِيَعْبُدُونَ }، أي إلا لأمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتيهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال تعالى في أول سورة هود: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ }، ثم بين الحكمة في ذلك فقال: { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتِ إِيَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ لَمَوْتٍ لَيَقُولُنَّ لَئِن كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ }.

وقال تعالى في أول سورة الملك: { لَئِذَا خَلَقَ لَمَوْتٍ وَ لِحَيَوَةٍ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }.

وقال تعالى في أول سورة الكهف: { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }.

فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله { لِيَعْبُدُونَ }، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصود منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولاً وبعثهم ثانياً، هو جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وذلك في قوله تعالى في أول يونس: { إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ }، وقوله في النجم: { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى }.

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانته وظننه أنه يترك سدى، أي مهملاً، لم يؤمر ولم ينه، وبين أنه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا ليعبته بعد الموت أي ويجازيه على عمله، قال تعالى: { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْقَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمْتِي } - إلى قوله - { أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ لَمَوْتِي }.

والبراهين على البعث دالة على الجزاء، وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذي ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكرًا ذلك عليهم في قوله: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ تَعَالَى اللَّهُ لِمَلِكٌ لِحَقٍّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى: {مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}.

تنبيه
اعلم أن الآيات الدالة على حكمة خلق الله للسموات والأرض وأهلها وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافًا، والواقع خلاف ذلك. لأن كلام الله لا يخالف بعضه بعضًا، وإيضاح ذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر في بعض الآيات أن حكمة خلقه للسموات والأرض هي إعلام خلقه بأنه قادر على كل شيء، وأنه محيط بكل شيء علمًا، وذلك في قوله تعالى في آخر الطلاق: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}. وذكر في مواضع كثيرة من كتابه أنه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود وحده، كقوله تعالى: {وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَجِدْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} - إلى قوله - {لَا يَتَّخِذُ لِقَوْمٍ عَشِيرَاتٍ لِّمَثَلٍ}، ولما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَارْتَبَعَكُمْ لَهُ سَمَاوَاتٌ وَمِنَ الْأَرْضِ وَإِلَىٰ عِندِهِ تُجْتَبَأُونَ} بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده: {لِذِي خَلَقَكُمْ وَارْتَبَعَكُمْ لَهُ سَمَاوَاتٌ وَمِنَ الْأَرْضِ وَإِلَىٰ عِندِهِ تُجْتَبَأُونَ}.

والاستدلال على أن المعبود واحد بكونه هو الخالق كثير جدًا في القرآن، وقد أوضحنا الآيات الدالة عليه في أول سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَوَخَّلِقْ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ نِسَابَهُمْ لِيَكْتُمُ اللَّعِينُ كَلِمَاتِهِمْ وَهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ} وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى {أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ لَكُمْ خَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، وفي غير ذلك من المواضع.

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السموات والأرض ليبتل الناس، وذلك في قوله: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ}، وذكر في آية الذاريات هذه أنه ما خلق الجن

والإنس إلا ليعبدوه، فقد بظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً مع أنها لا اختلاف بينها، لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيدته، فقولهُ: {لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله: {عَبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} راجع إلى شيء واحد هو العلم بالله، لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حيي عن بينة، فالتكليف بعد العلم، والجزاء بعد التكليف، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لا بد له من تكليف، وهو الابتلاء المذكور في الآيات والتكليف لا بد له من علم، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق، ودل بعضها على أنها الابتلاء، ودل بعضها على أنها الجزاء، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه، وبعضه مرتب على بعض. وقد بينا معنى {إِلَّا لِيَعْبُدُونَ} في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} وبيننا هناك أن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} أي ولأجل الاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم، وفي قوله: {وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحِثِّهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ} إرادة كونية قدرية، وأن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: {إِلَّا لِيَعْبُدُونَ}، إرادة دينية شرعية.

وبينا هناك أيضاً الأحاديث الدالة على أن الله خلق الخلق منقسماً إلى شقي وسعيد، وأنه كتب ذلك وقدره قبل أن يخلقهم. وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ} وقال: {قَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَقَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}.

والحاصل: أن الله دعا جميع الناس على السنة رسله إلى الإيمان به وعبادته وحده وأمرهم بذلك، وأمره بذلك مستلزم للإرادة الدينية الشرعية، ثم إن الله جل وعلا يهدي من يشاء منهم وبضل من يشاء بإرادته الكونية القدرية، فيصرون إلى ما سبق به العلم من شقاوة وسعادة، وبهذا تعلم وجه الجمع بين قوله: {وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحِثِّهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ}. وقوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}، وبين قوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ}، وإنما ذكرنا أن الإرادة قد تكون دينية شرعية، وهي ملازمة للأمر والرضا، وقد تكون كونية قدرية وليست ملازمة لهما، لأن الله يأمر الجميع بالأفعال المرادة منهم ديناً، ويريد ذلك كوناً وقدرًا من بعضهم دون بعض، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}، فقولهُ: إلا ليطاع: أي فيما جاء به من عندنا، لأنه مطلوب مراد من المكلفين شرعاً ودينياً، وقوله: بإذن الله: يدل على أنه لا

يقع من ذلك إلا ما أَرَادَهُ اللهُ كَوْنًا وَقَدْرًا، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ:
{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ}، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا
خَلَقَ لَهُ». وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

{مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ
ذُو الْقُوَّةِ اللَّامِتِينَ * قَائِلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا
يَسْتَعْجِلُونَ * قَوْلِي لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ لِيَذِي يُوعَدُونَ}

قوله تعالى: {مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ}. قد
قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله
تعالى: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ}. قوله تعالى: {قَائِلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ}. أصل الذنوب في لغة
العرب الدلو، وعادة العرب أنهم يقتسمون ماء الآبار والقلب
بالدلو، فيأخذ هذا منه ملء دلو، ويأخذ الآخر كذلك، ومن هنا أطلقوا
اسم الذنوب، التي هي الدلو على النصيب. قال الراجز في
اقتسامهم الماء بالدلو:
لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

ويروى: إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب
* فإن أبي كان لنا القليب *

ومن إطلاق الذنوب على مطلق النصيب قول علقمة بن عبدة
التميمي.

وقيل عبدة:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب

وقول أبي ذؤيب:

لعمرك والمنايا طارقات لكل بني أب منها ذنوب
فالذنوب في البيتين النصيب، ومعنى الآية الكريمة، فإن للذين
ظلموا بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ذنوبًا، أي نصيبًا من
عذاب الله مثل ذنوب أصحابهم من الأمم الماضية من العذاب لما
كذبوا رسلهم.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات
كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا
أَعْتَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ}.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ} قد قدمنا
الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى:
{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ لِحْسَنِهَا وَقَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ}

لَمَثَلَتْ}. وفي سورة مريم في الكلام على قوله: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا} وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ لِيَذَى يُوعَدُونَ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بالويل من يوم القيامة لما ينالهم فيه من عذاب النار، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في {قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}. وقوله في إبراهيم {وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}. وقوله في المرسلات: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وقد قدمنا أن كلمة {وَوَيْلٌ}، قال فيها بعض أهل العلم: إنها مصدر لا فعل له من لفظه، ومعناه الهلاك الشديد، وقيل: هو واد في جهنم تستعيز من حره، والذي سوغ الابتداء بهذه النكرة أن فيها معنى الدعاء.

تم بحمد الله تفسير سورة الذاريات

تفسير سورة الطور

{وَالطُّورِ * وَكُتِبَ مُسْطُورًا * فِي رَقٍّ مَنشُورًا * وَابْنَتْ لِمَعْمُورٍ * وَالسَّقْفَ لِمَرْفُوعٍ * وَالْبَحْرَ لِمَسْجُورٍ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * لَئِنْ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى تَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * طَلَوْهَا وَهَنِيئًا أَوْ لَا تَصِيرُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ * مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنْ لِمُتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَتَعِيمٍ * فَكَيْهِنَ يَمَّا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهْمَ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كَلُوا وَشَرَبُوا هَنِيئًا * مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ * وَرَوَّجْتَهُمْ بَحُورٍ عَيْنٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَابْتَغَاهُمْ دَرَجَاتٍ بِيَمِينٍ الْحَقْنَا بِهِمْ دَرَجاتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ فَرِيءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمَدَدْتُهُمْ بِنُكْحَةِ وَالْحَمِّ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ * وَبَطُوفٌ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُو مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}

قوله تعالى: {وَالطُّورِ وَكُتِبَ مُسْطُورًا فِي رَقٍّ مَنشُورًا ابْنَتْ لِمَعْمُورٍ وَالسَّقْفَ لِمَرْفُوعٍ وَالْبَحْرَ لِمَسْجُورٍ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} هذه الأقسام التي أقسم الله بها تعالى في أول هذه السورة الكريمة أقسم ببعضها بخصوصه، وأقسم بجميعها في آية عامة لها ولغيرها.

أما الذي أقسم منها إقساماً خاصاً فهو الطور، والكتاب المسطور، والسقف المرفوع، والأظهر أن الطور الجبل الذي كلم الله عليه

موسى، وقد أقسم الله تعالى بالطور في قوله: {وَأَلْتَيْنِ
وَأَلْزَيْنُونِ طُورَ سِينِينَ}.

والأظهر أن الكتاب المسطور هو القرآن العظيم، وقد أكثر الله من
الإقسام به في كتابه كقوله تعالى: {حَوْ لِكِتَابِ لُمِينِ}. وقوله
تعالى {يَوْمَ لُقْرَاءِ إِنْ لِحَكِيمِ} وقيل هو كتاب الأعمال، وقيل غير
ذلك، {وَأَلْسَفِ لَمَرْفُوعِ}: هو السماء، وقد أقسم بالله بها في
كتابه في آيات متعددة كقوله: {وَأَلْسَمَاءِ ذَاتِ لِحُبُكِ} وقوله:
{وَأَلْسَمَاءِ ذَاتِ لِبُرُوجِ} وقوله تعالى {وَأَلْسَمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}، والرق
بفتح الراء كل ما يكتب فيه من صحيفة وغيرها، وقيل هو الجلد
المرقق يكتب فيه. وقوله: {مَنْشُورِ} أي مبسوط، ومنه قوله:
{كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا}. وقوله: {بَلْ يَرِيدُ كُلُّ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى
صُحُفًا مُّنشَرَةً}. {وَأَلْبَيْتِ لِمَعْمُورِ}:

«هو البيت المعروف في السماء المسمى بالضرخ بضم الصاد،
وقيل فيه معمور، لكثرة ما يغشاه من الملائكة المتعبدين، فقد جاء
الحديث أنه يزوره كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه
بعدها».

وقوله: {وَأَلْبَحْرِ لِمَسْجُورِ} فيه وجهان من التفسير للعلماء.
أحدهما أن المسجور هو الموقد ناراً، قالوا: وسيضطرم البحر يوم
القيامة ناراً، من هذا المعنى قوله تعالى: {ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ}.

الوجه الثاني: هو أن المسجور بمعنى المملوء، لأنه مملوء ماء،
ومن إطلاق المسجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة في معلقته:
فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاوزاً قلامها

فقوله: مسجورة أي عيناً مملوءة ماء، وقول النمر بن تولى
العكلي:

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والساسما

وهذان الوجهان المذكوران في معنى المسجور هما أيضاً في قوله
{وَأَلْبَحْرِ لِمَسْجُورِ}، وأما الآية العامة التي أقسم فيها تعالى بما
يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها، فهي قوله تعالى: {فَلَا أَقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}، لأن الإقسام في هذه الآية عام في
كل شيء.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ}، قد
قدمنا الآيات الموضحة له في أول الذاريات، وفي غير ذلك من
المواضع. قوله تعالى: {يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ
لِيَتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ}. الدع في لغة العرب: الدفع بقوة وعنف،

قوله تعالى: {كُلُّ مُرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}. ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الناس، وقد بين تعالى في آيات أخر أن أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم، وذلك في قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا الْأَصْحَابَ لِيَمِينٍ فِي جَنَّتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ}.

ومن المعلوم أن التخصيص بيان، كما تقرر في الأصول. قوله تعالى: {وَأَمَدَدْتُهُمْ بِفَاكِهِةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. لم يذكر هنا شيء من صفات هذه الفاكهة ولا هذا اللحم إلا أنه مما يشتهون.

وقد بين صفات هذه الفاكهة في مواضع أخر كقوله تعالى: {وَفَاكِهِةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} وبين أنها أنواع في مواضع أخر كقوله: {وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} وقوله تعالى {كُلُّهَا رُزْقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}. وقوله تعالى {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ قَوَّكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير، والفاكهة بأنها مما يتخبرونه على غيره، وذلك في قوله {وَفَاكِهِةٍ مِّمَّا يَتَخَبَّرُونَ} وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. قوله تعالى: {يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ} قرأه ابن كثير وأبو عمرو: {لَا لَعْوُ} بالبناء على الفتح، {وَلَا تَأْتِيمٌ} كذلك لأنها، لا، التي لنفي الجنس فبنيت معها، وهي إن كانت كذلك نص في العموم، وقرأه الباقر من السبعة {لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ} بالرفع والتنوين. لأن لا النافية للجنس إذا تكررت كما هنا جاز إعمالها وإهمالها، والقراءتان في الآية فيهما المثال للوجهين: وإعمالها كثير، ومن شواهد إهمالها قراءة الجمهور في هذه الآية، وقول الشاعر: وما هجرتك حتى قلت معلنة لا ناقة لي في هذا ولا جمل

وقوله: {يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا}: أي يتعاطون، ويتناول بعضهم من بعض كأساً أي خمراً، فالتنازع يطلق لغة على كل تعاط وتناول، فكل قوم يعطي بعضهم بعضاً شيئاً ويناوله إياه، فهم يتنازعونه كتنازع كؤوس الشراب والكلام، وهذا المعنى معروف في كلام العرب.

ومنه في الشراب قول الأخطل:

وشارب مريح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار
نازعت طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السار

فقوله: نازعت طيب الراح: أي ناولته كؤوس الخمر وناولنيها، ومنه في الكلام قول امرئ القيس:

ولما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

والكأس تطلق على إناء الخمر، ولا تكاد العرب تطلق الكأس إلا على الإناء المملوء، وهي مؤنثة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {لَا لَعُوفُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ} يعني أن خمر الجنة التي يتعاطاها المؤمنون، فيها مخالفة في جميع الصفات لخمير الدنيا، فخمير الآخرة لا لغو فيها، واللغو كل كلام ساقط لا خير فيه، فخمير الآخرة لا تحمل شاربها على الكلام الخبيث والهديان، لأنها لا تؤثر في عقولهم بخلاف خمير الدنيا، فإنهم إن يشربوها سكروا وطاشت عقولهم، فتكلموا بالكلام الخبيث والهديان، وكل ذلك من اللغو. والتأيم: هو ما ينسب به فاعله إلى الإثم، فخمير الآخرة لا يآثم شاربها بشربها، لأنها مباحة له، فنعم بلذتها كما قال تعالى: {وَأَنْهَازٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} ولا تحمل شاربها على أن يفعل إثماً بخلاف خمير الدنيا، فشاربها يآثم بشربها ويحمله السكر على الوقوع في المحرمات كالقتل والزنا والقذف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من مخالفة خمير الآخرة لخمير الدنيا، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ بَصَائِلَ لَّدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} وقوله {لَا فِيهَا غَوْلٌ}: أي ليس فيها غول يغتال العقول، فيذهبها كخمير الدنيا. {وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}: أي لا يسكرون، وكقوله تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ}: وقوله {لَا يُصَدِّعُونَ} أي لا يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها.

وقد أوضحنا معنى هذه الآيات في صفة خمير الآخرة، وبيننا أنها مخالفة في جميع الصفات لخمير الدنيا. وذكرنا الشواهد العربية في ذلك في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى {يَأْتِيهَا لِّذِينَ آمَنُوا إِتْمًا لِّخَمْرٍ وَ لِّمَيْسِرٍ}:

قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة يطوف عليهم غلمان جمع غلام، أي خدم لهم، وقد قدمنا إطلاقات الغلام وشواهدها العربية في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى {قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}.

ولم يبين هنا ما يطوفون عليهم به، وذكر هنا حسنهم بقوله {كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ} في أصدافه، لأن ذلك أبلغ في صفائه وحسنه، وقيل: مكنون أي مخزون لنفسته، لأن النفيس هو الذي يحزن ويكن.

وبين تعالى في الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به في قوله {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ}.

وزاد في هذه الآية كونهم مخلدين، وذكر بعض ما يطاق عليهم به في قوله: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ}، وقوله تعالى: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنْبِيَةٍ مِّنْ فِصَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِن فِصَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}.

والظاهر أن الفاعل المحذوف في قوله: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ} في آية الزخرف والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون في الطور والواقعة، وذكر بعض صفات هؤلاء الغلمان في الإنسان في قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا}.

{قَلِيلًا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ * فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرْتِيبُ بِهِ رِيبَ لَمِينٍ * قُلْ تَرْتَابُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنْ لِّمُتَرْتَابِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِدَاً أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَائِعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ لَخَلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ لِمُسَيِّطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ لَبَنٌ لَبِيذٌ وَلَكُمْ لَبَنٌ لَبِيذٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّعْرَمٍ يُنْتَقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ لَعِينٌ فَهُمْ يَكْتُوبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ لَمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ آلَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ * فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَطَبَّرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ}

قوله تعالى: {قَلِيلًا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ}. ذكر رجل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً، وأن المسؤل عنهم يقول للسائل: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ}، أي في دار الدنيا {فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} أي خائفين من عذاب الله، ونحن بين أهلنا أحياء فمن الله علينا أي أكرمنا، وتفضل علينا بسبب الخوف منه في دار الدنيا فهدانا، ووفقنا في الدنيا ووقانا في الآخرة عذاب السموم، والسموم النار ولفحها ووهجها، وأصله الريح الحارة التي تدخل المسام، والجمع سمائم. ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي: أنامل لم تضرب على البهم بالضحي بهن ووجه لم تلحه السمائم

وقد يطلق السموم على الريح الشديدة البرد، ومنه قول الراجز:
اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا ألومه

الفاء في قوله: {قَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا}، تدل على أن علة ذلك هي
الخوف من الله في دار الدنيا، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من
أن الإشفاق الذي هو الخوف الشديد من عذاب الله في دار الدنيا،
سبب للسلامة منه في الآخرة، يفهم من دليل خطابه، أعني مفهوم
مخالفته أن من لم يخف من عذاب الله في الدنيا لم ينج منه في
الآخرة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحاً
في غير هذا الموضوع. فذكر تعالى أن السرور في الدنيا وعدم
الخوف من الله سبب العذاب يوم القيامة، وذلك في قوله {وَأَمَّا
مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ
فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}.

وقد تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه أن إن المكسورة المشددة
من حروف التعليل، فقوله: {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}، علة
لقوله: {فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا}.

والمسرور في أهله في دار الدنيا ليس بمشقق ولا خائف، ويؤيد
ذلك قوله بعده: {إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}، لأن معناه، ظن أن يرجع
إلى الله حياً يوم القيامة، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد
الموت لا يكون مشفقاً في أهله خوفاً من العذاب، لأنه لا يؤمن
بالحساب والجزاء، وكون لن يحور، بمعنى لن يرجع معروف في
كلام العرب، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:

أيلتنا بذي حسم أنيري إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقوله: فلا تحوري، أي فلا ترجعي.

وقول لبيد بن ربيعة العامري:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد ما هو ساطع

أي يرجع رماداً، وقيل: يصير، والمعنى واحد. وقوله تعالى:

{وَأَصْحَابُ السَّمَاءِ مَا أَصْحَابُ السَّمَاءِ فِي سَمُومٍ وَخَمِيمٍ وَظِلٌّ مِّنْ
يَخْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
عَلَىٰ لِحْنِ لِعَظِيمٍ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَدَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ}، لأن تنعمهم في الدنيا المذكور في قوله {مُتْرَفِينَ}،
وإنكارهم للبعث المذكور في قوله {أَدَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا} الآية.
دليل على عدم إشفاقهم في الدنيا، وهو علة كونهم في سموم
وخميم.

وقد قدمنا قريباً أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل،
فقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ}. علة لقوله {فِي
سَمُومٍ وَحَمِيمٍ}.

وقد ذكر جل وَعَلَا أن الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول
الجنة والنجاة من العذاب يوم القيامة، كما دل عليه منطوق آية
الطور هذه، قال تعالى في المعارج {وَالَّذِينَ هُمْ مَرَّةً عَذَابَ رَبِّهِمْ
مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} - إلى قوله - {أُولَئِكَ فِي
جَنَّةٍ مَكْرُومَةٍ}، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة في قوله تعالى
{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ} - إلى قوله - {أُولَئِكَ
يُسْرَعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}، وقد قال تعالى:
{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّةٍ النَّعِيمِ}.

وقوله في آية الواقعة المذكورة:

{وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى لُجْنٍ لَعِظِيمٍ}، أي يديمون ويعزمون على
الذنب الكبير، كالشرك وإنكار البعث، وقيل المراد بالجنث: حنثهم
في اليمين الفاجرة كما في قوله تعالى: {وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ}. قوله تعالى: {قَدْ كَرِهَ اللَّهُ مَا
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ يَكْفُرُ بِهِ وَأَلَيْسَ اللَّهُ بِغَفُورٍ رَحِيمٍ}، وقد كره الله عليه وسلم في
هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه صلى الله عليه
وسلم رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم
أنه كاهن أو مجنون، فقد نفاه صريحاً بحرف النفي الذي هو ما
في قوله: {قَمَا أَنْتَ} وأكد النفي بالباء في قوله: {يَكْفُرُ بِهِ} وأما
كونه شاعراً فقد نفاه ضمناً بأم المنقطعة في قوله: {أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ}، لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي.
وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه صلى الله عليه وسلم
كقوله تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ
رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} وقوله في التكويد {وَمَا صَحِبَكُمْ بِمَجْنُونٍ} وكقوله
في نفي الصفتين الأخيرتين أعني الكهانة والشعر: {وَمَا هُوَ يَقُولُ
شَاعِرٌ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}، وقد قدمنا
بعض الكلام على هذا في سورة الشعراء وغيرها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ لِمُنُونٍ} أي
نتظر به حوادث الدهر، حتى يحدث له منها الموت، فالمنون:
الدهر، وريبه: حوادثه التي يطراً فيها الهلاك والتغيير، والتحقيق أن
الدهر هو المراد في قول أبي ذؤيب الهذلي:
أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأن الضمير في قوله: وريبه يدل على أن المنون الدهر، ومن ذلك أيضاً قول الآخر: تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

وقال بعض العلماء: المنون في الآية الموت، وإطلاق المنون على الموت معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي الغول الطهوي: هم منعوا حمى الوقبي بضرب يؤلف بين أشتات المنون

لأن الذين ماتوا عند ذلك الماء المسمى بالوقبا، جاءوا من جهات مختلفة، فجمع الموت بينهم في محل واحد، ولو ماتوا في بلادهم لكانت مناياهم في بلاد شتى. قوله تعالى: {قَلِيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}. قد قدمنا أن الله تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة في قوله: {قَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ}. وفي سورة يونس في قوله تعالى {قُلْ قَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ}. وتحداهم في سورة هود بعشر سور منه في قوله: {قُلْ قَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ}. وتحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله {قَلِيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ}.

وبين في سورة بني إسرائيل أنهم لا يقدرّون على شئ من ذلك في قوله {قُلْ لِّئِن جُتِمَعَتِ الْإِنْسُ وَاجْتُنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَأَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ}.

وقد أطلق جل وعلا اسم الحديث على القرآن في قوله هنا: {قَلِيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ} كما أطلق عليه ذلك في قوله {اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثٍ كَتَبَا مُتَشَابِهًا}، وقوله تعالى {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}. قوله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ}. قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى {أَطَّلِعَ لَعِيبَ أُمَّ لِحَدِّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}. قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ}. قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ لِحَفِظَتِهَا}. قوله تعالى: {أَمْ لَهُ لِبَيِّنَاتٍ وَلَكُمُ الْبُيُوتُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ لِبَيِّنَاتٍ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ}، وفي مواضع آخر متعددة. قوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود في

وَالأُولَى * وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُعْنِي سَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا
 مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضِي * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ لِمَلَائِكَةٍ تَسْمِيَةَ الْإِنْسِي * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
 يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً * فَأَعْرَضَ عَن
 مَن تَوَلَّى عَن ذِكْرِيَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّن
 الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن صَلَّى عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن هُتِدَى *
 وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا
 عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى {

قوله تعالى: {وَاللَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا صَلَّ صَلَّ صَلَّ صَحْبِكُمْ وَمَا عَوَلُوا مَا يَنْطِقُ
 عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}. اختلف العلماء في المراد بهذا
 النجم الذي أقسم الله به في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم:
 المراد به النجم إذا رجمت به الشياطين، وقال بعضهم: إن المراد
 به الثريا، وهو مروى عن ابن عباس وغيره، ولفظة النجم علم
 للثريا بالغلبة، فلا تكاد العرب تطلق لفظ النجم مجرداً إلا عليها،
 ومنه قول نابغة ذبيان: أقول والنجم قد مالت أواخره إلى المغيب
 تثبت نظرة حار

فقوله: {وَاللَّجْمِ}: يعني الثريا. وقوله تعالى {إِذَا هَوَىٰ}: أي
 أسقط مع الصبح، وهذا اختيار ابن جرير. وقيل النجم: الزهرة،
 وقيل المراد بالنجم نجوم السماء، وعليه فهو من إطلاق المفرد
 وإرادة الجمع كقوله: {وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ} يعني الأدبار. وقوله: {وَجَاءَ
 رَبُّكَ وَ لِمَلَكَ صَفًّا صَفًّا} أي والملائكة. وقوله: {أُولَئِكَ يُجْرُونَ
 لِعُرْقَةٍ بِمَا صَبَرُوا} أي الغرف.

وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهذا في القرآن، وفي كلام العرب في
 سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً}،
 وإطلاق النجم مراداً به النجوم معروف في اللغة، ومنه قول عمر
 بن أبي ربيعة: ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصى
 والتراب

وقول الراعي: فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي
 الأكلين جمودها

وعلى هذا القول، فمعنى هوى النجوم سقوطها إذا غربت أو
 انتثارها يوم القيامة. وقيل: النجم النبات الذي لا ساق له. وقال
 بعض أهل العلم: المراد بالنجم الجملة النازلة من القرآن، فإنه
 نزل على النبي صلى الله عليه وسلم أنجماً منجماً في ثلاث
 وعشرين سنة، وكل جملة منه وقت نزولها يصدق عليها اسم

النجم صدقاً عربياً صحيحاً كما يطلق على ما حان وقته من الدية المنجمة على العاقلة، والكتابة المنجمة على العبد المكاتب. وعلى هذا فقوله: {إِذَا هَوَىٰ}، أي نزل به الملك من السماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقوله {هَوَىٰ} يهوي هُويًا إذا اخترق الهوى نازلاً من أعلا إلى أسفل. اعلم أولاً أن القول بأنه الثريا وأن المراد بالنجم خصوصها، وإن اختاره ابن جرير وروى عن ابن عباس وغير واحد، ليس بوجيه عندي.

والأظهر أن النجم يراد به النجوم. وإن قال ابن جرير بأنه لا يصح، والدليل على ذلك جمعه تعالى للنجوم في القسم في قوله تعالى: {قَلَّا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ}، لأن الظاهر أن المراد بالنجم إذا هوى هنا، كالمراد بمواقع النجوم في الواقعة. وقد اختلف العلماء أيضاً في المراد بمواقع النجوم فقال بعضهم: هي مساقطها إذا غابت. وقال بعضهم: انتشارها يوم القيامة. وقال بعضهم: منازلها في السماء، لأن النازل في محل واقع فيه. وقال بعضهم: هي مواقع نجوم القرآن النازل بها الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: أظهر الأقوال عندي وأقربها للصواب في نظري، أن المراد بالنجم إذا هوى هنا في هذه السورة، ومواقع النجوم في الواقعة هو نجوم القرآن التي نزل بها الملك نجماً فنجماً، وذلك لأمرين أحدهما أن هذا الذي أقسم الله عليه بالنجم إذا هوى الذي هو أن النبي صلى الله عليه وسلم على حق وأنه ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى موافق في المعنى لما أقسم عليه بمواقع النجوم، وهو قوله: {إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} - إلى قوله - {تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ لَعَلِّمِينَ}.

والإقسام بالقرآن على صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صدق القرآن العظيم وأنه منزل من الله جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ الْقُرْءَانَ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْغَزْرِ وَالنَّبَا وَنَزَلَ مِنَ رَبِّكَ الْحَكِيمُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُزْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْغَزْرِ وَالنَّبَا وَنَزَلَ مِنَ رَبِّكَ الْحَكِيمُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُزْسَلِينَ} وقال تعالى: {حَمِّمْ وَ لِكِتَابٍ لِّمُبِينٍ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ بِرُؤُوسِ أُمَّةٍ لِّكِتَابٍ لِّدِينٍ لِّعَلَّيْكُمْ حَكِيمٌ} وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والثاني: أن كون المقسم به المعبر بالنجوم، هو القرآن العظيم أنسب لقوله بعده:

{وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}، لأن هذا التعظيم من الله يدل على أن هذا المقسم به في غاية العظمة. ولا شك أن القرآن الذي هو كلام الله أنسب لذلك من نجوم السماء ونجم الأرض. والعلم عند الله تعالى؛ وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا عَوَى}، قال بعض العلماء: الضلال يقع من الجهل بالحق، والغيبى هو العدول عن الحق مع معرفته، أي ما جهل الحق وما عدل عنه، بل هو عالم بالحق متبع له.

وقد قدمنا إطلاقات الضلال في القرآن بشواهدها العربية في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَتَا مِنَ الصَّالِينَ} وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا لِّذِينَ صَلَّ سَعِيَّهُمْ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه صلى الله عليه وسلم على هدى مستقيم، جاء موضحاً في آيات كثيرة، من كتاب الله كقوله تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ حَقٍّ لِّمُبِينٍ} وقوله تعالى {قَلَّا يُتَزَعَّتْكَ فِي الْأَمْرِ وَ لُغٌ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مِّنْ مُّسْتَقِيمٍ} وقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَنَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {فَوَسَّطْنَا لَكَ الْوَسْطَىٰ لِيُخْرِجَكَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} استدل به علماء الأصول على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يجتهد، والذين قالوا إنه قد يقع منه الاجتهاد، استدلوا بقوله تعالى: {عَقَا لِّلَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ}، وقوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ جَنَىٰ يُنَجِّنَ فِي الْأَرْضِ}. وقوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّ لِدِينٍ ءَامُومًا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}.

قالوا: فلو لم يكن هذا عن اجتهاد، لما قال {عَقَا لِّلَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ}. ولما قال: {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ}، ولا منافاة بين الآيات، لأن قوله: {إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عن الله إلا شيئاً أوحى الله إليه أن يبلغه، فمن يقول: إنه شعر أو سحر أو كهانة، أو أساطير الأولين هو أكذب خلق الله وأكفرهم، ولا ينافي ذلك أنه أذن للمتخلفين عن غزوة تبوك، وأسر الأسارى يوم بدر، واستغفر لعمه أبي طالب من غير أن ينزل عليه وحى خاص في ذلك، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الموضوع. قوله تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدٌ لِّقُوَى}، المراد بشديد القوى في هذه الآية: هو جبريل عليه السلام، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم علمه هذا الوحي. ملك شديد القوى هو جبريل. وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين:

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيْسُمُونَ لِمَلَائِكَ تَسْمِيَةَ {الْأُنثَى}. وقد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِمَلَائِكَ لَذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا}، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}، وفي سورة الذاريات في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

{ لَذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَ لِقَوْحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ لِّمَغْفِرَةٍ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ابْتِغَى * أَفَرَأَيْتَ لِيذِي تَوْلَى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمٌ لِّغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِنبُرْهِمَ لِيذِي وَفَى * أَلَا تَنزُرُ وَزَرَ وَزَرَ آخِرَى * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعِيَّةٌ سَيُوفَ يَرَى * ثُمَّ يُجْرَاهُ الْجُرَاءُ الْإَوْفَى * وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ لِمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الْبَرِّوَجِينَ الْيَذْكَرَ وَالْإُنْثَى * مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنْ عَلَيْهِ السَّبْأَةُ الْآخِرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْإُولَى * وَتَمُودَ فَمَا ابْتِغَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى * وَ لِمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا عَشَى * قَبَائِلَ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا تَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْإُولَى * أَرْقَبُ الْآرْقَبِ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا لِحَدِيثٍ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَاهِدُونَ * فَ سَلِّجُوا لِلَّهِ وَ عَجِدُوا }

قوله تعالى: { لَذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَ لِقَوْحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى: { وَ لَذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَ لِقَوْحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ }. قوله تعالى: { إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ لِيذِي تَوْلَى قَلِيلًا } وأكدنا عنده علم الغيب وهو يرأى في صحف موسى وإبراهيم لذي وفى. قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ لِيذِي تَوْلَى قَلِيلًا } وأكدنا عنده علم الغيب وهو يرأى في صحف موسى وإبراهيم لذي وفى. قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ لِيذِي تَوْلَى قَلِيلًا } وأكدنا عنده علم الغيب وهو يرأى في صحف موسى وإبراهيم لذي وفى. قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ لِيذِي تَوْلَى قَلِيلًا } وأكدنا عنده علم الغيب وهو يرأى في صحف موسى وإبراهيم لذي وفى.

الطيب. وقوله: {وَأَكْدَى} أي قطع ذلك العطاء ولم يتمه، وأصله من أكدي صاحب الحفر. إذا أنتهى في حفره إلى صخرة لا يقدر على الحفر فيها، وأصله من الكدية وهي الحجارة تعترض حافر البئر ونحوه فتمنعه الحفر، وهذا الذي أعطى قليلاً وأكدي، اختلف فيه العلماء، فقيل هو الوليد بن المغيرة قارب أن يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين، فقال: أتركت دين الأشياخ وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه ثمامة. فأنزل الله عز وجل الآية. وعلى هذا فقوله: {تَوَلَّى}: أي الوليد عن الإسلام بعد أن قارب، وأعطى قليلاً من المال للذي ضمن له أن يتحمل عنه ذنوبه. {وَأَكْدَى}: أي بخل عليه بالباقي، وقيل أعطى قليلاً من الكلام الطيب كمدحه للقرآن، واعترافه بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأكدي أي انقطع عن ذلك ورجع عنه. وقيل: هو العاص بن وائل السهمي، كان ربما وافق النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور، وذلك هو معنى إعطائه القليل ثم انقطع عن ذلك، وهو معنى إكدائه، وهذا قول السدي ولم ينسجم مع قوله بعده: {أَعِنْدَهُ عِلْمٌ لِّغَيْبٍ}.

وعن محمد بن كعب القرظي أنه أبو جهل، قال: والله ما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا بمكارم الأخلاق، وذلك معنى إعطائه قليلاً، وقطعه لذلك معروف. واقتصر الزمخشري على أنه عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: روي أن عثمان بن عفان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو أخوه من الرضاعة: يوشك ألا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن العطاء فنزلت الآية. ومعنى تولى ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل. انتهى منه.

ولا يخفى سقوط هذا القول وبطلانه، وأنه غير لائق بمنصب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور: الأول: إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة في قوله: {أَعِنْدَهُ عِلْمٌ لِّغَيْبٍ} والمراد نفي علمه للغيب.

الثاني: أن لكل من إبراهيم وموسى صحفاً لم ينبأ بما فيها هذا الكافر.

الثالث: أن إبراهيم وفقى أي أتم القيام بالتكاليف التي كلفه ربه بها.

الرابع: أن في تلك الصحف، أنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

الخامس: أن فيها أيضاً أنه ليس للإنسان إلا ما سعى.

السادس: أن سعيه سوف يرى.

السابع: أنه يجزاه جزاء الأوفى، أي الأكمل الأتم.

وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة في غير هذا الموضوع.

أما الأول منها، وهو عدم علمهم الغيب، فقد ذكره تعالى في مواضع كثيرة كقوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ لَعَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ} وقوله: {أَطَّلَعَ لَغَيْبٍ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}. وقوله: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى لَغَيْبٍ} {عَلِمَ لَغَيْبٍ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} الآية. وقوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَغَيْبٍ إِلَّا اللَّهُ} والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً.

والثاني: الذي هو أن لإبراهيم وموسى صحفاً لم يكن هذا المتولي المعطي قليلاً المكيدي عالماً بها، ذكره تعالى في قوله: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى الصُّحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}.

والثالث: منها وهو إبراهيم وفقى تكاليفه، فقد ذكره تعالى في قوله: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}، وقد قدمنا أن الأصح في الكلمات التي ابتلى بها أنها التكاليف.

وأما الرابع منها: وهو أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَبِغُوا سَبِيلَنَا وَلِنَحْمِلُ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} وقوله تعالى {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا، والجواب عما يرد عليها من الإشكال، في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا} وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة في ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَمِنْ أَوْزَارٍ لِّلَّذِينَ يَظْلِمُونَ نَفْسَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}.

وأما الخامس منها: وهو أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}. وقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} وقوله: {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَانَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ} والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه

الآية الكريمة: {وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} يدل على أن الإنسان لا يستحق أجراً إلا على سعيه بنفسه، ولم تتعرض هذه الآية لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات، لأن قوله: {وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} قد دلت اللام فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئاً إلا بسعيه، ولم تتعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكاً له ولا مستحقاً له.

وقد جاءت آية من كتاب الله تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعي غيره وهي قوله تعالى: {وَلِذِينَ ءَامَنُوا وَتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ}. وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى: {وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} وبين قوله: {وَلِذِينَ ءَامَنُوا وَتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ}. في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة النجم، وقلنا فيه ما نصه: والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه. ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره، لأنه لم يقل: وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى، وإنما قال وأن ليس للإنسان، وبين الأمرين فرق ظاهر، لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه.

وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه. الثاني: أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم، إذ لو كانوا كفاراً لما حصل لهم ذلك. فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين، كما وقع في الصلاة في الجماعة، فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلته منفرداً، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى: {وَلِذِينَ تَبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ}.

الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: {وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} ولكن من سعي الآباء فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه، بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم.

فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها، لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد، فانتفاع الأولاد تبع فهو بالنسبة إليهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم، كما تفضل بذلك على الولدان والحوار العين، والخلق الذين ينشئهم للجنة. والعلم عند الله تعالى. اهـ منه.

والأمر السادس والسابع: وهما أن عمله سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، فقد جاءا موضحين في آيات كثيرة كقوله تعالى:

{ وَ لَوْزِنْ يَوْمَئِذٍ لِحَقِّ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } .
وقوله تعالى: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } .

وقوله تعالى: { وَتَصَعُّ لِمَوْزِينٍ لِقِسْطٍ لِيَوْمٍ لِقِيَمَةِ فَلَا تُظَلَّمُ
نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا
حَاسِبِينَ } .

وقوله تعالى: { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ لِقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا فُرًّا
كُتِبَ كَفَى بِنَفْسِكَ لِيَوْمٍ عَلَيْكَ حَسِيبًا } والآيات بمثل ذلك كثيرة
معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { فَهَوَّيَرِي } أي يعلم ذلك
الغيب، والآية تدل على أن سبب النزول لا يخلو من إعطاء شيء
في مقابلة تحمل الذنوب عن أعطى لأن فاعل ذلك ليس عنده
علم الغيب، فيعلم به أن الذي ضمن له تحمل ذنوبه بفعل ذلك،
ولم ينبا بما في الصحف الأولى، من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى أي
لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى.

وقد قدمنا تفسيره موضحاً في سورة بني إسرائيل، وأنه لا يملك
الإنسان ولا يستحق إلا سعي نفسه، وقد أتضح بذلك أنه لا يمكن أن
يتحمل إنسان ذنوب غيره، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة.
وقال أبو حيان في البحر: أفرأيت بمعنى أخبرني، والمفعول الأول
هو الموصول وصلته. والمفعول الثاني هو جملة { أَعِنْدَهُ عِلْمٌ

لِغَيْبٍ فَهَوَّيَرِي } . قوله تعالى: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى إِذَا تُمْنَى } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه
خلق الزوجين أي النوعين الذكر والأنثى من نطفة، وهي نطفة
المني إذا تمنى أي تصب وتراق في الرحم، علي أصح القولين.
وبدل قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ } وقوله تعالى: { أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيِّ يُمْنَى } .

والعرب تقول: أمني الرجل ومني إذا أراق المني وصبه.
وقال بعض العلماء: { مِّن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى } أي تقدر بأن يكون الله
قدر أن ينشأ منها حمل، من قول العرب: منى الماني إذا قدر.
ومن هذا المعنى قول أبي قلابة الهذلي، وقيل سويد بن عامر
المصطلق: لا تأمن الموت في حل وفي حرم إن المنايا توافي
كل إنسان

واسلك سبيلك فيها غير محتشم حتى تلاقي ما يمني لك الماني

وقد قدمنا الكلام على النطفة مستوفى من جهات في سورة
النحل في الكلام على قوله تعالى: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِّن نُّطْفَةٍ } .

وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ لِّبَعْثِ}، وفي كل من الموضوعين زيادة ليست في الآخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين، أعني الذكر والأنثى من النطفة جاء موضعاً في غير هذا الموضوع، وأنه يستدل به على أمرين: هما قدرة الله على البعث، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه، وقد جمع الأمرين قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَّالَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مِّنِيَّ يُمْتَسِّمَ كَانَ عَاقِبَةَ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ لَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ لِمَوْتِي} فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ لِمَوْتِي}، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء، منكرأ على من ظن ذلك بقوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَّى} أي مهملأ من التكليف والجزاء.

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ لَمَاءٍ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا}. قوله تعالى: {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَةَ الْآخِرَى}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وأحلنا عليها مراراً كثيرة. قوله تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى}. وقد قدمنا الآيات الموضحة لما أهلك به عاداً، والآيات الموضحة لما أهلك به ثمود في سورة فصلت في قوله تعالى في الكلام في شأن عاد: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا}. وقوله في شأن ثمود: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لِّعَذَابِ لَّهُؤُونَ}. قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى}. قوله: {وَقَوْمَ نُوحٍ} معطوف على قوله: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى} أي وأهلك قوم نوح ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ}. وقوله تعالى: {قَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}.

وقوله تعالى: {وَنَصْرِي لَهُ مِّن لِّقَوْمٍ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}. وقوله تعالى: {مَّمَّا خَطَّبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا}. وقوله تعالى: {وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح أظلم وأطغى، أي أشد ظلماً وطغياناً من غيرهم، قد بينه تعالى في آيات آخر كقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا

فَرَارًا وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْبِعَهُمْ فِىءَ أَدْبَانِهِمْ
 وَ سَلْتَعْتَسُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَ سَلْتَكْتَبُوا سَلْتَكْتَبَارًا {
 وقوله تعالى: { قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ تَبِعُوا مِن لَّمْ يَزِدْهُ
 مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَ مَكْرُوا مَكْرًا كَبَارًا } - إلى قوله - { وَوَقَدْ
 أَصْلُوا كَثِيرًا } .
 وقوله تعالى: { إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِئُوا إِلَّا فَاغْرًا
 كَفَارًا } .

وقوله: { وَبِصَبْعِ لُفْلُكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ }
 ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: { قَلْبِتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
 حَمْسِينَ عَامًا } لأن قوماً لم يتأثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا
 الزمن الطويل، لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم. قوله تعالى:
 { وَ لِمُؤْتَفِكَةً أَهْوَى } . المؤتفكة، مفتعلة من الإفك، وهو القلب
 والصرف، والمراد بها قري قوم لوط بدليل قوله في غير هذا
 الموضوع: { وَ لِمُؤْتَفِكَتٍ } بالجمع. فهو من إطلاق المفرد وإرادة
 الجمع كما أوضحناه مراراً، وأكثرنا من أمثله في القرآن وفي كلام
 العرب وأحلنا عليه مراراً، وإنما قيل لها: مؤتفكة، لأن جبريل أفكها
 فأتفكت، ومعنى أفكها أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلاً أعلاها
 أسفلها، وجعل عاليها أسفلها، هو اتفكها وإفكها.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة هود في قوله تعالى:
 { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا جِجَارَةً } .
 وقوله تعالى في سورة الحجر: { فَآخَذْتُهُمْ أَلصِّحَّةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا
 عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ } .

وقد بينا قصة قوم لوط في هود والحجر، وقوله في هذه الآية
 الكريمة: { أَهْوَى } . تقول العرب: هوى الشيء إذا انحدر من عال
 إلى أسفل. وأهواه: غيره إذا ألقاه من العلو إلى السفلى، لأن
 الملك رفع قراهم ثم أهواها أي ألقاها تهوى إلى الأرض، منقلبة
 أعلاها أسفلها. قوله تعالى: { أَرْقَتِ أَلْأَرْقَةُ } . قد قدمنا الآيات
 الموضحة لم في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى
 { أَتَى لُؤْمُؤُا لِّلَّهِ } ، وفي سورة المؤمن في قوله تعالى: { وَأَنْذَرْتَهُمْ
 يَوْمَ أَلْأَرْقَةِ } . قوله تعالى: { أَقْمِنُ هَذَا لِحَدِيثِ تَعْجَبُونَ } . قد
 قدمنا الآيات التي فيها إطلاق اسم الحديث على القرآن في سورة
 الطور. في الكلام على قوله تعالى: { فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثِ مَثَلِهِ } .

تم بحمد الله تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

{ فُتْرِبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ لِقَمَرٌ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَلَّأُوا أَمْراً مُسْتَقَرًّا * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي الْأَنْذُرُ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكَرُّ * خُشِعَا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَرُدُّوا * فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأُوحِ وَدُسِرَ * تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لَمَنِ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرٌ * وَلَقَدْ يَسِّرْنَا لِقُرْءَانٍ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * نَزَعْنَا الْأَنْبَاءَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرٌ * وَلَقَدْ يَسِّرْنَا لِقُرْءَانٍ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * كَذَّبَتْ تَمُودٌ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وُجِدَا نَبِيْعَهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعُرٍ * أَهْلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ * سَيَعْلَمُونَ عَدَاؤَ مَنْ لَكَ الْكِبَابُ الْأَشْرُ }

قوله تعالى: { فُتْرِبَتِ السَّاعَةُ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى { أَتَى أَمْرٌ لِلَّهِ } وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى { وَلَوْ تَرَّآْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ }. قوله تعالى: { يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة سراء في الكلام على قوله تعالى { فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } وفي سورة وَ في الكلام على قوله تعالى { يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا }. قوله تعالى: { يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا } وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى { وَإِِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ }. قوله تعالى: { فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ }.
قرأ هذا الحرف هذا عامر، { فَفَتَحْنَا } بتشديد التاء للتكثير، وباقي السبعة بتخفيفها.

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحاً دعاه قائلاً:
 إن قومه غلبوه سائلاً ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له
 منهم، فأهلكهم بالغرق، لأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء منهمر
 أي متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى فجر الأرض عيوناً.
 وقوله: {عُيُونًا}، تمييز محول عن المفعول، والأصل فجرنا عيون
 الأرض. والتفجير: إخراج الماء منها بكثرة، وأل، في قوله:
 {قَالَتَقَىٰ لِمَاءٍ} للجنس، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض
 على أمر قد قدر، أي قدره الله وقضاه.
 وقيل: إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض
 جعلهما الله بمقدار ليس أحدهما أكثر من الآخر، والأول أظهر.
 وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه جل وعلا، أن
 ينتصر له، من قومه فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم
 فأهلكهم جميعاً بالغرق في هذا الماء المتلقى من السماء والأرض،
 جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء:
 {وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَسَلَّلْنَا لَهُ فَنَاجِيَةً وَأَهْلَهُ مِنْ لَحْدِهِ
 لِغُطِيِّمٍ وَنَصَرْتَهُ مِنْ لِقَوْمٍ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا
 فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}.

وقوله تعالى في الصافات {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ لِهَاجِيئِهِ وَتَوَجَّيْتَهُ
 وَأَهْلَهُ مِنْ لَحْدِهِ لِغُطِيِّمٍ} - إلى قوله - {ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ}.
 وقد بين جل وعلا أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً
 مستاصلاً، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: فانتصر وذلك كقوله
 تعالى {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ لَكْفِيرِينَ دِيَارِ الْإِنِّ
 تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِئُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا} وما دعا نوح على
 قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل
 الذي آمن، وذلك في قوله تعالى {وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ
 قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ}، وقد قال تعالى {وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا
 قَلِيلٌ}.

وقوله تعالى {عُيُونًا} قرأه ابن كثير وابن عامر في رواية ابن
 ذكوان وعاصم، في رواية شعبة وحمزة والكسائي: {عُيُونًا} بكسر
 العين لمجانسة الياء

وقراه نافع وأبو عمرو وابن عامر في رواية هشام وعاصم في
 رواية حفص عيوناً بضم العين على الأصل. قوله تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ
 عَلَىٰ ذَاتِ الْأُجْحِ وَدُسْرٍ}. لم يبين هنا ذات الألواح والدرس، ولكنه
 بين في مواضع آخر أن المراد وحملناه على سفينة ذات ألواح، أي
 من الخشب ودرس: أي مسامير تربط بعض الخشب ببعض، وواحد
 الدسر دسار ككتاب وكتب، وعلى هذا القول أكثر المفسرين.

وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة: الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة.

وقال بعض العلماء: الدستور جَوْجُو السفينة أي صدرها ومقدمها الذي تدسره به الماء أي تدفعه وتمخره به، قالوا: هو من الدسر وهو الدفع.

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة. قوله تعالى {إِنَّا لَمَّا طَعَا لِمَاءَ حَمَلَتُكُمْ فِي لَجَارِيَةٍ} أي السفينة كما أوضحناه في سورة شوري في الكلام على قوله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ لَجَوَارٍ فِي لَبْحَرٍ كَالْأَعْلَمِ}.

وقوله تعالى: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ} وقوله تعالى {وَأَيُّ لُهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي لُفْلُكٍ لِّمَشْحُونٍ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}. الضمير في قوله تعالى: {تَرَكْنَاهَا}، قال بعض العلماء إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح.

والمعنى، ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم، لينزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل، لئلا نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح. وكون هذه الفعلة آية نص عليه تعالى بقوله {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً} وقوله تعالى {فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي لُفْلُكٍ لِّمَشْحُونٍ} أعرفنا بعدد البقيان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}.

وقال بعض العلماء: الضمير في تركناها عائد إلى السفينة، وكون سفينة نوح آية بينه الله تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} وقوله تعالى {وَأَيُّ لُهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي لُفْلُكٍ لِّمَشْحُونٍ} خلقنا لهم من مثله ما يركبون}. قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}. قد قدمنا إيضاحه في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْآنٍ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}.

قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وكلام أهل العلم في يوم

النحس المستمر، في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ} وقوله تعالى: {فَقَلْبًا أَبْشَرًا مِّنَّا وَجِدًا نَبِيغُهُ}. قوله تعالى: {أَأَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا}. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهما في الكلام على قوله تعالى: {وَعَجُوزًا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ} (4)، وقوله تعالى: {أَأَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي}.

{إِنَّا مُرْسِلُوا إِلَيْكَ الْبَاقَةَ فَنَتَّةً لَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ وَ طَطِيرٌ * وَبَنِيهِمْ أَنَّ لِمَاءَ قِسْمَةً بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَتَادُوا صَحْبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ *}

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا
كَهَشِيمٍ لُمُحْتَظِرٍ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا لِقْرَاءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ *
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَصْبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ
يَجْتَنِيهِمْ بَيْتِخَرٍ * تَعَمَّةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ
أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنِ صِيفِهِ فَطَمَسْنَا
أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ *
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا لِقْرَاءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ *
وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْتَهُمْ أَخْذَ
عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ * أَكْفَرُكُمْ حَبِيرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ *
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ * سَيَهْرَمُونَ لَجَمْعٌ وَيُولُونَ الذُّبُرَ * بَلِ
السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ * إِنَّ لِمُجْرِمِينَ فِي صُلَلٍ
وَسُعْرٍ {

قوله تعالى: { إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ } . قوله: { مُرْسِلُوا
النَّاقَةَ } : أي مخرجوها من الهضبة، { فِتْنَةً لَهُمْ } أي ابتلاء واختباراً،
وهو مفعول من أجله، لأنهم اقترحوا على صالح إخراج ناقة من
صخرة، وأنها إن خرجت لهم منها آمنوا به واتبعوه، فأخرج الله
الناقة من تلك الصخرة معجزة لصالح، وفتنة لهم أي ابتلاء
واختباراً، وذلك أن تلك الناقة معجزة عاينوها، وأن الله حذرهم
على لسان نبيه صالح من أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها
بأذى أخذهم الله بعذابه.

والمفسرون يقولون: إنهم قالوا له: إن أخرجت لنا من هذه
الصخرة ناقة وبراء عشراء اتبعناك.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله أرسل لهم هذه الناقة
امتحاناً واختباراً، وأنهم إن تعرضوا لآية الله هذه، التي هي الناقة
بسوء أهلكتهم، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله
تعالى في سورة الأعراف: { قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ
اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ
فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }، وقوله تعالى في سورة هود عن صالح
{ وَيَقَوْمُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي
دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ }، وقوله تعالى في
الشعراء: { قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

وقد بين تعالى: أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل في
آيات من كتابه كقوله تعالى في الأعراف: { فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } - إلى قوله - { فَأَخَذْتَهُمُ اللَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَائِمِينَ}، وقوله تعالى: {فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَدْمِينًا خَذَهُمْ لَعْدَابٌ}، وقوله {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ}. وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لَعْدَابٍ لَّهُونٍ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. قوله تعالى: {وَبَيَّنَّهُمُ أَنَّ لِمَاءٍ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرِبَ مَحْتَصِرٌ}. قوله تعالى {وَبَيَّنَّهُمُ أَنَّ لِمَاءٍ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرِبَ مَحْتَصِرٌ}. أي أخبر يا صالح ثمود أن الماء - وهو ماء البئر التي كانت تشرب منها الناقة - قسمة بينهم، فيوم للناقة - ويوم لثمود، فقوله: {بَيَّنَّهُمُ}: أي بين الناقة وثمود، وغلب العقلاء على الناقة {كُلٌّ شَرِبَ مَحْتَصِرٌ} أي يحضره صاحبه، فتحضر الناقة شرب يومها وتحضر ثمود شرب يومها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آية أخرى وهي قوله تعالى في الشعراء {قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى: {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا}. قوله تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}. قوله: {فَتَعَاطَى}، قال أبو حيان في البحر: فتعاطى هو مطاوع عاطا، وكان هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده. انتهى محل الغرض منه. والعرب تقول: تعاطى كذا إذا فعله أو تناوله، وعاطاه إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه: كلتاهما حلب العصير فعاطني بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله: {فَعَقَرَ} أي تعاطى عقر الناقة فعقرها، فمفعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم وذلك في قوله {إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا}.

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة، لأنه نال: فتعاطى فعقر، بالإفراد مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخرى إلى ثمود كلهم كقوله في سورة الأعراف: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَاعْتَوُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ}، وقوله تعالى في هود {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ} وقوله في الشعراء: {فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَدْمِينًا}، وقوله في الشمس: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا}.

ووجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحداً منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة

عن نفسه ونيابه عن غيره. ومعلوم أن المتماثلين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضاً إلى الجميع، لأنهم متماثلون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بالفاء في قوله: فتعاطا فعقر على ندائهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ} أي نادوه ليعقرها.

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب.

وقد قدمنا في سورة الحجرات أن منه قراءة حمزة في قوله تعالى: {فَإِنْ قَتَلْتُمْكُمْ وَ قَتَلْتُمْهُمْ} بصيغة المجرى في الفعلين، لأن من قتل ومات لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله، بل المراد في إن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، ونظيره قول ابن مطيع: فإن تقتلونا عند حرة واقم فإننا على الإسلام أول من قتل

أي فإن تقتلوا بعضنا، وأن منه أيضاً: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُ لَمْ تُؤْمِنُوا} لأن هذا في بعضهم دون بعض. بدليل قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ لِيَوْمِ الْآخِرِ} - إلى قوله - {سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وقد قدمنا في الحجرات وغيرها، أن من أصرح الشواهد العربية في ذلك قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

وقوله تعالى: {فَعَقَرَ}: أي قتلها. والعرب تطلق العقر على القتل والنحر والجرح ومنه قول امرئ القيس:
تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يامراً القيس فانزل

ومن إطلاق العقر على نحر الإبل لقري الضيف قول جرير: تعدون عقر الذيب أفضل مجدكم بني ضوطرا لولا الكمي المقنعا
قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً}. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لِعَدَابِ لَّهُونٍ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ}. قوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا}: قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى لِقْرِيَةِ آلِ لُوطٍ مَطَرًا مَسْئُومًا}، وقوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا} قد قدمنا الآيات الموضحة له إيضاحاً شافياً بكثرة.

وقد تضمنت إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود وسورة الحجر في الكلام على القصة المذكورة في السورتين. قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْتَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ}. تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور:

الأول: أن آل فرعون جاءتهم النذر.

الثاني: أنهم كذبوا بآيات الله.

الثالث: أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات آخر من كتاب الله،

أما الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه.

اعلم أولاً أن قوله {جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ}، قيل: هو جمع نذير

وهو الرسول. وقيل هو مصدر بمعنى الإنذار فعلي أنه مصدر.

فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو

موسى وهارون، وعلى أنه جمع نذير أي منذر، فالمراد به موسى

وهارون، وقد جاء في آيات كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون

كقوله تعالى في طه {قَاتِيَاهُ قَقُولًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنْدِ إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ}.
ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ لِعَذَابِ

عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ} ونحوها من الآيات، وفي هذه الآية سؤال

معروف، وهو أن الله تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما

موسى وهارون، كما قال تعالى: {قَاتِيَا فِرْعَوْنَ قَقُولًا إِنَّا رَسُولُ

رَبِّ لَعَلِّمِينَ} وهنا جمع النذر في قوله {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ

النَّذْرُ}، وللعلماء عن هذا أجوبة. أحدها أن أقل الجمع اثنان كما هو

المقرر في أصول مالك بن أنس رحمه الله، وعقده صاحب مراقبي

السعود بقوله:

أقل معنى الجمع في المشتهر لاثنان في رأي الإمام الحمير

قالوا، ومنه قوله تعالى: {فَقَدْ صَعَّتْ قُلُوبُكُمَا} ولهما قلبان فقط

وقوله: {فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَخْوَتِهِ السُّدُسُ} والمراد بالإخوة اثنان

فصاعداً كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافاً لابن عباس، وقوله

{وَاطْرَافَ النَّهَارِ} وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره

من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء، لأنهما

عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. ومنها أن النذر مصدر بمعنى

الإنذار.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق في الجواب، أن من

كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيراً

واحداً فقد كذب جميع النذر، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة،

وهي مضمون لا إله إلا الله كما أوضحه تعالى بقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ} وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَاعْبُدُونِ}. وقوله تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ}.

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميع في قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَكُفِّرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا}، وأشار إلى ذلك في قوله: {لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ}. وقوله: {لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}. وقوله تعالى: {وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرَهُم}.

وقد أوضح تعالى في سورة الشعراء أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وذلك في قوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده، حيث فرد ذلك بقوله: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} - إلى قوله - {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ} وقوله تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ}، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده، حيث فرد به بقوله: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ونحو ذلك. في قوله تعالى في قصة صالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وأصحاب الأيكة، كما هو معلوم، وهو واضح لا خفاء فيه، ويزيده إيضاحاً قوله صلى الله عليه وسلم «إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» يعني أنهم كلهم متفقون في الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع.

وأما الأمر الثاني: وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات إله، فقد جاء هو واضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ فِرْعَوْنَ بِحَبْلٍ مِّن نَّبِيِّنَا وَمِمَّا يُوَسْوِسُ إِلَيْهِمْ الْأَغْوَىٰ} وقوله تعالى: {وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ فَجَدُّوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى {فَأَخَذْتَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ}، فقد جاء موضعاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: {وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ} - إلى قوله - {فَأَخَذْتَهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ} وقوله تعالى: {فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتَهُمْ} وقوله

تعالى: {وَأَعْرَفْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: {أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ} يوضحه قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ لِقَرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}.

وقد روى الشيخان في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم تلى قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ لِقَرَىٰ}»، والعزیز الغالب، والمقتدر: شديد القدرة عظيمها. قوله تعالى: {أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا}، وفي صدر سورة الروم، وغير ذلك من المواضع.

{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وُجْدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ * وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٍّ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَتَهْرٍ * فِي مَفْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}

قوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى {يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ تَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً}. قوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزخرف في بعض المناقشات التي ذكرناها في الكلام على قوله تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ}. قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٍّ}. الصحيح في معنى الآية أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر، التي هي صحف الأعمال، {وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٍّ}، أي مكتوب عليهم لا يترك منه شيء.

وهذا المعنى جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ يُؤْتِينَنَا مَا لِهَذَا لِكِتَابٍ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} وقوله تعالى {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا}.

والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب. والمستطر معناه المسطور، أي المكتوب، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَتَهْرٍ}. أي في جنات وأنهار كما أوضح تعالى ذلك في قوله {تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، وقوله تعالى {فِيهَا أَنْهَارٌ

مِنْ هَاءِ غَيْرِ عَاسِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنِ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمْرِ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِيِّنَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مَّصْفَىٰ}.

وقد ذكرنا كثيراً من أمثلة إطلاق المفرد، وإرادة الجمع كما هنا في القرآن العظيم، مع تنكير المفرد وتعريفه، وإضافته، وأكثرنا أيضاً من الشواهد العربية على ذلك في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً}، وفي غير ذلك من المواضع. والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة القمر

H J P

{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ حُسْبَانًا * وَاللَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي لَمِيزَانِ}

قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ}. قال بعض أهل العلم: نزلت هذه الآية لما تجاهل الكفار الرحمن جل وعلا، كما ذكره الله عنهم في قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ سَبِّحُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} كما تقدم في الفرقان.

وقد قدمنا معنى الرحمن وأدلته من الآيات في أول سورة الفاتحة. قوله تعالى: {عَلَّمَ الْقُرْآنَ}. أي علم نبيه صلى الله عليه وسلم القرآن فتلقته أمته عنه، وهذه الآية الكريمة تتضمن رد الله على الكفار في قولهم إنه تعلم هذا القرآن من بشر كما تقدم في قوله: {وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}، وقوله تعالى {فَقَالَ إِنِ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ} أي يرويه مجعد عن غيره.

وقوله تعالى {وَقَالَ لَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ فُتْرَاهُ وَأَغْيَاءَةٌ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسْطِيزُ الْأُولِينَ كُتِبَتْهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}.

فقوله تعالى هنا {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ} أي ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر، بل الرحمن جل وعلا هو الذي علمه إياه، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى {قُلْ أَنْزَلَهُ لِذِي الْعِلْمِ السَّرِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وقوله تعالى {لَرِ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}، وقوله تعالى {حَم تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وقوله تعالى {وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} وقوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِن لِّوَعِيدٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}

أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا}. وقوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} وقوله تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَاتَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ وَابَّعُ قُرْءَاتَهُمْ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ} وقوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا الْإِيمَانِ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} وقوله تعالى {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ لَقْصَصٍ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا لِقُرْءَانٍ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ}.

وقوله تعالى {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} ومن أعظم ذلك هذا القرآن العظيم.
وقوله تعالى {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْقُرْءَانِ}.

وتعليمه جل وعلا هذا القرآن العظيم، قد بين في مواضع أخر أنه من أعظم نعمه كما قال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا لِكِتَابٍ لِّذِينَ طُفِّفْنَا مِنْ عِبَادِنَا} - إلى قوله تعالى - {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}.
وقد علم الله تعالى الناس أن يحمده على هذه النعمة العظمى التي هي إنزال القرآن، وذلك في قوله تعالى {لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدِهِ لِكِتَابٍ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا}، وبين أن إنزاله رحمة منه لخلقه جل وعلا في آيات من كتابه كقوله تعالى {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ لِكِتَابٌ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} وقوله {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} وقد بينا الآيات الموضحة لذلك في الكهف والزخرف.

{عَلَّمَ الْقُرْءَانَ} حذف في أحد المفعولين، والتحقيق أن المحذوف هو الأول لا الثاني، كما ظنه الفخر الرازي، وقد رده عليه أبو حيان، والصواب هو ما ذكره، من أن المحذوف الأول، وتقديره: علم النبي صلى الله عليه وسلم وقيل جبريل، وقيل الإنسان. قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}. اعلم أولاً أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة، كما أشار تعالى لذلك بقوله، في أول النحل: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}، وقوله: في آخر سورة، {أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}.

فإنسان بالأمس نطفة واليوم هو في غاية البيان وشدة الخصام يجادل في ربه وينكر قدرته على البعث، فالمنافاة العظيمة التي بين النطفة وبين الإبانة في الخصام، مع أن خلقه من نطفة وجعله خصيماً مبيناً آية من آياته جل وعلا دالة على أن المعبود وحده، وأن البعث من القبور حق.

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة {خَلَقَ الْإِنْسَانَ} لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان، ولكنه بينها في آيات أخر كقوله تعالى في

الفلاح {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا إِلِعَاقَةً مُّضْغَةً فَخَلَقْنَا لِمُضْغَةً عِظْمًا فَكَسَبْنَاهَا لِعِظْمٍ لَّحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة. وقد بينا ما يتعلق بالإنسان من الأحكام في جميع أطواره قبل ولادته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ لَّبِثِ قَائِنًا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ}، وبيننا هناك معنى النطفة والعلقة والمضغة في اللغة. وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما في الضمير. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أنه علم الإنسان البيان قد جاء موضحاً في قوله تعالى {قَائِنًا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} في سورة النحل ويس، وقوله {مُبِينٌ} على أنه اسم فاعل أبان المتعدية، والمفعول محذوف للتعميم، أي مبين كل ما يريد بيانه، وإظهاره بلسانه مما في ضميره، وذلك لأنه ربه علمه البيان، وعلى أنه صفة مشبهة من أبان اللازمة، وأن المعنى فإذا هو خصيم مبين أي بين الخصومة ظاهرها، فكذلك أيضاً، لأنه ما كان بين الخصومة إلا لأن الله علمه البيان.

وقد امتن الله جل وعلا على الإنسان بأنه جعل له آلة البيان التي هي اللسان والشفتان، وذلك في قوله تعالى {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ}. قوله تعالى: {الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ حُسْبَانٌ}. الحسبان: مصدر زيدت فيه الألف والنون، كما زيدت في الطغيان والرجحان والكفران، فمعنى بحسبان أي بحساب وتقدير من العزيز العليم وذلك من آيات الله ونعمه أيضاً على بني آدم، لأنهم يعرفون به الشهور والسنين والأيام، ويعرفون شهر الصوم وأشهر الحج ويوم الجمعة وعدد النساء اللاتي تعتد بالشهور، كاليائسة والصغيرة والمتوفى عنها.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ}. قوله تعالى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}. اختلف العلماء في المراد بالنجم في هذه الآية، فقال بعض العلماء: النجم هو ما لا ساق له

من النبات كالبقول، والشجر هو ما له ساق، وقال بعض أهل العلم: المراد بالنجم نجوم السماء. قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله جل وعلا في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له سياق من النبات بخصوصه. ونعني بآية الحج قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ }.
 فدللت هذه الآية أن الساجد من الشجر في آية الرحمن هو النجوم السماوية المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وعلى هذا الذي اخترناه، فالمراد بالنجم النجوم، وقد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم وأول سورة الحج، وذكرنا أن من الشواهد العربية لإطلاق النجم وإرادة النجم قول الراعي: فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الأكلين جمودها

وقول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي:
 أبرزها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أتراب
 ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصا والتراب

وقوله في هذه الآية الكريمة: { يَسْجُدَانِ } قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ }. قوله تعالى: { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ }. قوله: والسماء رفعها قد بينا الآيات الموضحة له في سورة وَ في الكلام على قوله تعالى: { أَقْلَمَ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْتَاهَا }. وقوله: { وَوَضَعَ الْمِيزَانَ }، قد قدمنا الكلام عليه في سورة شوري في الكلام على قوله تعالى: { لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ لِكِتَابٍ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }.

{ وَأَقِيمُوا زُكُوفَ الْوُزْنِ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ * وَالرَّيْحَانُ * قَبَائِلَ الْعِبَادِ رَبِّكُمْ تَكْدِبَانِ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * قَبَائِلَ الْعِبَادِ رَبِّكُمْ تَكْدِبَانِ * رَبِّ لِمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ لِمَغْرِبَيْنِ * قَبَائِلَ الْعِبَادِ رَبِّكُمْ تَكْدِبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * قَبَائِلَ الْعِبَادِ رَبِّكُمْ تَكْدِبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * قَبَائِلَ الْعِبَادِ رَبِّكُمْ تَكْدِبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ * قَبَائِلَ

ءَالَاءِ رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا قَانَ * وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ دُو
 لَجَلِّ وَالْإِكْرَامِ * قَبَائِءَ ءَالَاءِ رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ * يَسْأَلُهُ مَنْ فِي
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * قَبَائِءَ ءَالَاءِ رَبِّكُمْ
 كَذَّبَانَ * سَتَفْرَعُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * قَبَائِءَ ءَالَاءِ رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ *
 يَمَعِشَرَ لِحَنٍّ وَإِنْسٍ إِن سَلِطَعْتُمْ أَن تَفْعُدُوا مِن أَقْطَرِ السَّمٰوٰتِ
 وَالْأَرْضِ فَانْفَعُوا لَا تَفْعُدُونَ إِلَّا بِسُلْطٰنٍ * قَبَائِءَ ءَالَاءِ رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ
 * يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ * قَبَائِءَ ءَالَاءِ
 رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ * فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * قَبَائِءَ
 ءَالَاءِ رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن دَنِيهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ *
 قَبَائِءَ ءَالَاءِ رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ * يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ
 بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * قَبَائِءَ ءَالَاءِ رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ {

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا لُوزَنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا لِمِيرَانَ}. قد
 قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام علي قوله
 تعالى: {وَأَوْفُوا لِكَيْلَ وَ لِمِيرَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
 وُسْعَهَا}، وذكرنا بعضه في سورة شوري. قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ
 وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَكِهَةٌ وَاللَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَ الْحَبُّ دُو لِعَصْفٍ
 وَالرَّيْحَانُ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية أنه وضع الأرض للأنام وهو
 الخلق، لأن وضع الأرض لهم علي هذا الشكل العظيم، القابل
 لجميع أنواع الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار و زرع الحبوب
 والثمار، ودفن الأموات وغير ذلك من أنواع المنافع. من أعظم
 الآيات وأكبر الآلاء التي هي النعم، ولذا قال تعالى بعده: {قَبَائِءَ
 ءَالَاءِ رَبِّكُمْ كَذَّبَانَ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه جل وعلا علي خلقه
 بوضع الأرض لهم بما فيها من المنافع، وجعلها آية لهم، دالة علي
 كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده، جاء موضحاً في آيات
 كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ
 فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ثَابِتَةً،
 وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ دَلُولاً فَ مَشُوا فِي
 مَنَاكِبِهَا وَكَلُوا مِن رِّزْقِهِ}.

وقوله تعالى {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا
 وَمَرْعَاهَا وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنعَمِكُمْ} وقوله تعالى
 {وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَ نِعَمَ لِمَهْدُونَ} وقوله تعالى {لَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
 الْأَرْضَ فِرَاشاً}.

وقوله تعالى {وَالْأَرْضَ مَدَدْتَهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن
 كُلِّ رَوْحٍ بِهِيَجْتَبِصِرَةٌ وَذِكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 مُّبْرَكاً}.

وقوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} والآيات
بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فِيهَا فَكِيهَةٌ} أي فواكه
كثيرة، وقد قدمنا أن هذا أسلوب عربي معروف، وأوضحنا ذلك
بالآيات وكلام العرب.

وقوله: {وَاللَّخْلُ دَاتٌ الْأَكْمَامِ} ذات أي صاحبة، والأكمام جمع كم
بكسر الكاف، وهو ما يظهر من النخلة في ابتداء إثمارها، شبه
اللسان ثم ينفخ عن النور، وقيل: هو ليفها، واختار ابن جرير
شموله للأميرين.

وقوله: {وَالْحَبُّ} كالقمح ونحوه.

وقوله: {دُو لِعَصْفٍ}، قال أكثر العلماء: العصف ورق الزرع، ومنه
قوله تعالى {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُولٍ} وقيل العصف: التبن.
وقوله: {وَالرَّيْحَانُ}: اختلف العلماء في معناه، فقال بعض أهل
العلم: هو كل ما طاب ريحه من النبات وصار يشم للتمتع بريحه.
وقال بعض العلماء الريحان: الرزق، ومنه قول النجم بن تولب
العكلي:

فروح الإله وريحانه ورجمته وسما درر
غمام ينزل رزق العباد فأحيا البلاد وطاب الشجر

ويتعين كون الريحان بمعنى الرزق على قراءة حمزة والكسائي،
وأما على قراءة غيرهما فهو محتمل للأميرين المذكورين.
وأيضاً ذلك أن هذه الآية قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم:
{وَالْحَبُّ دُو لِعَصْفٍ وَالرَّيْحَانُ} بضم الباء والذال والنون من
الكلمات الثلاث، وهو عطف على فاكهة أي فيها فاكهة، وفيها
الحب إلخ، وقرأه ابن عامر:

{وَالْحَبُّ دُو لِعَصْفٍ وَالرَّيْحَانُ}، بفتح الباء والذال والنون من
الكلمات الثلاث، وفي رسم المصحف الشامي ذا العصف بألف بعد
الذال، مكان الواو، والمعنى على قراءته: وخلق الحب ذا العصف
والريحان، وعلى هاتين القراءتين، فالريحان محتمل لكلا المعنيين
المذكورين.

وقراءة حمزة والكسائي بضم الباء في الحب وضم الذال في ذو
العصف وكسر نون الريحان عطفاً على العصف، وعلى هذا
فالريحان لا يحتمل المشموم لأن الحب الذي هو القمح ونحوه
صاحب عصف وهو الورق أو التبن وليس صاحب مشموم طيب
ريح.

فيتعين على هذه القراءة أن المراد بالعصف ما تأكله الأنعام من
ورق وتبن، والمراد بالريحان ما يأكله الناس من نفس الحب، فالآية

على هذا المعنى كقوله { مَتَّعَا لَكُمْ وَلَاتُغْمِكُمْ } وقوله تعالى { فَتَخْرِجْ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ } .
 وقوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَتِّ شَتَّكُلُوا وَ زَعُوا أَنْعَمَكُمْ } وقوله تعالى { لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { فِيهَا فَكِيهَةٌ } ما ذكره تعالى فيه من الامتنان بالفاكهة التي هي أنواع، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الفلاح { لَكُمْ فِيهَا قَوْكِيهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } وقوله تعالى: { وَفَكِيهَةٌ وَأَبَا } إلى غير ذلك من الآيات .

وما ذكره هنا من الامتنان بالحب جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى: { فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ لِخَصِيدٍ }، وقوله تعالى { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا } وقوله تعالى: { وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ }، وقوله تعالى { تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا } . وقوله تعالى: { إِنْ أَلَلَّةَ قَالِقُ لِحَبِّ وَالتَّوَى } إلى غير ذلك من الآيات .

وما ذكره تعالى هنا من الامتنان بالنحل جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: { وَالنَّحْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ يَّضِيدٌ رِّزْقًا لِلْعِبَادِ }، وقوله تعالى { فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ }، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وما ذكره هنا من الامتنان بالريحان، على أنه الرزق كما في قراءة حمزة والكسائي، جاء موضحاً في آيات كثيرة أيضاً كقوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا } وقوله تعالى: { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ }، وقوله تعالى: { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ } . وقوله تعالى: { وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ }، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

مسألة

أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } أن الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتى يرد دليل خاص بالمنع، لأن الله امتن على الأنام بأنه وضع لهم الأرض، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه في آية الرحمن هذه، وامتن عليهم بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً في قوله { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } .

ومعلوم أنه جل وعلا لا يمتن بحرام إذ لا منة في شيء محرم، واستدلوا لذلك أيضاً بحصر المحرمات في أشياء معينة في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى { قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَّا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا

عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ
خَنزِيرٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ}. وَقَوْلُهُ تَعَالَى {قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}.
وفي هذه المسألة قولان آخران.

أحدهما: أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على
الإباحة، واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله جل وعلا،
والأصل في ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه، وفي هذا
مناقشات معروفة في الأصول، ليس هذا محل بسطها.
القول الثاني: هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى
يقوم الدليل، فتحصل أن في المسألة ثلاثة مذاهب: المنع،
والإباحة، والوقف.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي صوابه في هذه
المسألة هو التفصيل، لأن الأعيان التي خلقها الله في الأرض
للناس بها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها.
الثانية: أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة
القاتلة.

الثالثة: أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى، فإن كان
فيها نفع لا يشوبه ضرر، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم
دليل على خلاف ذلك لعموم قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا}. وقوله {وَالْأَرْضَ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ}.

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله صلى
الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار».

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى فلها ثلاث حالات:
الأولى: أن يكون النفع أرجح من الضرر.
والثانية: عكس هذا.

والثالثة: أن يتساوى الأمران.

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساوياً له فالمنع لحديث «لا
ضرر ولا ضرار» ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وإن
كان النفع أرجح، فالأظهر الجواز، لأن المقرر في الأصول أن
المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة، كما أشار له
في مراقبي السعود بقوله: * وألغ إن يك الفساد أبعداً * أو رجح
الإصلاح كالأساراً تفدى بما ينفع للنصارا
وانظر تدلي دولي العنب في كل مشرق وكل مغرب

ومراداه: تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة، أو
البعيدة ممثلاً له بمثالين:

الأول منهما: أن تخلص أسارى المسلمين من أيدي العدو بالفداء
 مصلحة راجحة قدمت على المفسدة المرجوحة، التي هي انتفاع
 العدو بالمال المدفوع لهم فداء للأسارى.
 الثاني: أن انتفاع الناس بالعنب والزبيب، مصلحة راجحة على
 مفسدة عصر الخمر من العنب، فلم يقل أحد بإزالة العنب من
 الدنيا لدفع ضرر عصر الخمر منه، لأن الانتفاع بالعنب والزبيب
 مصلحة راجحة على تلك المفسدة، وهذا التفصيل الذي اخترنا، قد
 أشار له صاحب مراقي السعود بقوله: والحكم ما به يجيء الشرع
 وأصل كل ما يضر المنع

تنبيه
 اعلم أن علماء الأصول يقولون: إن الإنسان لا يحرم عليه فعل
 شيء إلا بدليل من الشرع، ويقولون إن الدليل على ذلك عقلي،
 وهو البراءة الأصلية المعروفة بالإباحة العقلية، وهي استصحاب
 العدم الأصلي حتى يرد دليل ناقل عنه.
 ونحن نقول: إنه قد دلت آيات من كتاب الله على أن استصحاب
 العدم الأصلي قبل ورود الدليل الناقل عنه حجة في الإباحة، ومن
 ذلك أن الله لما أنزل تشديده في تحريم الربا في قوله تعالى
 { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ }، وكانت وقت نزولها
 عندهم أموال مكتسبة من الربا، اكتسبوها قبل نزول التحريم، بين
 الله تعالى لهم أن ما فعلوه من الربا، على البراءة الأصلية قبل
 نزول التحريم لا حرج عليهم فيه، إذ لا تحريم إلا ببيان، وذلك في
 قوله تعالى: { فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ }
 وقوله: ما سلف أي ما مضى قبل نزول التحريم، ومن الآيات
 الدالة على ذلك قوله تعالى: { وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّن
 النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } وقوله تعالى { وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
 إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } والأظهر أن الاستثناء فيهما في قوله: { إِلَّا مَا قَدْ
 سَلَفَ }. منقطع أي لكن ما سلف من ذلك قبل نزول التحريم، فهو
 عفو، لأنه على البراءة الأصلية.

ومن أصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى { وَمَا كَانَ لِلَّهِ
 لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ } لأن النبي صلى
 الله عليه وسلم لما استغفر لعمه أبي طالب بعد موته على
 الشرك، واستغفر المسيلمون لموتهم المشركين عاتبهم الله في
 قوله { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
 كَرِهُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ }. ندموا على الاستغفار لهم، فبين الله لهم أن
 استغفارهم لهم لا مؤاخذة به، لأنه وقع قبل بيان منعه، وهذا صريح
 فيما ذكرنا.

وقد قدمنا أن الأخذ بالبراءة الأصلية يعذر به في الأصول أيضاً في الكلام على قوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا } وبيننا هناك كلام أهل العلم في ذلك، وأوضحنا ما جاء في ذلك من الآيات القرآنية. وإلعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ لِبَّجَانٍ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ }. الصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي صوت إذا قرع بشيء، وقيل الصلصال المنتن، والفخار الطين المطبوخ، وهذه الآية بين الله فيها طوراً من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ } وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ لِّبَعَثَ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ } وقوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } وقوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ } وقوله تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ }.

وقد بينا في قوله تعالى { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ } وقوله { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ } أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها، لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً، ولذا قال { أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } وقال { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ } وقال تعالى { وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ }. وقال { أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ } وقال تعالى: { إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ } ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنوناً، أي طيناً أسود متغير الريح، كما قال تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ }.

قال تعالى { إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ } وقال عن إبليس { قَالَ لِمَ أَكُنْ لَّاسْجُدًا لِّبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ } والمسنون قيل المتغير وقيل المصور وقيل الأملس، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالاً. كما قال هنا: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ } وقال { لِبَّجَانٍ } أي وخلق الجان وهو أبو الجن، وقيل هو إبليس. وقيل: هو الواحد من الجن.

وعليه فالألف واللام للجنس، والمارج: اللهب الذي لا دخان فيه، وقوله { مِّنْ نَّارٍ } بيان لمارج. أي من لهب صاف كائن من النار، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى خلق الجان من النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الحجر { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ } و { لِبَّجَانٍ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارٍ أَلْسُمُومٍ } وقوله تعالى { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ }.

وقد أوضحنا الكلام على هذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِيَّ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}. قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}. قد أوضحنا الكلام عليه في أول الصافات في الكلام على قوله تعالى {رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ}. قوله تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ يُوَجِّعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَّحْجُورًا}. قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}. قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو، {يَخْرُجُ} بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول، وعليه فاللؤلؤ نائب فاعل يخرج وقرأه باقي السبعة: {يَخْرُجُ} بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل، وعليه فاللؤلؤ فاعل يخرج.

اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية يخرج منهما أي من مجموعها الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب.

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه، لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى {وَمَا يَسْتَوِي لِيَخْرَاجَ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا} فالتنوين في قوله: {مِنْ كُلِّ} تنوين عوض أي من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها، وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه.

وقد أوضحنا هذا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى {يَمَعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} واللؤلؤ الدر، والمرجان الخرز الأحمر. وقال بعضهم: المرجان صغار الدر واللؤلؤ كباره. قوله تعالى: {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ}. قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه جل وعلا المتصف بالجلال والإكرام، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، وقوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَمُوتُ}. وقوله تعالى {كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ مَوْتٍ} إلى غير ذلك من الآيات.

والوجه صفة من صفات الله العلي وصف بها نفسه، فعلينا أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، وفي سورة القتال. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {يَمَعَشَرِ الْجِبِّ وَالْإِنْسِ إِنْ سَلَّطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: {وَحَفِظْتَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} وتكلمنا أيضاً هناك على غيرها من الآيات التي يفسرها الجاهلون بكتاب الله بغير معانيها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: {فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان، وقوله: {وَرْدَةً}: أي حمراء كلون الورد، وقوله {كَالدِّهَانِ}: فيه قولان معروفان للعلماء.

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه. والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه، فالدهان، قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد، لأن العرب تسمى ما يدهن به دهاناً، وهو مفرد، ومنه قول امرئ القيس: كأنهما مزادتا متعجل فريان لما تدهني بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشبهها بحمرة الورد. وحمرة الأديم الأحمر. قال بعض أهل العلم: إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة. وقال بعض أهل العلم: أصل السماء حمراء إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها. وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن الله وقد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن.

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر. وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه الله في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في المعارج {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَتَرَاهُ قَرِيبًا يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ}، والمهل

شيء ذائب على كلا القولين سواء قلنا: إنه دردي الزيت وهو عكره، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما. وقد أوضح تعالى في الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي لُوجُوهَ النَّاسِ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقًا}. والقول بأن الوردة تشبه الفرس الكमित وهو الأحمر لأن حرته تتلون باختلاف الفصول، فتشتد حرمتها في فصل، وتميل إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل. وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية، وقول من قال: إنها تذهب وتجيء معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا}، ولكنه لا يخلو عندي من بعد. وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ} وقوله تعالى {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ} وقوله: {وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ رِجَافًا}. وقوله: {إِذَا السَّمَاءُ انْقَطَرَتْ}، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة و في الكلام علي قوله تعالى: {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}. قوله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه يوم القيامة لا يسأل إنساناً ولا جاناً عن ذنبه، وبين هذا المعنى في قوله تعالى في القصص: {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَمُجْرِمُونَ}. وقد ذكر جل وعلا في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة المرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى {قَلِّتَسْأَلِينَ لِذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ وَلِتَسْأَلَنَّ لِمُرْسَلِينَ}، وقوله {قَوْرَبِكَ لَتَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافاً، اعلم أولاً أن للسؤال المنفي في قوله هنا {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}، وقوله {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَمُجْرِمُونَ} أخص من السؤال المثبت في قوله {قَوْرَبِكَ لَتَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، لأن هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء.

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أن السؤال نوعان: أحدهما سؤال

التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب، والثاني هو سؤال الاستخبار والاستعلام.

فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام، لأن الله أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: {أَخْصَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ}.

وعليه فالمعنى لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، سؤال استخبار واستعلام لأن الله أعلم بذنبه منه.

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ سَوَّدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ بِهَا لَكُمْ لَا تَنْصُرُونَ وَتَبِلَ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} وقوله تعالى {يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى تَارِجِهِمْ مَعَآهذِهِ النَّارُ أَلَيْسَ لِي بِهَا تُكْذِبُونَ أَفَسِحْرُ هَذَا}، وقوله {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ}.

أما سؤال الموعودة في قوله: {وَإِذَا لِمَوْعِدَةٍ سُئِلْتُمْ} فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الندب، لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت وهذا ليس من ذنبيها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه، لأنها هي تقول لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلماً.

وكذلك سؤال الرسل، فإن المراد به توبيخ من كذبهم وتقريعه، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته، وباقي أوجه الجمع بين الآيات لا يدل عليه قرآن، وموضوع هذا الكتاب بيان القرآن بالقرآن، وقد بينا بقيتها في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في أول سورة الأعراف.

وقد قدمنا طرفاً من هذا الكتاب المبارك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {فَلْتَسَأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْتَسَأَلَنَّ لِمُرْسَلِينَ} قوله تعالى: {يُعْرِفُ لِمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ}. قوله: {بِسِيمَاهُمْ}: أي بعلامتهم المميزة لهم، وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ سَوَّدَتْ وُجُوهُهُمْ}، وقال تعالى: {وَبِیَوْمٍ لَّقِيْمَةٌ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَی اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ}، وقال تعالى: {وَتَرَهْفُهُمْ ذُلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ لَّيْلِ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، وقال تعالى {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ تَرَهْفُهَا قَتْرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ لِقٰجِرَةٍ}، لأن معنى قوله {تَرَهْفُهَا قَتْرَةٌ} أي يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود، وقال تعالى في زرقة عيونهم: {وَتَحْشُرُ لِمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ}

زُرْقًا} ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون، ولذا لما أراد الشاعر أن يقيح علل البخيل بأسوأ الأوصاف وأقبحها، فوصفها بسواد الوجوه وزرقة العيون حيث قال:
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره، كما في قوله: {عَلَيْهَا
عَبْرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتْرَةٌ} فإن ذلك يزيد قبحاً على قبح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَيُؤَخِّدُ بِاللَّوْصِي وَالْأَقْدَامِ}، وقد قدمنا تفسيره والآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى: {يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى تَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً} .

{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمٍ ءَانَ * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
جَنَّتَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * ذَوَاتَا أَفْتَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ
كُذِّبَان * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * فِيهِمَا
مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * مُتَكَيِّفٍ عَلَى
فُرْشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ
كُذِّبَان * فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْطُرُفِ لَمْ يَطْمِئْتُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَان *
قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * كَانْتَهَنَّ لِيَأْفُوتَ وَلِمَرْجَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ
رَبِّكُمْ كُذِّبَان * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ * قَبَائِءَ الْآلَاءِ
رَبِّكُمْ كُذِّبَان * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان *
مُدْهَامَّتَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَصَّاحَتَان *
قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ
رَبِّكُمْ كُذِّبَان * فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِيسَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان *
حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَام * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * لَمْ
يَطْمِئْتُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان * مُتَكَيِّفٍ
عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَيْقُرٍ حِيسَان * قَبَائِءَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ كُذِّبَان *
تَبَارَكَ سَلْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام}

قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانَ}. أما قوله: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا

الْمُجْرِمُونَ} فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور أيضاً
في الكلام على قوله تعالى: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} .

وأما قوله تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانَ} فقد قدمنا
الآيات الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله: {يُصَبُّ

مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ لِحَمِيمٍ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ} . قوله تعالى:
{وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} . وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب

المبارك، أن الآية قد يكون فيها وجهان صحيحان كلاهما يشهد له

قرآن، فنذكر ذلك كله مبينين أنه كله حق، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، ومن ذلك هذه الآية الكريمة. وإيضاح ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها وجهان معروفان عند العلماء، كلاهما يشهد له قرآن: أحدهما: أن المراد بقوله: {مَقَامَ رَبِّهِ}: أي قيامه بين يدي ربه، فالمقام اسم مصدر بمعنى القيام، وفاعله على هذا الوجه هو العبد الخائف، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه بين يديه، وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى: {يَوْمًا مِّنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَتَهَى النَّفْسَ عَنِ لَهْوَئِقَانِ الْجَنَّةِ هِيَ لِمَا وُيِّئُ} ، فإن قوله: {وَتَهَى النَّفْسَ عَنِ لَهْوَئِ} : قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه، فهي نفسه عن هواها.

والوجه الثاني: أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام، هو الله تعالى: أي خاف هذا العبد قيام العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه، ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم كقوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِحَىٰ لِقَائِهِ} ، وقوله تعالى: {أَقَمَنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} ، وقوله تعالى: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} . إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى في شأن الجن: {يَقُومَتَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ} ، أن قوله: {وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ} ، وتصريحه بالامتنان بذلك على الإنس والجن في قوله {قَبَائِلَ آلِ رِبِّكُمْ} تُكَدِّبَانِ} ، نص قرآني على أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة. قوله تعالى: {مُتَّكِنِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} . قد بينا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} جميع الآيات القرآنية الدالة على تنعم أهل الجنة بالسندس والإستبرق، والحلية بالذهب والفضة، وبيننا أن جميع ذلك يحرم على ذكور هذه الأمة في دار الدنيا. قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ لِّلطَّرْفِ} . قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ لِّلطَّرْفِ عَيْنٍ} . قوله تعالى: {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} . قد قدمنا معنى القصر في الخيام، وقصر الطرف على الأزواج في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ لِّلطَّرْفِ عَيْنٍ} ، وقدما الآيات الدالة على صفات نساء أهل الجنة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في سورة البقرة والصافات. وغير ذلك.

تم بحمد الله تفسير سورة الرحمن

تفسير سورة الواقعة

{ إِذَا وَقَعَتْ لُؤَاقِعُهُ * لَيْسَ لِيُؤَفَعَتِهَا كَاذِبُهُ * خَاوِصَةُ رَافِعُهُ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ لِجِبَالٍ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ لَيْمَمَةٍ مَّا أَصْحَابُ لَيْمَمَةٍ * وَأَصْحَابُ لَيْمَمَةٍ مَّا أَصْحَابُ لَيْمَمَةٍ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّتِ اللَّعِيمِ }

قوله تعالى: { إِذَا وَقَعَتْ لُؤَاقِعُهُ لَيْسَ لِيُؤَفَعَتِهَا كَاذِبُهُ }. الذي يظهر لي صوابه أن إذا هنا هي إلظرفية المضمنة معنى الشرط، وأن قوله الآتي: { إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا } يدل من قوله: { إِذَا وَقَعَتْ لُؤَاقِعُهُ } وأن جواب إذا هو قوله: { فَأَصْحَابُ لَيْمَمَةٍ }، وهذا هو اختيار أبي حيان خلافاً لمن زعم أنها مسلووبة بمعنى الشرط هنا، وأنها منصوبة بأذكر مقدره أو أنها مبتدأ، وخلافاً لمن زعم أنها منصوبة بليس المذكورة بعدها.

والمعروف عند جمهور النحويين أن إذا ظرف مضمن معنى الشرط منصوب بجزائه، وعليه فالمعنى: إذا قامت القيامة وحصلت هذه الأحوال العظيمة ظهرت منزلة أصحاب الليممة وأصحاب المشأمة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: { إِذَا وَقَعَتْ لُؤَاقِعُهُ } أي قامت القيامة، فالواقعة من أسماء القيامة كالطامة والصاخة والآزفة والقارعة.

وقد بين جل وعلا أن الواقعة هي القيامة في قوله: { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَهُ وَجِدَّةٌ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ لِجِبَالٍ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَّةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ لُؤَاقِعُهُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ }. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { لَيْسَ لِيُؤَفَعَتِهَا كَاذِبُهُ } فيه

أوجه من التفسير معروفة عند العلماء كلها حق، وبعضها يشهد له قرآن.

الوجه الأول: أن قوله كاذبة مصدر جاء بصفة اسم الفاعل، فالكاذبة بمعنى الكذب كالعافية بمعنى المعافاة، والعاقبة بمعنى العقبي، ومنه قوله تعالى عند جماعات من العلماء { لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَّةً } قالوا معناه لا تسمع فيها لغواً، وعلى هذا القول، فالمعنى ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف بل هو أمر واقع يقيناً لا محالة. ومن هذا المعنى، قولهم: حمل الفارس على قرنه فما كذب، أي ما تأخر ولا تخلف ولا جبن.

وقال بعض العلماء: تقديره، خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة، كما قال تعالى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} وقال تعالى: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}. رافعة: أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض كما قال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}، فقوله: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}، لأنها لم يبق على ظهرها شيء من الجبال، وقال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}. وقد قدمنا أن التحقيق الذي دل عليه القرآن، أن ذلك يوم القيامة، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذي هو المزن. وقد صرح بأن الجبال تحمل هي والأرض أيضاً يوم القيامة. وذلك في قوله تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ تَفَجَّ وَجَدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ}.

وعلى هذا القول، فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة، وأنه يختل فيه نظام العالم، وعلى القولين الأولين، فالمراد الترغيب والترهيب، ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضاً، وقد قدمنا مراراً أن الصواب في مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع. قوله تعالى: {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}. قد قدمنا أن الأظهر عندنا أن قوله {إِذَا رُجَّتِ} بدل من قوله {إِذَا وَقَعَتِ لَوَاقِعُهُ}، والرج: التحريك الشديد، وما دلت عليه هذه الآية من أن الأرض يوم القيامة تحرك تحريكاً شديداً جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} وقوله تعالى: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} في معناه لأهل العلم أوجه متقاربة، لا يكذب بعضها بعضاً وكلها حق، وكلها يشهد له قرآن.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها أوجه كلها حق وكلها يشهد له قرآن، فنذكر جميع الأوجه وأدلتها القرآنية.

قال أكثر المفسرين {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} أي فتت تفتيتاً حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، ومنه قول لص من غطفان أراد أن يخبز دقيقاً عنده فخاف أن يعجل عنه، فأمر صاحبيه أن يلتاه ليأكلوه دقيقاً ملتوتاً، وهو البسيسة. لا تخبزاً خبزاً وبسابسا ولا تطيلاً بمناخ حبسا

وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ
وَ الْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا}، فقوله: {كَثِيبًا مَّهِيلًا} أي رملاً
متهايلاً، ومنه قول امرئ القيس:
ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل

ومشابهة الدقيق الميسوس بالرمل المتهايل واضحة، فقوله:
{وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا} مطابق في المعنى لتفسير {وَبُسَّتِ
الْجِبَالُ بَسًّا} بأن بسها هو تفتيتها وطحنها كما ترى.
وما دلت عليه هذه الآيات من أنها تسلب عنها قوة الحجرية
وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذي هو كلين الدقيق،
والرمل المتهايل يشهد له في الجملة تشبيهها في بعض الآيات
بالصوف المنفوش الذي هو العهن، كقوله تعالى {وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}، وقوله تعالى: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} وأصل العهن أخص من مطلق الصوف لأنه
الصوف المصبوغ خاصة. ومنه قول زهير بن أبي سلمى في
معلقته:

كأن فتاة العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

وقال بعضهم: الجبال منها جدد بيض وحممر ومختلف ألوانها
وغرايب سود، فإذا بست وفتت يوم القيامة وطيرت في الجو
أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهوى، وهذا الوجه يدل عليه
ترتيب كينونتها هباء منبثاً بالفاء على قوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا}
لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها:
{مُنْبَثًّا} أي متفرقا، ووصفها بالهباء المنبث أنسب لتكون البس
بمعنى التفتيت والطحن.

الوجه الثاني: أن معنى قوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} أي سيرت
بين السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها
من قول العرب: بسست الإبل أبسها، بضم الباء وأبستها أبسها
بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها، ومنه حديث: «يخرج
أقوام من المدينة إلى اليمن والشام، والعراق يبسون والمدينة
خير لهم لو كانوا يعلمون».

وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَيَوْمَ
تُسَيِّرُ الْجِبَالَ}، وقوله {وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}.
وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على
قوله: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}.
الوجه الثالث: أن معنى قوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} نزع من
أماكنها وقلعت، وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع

الإيضاح التام لأحوال الجبال يوم القيامة، وأطوارها، بالآيات
القرآنية، وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}، وقوله تعالى في هذه الآية
الكريمة {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا} كقوله تعالى: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا}، والهباء إذا انبث، أي تفرق، واضمحل وصار لا
شيء، والسراب قد قال الله تعالى فيه: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ
شَيْئًا}. قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}. أي صرتم أزواجًا ثلاثة،
والعرب تطلق كان بمعنى صار، ومنه {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} أي فتصيرا من الظالمين.
ومنه قول الشاعر: بتيهاء قفر والمطي كأنها قطا الحزن قد كانت
فراخاً بيوضها

وقوله: {أَزْوَاجًا}: أي أصنافاً ثلاثة، ثم بين هذه الأزواج الثلاثة
بقوله: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ
مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
أَصْحَابٌ يَمِينٌ} أما أصحاب الميمنة فهم أصحاب اليمين، كما
أوضحه تعالى بقوله: {وَأَصْحَابُ الِّيمِينِ مَا أَصْحَابُ الِّيمِينِ فِي
سِدْرٍ مَّخْضُودٍ}، وأصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال كما
أوضحه تعالى: بقوله {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي
سَمُومٍ وَحَمِيمٍ}.
قال بعض العلماء: قيل لهم أصحاب اليمين لأنهم يؤتون كتبهم
بأيمانهم.

وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة.
وقيل: لأنهم عن يمين أبيهم آدم، كما رآهم النبي صلى الله عليه
وسلم كذلك ليلة الإسراء.
وقيل سموا أصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة لأنهم ميامين، أي
مباركون على أنفسهم، لأنهم أطاعوا ربهم فدخلوا الجنة، واليمن
البركة.

وسمي الآخرون أصحاب الشمال، وقيل: لأنهم يؤتون كتبهم
بشمالهم.

وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار، والعرب تسمي
الشمال شؤماً، كما تسمي اليمين يمينا، ومن هنا قيل لهم أصحاب
المشأمة أو لأنهم مشائيم على أنفسهم: فعصوا الله فأدخلهم
النار، والمشائيم ضد الميامين، ومنه قول الشاعر: مشائيم ليسوا
مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بين غرابها

وبين جل وعلا أن السابقين هم المقربون، وذلك في قوله: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}، وهذه الأزواج الثلاثة المذكورة هي وجزاؤها في أول هذه السورة الكريمة جاءت هي وجزاؤها أيضاً في آخرها، وذلك في قوله: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ بِعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُكذِبِينَ فَالصَّالِينَ فَتَرْجُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَضْلِيلَةٌ جَعِيمٍ}.

والمكذبون هم أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال. وذكر تعالى بعض صفات أصحاب الميمنة والمشأمة في البلد في قوله تعالى: {فَكَ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ} - إلى قوله تعالى - {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ وَ لَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ تَارٌ مُؤَصَّدَةٌ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مَا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ}، وقوله: {مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}

استفهام أريد به التعجب من شأن هؤلاء في السعادة، وشأن هؤلاء في الشقاوة، والجملة فيهما مبتدأ وخبر، وهي خبر المبتدأ قبله، وهو أصحاب الميمنة في الأول وأصحاب المشأمة في الثاني. وهذا الأسلوب يكثر في القرآن نحو {لِحَاقَةُ مَا لِحَاقَةُ}، {لِقَارِعَةُ مَا لِقَارِعَةُ}. والرابط في جملة الخبر في جميع الآيات المذكورة هو إعادة لفظ المبتدأ في جملة الخبر كما لا يخفى، وقوله: {وَالسَّابِقُونَ} لم يذكر فيه استفهام تعجب كما ذكره فيما قبله، ولكنه ذكر في مقابلة تكرير لفظ السابقين. والأظهر في إعرابه أنه مبتدأ وخبر على عادة العرب في تكريرهم اللفظ وقصدهم الإخبار بالثاني عن الأول، يعنون أن اللفظ المخبر عنه هو المعروف خبره الذي لا يحتاج إلى تعريف ومنه قول أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري لله درى ما أجن صدري

فقوله: وشعري شعري يعني شعري هو الذي بلغك خبره، وانتهى إليك وصفه.

{ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ * مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا مُتَقِيلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزَفُونَ * وَقَكِيهَةٌ * مِمَّا يَتَخَبَّروْنَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الِّمَكْنُونِ * حَرَاءَ بَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ

مَسْكُوبٌ * وَفِكَهَةٌ كَثِيرَةٌ * لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ * وَفُرْشٌ
 مَرْفُوعَةٌ * إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَرًا * عُرْبًا أَتْرَابًا *
 لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ * وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ
 الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّنْ
 يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا
 يُصِرُّونَ عَلَىٰ لِحْنِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يُقُولُونَ آءَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا
 وَعِظْمًا آءَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاءُؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنْ الْأُولَىٰ
 وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ {
 قوله تعالى: {ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}. وقوله: ثلة: خبر
 مبتدأ محذوف، والتقدير، هم ثلة، والثلة الجماعة من الناس،
 وأصلها القطعة من الشيء وهي الثل، وهو الكسر.
 وقال الزمخشري: والثلة من الثل، وهو الكسر، كما أن الأمة من
 الأم وهو الشيخ، كأنها جماعة كسرت من الناس، وقطعت منهم. ا
 هـ. منه.
 واعلم أن الثلة تشمل الجماعة الكثيرة، ومنه قول الشاعر:
 فجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كتيار من السيل مزيد

لأن قوله: تيار من السيل: يدل على كثرة هذا الجيش المعبر عنه
 بالثلة.

وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الثلة من الأولين، وهذا
 القليل من الآخرين المذكورين هنا، كما اختلفوا في الثلثين
 المذكورين في قوله: {ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}. فقال
 بعض أهل العلم: كل هؤلاء المذكورين من هذه الأمة، وأن المراد
 بالأولين منهم الصحابة.

وبعض العلماء يذكر معهم القرون المشهود لهم بالخير في قوله
 صلى الله عليه وسلم «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم»
 الحديث. والذين قالوا: هم كلهم من هذه الأمة، قالوا: إنما المراد
 بالقليل، وثلة من الآخرين، وهم من بعد ذلك إلى قيام الساعة.
 وقال بعض العلماء: المراد بالأولين في الموضوعين الأمم الماضية
 قبل هذه الأمة، فالمراد بالآخرين فيهما هو هذه الأمة.
 قال مقيد عفا الله عنه، وغفر له: ظاهر القرآن في هذا المقام:
 أن الأولين في الموضوعين من الأمم الماضية، والآخرين فيهما من
 هذه الأمة، وأن قوله تعالى: {ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}
 في السابقين خاصة، وأن قوله: {ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ
 الْآخِرِينَ} في أصحاب اليمين خاصة.

وإنما قلنا: إن هذا هو ظاهر القرآن في الأمور الثلاثة، التي هي
 شمول الآيات لجميع الأمم، وكون قليل من الآخرين في خصوص

السابقين، وكون ثلثة من الآخرين في خصوص أصحاب اليمين لأنه واضح من سياق الآيات.

أما شمول الآيات لجميع الأمم فقد دل عليه أول السورة، لأن قوله: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} - إلى قوله - {فَكَأَنَّ هَبَاءً مُنْبِتًا} لا شك أنه لا يخص أمة دون أمة، وأن الجميع مستوون في الأحوال والحساب والجزاء.

فدل ذلك على أن قوله: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} عام في جميع أهل المحشر، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين منهم من هو من الأمم السابقة، ومنهم من هو من هذه الأمة.

وعلى هذا، فظاهر القرآن، أن السابقين من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة، وأن أصحاب اليمين من الأمم السابقة ليست أكثر من أصحاب اليمين من هذه الأمة، لأنه عبر في السابقين من هذه الأمة بقوله: {وَقَلِيلٌ مِّنَ الْأَخِيرِينَ} وعبر عن أصحاب اليمين من هذه الأمة {وَتِلْكَ مِّنَ الْأَخِيرِينَ}.

ولا غرابة في هذا، لأن الأمم الماضية أمم كثيرة. وفيها أنبياء كثيرة ورسول، فلا مانع من أن يجتمع من سابقها من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من سابقي هذه الأمة وحدها.

أما أصحاب اليمين من هذه الأمة فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم، لأن الثلثة تتناول العدد الكثير، وقد يكون أحد العددين الكثيرين أكثر من الآخر، مع أنهما كلاهما كثير. ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن واختاره ابن جرير، لا ينافي ما جاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة.

فأما كون قوله {وَقَلِيلٌ مِّنَ الْأَخِيرِينَ} دل ظاهر القرآن على أنه في خصوص السابقين، فلأن الله قال {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} ثم قال تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين {تِلْكَ مِّنَ الْأُولَى وَمِنْ الْأَخِيرِينَ}.

وأما كون قوله: {وَتِلْكَ مِّنَ الْأَخِيرِينَ} في خصوص أصحاب اليمين، فلأن الله تعالى قال {فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَرًا عَزْبًا أُنثَرًا بِالْأَصْحَابِ لِيَمِينَهُنَّ مِّنَ الْأُولَى وَتِلْكَ مِّنَ الْأَخِيرِينَ}، والمعنى هم أي أصحاب اليمين:

ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين، وهذا واضح كما ترى. قوله تعالى: {عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مَّتَكِينٍ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ}. السر جمع سرير، وقد بين تعالى: أن سررهم مرفوعة في قوله: في الغاشية {فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ} وقوله تعالى {مَّوْضُونَةٍ} منسوجة بالذهب،

وبعضهم يقول بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت، وكل نسج

أحكم ودوخل بعضه في بعض، تسمية العرب وضنا، وتسمى

المنسوج به موضونا ووضينا، ومنه الدرع الموضونة إذا أحكم

نسجها ودوخل بعض حلقاتها في بعض.

ومنه قول الأعشى:
ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيرا فعيرا

وقوله أيضاً:
وبيضاء كالنهي موضونة لها قونس فوق جيب البدن

ومن هذا القبيل تسمية البطان الذي ينسج من السيور، مع إدخال بعضها في بعض وضيئنا.

ومنه قول الراجز:

ليك تعدو قلعا وضيئنا معترضا في بطنها جنينها
* مخالفاً دين النصارى دينها *

وهذه السري المزينة، هي المعبر عنها بالأرائك في قوله {مُتَّكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} وقوله: {هُمُ وَأَرْوُجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِّونَ} وقوله في هذه الآية الكريمة {مُتَّكِّينَ} حال من الضمير في قوله {عَلَى سُرُرٍ} والتقدير: استقروا على سرر في حال كونهم متكئين عليها.

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين، أي ينظر بعضهم إلى وجه بعض، كلهم يقابل الآخر بوجهه، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى في الحجر {وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} وقوله في الصافات {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوْكَهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتٍ الْيَعْلَمُونَ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}. قوله تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ}. قوله تعالى: {وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على

قوله تعالى {يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} وفي المائدة في الكلام على قوله تعالى {إِنَّمَا لَحْمٌ وَ لَمْيَسِيرٌ}. قوله تعالى: {وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى {وَأَمْدَدْتُهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. قوله تعالى: {وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَلِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى {وَلَهُمْ فِيهَا أَرْوُجٌ مُطَهَّرَةٌ}، وفي الصافات في الكلام على قوله تعالى {وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ آلْطَّرْفِ عِينٌ} وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}. قد قدمنا

الكلام عليه بإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى
 {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَاءٌ}
 وتكلمنا هناك على الاستثناء المنقطع وذكرنا شواهد من القرآن
 وكلام العرب، وبيننا كلام أهل العلم في حكمه شرعاً. قوله تعالى:
 {وَوَظِلٌّ مَّمْدُودٍ وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ وَفِكْهَةٌ كَثِيرَةٌ لَا مَفْطُوعَةٌ وَلَا
 مَمْنُوعَةٌ}.

أما قوله {وَوَظِلٌّ مَّمْدُودٍ} فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة
 النساء في الكلام على قوله تعالى {وَوُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} وأما
 قوله {وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ} فقد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله
 كقوله تعالى {فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ} وقوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ
 فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} وقوله {وَتَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ
 أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ}. إلى غير ذلك من الآيات.

والمسكوب اسم مفعول سكب الماء ونحوه إذا صبه بكثرة،
 والمفسرون يقولون: إن أنهار الجنة تجري في غير أقدود، وإن
 الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاءوا، كما قال تعالى {عَيْنًا
 يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} وأما قوله {وَفِكْهَةٌ
 كَثِيرَةٌ}: فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في
 الكلام على قوله تعالى {وَأَمَدَدْتُهُمْ بِفِكْهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}.
 قوله تعالى: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَرًا عُرْبًا
 أُرَابًا لِأَصْحَابِ لَيْمِينَ}. الضمير في أنشأناهن: قال بعض أهل
 العلم: هو راجع إلى مذكور، وقال بعض العلماء. هو راجع إلى غير
 مذکور، إلا أنه دل عليه المقام.

فمن قال إنه راجع إلى مذکور، قال هو راجع إلى قوله {وَفُرُشٍ
 مَّرْفُوعَةٍ} قال: لأن المراد بالفرش النساء، والعرب تسمى المرأة
 لباساً وإزاراً وفراشاً ونعللاً، وعلى هذا فالمراد بالرفع في قوله
 {مَّرْفُوعَةٍ} رفع المنزلة والمكانة.

ومن قال: إنه راجع إلى غير مذکور، قال: إنه راجع إلى نساء لم
 يذكرن، ولكن ذكر الفرش دل عليهن. لأنهن يتكنن عليها مع
 أزواجهن.

وقال بعض العلماء: المراد بهن الحور العين، واستدل من قال ذلك
 بقوله {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً} لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع.
 وقالت جماعة من أهل العلم: أن المراد بهن بنات آدم التي كن في
 الدنيا عجائز شمطاً رمصاً، وجاءت في ذلك آثار مرفوعة عنه صلى
 الله عليه وسلم، وعلى هذا القول: فمعنى أنشأناهن إنشاء أي
 خلقناهن خلقاً جديداً.

وقوله تعالى {فَجَعَلْنَاهُنَّ} أي فصيرناهن أبقاراً، وهو جمع بكر،
 وهو ضد الثيب.

وقوله {عُرْبًا} قرأه عامة القراء السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم {عُرْبًا} بضم العين والراء، وقرأ حمزة وشعبة {عُرْبًا} بسكون الراء، وهي لغة تميم، ومعنى القراءتين واحد، وهو جمع عروب، وهي المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعل، وهذا هو قول الجمهور. وهو الصواب إن شاء الله.

ومنه قول لبيد:

وفي الخباء عروب غير فاحشة ربا الروادف يعشى دونها البصر

وقوله تعالى: {أَتْرَابًا} جمع ترب بكسر التاء، والترب اللذة. وإيضاحه أن ترب الإنسان ما ولد معه في وقت واحد، ومعناه في الآية: أن نساء أهل الجنة على سن واحدة ليس فيهن شابة وعجوز، ولكنهن كلهن على سن واحدة في غاية الشباب. وبعض العلماء يقول: إنهن ينشأن مستويات في السن على قدر بنات ثلاثة وثلاثين سنة، وجاءت بذلك آثار مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكون الأتراب بمعنى المستويات في السن مشهور في كلام العرب.

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة: أبرزوها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أتراب

وهذه الأوصاف الثلاثة التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من صفات نساء أهل الجنة، جاءت موضحة في آيات أخر.

أما كونهن يوم القيامة أبقاراً، فقد أوضحه في سورة الرحمن في قوله تعالى: {لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} في الموضعين لأن قوله: {لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} نص في عدم زوال بكارتهن، وأما كونهن عرباً أي متحبات إلى أزواجهن، فقد دل عليه قوله في الصافات: {وَعِنْدَهُمْ قَصِيرٌ لَطْرَفٍ عَيْنٌ} لأن معناه أنهن قاصرات العيون على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لشدة محبتهم لهم واقتناعهن بهم، كما قدمنا إيضاحه، ولا شك أن المرأة التي لا ينظر إلى غير زوجها متحبة إليه حسنة التبعل معه.

وقوله في حر: {وَعِنْدَهُمْ قَصِيرٌ لَطْرَفٍ أترابٌ}، وقوله في الرحمن: {فِيهِنَّ قَصِيرٌ لَطْرَفٍ لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}، وأما كونهن أتراباً فقد بينه تعالى في قوله في آية حر هذه، {وَعِنْدَهُمْ قَصِيرٌ لَطْرَفٍ أترابٌ}، وفي سورة النبا في قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنِيًا وَكَوَاعِبَ أتراباً}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {لَا صَحْبَ لِيَمِينٍ} يتعلق بقوله: {إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ}، وقوله {فَجَعَلْنَهُنَّ} أي: أنشأناهن وصيرناهن أبقاراً لأصحاب اليمين. قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ

الْشَّمَالِ مَا أَصْحَبُ الشَّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ { .
 قد قدمنا معنى أصحاب الشمال في هذه السورة الكريمة،
 وأوضحنا معنى السموم في الآيات القرآنية التي يذكر فيها في
 سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى { فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا
 عَذَابَ السَّمُومِ } .

وقد قدمنا صفات ظل أهل النار وظل أهل الجنة في سورة النساء
 في الكلام على قوله تعالى { وَتَدْخُلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا } وبيننا هناك أن
 صفات ظل أهل النار هي المذكورة في قوله هنا { وَظِلٌّ مِّنْ
 يَّحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ } وقوله في المرسلات { أِنَّا نَطَّلُوا إِلَىٰ ظِلِّ
 ذِي تَلْتَلٍ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِّنَ اللَّهَبِ } .

وقوله: { مِّنْ يَّحْمُومٍ } أي من دخان أسود شديد السواد ووزن
 اليحموم يفعول، وأصله من الحمم وهو الفحم، وقيل: من الحم،
 وهو الشحم المسود لاحتراقه بالنار. قوله تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
 ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لِحْنِ لِعَظِيمٍ } . قد قدمنا الكلام
 عليه في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى: { قُلُوا إِنَّا كُنَّا
 قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا } .

قوله تعالى: { وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا
 لَمَبْعُوثُونَ } . لما ذكر جل وعلا ما أعد لأصحاب الشمال من
 العذاب، بين بعض أسبابه، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك في دار
 الدنيا مترفين أي متنعمين، وقد قدمنا أن القرآن دل على أن
 الإتراف والتنعم والسرور في الدنيا من أسباب العذاب يوم
 القيامة، لأن صاحبه معرض عن الله لا يؤمن به ولا برسله، كما
 دلت عليه هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: { فَسَوْفَ يَدْعُوا
 ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا } ، وقد أوضحنا هذا
 في الكلام على آية الطور المذكورة آنفاً.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سبباً لدخول
 النار، لأن قوله تعالى لما ذكر أنهم في سموم وحميم وظل من
 يحموم، بين أن من أسباب ذلك أنهم قالوا { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
 وَعِظْمًا } جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى { وَإِن تَعَجَّبْ
 فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 رَبَّهُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَعْلَىٰ } وَأَعْتَقَهُمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ } .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الفرقان في الكلام
 على قوله تعالى: { وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا } ، وما ذكره
 جل وعلا في هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين في
 قوله { أَوْ ءَابَاؤُنَا [الَّذِينَ] } وأنه تعالى بين لهم أنه يبعث الأولين
 والآخرين في قوله، { قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ

مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ { جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فبيننا فيه أن البعث الذي أنكروا، سيتحقق في حال كونهم أذلاء صاغرين، وذلك في قوله تعالى في الصافات { وَقَلِّبْنَا إِنْ هَدَأْنَا إِلَّا سِخْرًا مَّيِّنًا دَا مِئْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْيُنًا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ ءَابَاؤُنَا لِلأُولَوْنَ قُلْ تَعْمُ وَأَنْتُمْ دُخْرُونَ قَائِمًا هِيَ رَجْرَةٌ وَجِدَةٌ قَائِمًا هُمْ يَنْظُرُونَ } . وقوله: { أَوْ ءَابَاؤُنَا لِلأُولَوْنَ }، قرأه عامة القراء السبعة، غير ابن عامر وقالون عن نافع: { أَوْ ءَابَاؤُنَا } بفتح الواو على الاستفهام والعطف، وقد قدمنا مراراً أن همزة الاستفهام إذا جاءت بعدها أداة عطف كالواو والفاء، وتم نحو { أَوْ ءَابَاؤُنَا } أَقَامِنَ أَهْلُ لُقْرَى { } { أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ }، أن في ذلك وجهين لعلماء العربية والمفسرين الأول، منهما أن أداة العطف عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ما قبلها، وهمزة الاستفهام متأخرة رتبة عن حرف العطف، ولكنها قدمت عليه لفظاً لا معنى لأن الأصل في الاستفهام التصدير به كما هو معلوم في محله.

والمعنى على هذا واضح وهو أنهم أنكروا بعثهم أنفسهم بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وعطفوا على ذلك بالواو إنكارهم بعث آبائهم الأولين، بأداة الإنكار التي هي الهمزة المقدمة عن محلها لفظاً لا رتبة، وهذا القول هو قول الأقدمين من علماء العربية، واختاره أبو حيان في البحر المحيط وابن هشام في مغني اللبيب، وهو الذي صرنا نميل إليه أخيراً بعد أن كنا نميل إلى غيره. الوجه الثاني: هو أن همزة الاستفهام في محلها الأصلي، وأنها متعلقة بجملة محذوفة، والجملة المصدرية بالاستفهام معطوفة على المحذوفة بحرف العطف الذي بعد الهمزة، وهذا الوجه يميل إليه الزمخشري في أكثر المواضع من كشافه، وربما مال إلى غيره. وعلى هذا القول، فالتقدير: أمبعوثون نحن وآباؤنا الأولون؟ وما ذكره الزمخشري هنا من أن قوله: { ءَابَاؤُنَا } معطوف على واو الرفع في قوله: { لَمَبْعُوثُونَ }، وأنه ساغ العطف على ضمير رفع متصل من غير توكيد بالضمير المنفصل لأجل الفصل بالهمزة لا يصح، وقد رده عليه أبو حيان وابن هشام وغيرهما. وهذا الوجه الأخير مال إليه ابن مالك في الخلاصة في قوله: وحذف متبوع بدها استبح وعطفك الفعل على الفعل يصح

وقرأ هذا الحرف قالون وابن عامر أو آباؤنا بسكون الواو، والذي يظهر لي على قراءتهما أو بمعنى الواو العاطفة، وأن قوله: { ءَابَاؤُنَا }، معطوف على محل المنصوب الذي هو اسم إن، لأن عطف المرفوع على منصوب إن بعد ذكر خبرها جائز بلا نزاع، لأن اسمها وإن كان منصوباً فأصله الرفع لأنه مبتدأ في الأصل، كما

قال ابن مالك في الخلاصة: وجائز رفعك معطوفاً على منصوب إن بعد أن تستكملاً

وإنما قلنا إن أو بمعنى الواو، لأن إتيانها بمعنى الواو معروف في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن: {وَلَمُلْقِيَتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} لأن الذكر الملقى للعدو، والنذر معاً لا لأحدهما، لأن المعنى أنها أتت الذكر إعداراً وإنذاراً، وقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ بَعْثًا أَوْ كُفُورًا} أي ولا كفوراً، وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب: قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم ما بين ملجم مهرة أو سافع

فالمعنى ما بين الملجم مهرة وسافع: أي أخذ بناصيته ليلجمه، وقول نابغة ذبيان: قالت ألا ليت ما هذا الحمام لنا لي حمامتنا أو نصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما زعمت ستا وستين لم تنقص ولم تزد

فقوله: أو نصفه بمعنى ونصفه كما هو ظاهر من معنى البيتين المذكورين، لأن مرادها أنها تمننت أن يكون الحمام المار بها هو ونصفه معه لها مع حمامتها التي معها، ليكون الجميع مائة حمامة، فوجدوه ستاً وستين ونصفها ثلاث وثلاثون، فيكون المجموع تسعاً وتسعين، والمروي في ذلك عنها أنها قالت: ليت الحمام لي إلى حمامتيه ونصفه قديه تم الحمام مايه

وقول توبة بن الحمير:

قد زعمت ليلي بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقوله تعالى: {أَءِدَا مِئْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَدَا لَمَبْعُوثُونَ} جمع عامة القراء على ثبات همزة الاستفهام في قوله: {أَءِدَا مِئْنَا} وأثبتها أيضاً عامة السبعة غير نافع والكسائي في قوله: {أَدَا} وقرأه نافع والكسائي {أَدَا لَمَبْعُوثُونَ}، بهمزة واحدة مكسورة على الخبر، كما عقده صاحب الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع بقوله: فصل واستفهام إن تكرراً فصير الثاني منه خبراً

واعكسه في النمل وفوق الروم إلخ

والقراءات في الهمزتين في {أَدَا} و {أَدَّأ} معروفة، فنافع يسهل الهمزة الثانية بين بين. ورواية قالون عنه هي إدخال ألف بين الهمزتين الأولى المحققة والثانية المسهلة. ورواية قالون هذه عن نافع بالتسهيل والإدخال مطابقة لقراءة أبي عمرو، فأبو عمرو وقالون عن نافع يسهلان ويدخلان، ورواية ورش عن نافع هي تسهيل الأخيرة منهما بين بين من غير إدخال ألف. وهذه هي قراءة ابن كثير وورش فابن كثير وورش يسهلان ولا يدخلان.

وقرأ هشام عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين، وبينهما ألف الإدخال. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين من غير ألف الإدخال، هذه هي القراءات الصحيحة، في مثل {أَدَا} و {أَدَّأ} ونحو ذلك في القرآن.

تنبيه

اعلم وفقني الله وإياك أن ما جرى في الأقطار الإفريقية من إبدال الأخيرة من هذه الهمزة المذكورة وأمثالها في القرآن هاء خالصة من أشنع المنكر وأعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمة القرآن العظيم، وتعد لحدود الله، ولا يعذر فيه إلا الجاهل الذي لا يدري، الذي يظن أن القراءة بالهاء الخالصة صحيحة، وإنما قلنا هذا لأن إبدال الهمزة فيما ذكر هاء خالصة لم يروه أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينزل عليه به جبريل ألبتة، ولم يرو عن صحابي ولم يقرأ به أحد من القراء، ولا يجوز بحال من الأحوال، فالتجرؤ على الله بزيادة حرف في كتابه، وهو هذه الهاء التي لم ينزل بها الملك من السماء ألبتة، هو كما ترى، وكون اللغة العربية قد سمع فيها إبدال الهمزة هاء لا يسوغ التجرؤ على الله بإدخال حرف في كتابه. لم يذن بإدخاله الله ولا رسوله.

ودعوى أن العمل جرى بالقراءة بالهاء لا يعول عليها، لأن جريان العمل بالباطل باطل، ولا أسوة في الباطل بإجماع المسلمين، وإنما الأسوة في الحق، والقراءة سنة متبعة مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا لا خلاف فيه.

وقوله تعالى: {مِثْنَا}، وقرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم متنا بضم الميم وقرأه نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم {مِثْنَا} بكسر الميم، وقد قدمنا مسوغ كسر الميم لغة في سورة مريم في الكلام علي قوله تعالى: {يَلِيَّتِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا}. قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}. لما أنكر الكفار بعثهم وأبأهم الأولين في الآية المتقدمة، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم خبراً

مؤكداً بأن الأولين والآخرين كلهم مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء بعد بعثهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمٍ لِّجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمِ التَّعَابُنِ}، وقوله تعالى: {إِلَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} وقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}، وقوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمُ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ} وقوله تعالى: {هَذَا يَوْمُ لَفْصِلَ جَمَعْتَكُمْ وَالْأُولِينَ}، وقوله تعالى: {وَحَسْرَتُهُمْ فَلَمْ تَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}.

وقد قدمنا هذا موضحاً في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}.

{ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ * لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ * فَمَا لَأَوْنَ مِنْهَا لِبُطُونٍ * فَشَرِبُونَ مِنْ لَحْمِيمٍ * فَشَرِبُوا شُرْبَ لَهِيمٍ * هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * تَحْنُ خَلَقْتُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ لَمُوتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّبِيَّةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُعْرِمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ فَمَا لَأَوْنَ مِنْهَا لِبُطُونٍ فَشَرِبُوا شُرْبَ لَهِيمٍ} قد قدمنا إيضاح هذا وتفسير في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ لَّهُمْ عَلَيْهَا لَشُوبًا مِّن حَمِيمٍ}، قوله تعالى: {هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ}، النزل بضمين: هو رزق الضيف الذي يقدم له عند نزوله إكراماً له، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتٌ لِّفِرْدَوْسٍ نُزُلًا}، وربما استعملت العرب النزول في ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا: في عذابهم المذكور في قولهم: {لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ} - إلى قوله - {شُرْبَ لَهِيمٍ هَذَا نُزْلُهُمْ} أي هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم ورزقهم المقدم لهم عند نزولهم في دارهم التي هي النار، كقوله تعالى للكافر الحقيير الذليل: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله في آخر هذه السورة الكريمة: {فَنُزِّلُ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٍ جَحِيمٍ}، وقوله تعالى في آخر

الكهف: { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا }، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي السعد الضبي:
وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلاً

وقوله: { يَوْمَ الَّذِينَ } أي يوم الجزاء كما تقدم مراراً. قوله تعالى:
{ تَخُنْ خَلْقَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ }، لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم
الأولين، وأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين
والآخرين، وذكر جزاء منكري البعث بأكل الزقوم وشرب الحميم،
أتبع ذلك بالبراهين القاطعة الدالة على البعث فقال: نحن خلقناكم
هذا الخلق الأول فلولا تصدقون.

أي فهل لا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني، لأن إعادة الخلق
لا يمكن أن تكون أصعب من ابتدائه كما لا يخفى.

وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثاني،
جاء موضحاً في آيات كثيرة جداً كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }، وقوله: { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
تُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ }، وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن
كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّبَعْثِ قَوْمٍ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ } وقوله تعالى:
{ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ }، وقوله تعالى: { فَسَيَقُولُونَ
مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ }، والآيات بمثل هذا كثيرة
معلومة، وقد ذكرناها بإيضاح وكثرة في مواضع كثيرة من هذا
الكتاب المبارك في سورة البقرة والنحل والحج والجمعة، وغير
ذلك من المواضع وأحلنا عليها كثيراً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ }، لولا حرف
تحضيض، ومعناه الطلب بحث وشدة، فالآية تدل على شدة حث
الله للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث لظهور برهانه القاطع
الذي هو خلقه لهم أولاً. قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ }، قد قدمنا قريباً كلام أهل العلم في
همزة الاستفهام المتبوعة بأداة عطف، وذكرنا قبل هذا مراراً،
وقوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ } يعني أفرأيتم ما تصبونه من
المني في أرحام النساء، فلفظة ما موصولة، والجملة الفعلية صلة
الموصول، والعائد إلى الصفة محذوف، لأنه منصوب بفعل،
والتقدير: أفرأيتم ما تمنونه، والعرب تقول: أمني النطفة بصيغة
الرباعي، يمنيها بضم حرف المضارعة، إذا أراقها في رحم المرأة،
ومنه قوله تعالى: { مِن نُّطْقَةٍ إِذَا تُمْنَى } ومنى يمنى بصيغة الثلاثي
لغة صحيحة. إلا أن القراءة بها شاذة.

وممن قرأ تمنون بفتح التاء مضارع في الثلاثي المجرد، أبو السمال
وابن السميعة، وقوله تعالى: { أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ }،

استفهام تقرير، فإنهم لا بد أن يقولوا: أنتم الخالقون، فيقال لهم: إذا كنا خلقنا هذا الإنسان الخصيم المبين من تلك النطفة التي تمنى في الرحم، فكيف تكذبون بقدرتنا على خلقه مرة أخرى، وأنتم تعلمون أن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من الابتداء، والضمير المنصوب في تخلقونه عائد إلى الموصول أي تخلقون ما تمنونه من النطف علقاً، ثم مضغاً إلى آخر أطواره.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية من البراهين القاطعة على كمال قدرة الله على البعث وغيره، وعلى أنه المعبود وحده، ببيان أطوار خلق الإنسان، جاء موضحاً في آيات أخر، وقد قدمنا الكلام على ذلك مستوفياً بالآيات القرآنية، وبيننا ما يتعلق بكل طور من أطواره من الأحكام الشرعية في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لَّبِغِثِ قَائِنًا خَلَقْتُمْ مِّن تَرَابٍ}.

وذكرنا أطوار خلق الإنسان في سورة الرحمن أيضاً في الكلام على قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} وفي غير ذلك من المواضع.

وبينا الآيات الدالة على أطوار خلقه جملة وتفصيلاً في الحج. تنبيه

هذا البرهان الدال على البعث الذي هو خلق الإنسان من نطفة مني تمنى، يجب على كل إنسان النظر فيه، لأن الله جل وعلا وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى مني الإنسان، والأصل في صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا لدليل صارف عنه، وذلك في قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ}، وقد قدمنا شرحها في أول سورة النحل، وقرأ هذا الحرف نافع، {أَفَرَأَيْتُمْ} بتسهيل الهمزة بعد الراء بين بين.

والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عنه إبدال الهمزة ألفاً وإشباعها لسكون الياء بعدها.

وقرأ الكسائي: {أَفَرَأَيْتُمْ} بحذف الهمزة، وقرأه باقي السبعة بتحقيق الهمزة.

وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ} قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر في إحدى الروايتين بتسهيل الهمزة الثانية، والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عن نافع إبدال الثانية ألفاً مشبعا مدها لسكون النون بعدها، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وهشام عن ابن عامر في الرواية الأخرى بتحقيق الهمزتين، وقالون، وأبو عمرو وهشام بالف الإدخال بين الهمزتين والباقون بدونها. قوله تعالى: {تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ لَمَوْتٍ وَمَا تَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}

عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن كثير {قَدَّرْنَا} بتشديد الدال، وقرأه ابن كثير بتخفيفها، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها وجهان أو أكثر من التفسير، ويكون كل ذلك صحيحاً، وكله يشهد له قرآن، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن، ومن ذلك هذه الآية الكريمة. وإيضاح ذلك أن قوله {قَدَّرْنَا} وجهين من التفسير وفيما تتعلق به {عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ} وجهان أيضاً، فقال بعض العلماء: وهو اختيار ابن جرير أن قوله {قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ لِمَوْتٍ} أي قدرنا لموتكم أجلاً مختلفة وأعماراً متفاوتة فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت شيخاً.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ} وقوله تعالى {ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} وقوله تعالى {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} وقوله تعالى {وَلَنْ يُؤَخَّرَ أَلَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} وقوله {وَمَا تَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أي ما نحن بمغلوبين، والعرب تقول: سبقه على كذا أي غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه أي وما نحن بمغلوبين على ما قدرنا من أجالكم وحددناه من أعماركم فلا يقدر أحد أن يقدم أجلاً أخرناه ولا يؤخر أجلاً قدمناه.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} وقوله تعالى {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ}، وقوله تعالى {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا} إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فقوله تعالى: {عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ} ليس متعلقاً بمسبوقين بل بقوله تعالى: {تَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ لِمَوْتٍ} والمعنى: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم، أي نبدل من الذين ماتوا أمثالاً لهم نوجدهم.

وعلى هذا، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءآخَرِينَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير، وقراءة قدرنا بالتشديد مناسبة لهذا الوجه، وكذلك لفظة بينكم. الوجه الثاني: أن قدرنا بمعنى قضينا وكتبنا أي كتبنا الموت وقدرناه على جميع الخلق، وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله

تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} وقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ مَوْتٍ}، وقوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ لِحَىٰ لَدَىٰ لَا يُمَوِّتُ}، وعلى هذا القول فقوله: {عَلَىٰ أَنْ تُدَلَّ} متعلق بمسبوقين أي ما نحن مغلوبين والمعنى وما نحن بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناكم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم، ولا يوجد أحد يغلبنا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلاً منكم.

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكٍ قَدِيرًا} وقوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأُ}، وقوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكُ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ}، وقوله تعالى: {لِفُقَرَاءٍ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا}، وقد قدمنا هذا في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ}، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}، فيه للعلماء أقوال متقاربة.

قال بعضهم: ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور والهيئات، كأن ننشئكم قردة وخنزير، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم.

وقال بعضهم: ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات، فنغير صفاتكم ونجمل المؤمنين ببياض الوجوه، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون. إلى غير ذلك من الأقوال. قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَن تَزْرَعُونَهُ أَمْ تَحْنُ الرُّرُوعُونَ تَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا فَظَلَمْتُمْ تَفْكَهُونَ}، تضمنت هذه الآية الكريمة برهاناً قاطعاً ثانياً على البعث وامتناناً عظيماً على الخلق بخلق أرزاقهم لهم، فقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}، يعني أفرأيتم البذر الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها أي تحريكها وتسويتها أنتم تزرعون، أي تجعلونه زرعاً، ثم تنموه إلى أن يصير مدركاً صالحاً للأكل أم نحن الزارعون له، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا هو الزارع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم: كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم، وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث، جاء موضحاً في آيات كقوله: {وَمِنْ آيَاتِنَا أَنَّا نَرَىٰ أَرْضًا خَشِيعَةً فَإِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا لِمَاءً فَهَبَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ لَٰذِئِهَا لَمُحًى لِمَوْتِهَا} وقوله تعالى: {فَأَنْظِرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحًى لِمَوْتِهَا وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا

أَقَلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سُفِنَتْهُ لِيَلِدَ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ لِمَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ لِمَوْتِي لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مستوفاة مع سائر آيات براهين البعث في مواضع كثيرة في سورة البقرة والنحل والجاثية، وغير ذلك من المواضع، وأحلنا عليها مراراً.

تنبيه

اعلم أنه يجب على كل إنسان أن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، لأن الله جل وعلا وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى الإنسان بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان، لأعظم النعم على الخلق، وللدلالة على عظم الله وقدرته على البعث وغيره، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم، وذلك قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} {ثُمَّ يَتَّقِنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَنُنَبِّئُ فِيهَا حَبَّاءٌ وَعَبَّاءٌ وَقَضَبًا وَرَبِيونًا وَتَخْلَاجًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَكِهَةً وَأَبَاةً مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمِكُمْ}. والمعنى:

انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه، من هو الذي خلق الماء الذي صار سبباً لإنباته هل يقدر أحد غير الله على خلق الماء؟ أي إبرازه من أصل العدم إلى الوجود. ثم هب أن الماء خلق، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقى به الأرض من غير هدم ولا غرق؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع؟ ثم هب أن الزرع طلع، فمن هو الذي يقدر على إخراج السنبل منه؟ ثم هب أن السنبل خرج منه، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحاً للأكل؟ {أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، والمعنى: انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفاً لا يصلح للأكل، وانظروا إلى ينعه، أي انظروا إليه بعد أن صار يانعاً مدركاً صالحاً للأكل، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء منعم عليكم عظيم الأنعام، ولذا قال:

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، فاللازم أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى: {ثُمَّ شَقَّقْنَا الْأَرْضَ} أي عن النباتات شقاً إلى آخر ما بيناه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا} يعني لو نشاء تحطيم ذلك الزرع لجعلناه حطاماً، أي فتاتاً وهشيماً، ولكننا لم نفعل ذلك رحمة بكم، ومفعول فعل المشيئة محذوف للاكتفاء عنه بجزاء الشرط، وتقديره كما ذكرنا، وقوله: {فَقَطَّلْتُمْ تَفَكَّهُونَ}.

قال بعض العلماء: المعنى فضلتهم تعجبون من تحطيم زرعكم.

وقال بعض العلماء: تفكّهون بمعنى تندّمون على ما خسرت من الإنفاق عليه كقوله تعالى: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا}.

وقال بعض العلماء: تندّمون على معصية الله التي كانت سبباً لتحطيم زرعكم، والأول من الوجهين في سبب الندم هو الأظهر. {أَفْرَأَيْتُمْ لِمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَعَنْتُمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ لَمْرِنٍ أَمْ تَحْنُ لِمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفْرَأَيْتُمْ أَلْتَارَ لِيْتِي تُوْرُونَ * أَعَنْتُمْ أَنْبِيَاءَكُمْ سَجَرْتَهَا أَمْ تَحْنُ لِمُنشِئُونَ * تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمْتًا لِلْمُفْوِرِينَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} قوله تعالى: {أَفْرَأَيْتُمْ لِمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ لَمْرِنٍ أَمْ تَحْنُ لِمُنزِلُونَ}.

تضمنت هذه الآية الكريمة امتناناً عظيماً على خلقه بالماء الذي يشربونه، وذلك أيضاً آية من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته وشدة حاجة خلقه إليه، والمعنى: أفرايتم الماء الذي تشربون الذي لا غنى لكم عنه لحظة ولو أعدمناه لهلكتم جميعاً في أقرب وقت: {أَعَنْتُمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ لَمْرِنٍ أَمْ تَحْنُ لِمُنزِلُونَ}.

والجواب الذي لا جواب غيره هو أنت يا ربنا هو منزله من المزن، ونحن لا قدرة لنا على ذلك. فيقال لهم: إذا كنتم في هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء وأنهم يلزمهم الإيمان بالله وطاعته شكراً لنعمة هذا الماء، كما أشار له هنا بقوله: {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} جاء في آيات

آخر من كتاب الله كقوله تعالى: {فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقِيْنَا كُمْوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ يُسْقَى فِيهِ الشَّيْطَانُ}، وقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً كَثِيرًا وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا}. وقوله تعالى: {وَأَسْقِيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا} إلى غير ذلك من الآيات. وقوله هنا: {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا} أي لو نشاء جعله أجاجاً لفعلنا، ولكن جعلناه عذياً فراتاً سائغاً شرابه، وقد قدمنا في سورة الفرقان أن الماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديتين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى. لو شاء لجعل الماء غير صالح للشراب، جاء معناه في آيات آخر كقوله تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ} وقوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} لأن الذهاب بالماء وجعله غوراً لم يصل إليه وجعله أجاجاً، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتي شرب الماء،

وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ} يدل على أن جميع الماء الساكن في الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك، أن أصله كله نازل من المزن، وأن الله أسكنه في الأرض وخرنه فيها لخلقها.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً في آياتٍ أخرى كقوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِيهَا الْأَرْضَ} وقوله تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} وقد قدمنا هذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى {فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَزِيرِينَ} وفي سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} فلولا بمعنى هلا، وهي حرف تحضيض، وهو الطلب بحث وحض والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض.

واعلم أن الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده. فشكر العبد لربه، ينحصر معناه في استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا ما يرضي من خلقها، وهكذا في جميع الجوارح، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامر ربه ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان، وشكر العبد لربه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى هنا: {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} وقوله تعالى {وَوَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومنه قوله تعالى {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} وقوله تعالى {إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ} إلى غير ذلك من الآيات. تنبيه لغوي

اعلم أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة، وإلى المنعم أخرى، فإن عديت إلى النعمة تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر كقوله تعالى {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ}، وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذي هو اللام كقولك: نحمد الله ونشكر له، ولم تأت في القرآن معداة إلا باللام، كقوله {وَوَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} وقوله {أَنْ شُكِرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} وقوله {وَوَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} وقوله {وَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه هي اللغة الفصحى، وتعديتها للمفعول بدون اللام لغة لا لحن،
ومن ذلك قول أبي نخيلة:
شكرتك إن الشكر حبل من اتقى وما كل من أوليته نعمة يقضى

وقول جميل بن معمر:

خليلي عوجا اليوم حتى تسلما على عذبة الأنياب طيبة النشر
فإنكما إن عجتما لي ساعة شكرتكما حتى أغيب في قبري

وهذه الآيات من سورة الواقعة قد دلت على أن اقتران جواب لو باللام، وعدم اقترانه بها كلاهما سائغ، لأنه تعالى قال {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطْمًا} باللام ثم قال {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا} بدونها. قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَن تَأْتِي بَشَرًا مِّن شَجَرٍ تَهَاوَمَ عَلَيْهَا وَمَنْعًا لِّلْمُؤْمِنِينَ}. قوله تعالى: {لِئِي تُرُونَ} أي توقدونها من قولهم: أوري النار إذا قدحها وأوقدها، والمعنى: أفرأيتم النار التي توقدونها من الشجر أنتم أنشأتم شجرتها التي توقد منها، أي أوجدتموها من العدم؟ والجواب الذي لا جواب غيره: أنت يا ربنا هو الذي أنشأت شجرتها، ونحن لا قدرة لنا بذلك فيقال: كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة النار وأخرجها منها قادر على كل شيء؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون خلق النار من أدلة البعث، وجاء موضحاً في سورة يس في قوله تعالى {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ} فقوله في آخر سورة يس {تُوقِدُونَ} هو معنى قوله في الواقعة: {تُرُونَ} وقوله في آية يس {الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا} بعد قوله {يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} دليله وأضح على أن خلق النار من أدلة البعث. وقوله هنا {أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا} أي الشجرة التي توقد منها كالمرخ والعفار، ومن أمثال العرب في كل شجر نار، واستنجد المرخ والعفار، لأن المرخ والعفار هما أكثر الشجر نصيباً في استخراج النار منهما، يأخذون قضيباً من المرخ ويحكمون به عوداً من العفار فتخرج من بينهما النار. ويقال كل شجر فيه نار إلا العناب.

وقوله: {تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذِكِرَةً} أي نذكر الناس بها في دار الدنيا إذا أحسوا شدة حرارتها. نار الآخرة التي هي أشد منها حراً لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم: أن حرارة نار الآخرة مضاعفة على حرارة نار الدنيا سبعين مرة. فهي تفوقها بتسع وستين ضعفاً كل واحد منها مثل حرارة نار

الدنيا سبعين مرة. فهي تفوقها بتسع وستين ضعفاً كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا. وقوله تعالى {وَمَتَّعًا لِلْمُؤْمِنِينَ} أي منفعة للنازلين بالقواء من الأرض، وهو الخلاء والفلاة التي ليس بها أحد، وهم المسافرون، لأنهم ينتفعون بالنار انتفاعاً عظيماً في الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد.

وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ وارداً للامتنان. وبه تعلم أنه لا يعتبر مفهوماً للمقوين، لأنه جيء به للامتنان أي وهي متاع أيضاً لغير المقوين من الحاضرين بالعمران، وكل شيء خلا من الناس يقال له أقوى، فالرجال إذا كان في الخلا قيل له: أقوى. والدار إذا خلت من أهلها قيل لها أقوت.

ومنه قول نابغة ذبيان:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقول عنتره:

حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وقيل للمقوين: أي للجائعين، وقيل غير ذلك، والذي عليه الجمهور هو ما ذكرنا.

{قَلَّا أَفْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسِيمٌ لِّوَيْتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَفَرَزٌ مِنْ رَبِّهِمْ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ * فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ بِعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ يَمِينٍ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ يَمِينٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ يَمِينٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}

قوله تعالى: {قَلَّا أَفْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسِيمٌ لِّوَيْتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}. قد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم. قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}. أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، وأكد إخباره بأن هذا القرآن العظيم هو حق اليقين، وأمر نبيه بعد ذلك بأن يسبح باسم ربه العظيم. وهذا الذي تضمنته هذه الآية ذكره الله جل وعلا في آخر سورة الحاقة في قوله في وصفه للقرآن {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَيَّ

لُكْفِرِيَتَوَاتَهُ لَحَقُّ لَيَقِينِ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}، والحق هو اليقين.

وقد قدمنا أن إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين أسلوب عربي، وذكرنا كثرة وروده في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في القرآن قوله تعالى {وَلَدَارُ الْآخِرَةِ} ولدار هي الآخرة وقوله {وَمَكْرُ السَّيِّئِ}، والمكر هو السيء بدليل قوله بعده: {وَلَا يَحِيقُ لِمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ}.

وقوله: {مِنْ حَبْلِ لُورِيدٍ} والحبل هو الوريد، وقوله: {شَهْرٌ رَمَضَانَ} والشهر هو رمضان.

ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس.
كبكر المقانات البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المخلل
والبكر هي المقانات.

وقول عنتره:

ومشك سابعة هتكت فروجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك هنا الدرع نفسها بدليل قوله: هتكت فروجها، يعني الدرع، وإن كان أصل المشك لغة السير الذي تشد به الدرع، لأن السير لا تمكن إرادته في بيت عنتره هذا خلافاً لما ظنه صاحب تاج العروس، بل مراد عنتره بالمشك الدرع، وأضافه إلى السابعة التي هي الدرع كما ذكرنا، وإلى هذا يشير ما ذكره في باب العلم: وعقده في الخلاصة بقوله: وإن يكونا مفردين فأضف حتماً وإلا أتبع الذي ردف

لأن الإضافة المذكورة من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين، وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب أن قوله في الخلاصة: ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهما إذا ورد

أن الذي يظهر لنا من استقراء القرآن والعربية أن ذلك أسلوب عربي، وأن الاختلاف بين اللفظين كاف في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه، وأنه لا حاجة إلى التأويل مع كثرة ورود ذلك في القرآن والعربية.

ويدل له تصريحهم بلزوم إضافة الاسم إلى اللقب إن كانا مفردين نحو سعيد كرز، لأن ما لا بد له من تأويل لا يمكن أن يكون هو اللازم كما ترى، فكونه أسلوباً أظهر.

وقوله {فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} التسبيح: أصله الإبعاد عن السوء، وتسبيح الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله،

وذلك التنزيه واجب له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، والظاهر أن الباء في قوله { بِسْمِ رَبِّكَ } داخلة على المفعول، وقد قدمنا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى { وَهُرُّ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ } أدلة كثيرة من القرآن وغيره على دخول الباء على المفعول الذي يتعدى إليه الفعل بنفسه، كقوله { وَهُرُّ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ } والمعنى: وهزي جذع النخلة. وقوله: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ } أي إلحاداً إلى آخر ما قدمنا من الأدلة الكثيرة، وعليه، فالمعنى: سبح اسم ربك العظيم كما يوضحه قوله في الأعلى { سَبَّحَ سَمَّ رَبِّكَ الْأَعْلَى }. وقال القرطبي: الاسم هنا بمعنى المسمى، أي سبح ربك، وإطلاق الاسم بمعنى المسمى معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد: إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر

ولا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم، لأن أسماء الله الأحد فيها قوم ونزهها آخرون عن كل ما لا يليق، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن، وفي ذلك أكمل تنزيه لها لأنها مشتملة على صفاته الكريمة، وذلك في قوله { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَذُكُّهُ بِهَا } وقوله تعالى: { أَيُّهَا مَا تَدْعُوا قَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ }. ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى، هل الاسم هو المسمى أو لا؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية، والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة الواقعة

تفسير سورة الحديد

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلِيٌّ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْاَوَّلُ وَالْاٰخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ سَبَّوْا عَلٰى عَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْاَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰوٰتِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ اَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ وَلَذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ

وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ
لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُتْرَلُّ
عَلَى عُنُقِهِ ءَابَتِ بَيْتِ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ
بِكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ
أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مَّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ
اللَّهُ لِحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَن دَا لِيذَى يُقْرِضُ اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُم لِيَوْمَ
جَنَّتِ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ لَقْوَرٌ لَّعَظِيمٌ *
يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن
نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَصُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ
بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُتَدَوَّنَهُمْ أَلَمٌ
تَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكَيْتُمْ فَتَيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَرَبَّتُمْ
وَعَزَّيْتُمْ أَلْمَانِيَّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ لِعَرُورٍ * وَلِيَوْمَ لَا
يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبئسَ لِمَصِيرٍ {

قوله تعالى: { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ }. قد قدمنا مراراً أن التسييح هو تنزيه الله عن كل ما لا
يليق بكماله وجلاله، وأصله في اللغة الإبعاد عن السوء، من قولهم
سبح. إذا صار بعيداً، ومنه قيل للفرس: سابع، لأنه إذا جرى يبعد
بسرعة، ومن ذلك قول عنتره في معلقته:
إذ لا أزال على رحالة سابع نهر تعاوره الكماة مكلم

وقول عباس بن مرداس السلمى:

لا يغرسون فسيل النخل حولهم ولا تخاور في مشتاهم البقر
إلا سوابح كالعقبان مقربة في دارة حولها الأخطار والفكر

وهذا الفعل الذي هو سبح قد يتعدى بنفسه بدون اللام كقوله
تعالى: { وَتَسْبَحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا }، وقوله تعالى { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِدْ
لَهُ وَتَسْبَحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا }، وقد يتعدى باللام كقوله هنا: { سَبَّحَ لِلَّهِ }،
وعلى هذا فسبحه وسبح له لغتان كنصحه ونصح له. وشكره ويشكر
له، وذكر بعضهم في الآية وجهاً آخر، وهو أن المعنى: { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، أي أحدث التسييح لأجل الله أي ابتغاء
وجهه تعالى. ذكره الزمخشري وأبو حيان، وقيل: { سَبَّحَ لِلَّهِ } أي
صلى له.

وقد قدمنا أن التسبيح يطلق على الصلاة، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أهل السماوات والأرض يسبحون لله، أي ينزهونه عما لا يليق، بينه الله جل وعلا في آيات أخر من كتابه كقوله تعالى في سورة الحشر {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وقوله في الصف {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وقوله في الجمعة {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِقُدُّوسٍ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، وقوله في التغابن {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وزاد في سورة بني إسرائيل أن السموات السبع والأرض يسبحن لله مع ما فيهما من الخلق وأن تسبيح السموات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقهه أي لا نفهمه، وذلك في قوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن تسبيح الجمادات المذكور فيها وفي قوله تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ} ونحو ذلك تسبيح حقيقي يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

والآية الكريمة فيها الرد الصريح، على من زعم من أهل العلم، أن تسبيح الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها، لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها، يفهمها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخُلُقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَفِي لُقُوكِ لَتَى تَجْرِي فِي لُبْحَرٍ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} - إلى قوله - {لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن.

وقد قدمنا إيضاح هذا في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ} وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ}، وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} وفي غير ذلك من المواضع.

وقد عبر تعالى هنا في أول الحديد بصيغة الماضي في قوله: {سَبَّحَ لِلَّهِ}، وكذلك هو الحشر، والصف، وعبر في الجمعة والتغابن، وغيرهما بقوله: {يُسَبِّحُ} بصيغة المضارع. قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك التسبيح لله، هو شأن أهل السموات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل ذكر معناه الزمخشري وأبو حيان.

وقوله: { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } قد قدمنا معناه مراراً وذكرنا أن العزيز، هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، وأن العزة هي الغلبة، ومنه قوله: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ } وقوله: وعزني في الخطاب: أي غلبني في الخصام، ومن أمثال العرب من عز بز، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:

كأن لم يكونوا حمى يختشى إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

والحكيم، هو من يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها. وقوله: { مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ } . غلب فيه غير العاقل وقد قدمنا في غير هذا الموضع، أنه تعالى تارة يغلب غير العاقل. في نحو ما في السموات وما في الأرض لكثرتة، وتارة يغلب العاقل لأهميته، وقد جمع الميثال للأميرين قوله تعالى في البقرة: { بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ } . فغلب غير العاقل في قوله: { مَا فِي السَّمٰوٰتِ } ، وغلب العاقل في قوله: { قٰنِیْنٌ } . قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ سَوَّاهُ عَلَى عَرْشٍ } . قوله: { فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ } . قد قدمنا إيضاحه في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: { قُلْ اٰتٰكُمْ لَتَكْفُرُوْنَ بِالَّذِي خَلَقَ الْاَرْضَ فِيْ يَوْمَيْنِ } - إلى قوله تعالى - { فَصَّاھُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ فِيْ يَوْمَيْنِ } وفي سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: { اِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِيْ سِتَّةِ اَيَّامٍ } .

وقوله تعالى: { ثُمَّ سَوَّاهُ عَلَى عَرْشٍ } قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى { ثُمَّ سَوَّاهُ عَلَى عَرْشٍ يُعْشَى لَيْلَ النَّهَارِ } . وذكرنا طرفاً صالحاً من ذلك في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: { اَفَلَا يَتَذَكَّرُوْنَ اَلْقُرْاٰنَ اَمْ عَلٰی قُلُوْبٍ اَقْفَالِهَآ } . قوله تعالى: { يَعْۡلَمُ مَا يَلۡجُ فِي الْاَرْضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنۡزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا } . قد قدمنا إيضاحه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: { يَعْۡلَمُ مَا يَلۡجُ فِي الْاَرْضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنۡزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيْمُ لَعَفُوْرٌ } . قوله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ اَبْنٌ مَّا كُنْتُمْ } . قد قدمنا إيضاحه وبيننا الآيات القرآنية الدالة على المعية العامة. والمعية الخاصة، مع بيان معني المعية في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { اِنَّ اللّٰهَ مَعَ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا وَ الَّذِيْنَ هُم مَّحْسِنُوْنَ } .

قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلٰی عَبْدِهِ اٰیٰتٍ بَيِّنٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي ينزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم آيات بينات، أي

واضحات، وهي هذا القرآن العظيم، ليخرج الناس بهذا القرآن العظيم المعبر عنه بالآيات البينات من الظلمات، أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والهدى، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في قوله تعالى في الطلاق: {فَوَقِّفُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} وآية الطلاق هذه بينت أن آية الحديد من العام المخصوص، وأنه لا يخرج بهذا القرآن العظيم من الظلمات إلى النور إلا من وفقهم الله للإيمان والعمل الصالح، فقوله في الحديد: {لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ} أي بشرط الإيمان والعمل الصالح بدليل قوله: {لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ}.

فالدعوة إلى الإيمان بالقرآن والخروج بنوره من ظلمات الكفر عامة، ولكن التوفيق إلى الخروج به من الظلمات إلى النور خاص بمن وفقهم الله، كما دلت عليه آيات الطلاق المذكورة والله جل وعلا يقول: {وَاللَّهُ يَدْعُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون القرآن نوراً يخرج الله به المؤمنين من الظلمات إلى النور، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} وقوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وقوله تعالى: {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا} وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} وقوله تعالى: {وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّن عِبَادِنَا}. قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {وَأِنَّا يَخْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَن عَلَيْهَا}. قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ لِيَوْمَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ لِقَاؤُ الْعَظِيمِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين يوم القيامة، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وهو جمع يمين، وأنهم يقال لهم: {بُشْرَاكُمُ لِيَوْمَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ لِقَاؤُ الْعَظِيمِ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا، جاء موضحاً في آيات أخر، أما سعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فقد بينه تعالى في

سورة التحريم، وزاد فيها بيان دعائهم الذين يدعون به في ذلك الوقت وذلك في قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا}.

وأما تبشيرهم بالجنات، فقد جاء موضحاً في مواضع آخر، وبين الله فيها أن الملائكة تبشرهم وأن ربهم أيضاً يبشرهم كقوله تعالى: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} - إلى قوله - {تُزَلَّ مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {يَتَذَوَّبَهُمْ أَلَمْ تَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَرَبَّبْتُمْ وَعَرَّيْتُمْ أَلْمَانِيَّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرٌ بِاللَّهِ وَعَرَّكُم بِاللَّهِ لَعْرُورٌ}. الضمير المرفوع في ينادونهم راجع إلى المنافقين والمنافقات، والضمير المنصوب راجع إلى المؤمنين والمؤمنات، وقد ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن المنافقين والمنافقات إذا رأوا نور المؤمنين يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، قالوا لهم: انظروا نقتبس من نوركم، وقيل لهم جواباً لذلك: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، وضرب بينهم بالسور المذكور أنهم ينادون المؤمنين: ألم نكن معكم، أي في دار الدنيا، كنا نشهد معكم الصلوات ونسير معكم في الغزوات وندين بدينكم؟ قالوا: بلى، أي كنتم معنا في دار الدنيا، ولكنكم فتنتم أنفسكم. وقد قدمنا مراراً معاني الفتنة وإطلاقاتها في القرآن، وبيننا أن من معاني إطلاقاتها في القرآن الضلال كالكفر والمعاصي، وهو المراد هنا أي فتنتم أنفسكم: أي أضللتموها بالنفاق الذي هو كفر باطن، ومن هذا المعنى قوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} أي لا يبقى شرك كما تقدم إيضاحه، وقوله: {وَتَرَبَّصْتُمُ} التريص: الانتظار، والأظهر أن المراد به هنا تريص المنافقين بالمؤمنين الدوائر أي انتظارهم بهم نوائب الدهر أن تهلكهم، كقوله تعالى: في منافقي الأعراب المذكورين في قوله: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مَن أَلْعَابُ مُتَّفِقُونَ}، {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَلْدَوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} وقوله تعالى: {وَرَبَّبْتُمْ} أي شككتهم في دين الإسلام، وشكهم المذكور هنا وكفرهم بسببه بينه الله تعالى في قوله عنهم: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَرَبَّتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَمَهْمُ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}.

وقوله تعالى: { وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ } الأمانى جمع أمنية، وهي ما يمتنون به أنفسهم من الباطل، كزعمهم أنهم مصلحون في نفاقهم، وأن المؤمنين حقاً سفهاء في صدقهم، أي في إيمانهم، كما بين تعالى ذلك في قوله: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ هُمْ لِمُفْسِدُونَ }، وقوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ } { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ هُمْ لَسُّفَهَاءُ }، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الأمانى المذكورة من الغرور الذي اغتروا به جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيٌّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنِ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ - إلى قوله - { وَلَا يُظَلِّمُونَ تَقِيرًا } .

وقوله: { حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ }، الأظهر أنه الموت لأنه ينقطع به العمل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ } هو الشيطان وعبر عنه بصيغة المبالغة، التي هي المفعول لكثرة غروره لبني آدم، كما قال تعالى { وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } .

وما ذكره جل وعلا وفي هذه الآية الكريمة، من أن الشيطان الكثير بالغرور غرهم بالله، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى في آخر لقمان: { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ }، وقوله في أول فاطر { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } وقوله تعالى في آية لقمان واية فاطر المذكورتين { إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } .

وترتيبه على ذلك النهي عن أن يغرهم بالله الغرور، دليل واضح على أن مما يغرهم به الشيطان أن وعد الله بالبعث ليس بحق، وأنه غير واقع، والغرور بالضم الخديعة. قوله تعالى: { فَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: { فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا مِنْ دُونِ اللَّهِ } وفي غير ذلك من المواضع.

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا تَزَلَّ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِيقُونَ * أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَخَيُّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ لِمُصَدِّقِينَ وَ لِمُصَدِّقَاتٍ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُصَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ

كَرِيمٌ * وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ اُولٰٓئِكَ هُمُ الصّٰدِقِيْنَ
 وَ الشّٰهِدَآءَ عِنْدَ رَبّهِمْ لَهُمْ اُجْرُهُمْ وَ ثَوْرُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَبُوا
 بِآيٰتِنَا اُولٰٓئِكَ اَصْحَابُ لَجِيْمٍ * اَعْلَمُوْا اِنَّمَا لِحَيٰوةِ الدُّنْيَا لَعِبٌ
 وَ لَهُوَ وَزِيْنَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِى الْاَمْوَالِ وَ الْاَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
 اَعْجَبَ لِكْفَارِ تَبٰٓئِهٖ ثُمَّ يَهِيْجُ فَيَنْزِلُ مِنْ سَّمَآءٍ مُّصْفَرًا ثُمَّ يَكُوْنُ خُطٰمًا وَ فِى
 الْاٰخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّٰهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا لِحَيٰوةِ الدُّنْيَا اِلَّا
 مَتَاعٌ لِّغُرُوْرٍ * سَبّٰوْا اِلٰى مَغْفِرَةٍ مِّنَ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ
 السَّمَآءِ وَ الْاَرْضِ اَعِدْتْ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ
 يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ * مَا اَصَابَ مِنْ مُّصِيْبَةٍ فِى
 الْاَرْضِ وَ لَا فِى اَنْفُسِكُمْ اِلَّا فِى كِتٰبٍ مِّنْ قَبْلِ اَنْ نَّبْرٰهَا اِنَّ ذٰلِكَ
 عَلٰى اللّٰهِ يَسِيْرٌ * لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلٰى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوْا بِمَا ءَاتَكُمْ
 وَ اللّٰهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ * الَّذِيْنَ يَتَخَلَوْنَ وَيَاْمُرُوْنَ النَّاسَ
 بِالتَّحَلُّ وَ مِمَّنْ يَتَوَلَّوْا فَاِنَّ اللّٰهَ هُوَ لِعٰنِيٍّ لِّحَمِيْدٍ * لَقَدْ اَرْسَلْنَا رُسُلًا
 بِ الْبَيِّنٰتِ وَ اَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتٰبَ وَ الْمِيْزَانَ لِيَقُوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
 وَ اَنْزَلْنَا الْحَدِيْدَ فِىهِ بَآسٌ شَدِيْدٌ وَ مَنَفَعٌ لِّلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَن
 يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ اِنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ عَزِيْزٌ * وَ لَقَدْ اَرْسَلْنَا نُوحًا
 وَ اِبْرٰهِيْمَ وَ جَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ لِكِتٰبٍ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَ كَثِيْرٌ
 مِنْهُمْ فَسِيْقُوْنَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلٰى اٰتٰرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَ قَفَّيْنَا بِعِيْسَى ابْنِ
 مَرْيَمَ وَ ءَاتَيْنَاهُ الْاِنْجِيْلَ وَ جَعَلْنَا فِى قُلُوْبِ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ رَآفَةً وَ رَحْمَةً
 وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوْهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا اِلَّا اِنْبِعَآءَ رِضْوَانِ اللّٰهِ فَمَا رَعَوْهَا
 حَقَّ رِعَآئِهَا فَاَتَيْنَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ اُجْرَهُمْ وَ كَثِيْرٌ مِنْهُمْ فَسِيْقُوْنَ
 * يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا اٰقْبُوا اللّٰهَ وَ ءَامِنُوا بِرِسُوْلِهِ يُوْتِكُمْ كَفٰلِيْنَ مِّن
 رَّبِّكُمْ وَ يَجْعَلْ لِّكُمْ نُورًا تَمْشُوْنَ بِهٖ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ *
 لَيْلًا يَعْلَمُ اَهْلٌ لِّكِتٰبٍ اِلَّا يَقْدِرُوْنَ عَلٰى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللّٰهِ وَ اَنْ
 لِّفَضْلِ بِيَدِ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ {

قوله تعالى: { اَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اَنْ تَخْشَعَ قُلُوْبُهُمْ لِذِكْرِ اللّٰهِ وَ مَا
 تَرَلْ مِنْ لِحَقٍّ وَ لَا يَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ اُوْتُوْا لِكِتٰبٍ مِّنْ قَبْلِ قَطٰلٍ
 عَلَيْهِمْ اِلَّا مَدُّ قَفْسَتٍ قُلُوْبُهُمْ وَ كَثِيْرٌ مِنْهُمْ فَسِيْقُوْنَ } . قد قدمنا
 مرارا أن كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بلم، إذا تقدمتها
 همزة الاستفهام كما هنا فيه وجهان من التفسير معروفان،
 الأول منهما: هو أن تقلب مضارعتة ماضوية، ونفيه إثباتا، فيكون
 بمعنى الماضي المثبت، لأن لم حرف تقلب المضارع من معنى
 الاستقبال إلى معنى المضي، وهمزة الاستفهام إنكارية فيها معنى
 النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في لم
 فينفيه. ونفي النفي إثبات، فيرجع المعنى إلى الماضي المثبت.
 وعليه فالمعنى، { اَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِيْنَ } : أي آن للذين آمنوا.

والوجه الثاني: أن الاستفهام في جميع ذلك للتقرير، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى. وقوله: يأن: هو مضارع أنى يأنى إذا جاء إناه أي وقته، ومنه قول كعب بن مالك رضي الله عنه: ولقد أنى لك أن تناهي طائعا أو تستفيق إذا نهاك المرشد

فقوله: أنى لك أن تناهي طائعا، أي جاء الإناء الذي هو الوقت الذي تناهى فيه طائعا، أي حضر وقت تناهيك، ويقال في العربية: أن يئين كباع يبيع، وأنى يأنى كرمى يرمى، وقد جمع اللغتين قول الشاعر:

ألمأ يئن لي أن تجلى عمايتي وأقصر عن ليلي بلى قد أنى ليا

والمعنى على كلا القولين أنه حان للمؤمنين، وأنى لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي جاء الحين والأوان لذلك، لكثرة ما تردد عليهم من زواجر القرآن ومواعظه. وقوله تعالى: {أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ} المصدر المنسبك من أن وصلتها من أن وصلتها في محل رفع فاعل بأن، والخشوع أصله في اللغة السكون والطمأنينة والانخفاض، ومنه قول نابغة ذبيان: رماد ككحل العين لاياً أبيضه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

فقوله: خاشع أي منخفض مطمئن، والخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون، كما هو شأن الخائف.

وقوله: {لِيَذْكُرَ اللَّهُ}، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: {إِنَّمَا لِمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} أي خافت عند ذكر الله، فالوجل المذكور في آية الأنفال هذه، والخشية المذكورة هنا معناهما واحد. وقال بعض العلماء: المراد بذكر الله القرآن، وعليه فقوله: {وَمَا تَزَلْ مِنْ لِحَقٍّ} من عطف الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظين، كقوله تعالى: {سَبِّحْ سُبْحَانَ رَبِّكَ أَلْعَلَّ لِيذِي خَلْقٍ فَسَوَّوْا لِيذِي قَدَرٍ فَهَدَى}، كما أوضحناه مراراً.

وعلى هذا القول، فالآية كقوله تعالى: {اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثِ كِتَابٍ مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، فالاقشعرار المذكور، ولين الجلود والقلوب عند سماع هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث، يفسر معنى الخشوع لذكر الله، وما نزل من الحق هنا كما ذكر، وقوله تعالى: {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} قد قدمنا في سورة البقرة

في الكلام على قوله: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ} بعض أسباب قسوة قلوبهم، فذكرنا منها طول الأمد المذكور هنا في آية الحديد هذه، وغير ذلك في بعض الآيات الأخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كثرة الفاسقين، من أهل الكتاب جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ لِكْتَابٍ لَّكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِّنْهُمْ لَمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ لَفَاسِقُونَ} وقوله تعالى: {فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {كَمَثَلِ عَيْثٍ ءَعْجَبَ لِكُفَّارِ تَبَائِهِ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا}، وبيننا هناك الآية الدالة على سبب إصفراره. قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن كل ما أصاب من المصائب في الأرض كالحط والجذب والجوائح في الزراعة والثمار وفي الأنفس، من الأمراض والموت كله مكتوب في كتاب قبل خلق الناس، وقبل وجود المصائب، فقوله: {مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا}، الضمير فيه عائد على الخليفة المفهومة في ضمن قوله: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ} أو إلى المصيبة، واختار بعضهم رجوعه لذلك كله. وقوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي سهل هين لإحاطة علمه وكمال قدرته.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لا يصيب الناس شيء من المصائب إلا وهو مكتوب عند الله قبل ذلك، أوضحه الله تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ قَلْبَتَا كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ} وقوله تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} وقوله تعالى: {وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَبَشِيرٍ لِّلصَّابِرِينَ}، لأن قوله: {وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ} قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له جل وعلا قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم، لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموال والثمرات مما أصاب من مصيبة، ونقص الأنفس في قوله: والأنفس، مما أصاب من مصيبة في الأنفس، وقوله في آية الحديد هذه {لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ} أي بينا لكم أن الأشياء مقدره مكتوبة قبل وجود الخلق، وأن ما كتب واقع لا محالة لأجل ألا تحزنوا على شيء فاتكم، لأن فواته لكم مقدر، وما لا طمع فيه قل الأسى عليه، ولا تفرحوا بما آتاكم، لأنكم إذا

علمتم أن ما كتب لكم من الرزق والخير لا بد أن يأتيكم قل فرحكم به، وقوله: تأسوا، مضارع أسى بكسر السين يأسى بفتحها أسى بفتحتين على القياس، بمعنى حزن ومنه قوله تعالى: {فَلَا تَأْسَ عَلَى لِقَوْمٍ كَافِرِينَ} وقوله: من مصيبة مجرور في محل رفع لأنه فاعل أصاب جر بمن المزيدة لتوكيد النفي، وما نافية. قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} قد قدمنا الكلام عليه في سورة شوری هذا الكلام على قوله: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ}، وقد منا هناك كلام أهل العلم في معناه. قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}. بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة والتي قبلها، أن إقامة دين الإسلام تنبني على أمرين: أحدهما هو ما ذكره بقوله {وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ} لأن في ذلك إقامة البراهين على الحق وبين الحجة وإيضاح الأمر والنهي والثواب والعقاب، فإذا أصر الكفار على الكفر وتكذيب الرسل مع ذلك البيان والإيضاح، فإن الله تبارك وتعالى أنزل الحديد أي خلقه لئلا يردع به المؤمنون الكافرين المعاندين، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام، وعلى هذا فقوله هنا: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} توضحه آيات كثيرة، كقوله تعالى: {فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزُّهُمْ وَيَتَّصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ}، وقوله تعالى {وَ طَرَبُوا قَوْقَ الْأَعْتَقِ وَ طَرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}، والآيات في مثل ذلك كثيرة معلومة، وقوله: {وَمَنْفَعُ النَّاسِ}، لا يخفى ما في الحديد من المنافع للناس، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ} لأن مما يوقد عليه في النار ابتغاء المتاع الحديد. قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِيقُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّبَعْتَهُمْ هَؤُلَاءِ}. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. قد قدمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد في المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح في ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم: {لِذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ لِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ إِذَا بُدئَ بِهِ كِتَابًا مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ}.

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم أن إيتاء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله:

{يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}، وزادهم بقوله: {وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ}. قوله تعالى: {وَأَنَّ لِفَضْلِ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى {وَإِنْ يُرِيدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}.

تم بحمد الله تفسير سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ لَتِي تُجَادِلِكِ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ بِصِيرٍ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنِ سَاءَتْهُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكُمْ ثَوَعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنْ لِّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ كُتُبًا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * يَوْمَ يُبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَوْنَ لِمَصِيرٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَنَجَّوْا بِالْبُرِّ وَالنَّفْوَى وَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ
تَسَخَّرُوا فِي لَمَجَلِسٍ وَ قَسَخُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا
فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ
وَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ
فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا
فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ * أءَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوِكُمْ
صَدَقْتِ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ ءَاتُوا
الزَّكَاةَ وَ اطَّيِّعُوا اللَّهَ وَ رِسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ
وَ يَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَوْا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ
اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ {

قوله تعالى: { الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ }
إلى قوله: { فَاطْعَمُوا سَبِيحًا مَسْكِينًا }. قد قدمنا الكلام عليه موضحاً
في سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: { وَمَا جَعَلَ
أَرْوَاجَكُمْ أَلْيَأَى يُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ } وبيننا هناك كلام أهل
العلم، وأدلتهم ومناقشتها في مسائل الظهار، ومسائل أحكام
الكفارة بالعتق، والصيام، والإطعام، وأوجه القراءة في الآية. قوله
تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا
يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايِعُهُمْ } إلى قوله { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ }. قد قدمنا الكلام عليه في آخر سورة النحل في الكلام على
قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }،
وذكرنا هناك معنى المعية الخاصة، والمعية العامة، والآيات
القرآنية الدالة على كل واحدة منهما. قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ
وَ الْعُدْوَانِ }. قد قدمنا الكلام عليه مع بيان الفرق بين النجوى
بالخير، والنجوى بالإثم والعدوان في سورة النساء في الكلام على
قوله تعالى { لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ
مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ }. قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ }. قال بعض
أهل العلم: معنى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا } : ألم ينته علمك إلى
الذين تولوا.

وقد قدمنا الرد على من قال: إن لفظة { أَلَمْ تَرَ } لا تعدى إلا
بحرف الجر الذي هو إلى، ولا تتعدى بنفسها إلى المفعول، وبيننا أن
ذلك وإن كان هو الذي في القرآن في جميع المواضع فإن تعديتها
إلى المفعول بنفسها صحيحة.
ومن شواهد ذلك قول امرئ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم، وهم اليهود والكفار. وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولي، وقد صرح الله بالنهي عن ذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون المنافقين ليسوا من المؤمنين، ولا من القوم الذين تولوهم وهم الذين غضب الله عليهم من اليهود، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى {إِنَّ الْمُتَفَقِينَ يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} - إلى قوله - مُدَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَهَ هُوَ إِلَّا هُوَ لَا إِلَهَ هُوَ إِلَّا هُوَ { . قوله تعالى: { . قوله تعالى: { أَتَّخَوْا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنة والأيمان جمع يمين، وهي الحلف، والجنة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح،

والمعنى أنهم جعلوا الإيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين أنهم معهم وأنهم مخلصون في باطن الأمر، ترساً لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم، وقوله تعالى { فَصَدَّوْا عَن سَبِيلِ اللَّهِ } الظاهر أنه من صد المتعدية، وأن المفعول محذوف أي فصدوا غيرهم ممن أطاعهم لأن صدودهم في أنفسهم دل عليه قوله { أَتَّخَوْا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً } والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد، كما أوضحناه مراراً.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة وهما كون المنافقين يحلفون الإيمان الكاذبة لتكون لهم جنة، وأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله جاء موضحين في آيات أخر من كتاب الله، أما أيمانهم الكاذبة فقد بينها الله جل وعلا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هذه السورة { وَبَخِلْفُونَ عَلَىٰ لُكْذِبٍ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }، وقوله تعالى { يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ }، وقوله تعالى: { سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا نُقِلْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغْرَضُوا عَنْهُمْ فَاغْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَاهُمْ جَهَنَّمَ } . وقوله تعالى { وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ سَلَّطْنَا لِحَرَجَاتٍ مَّعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } وقوله تعالى { أَتَّخَوْا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

وأما صددهم من أطاعهم عن سبيل الله فقد بينه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا }، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا صَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى

لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا}، وقوله تعالى: {لَّذِينَ قَالُوا
لَاخُونَهُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}، وقوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْكُمْ
لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}، أي لأجل
نفاقهم، كما قال تعالى {إِنَّ لِمُتَفَقِّينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ
النَّارِ}.

{لَنْ نُعْزِيَهُمْ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ سَيِّئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا
يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ سَيِّئٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمْ لَكَذِبُونَ *
سَلْتَحَوِّدَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ
إِلَّا إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَدْلِينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ
قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ}

قوله تعالى: {لَنْ نُعْزِيَهُمْ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ سَيِّئًا}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على
قوله تعالى: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} - إلى قوله - {خَيْرًا
مِّنْهَا مُقَلَّبًا}. قوله تعالى: {سَلْتَحَوِّدَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاَنْسَهُمْ
ذَكَرَ اللَّهُ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إسناد إنساء ذكر الله

إلى الشيطان، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى:

{وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ لِقَوْمِ

الظَّالِمِينَ}، وقوله تعالى {فَأَنْبِئَاهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ}، وفي

معناه قول فتى موسى: {وَمَا أُنْسِيَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أذْكُرَهُ}.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَدْلِينَ}.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الذين يحادون الله ورسوله

داخِلون في جملة الأدلين، لا يوجد أحد أذل منهم وقوله: {يُحَادِّثُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي يعادون ويحالفون ويشاقون، وأصله مخالفة

حدود الله التي جدها.

وقوله: {فِي الْأَدْلِينَ} أي الذين هم أعظم الناس ذلاً. والذل:

الصغار والهوان والحقارة. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون

الذين يحادون الله ورسوله هم أذل خلق الله، بينه جل وعلا في

غير هذا الموضع، وذلك بذكره أنواع عقوبتهم المفضية إلى الذل

والخزي والهوان، كقوله تعالى: {الْمُ يَغْلُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ

وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ لُخْرِيٌّ لِعَظِيمِهِ { وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُخَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنْتُمْ كَمَا كُنْتُمْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، وقوله تعالى { وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لُجْلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ } التَّارِذِيَّ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ { وقوله تعالى { وَصَرَبُوا قَوْقَ الْأَعْتَقِ وَصَرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكَ كَمَا قَدْ وَفَّوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلْنَا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }. قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رسل الله غالبون لكل من غالبهم، والغلبة نوعان: غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميع الرسل، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لمن أمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به.

وقد دلت هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآية كقوله تعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا لِمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمْ لَمَنْصُورُونَ وَإِنْ جُنَدًا لَهُمْ لَأَعْلَبُونَ } أنه لن يقتل نبي في جهاد قط، لأن المقتول ليس بغالب، لأن القتل قسم مقابل للغلبة، كما بينه تعالى في قوله: { وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ }. وقال تعالى: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا }. وقد نفى عن المنصور كونه مغلوباً نفيًا باتاً في قوله تعالى: { إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ }.

وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى: { أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ سَتُكَبِّرْتُمْ قَرِيبًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيبًا تَقْتُلُونَ } وقوله تعالى: { قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ لِيَذِي قُلُوبٍ قَلِيلٌ قَاتَلْتُمُوهُمْ } ليسوا مقتولين في جهاد، وأن نائب الفاعل في قوله تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيبِيونَ }، على قراءة قتل بالبناء للمفعول، هو ريبون لا ضمير النبي. وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيبِيونَ } وكثيراً { وذكرنا بعضه في الصافات في الكلام على قوله تعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا لِمُرْسَلِينَ }. قوله تعالى: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ الْآخِرَةِ يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ }. وردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي البليد، والزجر العظيم عن موالاته أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد، من إيراد الإنشاء، كما هو معلوم في محله، ومعنى قوله: { يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ }: أي يحبون ويوالون أعداء الله ورسوله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن موالة أعداء الله جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ لِيُزَيِّنَ مَعَهُ إِذْ قَالَوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُاُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرًا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ} . وقوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَ لِيُذِيقَهُ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُمْ} ، وقوله تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} .

وقوله تعالى: {وَلِيَجْزُوا فِيكُمْ غُلظةً} . وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَ الْمُتَفِيقِينَ وَ غُلظَةً عَلَيْهِمْ} إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَوْ كَرِهُوا آباءَهُمْ} زعم بعضهم أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قاتلاً: إنه قتل أباه كافراً يوم بدر أو يوم أحد، وقيل: نزلت في ابن عبد الله بن عبد الله بن أبي المنافق المشهور، وزعم من قال: إن عبد الله استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه عبد الله بن أبي فنهاه، وقيل: نزلت في أبي بكر، وزعم من قال إن أباه أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه فضربه ابنه أبو بكر حتى سقط.

وقوله: {أَوْ أَبْنَاءَهُمْ} ، زعم بعضهم أنها نزلت في أبي بكر حين طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن يوم بدر. وقوله: {أَوْ إِخْوَانَهُمْ} زعم بعضهم أنها نزلت في مصعب بن عمير قالوا: قتل أخاه عبيد بن عمير. وقال بعضهم: مر بأخيه يوم بدر يأسره رجل من المسلمين، فقال: شدد عليه الأسر، علم أن أمه ملية وستفديه.

وقوله: {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} قال بعضهم: نزلت في عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، لما قتلوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، في المبارزة يوم بدر، وهم بنو عمهم، لأنهم أولاد ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. وعبد شمس أخو هاشم كما لا يخفى، وقوله تعالى: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} أي ثبته في قلوبهم بتوفيقه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تثبيت الإيمان في قلوبهم جاء موضحاً في قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَبَّاهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَهُ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ لِفُسُوقٍ وَ لِعِصْيَانٍ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً} .

تم بحمد الله تفسير سورة المجادلة وهي آخر سورة فسرهما
الشيخ رحمه الله تعالى

وغفرله واسكنه فسيح جناته

لاتنسوا الناسخ من دعوه بظهر الغيب ولاتنسوه من خالص
الدعاء
وارجوا ان ينفع الله بهذا العمل وان يكون خالصا لوجه
الكريم